الطبعة الثالثة

مما جرى في بر مصر

يوسف الشريف

دار الشروق



مما جـــرى فى بر مــصـــر

الطبعة الأولى ٢٠٠٦
الطبعة الثانية ٢٠٠٧
الطبعة الثالثة ٢٠٠٨

© دار الشروق
٨ شارع سيبويه المصرى
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون : ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٢٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
email: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

يوسف الشريف

مما جرى فى بر مصر

دار الشروق

الفهرس

إهداء

إلى صديقة العمر الجميل ورفيقة الدرب القومى الطويل، الباحثة النابهة فى العلوم الاجتماعية والخبيرة الدولية فى الاقتصاد السياسى للتنمية الدكتورة شهيدة الباز، التى لم تنقطع بيننا حبال الود والحوار منذ الخمسينيات.. لها خالص الشكر لسؤالها الملهوف على صحتى ومتابعة علاجى فترة مرضى، وتشجيعها لى على المثابرة حتى أنجزت هذا الكتاب بمشيئة الله!

يوسف الشريف

فاتحة هذا الكتاب

إنعاش الذاكرة المعرفية

غالبًا ما تعنى الصحف والمجلات أو الدوريات ـ خصوصًا نهاية شهر ديسمبر من كل عام ـ برصد الأحداث الداخلية والخارجية المهمة على مدار العام المنصرم، وتسليط الضوء على الشخصيات التى برزت فى مختلف المجالات، وهى نافذة جيدة ومطلوبة لإنعاش الذاكرة المعرفية، فضلاً عن كونها دليل عمل للمؤرخين ومرجعية للدارسين والمهتمين بالشأن العام، لكنها تظل قاصرة عن سبر أغوار الأحداث والغوص فى الأعماق الإنسانية، والإحاطة الدقيقة بما جرى وراء الكواليس.

وذلك على وجه التحديد هو الغرض الذى توخيته فى كتابى «مما جرى فى بر مصر»، عبر المعايشة الشخصية لتلك الفترة الخصبة من تاريخ الوطن والأمة، وخوض غمار العمل الصحفى لما يزيد على أربعين عامًا، كنت قريبًا خلالها من وقائع وتطورات حفلت بالانتصارات والانكسارات وبالإبداعات والمتغيرات المهمة، كما تعرفت بالعديد من الشخصيات التى صنعت الأحداث أو كانت قريبة منها، وبعضهم لم يصادفه الاهتمام بأدوارهم والتنويه بمواقفهم فى حينها.

من هنا ظل يؤرقنى ـ وقد بلغنا من العمر عتيًا ـ أن تظل شهادتى الخاصة عن مصر وتقلباتها وخباياها خلال الفترة التى عشناها من القرن العشرين عرضة للنسيان والتلاشى، خاصة وبعضها لا يزال حبيس الأوراق المبعثرة وغيرها وديعة فى الذاكرة وجل من لا يسهو!

وكنت قد بادرت بعد خمسة عشر عامًا على رحيل الشاعر الكبير كامل الشناوى إلى وضع كتاب عن سيرة حياته بعنوان: «آخر ظرفاء ذلك الزمان» عام ١٩٨٠،

وكان حافزى للقيام بهذه المهمة أن عشرات الكتاب والمثقفين والأدباء ممن قدر لهم أن يتعرفوا عليه قبل أن أتشرف بمعرفته، وعملوا معه أو تحلقوا حوله، ونهلوا من معارفه ورعايته، وقد قنعوا بالحديث أو الكتابة عن ذكرياتهم عنه فى المناسبات فحسب، دون أن يردوا له الجميل عبر العديد من الكتب و الدراسات التى تتناول حياته العريضة. . حين كان نجم مجتمعات القاهرة ومنتدياتها، والصوت المسموع فى الوسط الصحفى، والعاشق للنبوغ . . حيث أخذ بيد العشرات من الموهوبين والفنانين المغمورين إلى قمم الشهرة والانتشار والمجد، ولا عنى أحد بوضع دراسة عن شعره الرومانسى الجميل، ولا جمع شتات المقالات التى كتبها فى أربعة أرجاء الصحف المصرية على مدى خمسة وأربعين عامًا من عمره القصير.

وقد شجعنى النجاح الذى لم أتوقعه لكتابى - وهو الوحيد - عن سيرة حياة الشاعر كامل الشناوى، إلى إعادة طبعه ثلاث مرات، بل وشجعنى أكثر على جمع محصلة زهاء خمسين زيارة للسودان الشقيق وخبراتى الميدانية بسياساته وعلاقتى الحميمة بشعبه العظيم، إلى وضع كتابى «السودان وأهل السودان - أسرار المجتمع وخفايا السياسة» عام ١٩٩٦ وأعيد طبعه للمرة الثانية عام ٢٠٠٣ والثالثة عام ٢٠٠٤م.

كان نصب عينى تجنب ما تواترت عليه الكتابة عن السودان للصفوة، والحديث عن الاستراتيجية والأمن القومى والعلاقات الأزلية فحسب، وإنما شغلنى تقديم بانوراما سياسية وثقافية ووجدانية للخاصة والعامة تسهم بقدر ما فى إزالة الغياب المعرفى بشئون السودان وشجونه!

كذلك كانت الحال فى كتابى «القديس الصعلوك»، الذى أحاط بالجوانب الإبداعية والشخصية للفنان عبد الرحمن الخميسى، وإعادة تجسيده حيًا على حد وصف الصديق الكاتب الساخر محمود السعدنى وتقديمه إلى الجيل الجديد الذى لم يوفه حقه ولا عاش زمانه الجميل، فقد كان إلى كونه شاعراً. . كاتبًا وصحفيًا ومترجمًا ومناضلاً، وكان ممثلاً ومخرجًا إذاعيًا ومسرحيًا وسينمائيًا ومكتشفًا للمواهب، وكان إلى ذلك كله ظريفًا وصعلوكًا بوهيميًا نبيلاً كما لو أنه «زوربا المصرى».

على أننى تشجعت أكثر حين وجدت أن هناك العديد من الصعاليك النبلاء الذين عايشتهم عن قرب، لن تكتمل باقة ورودهم الفواحة بعطر المؤانسة والحبور والإبداع والإحاطة بعصرهم الزاخر بالأدب والفكر والفن، إن لم يلتفت أحد لانتشالهم من الظلال إلى النور، فكان أن جمعت السيرة العطرة لعشرة من ألمعهم وأكثرهم عطاء فى كتاب جديد احتفت «دار الشروق» بنشره مؤخرا تحت عنوان «صعاليك الزمن الجميل»، لكن يظل فى عنقى دين ينتظر الوفاء به لخوض غمار ملحمة الحياة والإبداع والعطاء الإنسانى المتفرد لفنان الشعب العظيم زكريا الحجاوى.

فى هذا الكتاب الذى بين يديك عزيزى القارئ.. حاولت قدر الجهد اختيار مادته لا عبر الكتب وأرشيف الصحف والمكتبات العامة، وإنما عبر الرصد الصحفى أو العفوى لملامح المتغيرات التى طرأت على حياتنا خلال القرن العشرين، وتحديداً منذ منتصفه الأخير الذى شهد اندلاع ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢، وتأثيرها وانعكاساتها المباشرة أو الضمنية على المناشط الاجتماعية والثقافية والوجدانية عبر منهج انتقائى لا يعتمد على تسلسل الوقائع، وإنما أقرب إلى الومضات المعرفية السريعة عملاً بالمثل القائل «ما لا يدرك كله لا يترك جُله»!

سوف تجد عزيزى القارئ أننى أفسحت صفحات خاصة على سبيل المثال لرصد المتغيرات التى طرأت على مقاهى القاهرة بوجه خاص، كونها أشبه بالمنابر الشعبية الديمقراطية، خصوصًا وكانت متعتى ولا تزال المشاركة فى أنشطتها السياسية والثقافية والاجتماعية، كما أسعفتنى صلات القربى بآل «النشار» إلى كشف الستار عن بعض أسرار ثورة يوليو وجوانب خفية فى سيرة حياة الرئيس جمال عبد الناصر، وعرضت فصولاً من تجربتى فى عالم الصحافة وأحوالها فى واحدة من مؤسساتها العريقة، وسلطت الضوء على حياة عدد من الفنانين والأدباء سواء الذين تربعوا على قمة التألق والشهرة، أو غيرهم من المجهولين الذين كان حظهم الانزواء فى الظل ومتاهات النسيان.

حكيت شهادتى عن كثير من الفنانين والأدباء والصعاليك النبلاء، وعن معايشتى لأم كلثوم عن قرب خلال زيارتها المثيرة وغنائها المبهر فى السودان، وعن دمياط وشعبها الذى يعرف جيداً كيف يثرى الحياة ويستمتع بمباهجها، وعن حياة الرهبان

الذين يتعبدون فى البرية وغيرهم ممن يعيشون وراء أسوار الأديرة فى وادى النساك . . و . . و . .

لعلى من هنا . . أحسب بعد أن انتهيت من وضع هذا الكتاب، أن لكل إنسان تجربته الخاصة التى تستحق التسجيل وتستدعى القراء للإطلال على وقائعها ودروسها المستفادة، وذلك ما نشهده فى الدول المتقدمة، حيث نفاجأ بأن أكثر الكتب توزيعًا ورواجًا وشهرة من تأليف أعلام أو مجهولين تجرءوا على الكتابة عن تجاربهم الذاتية بشكل عفوى وبأسلوب لا تنقصه الإثارة والصراحة والشفافية . . وهو ما يذكرنى بمقولة لشيخ النقاد الدكتور محمد مندور، من أن أعظم الكتاب وأرق الشعراء وأعقل الحكماء فى مصر لم نعرفهم بعد، لأن أحدًا لم يهتم باكتشافهم والحفاوة بعطائهم وإبداعاتهم، أو لأنهم لا يزالون أسرى الخوف والتردد فى البوح عن مكنوناتهم الشخصية .

والشاهد أن فكرة هذا الكتاب ظلت تراودنى وتختمر على مهل فى عقلى وفى ضميرى كلما تيسر لى قراءة ابن بطوطة وابن إياس والجبرتى وإدوارد لين، وبعض المترجمات لمؤلفات علماء الحملة الفرنسية ووصفهم البانورامى التفصيلى لمصر وأحوالها، حيث كان أبرز ما شد انتباهى وأثار حنينى، ذلك الرصد الواعى الباهر للعمارة والتقاليد والعادات والمهن والحرف المختلفة، وكشف الستار عما غاب عن اهتمام المؤرخين من معالم وأسرار الشخصية المصرية ووجدانياتها .

حتى وقع فى يدى مخطوط كتاب مجهول يحمل عنوان «خبايا القاهرة» فما إن انتهيت من قراءته حتى كان قرارى الشروع فى النسج على منواله ولو بشكل مختلف، أو بمعنى أكثر واقعية النهوض بمهمة وصل ما انقطع بعد التطورات والأحداث ومتغيرات المجتمع وخباياه خلال الحقب الزمنية اللاحقة!

يوسف الشريف

خبايا القاهرة!

أغلب الظن أن هذا الكتاب «خبايا القاهرة» صادف مشكلة ما، فقد وصلتنا نسخة خطية جميلة طبق الأصل وليس الأصل، على الرغم من أن مؤلفه أحمد محفوظ عنى فى مقدمته بالتنويه عن حدبه على طبعه فى دار الناشر العربى عام ١٩٥٨، لكن على ما يبدو أن ذلك لم يتحقق، وإلا لماذا أعيانا البحث عنه فى مختلف مكتبات القاهرة الحديثة والقديمة دون جدوى، ولا وجدنا له أثرًا على أرفف دار الكتب أو فى سجلاتها.

هذا - إذن - كتاب مجهول النسب والهوية، فحتى صاحبه لا نعرف له عنوانًا أو مهنة أو عمرًا، أو إنتاجًا سابقًا له أو لاحقًا عليه، وإلى حين يدلنا على حقيقته أحد الثقاة، لا مفر من النظر إليه وتقييم محتواه المعرفى وكأنه سقط المتاع الذى يتخلف أحيانًا عن المسافر العجول، لا بالمعنى التافه الذى يفتقر إلى القيمة المادية والمعنوية للأشياء، وإنما لافتقار ذلك المسافر العابر إلى الحرص الواجب، حين فاته التدبير المطلوب للحفاظ على متاعه المعرفى من الضياع والنسيان فى زحمة الحياة، خصوصًا وأن هذا الكتاب نادر فى موضوعه ومحتواه، حيث يندرج تحت باب «التاريخ الوجدانى»، وأحسب أنه إسهام مقدر ومطلوب إزاء استكمال نقص معيب فى ذاكرتنا التاريخية، إذ غالبًا ما نجد اهتمامًا وافرًا بكتابة التاريخ السياسى والاقتصادى والاجتماعى والثقافى، دون أن يعير التاريخ الوجدانى التفاتة أحد من الكتاب والمؤرخين والباحثين، على الرغم من أن مجرد رصد وتسجيل هذا

الجانب من النشاط الإنسانى ينطوى على فائدة محققة فى التعرف على الأجواء النفسية والمعنوية والمزاجية للأمم والشعوب خلال حقبة معينة أو عصر كامل، ومدى تأثرها وتأثيرها فى الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، موصولة عضويًا بمساحة الحريات المكفولة للتعبير. وكيف ولماذا وعبر أى الوسائل والآليات كان المجتمع يفصح عن مسراته وأحزانه، وحماساته وإحباطاته، ونجاحاته وإخفاقاته، ورضاه وغضبه، وتذوقه للجمال وانصرافه عن القبح، وأساليبه وإبداعاته فى السخرية من مساخر الحياة!

وعلى سبيل المثال فقد اختلفت الحالة الوجدانية للمجتمع المصرى إبان حكم الملكية والاستعمار والإقطاع عنها إبان مسيرة ثورة ٢٣ يوليو، ثم اختلفت اختلافًا بيِّنًا منذ حقبة الانفتاح على نحو ما تشى به الأغانى الشبابية الحديثة من معان سوقية ودلالات هابطة. وكذا النكتة المصرية التى دأبت على السخرية من الغير، فإذا بها تجنح إلى تبكيت الذات. وعلينا أن نتساءل: لماذا تلاشت منتديات ومقاهى وصالونات المثقفين والظرفاء، وما سر الانتشار الجارف لظاهرة تدخين الشيشة والفرجة على التليفزيون فى صمت على حساب الحوار والتواصل الاجتماعى المطلوب؟ وكيف نفسر التراجع الأكيد للمسرح الجاد ورواج مسرح الغرائز والقيم المبتذلة؟ ولماذا تلاشى فن المونولوج الفكاهى والاجتماعى وكذا التواشيح الدينية وصار انحسار أجيال الشوامخ من قراء القرآن الكريم منذ رحيل الشيخ محمد رفعت والشيخ مصطفى إسماعيل من بعده، وقد كانا من أبرز علامات مصر الروحية ورموزها الوجدانية؟ وأين اختفى «السميعة» الذين كانوا على دراية عصامية بالقراءات العشر للتلاوة وبالمقامات الموسيقية والغنائية، ومدى إتقان المطرب من عدمه لأصول الجواب والقرار؟ ولماذا تسللت إلى آذان المصريين أشرطة المقرئين من غير المصريين، وحدث ولا حرج عن نفس الظاهرة الوجدانية السلبية التى خلفها رحيل محمد عبد الوهاب وأم كلثوم وعبد الحليم حافظ ومحمد عبد المطلب، بل وإلى حد زحف المحترفات للرقص الشرقى من روسيا وآسيا الوسطى وكندا والأرجنتين لاحتلال مكانة سامية جمال وتحية كاريوكا وزينات علوى فى النوادى الليلية والأفراح والسينما، إيذانًا بانسحاب المصداقية عن المثل الشعبى الذى كان يستبعد «بيع المية فى حارة السقايين»!

ومن عجب أن يحتفل قدامى المؤرخين العرب برصد الحالة الوجدانية فى دمشق عهد الأمويين، وبغداد إبان العصر العباسى، والقاهرة تحت حكم الفاطميين، ووصفهم البانورامى الدقيق للياليها وأنسها وشعرائها ومطربيها وظرفائها وطقوسها فى الأفراح والمسرات والليالى الملاح يجل عن الوصف والحصر، وكذا عناية فحول المؤرخين من أمثال ابن بطوطة وابن إياس والجبرتى بالوصف والتحليل لما كانت عليه الحالة الوجدانية فى العديد من الأقطار العربية والإسلامية، ثم يخبو هذا الزخم المعرفى ويتلاشى تدريجيًا فى عصور الانحطاط التى سادها حكم المماليك والأتراك، وحتى لا نكاد نجد الآن فى المؤلفات الحديثة فى هذا المضمار سوى النادر من الكتب التى اقتصر دورها على جمع النكتة والنوادر، أو تعرض لصحافة وأدب الفكاهة والمتفكهين، والنادر من سير الشعراء والمطربين والظرفاء الراحلين، بينما فاتها تحليل مضامين المظاهر الإبداعية على النحو التاريخى للصورة الكلية التى كانت عليها الحالة الوجدانية للمجتمع المصرى وفقًا للنهج والأسلوب الذى يطالعنا فى كتب إدوارد لين الإنجليزى الأصل، وكذا ما سجله علماء الحملة الفرنسية من قبل فى كتاب وصف مصر الذى نهض إلى ترجمته وتحقيقه الراحل زهير الشايب.

أذكر فى حديث صحفى للمؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى أنه أجاب عن سؤال حول الدرس الذى أفاده من كتابة التاريخ و. . قال: تعلمت من كتابة التاريخ، أن المؤرخ يجب أن يبحث عن كيف يلهو الشعب، إن اللهو يكشف عن نفسية الشعب، فتاريخ الشعب مرتبط بطريقة لهوه، كان المؤرخون القدامى يعرفون الناس من مقابرهم، ففى العصر الحديث يرى المؤرخ أن حياة الناس البعيدة عن السياسة ترسم بدقة جوهر السياسة، فالأبطال تصنعهم الحياة الجارية بكل ما فيها من ثورة ولهو. . وأنا على سبيل المثال من جيل كان يلهو كثيرًا ويبكى كثيرًا!

حلقة الأسطول الغنائية

من هنا يأتى الاحتفاء باكتشاف كتاب «خبايا القاهرة»، بقدر إحاطته بالحالة الوجدانية التى كانت سائدة فى مدينة القاهرة عبر حقب التاريخ المعاصر، موصولة

بما سبقها من حقب زمنية لا تزال تفرض وجودها ومؤثراتها على الحاضر، خصوصًا فترة حكم الفاطميين على مدى أكثر من مائة عام، مرورًا والتفاتًا برصد الأوضاع السياسية والاجتماعية والعادات والتقاليد التى تشكل فى مجموعها الوعاء والأجواء الطبيعية للحالة الوجدانية وتفاعلاتها، ومداخلات المؤلف أحيانًا بالنقد والتقييم للوقائع والأحداث!

يستهل المؤلف فاتحة كتابه بقصة تروى عن القائد الفرنسى نابليون بونابرت، فعندما كان فى طريقه إلى قلب القاهرة ممتطيًا جواده الأبيض، متقدمًا أرتال الحملة الفرنسية صادف مروره بنحو مائة عرس تحفل بالطبول والمزامير والزينات، ومن ثم قال عبارته المشهورة التى صارت مثلاً: «عجبت لهذا البلد الذى لا يعرف الحزن أبدًا».

وعلى الرغم من أن السواد كان اللون الغالب آنذاك فى ملابس النساء والأزرق فى ملابس الرجال، على حد ما أشار إليه كتاب «وصف مصر»، دلالة على استغراق المصريين فى الأحزان من طول وألوان معاناتهم للفقر والمرض وبؤس الحياة المعيشية وجور الحكام والولاة الغرباء على غير إرادتهم، إلا أن القاهريين دأبوا على قهر الأحزان والتنفيس عن مكبوتاتهم باللهو والسهر والاختلاف إلى المتنزهات، والاحتفاء بمناسبات الزفاف وختان الصبيان، وتوديعهم بعضهم بعضًا عند الذهاب والعودة من قضاء مناسك الحج، بينما كان المسلمون منهم يعظمون نبيهم وصلحاءهم فى ليال صاخبة تضطرب بالطبل والزمر آونة، وقورة آونة أخرى ثم تسكن فى الختام بالقرآن وتلاوته.

أما عن اللهو الخفى، فقد كانت حانات القاهرة فى أيام الفاطميين والأيوبيين والمماليك يديرها أولاد البلد، وتقع فى أطرافها على شاطئ النيل، مثل الجيزة وطموه وناهيا وطرة التى كانت تعج بمعاصر الخمر، بينما كانت الحانات التى يديرها غير المسلمين مفتوحة علانية أو على استحياء فى قلب القاهرة، وأكثرها رواجًا فى حارة الروم وحارة النصارى وقنطرة الوز وحول بركة الأزبكية، وبين حين وآخر يتداعى السلاطين والمتنفذون إلى اقتفاء أثر المعاصر والحانات، ويبعثون بالشرطة لدهمها وكسر أوانيها وأكوابها، وسوق السكارى لدور المحاكم لإقامة

حدود الجلد على المتهمين، لكن هذا لم يقعد بأصحاب المعاصر والحانات عن إعادتها كما كانت لاستقبال المجان واللاهين والمتنزهين!

وقد حدث أن أحد القضاة ظفر بسكير، ولما أراد إقامة الحد عليه أنكر علمه عن الخمر شيئًا، حتى أماكن حاناتها تجاهلها، فلما عدد له القاضى أسماء تلك الحانات وأماكنها فى القاهرة وكانت تربو على عشرين حانة، عندئذ صاح الرجل قائلاً: أصلح الله القاضى الأعلم بالخمر وحاناتها فهو الأولى بالجلد منى!

المماليك فى الأزبكية

وحول خليج أمير المؤمنين والخليج الناصرى وبركة الأزبكية، كان أهل القاهرة يتحلقون للهو البرىء وغير البرىء، وقد أخذوا أهبتهم للسماع والطرب على أنغام الطبول والعيدان والأرقاق «جمع عود ورق»، بينما أغنياؤهم يجوبون تلك الأماكن فى خيلاء على صهوات الخيل. أما المماليك فكانوا ينزلون فى مقاه خاصة بهم لتدخين الحشيش وشرب الخمر ما بين بولاق والموقع الحالى لجمعية الإسعاف أول شارع ٢٦ يوليو حاليًا.

أما عن البغاء، فقد ظل محرمًا وسريًا فى كل العهود، حتى نكبت مصر بالحملة الفرنسية التى أباحته رسميًا وعلانية، وأول من احترف البغاء نساء الأروام حتى اختلف الأمر وتباينت جنسيات البغايا، وكان أشهر أمكنة البغاء فى الربع الزينى الذى ذكره أحد الزجالين.

والحب هنا لفظ بديل مهذب لممارسة الدعارة التى انتقلت بعدئذ كالعدوى إلى أحياء الوسعة ودرب طياب ووش البركة التى أطلق عليها أحد الدرعميين الساخرين - يعنى «خريج كلية دار العلوم» - وصف «وجه البركة» بفتح الباء كما أطلق على شارع كلوت بك وصف «شارع نقائض الوضوء» كناية عن البغايا اللاتى يسكن بيوته ويروجن أحيانًا لبضاعتهن من الشبابيك والبلكونات بالهمس واللفتات تارة، وبالغناء والموسيقى أحيانًا.

ويذكر المؤلف فتّاة حلوة مخضبة اليدين والكعبين بالحناء كانت تعصب رأسها بمنديل تتذبذب من حواشيه حلقات منسوجة بين خضراء وحمراء وبنفسجية، وقد حملت سلة لطيفة مملوءة بالأذرة المشوية وهى تجوب شوارع الأزبكية معقل الدعارة آنذاك وتنادى:

«توب عليّه من الأزبكية ـ وشخط الشاويش مع الغفير فيه ـ يا درة عال يا مشوية».

على أن الدعارة أخذت فيما بعد الاحتلال البريطانى أشكالاً منظمة ومستويات شتى فى القاهرة، واختلطت بالفن أو تسترت خلفه، فكنت ترى فى أغلب منازل الإثم حلقات مجتمعة للغناء ترأسها نساء يغنين بأصوات قبيحة، حسنة فى النادر القليل، وقد تحلق حولها سمار سكارى معربدون، يصيحون تارة ويصفقون تارة أخرى فى أصوات صاخبة واضطراب مزعج، مختلطة بهذه الأصوات الغنائية المبحوحة المجهدة، وكانت هذه الليالى تنتهى دائمًا بغنيمة السكارى من البغايا، وبالشجار وشج الرءوس أو الموت أحيانًا، وتفضى إلى أقسام البوليس ثم إلى محاكم الجنايات.

ومن أشهر تلك الحلقات حلقة «الأسطول»، وهو اسم صاحبة الدار. وكانت امرأة ضخمة رهيبة لها أعوان مسلحون بالمدى والعصى الغليظة وماء النار، فكان إذا عربد معربد وعكر صفو الأنس والغناء والمجون، ناله من هؤلاء الأعوان ما لا تحمد عقباه. وكانت تشبه الأسطول فى خطورتها حلقة «الملدانة»، وكانت امرأة نحيفة لا تجدها إلا متكئة على الحشايا المبثوثة، لكنها على الرغم من نحافتها وسقمها الباديين فى شراسة النمر. وكانت هناك أيضًا دار عزيزة «الصرصار» وهى امرأة فيها خبث ولين، ومن أشهر من عرف عندها من النساء امرأة اسمها «فردوس قطقط» كانت تعجب طلبة المدارس فى أول عهدهم بالرذيلة. ثم دار نعيمة الظباطى كناية عن ولعها المتبادل مع صغار الضباط، وهى صاحبة أغنية «يا حاطط على كتفك نجمة»، وأخرى تقول: «النجمة بتاعتك عجبانى والسيف على جنبك خلانى.. حبيتك يا ملازم تانى».

ليلى وقمر اليهوديتان:

وأول من غنى المونولوج فى القاهرة هما «ليلى وقمر» اليهوديتان، وكان لهما مونولوج ذائع الصيت آنذاك على كل لسان ومطلعه «عصفورى يامه عصفورى، أرقص وأورى له أمورى»، وبعدها طرق فن المونولوج على الطريقة الفرنسية الفنان محمد عبد القدوس والد الصحفى الكبير إحسان عبد القدوس، فكان يلقيه فى المسارح العامة المحترمة، وكذا الفنان حسن فايق الذى كان معروفًا بمونولوجاته الاجتماعية لدى العامة وغير العامة وأشهرها «شم الكوكايين خلانى مسكين».

إبراهيم الغربى(*)

فإذا انتقلنا إلى «الوسعة» فى حى باب الشعرية، رأينا بعضًا من حوانيت الدعارة الرخيصة وقد أسدلت عليها ستائر حمراء، تقف أمامها نساء بائسات قبيحات يشاكسن المارة من الجنس الخشن الذى يأبى حتى النظر إليهن، وكان لهذه البؤرة الخطيرة عميد وسيد وحاكم بأمره وهو كان مخنثا ذائع الصيت فى مصر وخارجها يدعى إبراهيم الغربى، إذ كان يجلد ويسجن ويقتل رقيق النساء اللاتى كان يملكهن إذا لزم الأمر، ولا فكاك من قبضته القوية المسيطرة بالرشوة التى كان يقدمها بانتظام وسخاء إلى الإنجليز والطليان والمتمصرين من ذوى الامتيازات الأجنبية.

(*) ملحوظة: فى سلسلة «ديوان الحياة المعاصرة» التى يستقرئ المؤرخ الدكتور يونان لبيب رزق من خلال صحيفة الأهرام أبرز الأحداث والشخصيات التى حفل بها التاريخ المصرى منذ عهد محمد على باشا، لفت نظرى فى الحلقة رقم ٣٩٣ الصادرة فى ٧ يونيو ٢٠٠١م، مبحث ضاف عن ظاهرة الدعارة فى مصر تحت عنوان «الشوارع الخلفية، والدور الريادى الذى نهض به العالم الأزهرى وأحد خطباء ثورة ١٩١٩م الشيخ أبو العينين فى مكافحة شبكات الدعارة المنظمة والعشوائية منفردا، فى الوقت الذى شغل المفكرون والسياسيون والصحفيون عنها كما لو أنها واقع. ثم تعرض هذه الحلقة من الديوان لظاهرة إبراهيم الغربى الذى كان يدير نشاطه فى ١٢ منزلا عام ١٨٩٦م، ثم تضاعف عام ١٩١٢م إلى حد تشغيل زهاء ١٥٠ عاهرة، وحتى انهارت إمبراطوريته فجأة حين أوقعت به إحدى الفتيات القاصرات عام ١٩٢٢م في شر أعماله، حيث تبين أنه كان أكبر تاجر فى أسواق الرقيق الأبيض غير بيعه وشرائه لنحو ٤٠٠ فتاة تحت سمع وبصر وتعتيم كبار ضباط الشرطة الإنجليز.

وكان لهذا العربيد الفاجر المخنث سهرات جنسية لها العجب ينظمها خصيصًا للأجانب والسائحين ويتقاضى فى المقابل أموالاً كثيرة، حتى بلغت ثروته حدًا مهولاً، ويقال إنه كان ابن تاجر رقيق قبل تحريم الرق عهد الخديو إسماعيل، وإنه كان فى بداية شبابه تقيًا ورعًا، حتى عاد من رحلة لحساب أبيه فى أفريقيا مخنثًا شاذًا لا مثيل لقسوته وجبروته، حيث احترف عملية تنظيم الدعارة، وكانت له بيوت خاصة للرقص الخليع يرتادها الأجانب وأثرياء المصريين المنفلتين أخلاقيًا و. . قد كتبت الصحافة فى أوروبا العديد من المقالات وصدرت أربعة كتب بالإنجليزية والفرنسية عن ظاهرة إبراهيم الغربى الملك المتوج على عرش الدعارة فى مصر وقتئذ.

حانات تحاكى مونمارتر ومونبرناس

وقد راجت وازدهرت تجارة الرقيق الأبيض مع اندلاع الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤، وقد حرض ظهور البغايا الأجنبيات حفيظة وتعقب أولاد البلد الشرفاء، وحدث أن الجنود الأستراليين أحرقوا بعض بيوت الدعارة بمن فيها من النساء، وكان هؤلاء الجنود من المجرمين المنفيين.

غير أن حرفة البغاء وتجارة الدعارة أخذت أشكالاً متطورة، فى أماكن جديدة وأنيقة على الذوق الفرنسى، على غرار حانات «مونمارتر» وعلب ليل «مونبرناس»، وأشهرها ملهى كازينو «دى بارى» الذى كانت تديره مدام مارسيل مكان سينما ستوديو مصر بشارع عماد الدين، وكانت تلك السيدة القصيرة القامة فى حزم قواد الجيش، وعندما تزور قريتها الفرنسية كل شتاء، كان الأهالى ينادونها بالقديسة؛ لكثرة برها بالفقراء وبذل أموالها للمرضى.

ويلقى المؤلف نظرة نقدية اجتماعية نابهة إلى الطبقة الأرستقراطية وأولاد الذوات الذين آلت إليهم الثروات والإقطاعيات عهد أسرة محمد على، وإلى أى حد تفنن الأجانب واليهود فى نهبها عبر الغواية والفجور واللهو فى حماية الامتيازات الأجنبية، ويروى عن كازينو «دى بارى» أن رواده كانوا من أرقى طبقات المجتمع وأثريائه الذين لا يعرفون للمال قيمة ولا وظيفة سوى تبذيره

بلا حساب على النساء الأوروبيات اللاتى تقدمهن مدام مارسيل إلى زبائنها فى أثواب شفافة تكشف كل خفى من أجسامهن البضة الرخصة، يحف بهن ما لا يحصى من قوارير الشمبانيا بأوانيها المصقولة، وأصوات قذائفها المدوية، وقد يلتفتون هنيهة لمشاهدة أرقى أنواع الاستعراضات الباريسية من غناء ورقص وخلاعة، وغالبًا ما كانوا منصرفين للشراب والقبلات مع الغوانى الأوروبيات، ثم يدفعون فى نهاية السهرة قدر ما يقيم أود العشرات من الأسر الفقيرة التى أضنتها الحاجة والجوع!

ويذكر نموذجًا لهذا السفه قصة أشهر زبائن مدام مارسيل آنذاك (على كامل فهمى ابن المهندس على باشا فهمى) الذى بدأ حياته أجيرًا وانتهى مليونيرًا أمثل، وقد دلل ابنه حتى نشأ منطلق الهوى، ولما مات أبوه كان لا يزال نبتًا صغيرًا مستهترًا لا يعرف سوى اللهو، ومصاحبة كل من يزين له طريق المتعة الحارة المحفوفة بالخمر والنساء، وقد اشترى يومًا أفخم سيارة فى القاهرة كانت لغليوم الثانى بخمسة آلاف جنيه عندما وقع فى هوى امرأة فرنسية صارت زوجة له، وللعجب أنها أردته قتيلاً فى فورة جنسية شاذة، وكان يجرى مجراه وينسج على منواله فتى آخر من أسرة شركسية، ومات كذلك صريع طعنة سكين مستهتر ولم يشرف بعد على الثلاثين من عمره وهو حسن الجباخنجى، وغيرهما كُثر من الوارثين الجهلة الذين كانوا يجوبون شوارع القاهرة بعرباتهم الفاخرة فى سرعة جنونية وهم يرسلون أصوات أبواقها فى آذان الشعب الراجل المذعور، وكثيراً ما انتهى بهم الأمر إلى الإفلاس والجنون أو الانتحار والقتل!

كذلك كان هناك العديد من الأجنبيات غير مدام مارسيل، ممن احترفن الترويج للدعارة على النسق الباريسى الشيك، وبينهن مدام «جنوكى» التى عشقت أميراً مغربيًا يشبه الملك فؤاد، وكانت تعد له أكياسًا من المطاط مملوءة باللبن لينام عليها لتبقى لوجهه طراوته، وكان معظم زبائنها ممن يملكون الأبعديات والأطيان الزراعية الشاسعة المنحدرين بخاصة من أصول شركسية، وكذا كبار رجال الجاليات الأجنبية من أصحاب الامتيازات الممنوحة منذ عصر السلطان سليمان، وكانت هذه المرأة تدير أعمال الغواية من مبنى تحول من بعد إلى مقر بنك باركليز فى القاهرة، وتعرض على زبائنها المترفين ألبومات مصورة تزدحم بوجوه غوانى باريس وروما، حتى إذا أعجب واحد من هؤلاء الكسالى بأى منهن، أرسلت فى

استدعائها لمتعته على نفقة ذلك الوجيه المتلاف، حتى إذا بلغ منها غايته رجعت إلى بلدها على نفقته كذلك، واستبدلتها بغيرها!

وفى مستهل القرن العشرين كان بيت مدام «بورش» المجاور لمبنى بلدية القاهرة اليوم يدار للدعارة السرية، وبأسعار باهظة لا يصدقها العقل ولا يقدر عليها سوى الأغنياء والذوات وعلية القوم من الموالين للمستعمر والمقربين للسراى، وكان نشاطها رائجًا ومحميًا من قناصل الدول الأجنبية الذين كانت تدفع لهم المعلوم، فكان البوليس لا يقرب وكرها، بل ويخشى سطوة صاحبته مدام بورش.

وما بين اللهو البرىء واللهو المريب، كانت حديقة الأزبكية التى نهضت مكان بركة كبيرة هادئة وحالمة تنساب على سطحها القوارب الطربة وهى تحمل العشاق والمتنزهين واللاهين، تمامًا مثل قوارب الجندول فى فينسيا، فما إن تم ردمها وزراعة حديقة باسقة مكانها فى عهد الخديو إسماعيل، حتى تحولت إلى منتزه كبير تتناثر بين جنباته أشكال الملاهى ومقاهى الرقص التى كان يؤمها عشاق هذا الفن الخليع فى المساء، وفى الليالى القمرية المنسكبة بالضوء الفضى، كانت الفرصة سانحة لمن شاء النزهة والترويح عن النفس، وتحت الأشجار وفى زوايا جبلها الصناعى كان الغزل والقبلات تنساب بين العشاق، وكان أشهر أماكنها كازينو «سانتى» الذى يقدم الطهو الجيد والخمر المعتقة، وقد اقتصر قصاده على الأرستقراطيين الأغنياء، وشهد العديد من الاحتفالات الغنائية الراقية التى أحياها مشاهير المطربين والمطربات وفى مقدمتهم السيدة أم كلثوم.

المبصبصاتية فى مقهى القزاز

تلك كانت لمحة من لمحات خبايا القاهرة التى عرض لها الكتاب، والتى كانت مظاهرها ومناشطها مجهولة لمعظم أهلها من غير قصاد المتعة الحرام، وذوى الاستقامة والملتزمين بالأخلاق الموروثة والقيم الاجتماعية الأصيلة، أو كانوا يسمعون عنها ولا يقربونها عملاً بالمثل القديم: «سماعك بالمعيدى خير من أن تراه»، وهؤلاء كانوا يقصدون المتع الحلال وإزجاء أوقات الفراغ فى غيرها من المنتديات والمقاهى وأمكنة اللهو البرىء.

ففى القرن الرابع عشر الميلادى كانت فى حى باب اللوق ساحة متسعة تشغى بملاعب اللهو البرىء كالبهلوانات «السيرك»، والحواة الذين يلاعبون القرود والثعابين وخيال الظل والأراجيح والأراجوز. وكان رواد هذه الساحة من النساء المحجبات والأطفال والرجال فى جو عائلى محافظ، وقد انتقلت هذه الألعاب فيما بعد إلى ساحة سوق العصر إلى جوار قلعة صلاح الدين، بينما كانت حفلات زواج الأمراء وأميرات سلالة أسرة محمد على حافلة بما يفوق هذه الألعاب متعة وإثارة وشياكة، حيث كانت تعد لها ساحات خصوصًا إلى جوار قصورهم المفتوحة للشعب فى تلك المناسبات السعيدة فحسب!

وقد ظل أغلب لهو القاهريين فى دورهم، يجتمعون له ويحتفلون به حتى أواخر القرن التاسع عشر، حتى كانت نشأة حى الأزبكية بمباهجه ومباذله فى أعقاب الاحتلال الإنجليزى للترفيه عن ضباطه وجنوده، حيث امتد زحف الرذيلة تدريجيًا من الأزبكية إلى العديد من الشوارع والأحياء المجاورة التى سبق ذكرها، مثل: كلوت بك والوسعة ودرب عبد الخالق وحارة الكراسى وحارة الجبرونى وشارع التليفون، وأكثرها خطرًا كان شارع «وش البركة» «نجيب الريحانى» الآن، فكان إذا أقبل المساء خرجت البغايا الأجنبيات وكان يطلق عليهن «فتيات الأرصفة» لجلب الصيد الحرام، مما اضطر معه أهل القاهرة المحافظون من سكان هذه الأحياء والشوارع إلى هجرها، وسكنها القوادون والبغايا الأجنبيات.

على أن أهل القاهرة الذين قاوموا مظاهر الرذيلة ما وسعهم إلى ذلك سبيلاً، لم يجدوا مفرًا من التزام بيوتهم يسمرون ويلهون ويطربون، وينتظرون الأفراح والأعياد والمناسبات السعيدة، وما أكثرها حتى يزدادوا سعادة وإشباع ولعهم بالاحتفاليات، بينما كان الطريق سالكًا متى شاءوا ليل نهار إلى المقاهى المنتشرة فى مختلف الأحياء، وكانت بديلاً عن استقبال الأصدقاء فى البيوت، وفرصة للتجاذب والمؤانسة بين الرجال، واجتماع أرباب الأعمال والمهن والهوايات، والحوار فى الشئون الخاصة والعامة.

والشاهد أن مقاهى القاهرة غير الشعبية التى يذكر الكتاب منها نحو عشرين

مقهى مميزة، كانت في ذلك الزمان عجبًا فى اتساعها وأثاثها ورونقها وخدماتها وتنوع روادها وألوان وظائفها ومسراتها، وكان مقهى نوبار أشهرها، إذ كان المطرب الأشهر عبده الحامولى يقضى فيه معظم أمسياته التى تخلو من الغناء فى المسارح والحفلات، ودائمًا برفقته صديقه الوجيه باسيلى بك العريان، وكان ثريًا يشار إليه بالبنان حتى أفلس، بعد أن بدد ثروته التى تربو على نصف مليون جنيه، وكان من جلسائهما محمد بك ثابت ابن ثابت باشا الذى كان وزيرًا عهد الخديو إسماعيل، ومحمد عمر الطرف الذى تجاوز التسعين دون أن ينسى نصيبه من الدنيا، والفريق إبراهيم فتحى المعروف بالصرامة، وربما طرق مجلسهم الشاعر خليل مطران والصحفى سليم سركيس وعبد الحميد أباظة الفضى الشارب الذى لا يفارق السيجار شفتيه أبدًا، وكان الحديث بينهم فى غالب الأحوال فى الفن والشعر والسياسة، مما كان يغرى غيرهم من الزبائن والمتطفلين لاستراق السمع، ولما ضاق باسيلى بك العريان بهؤلاء الغرباء أمر صاحب المقهى أن يخليه له وأصدقائه فقط على أن يعوضه الخسارة وزيادة و . . قد كان!

ولما كانت أسرة محمد على تأنف الجلوس فى المقاهى المفتوحة، من ثم كانوا يترددون على البارات الفاخرة الأشبه بالمقاهى، يديرها الخواجات وما أكثرها فى ذلك الزمان، الألكزندرى، باميه بار، الكتبان الأحمر، بار مارى، أوبك، شولار. هذا فى منطقة وش البركة وحدها، وكانت النساء الأجنبيات الجميلات يقمن على خدمة الزبائن، وأشهر هذه البارات جميعها بار «ديرا كاتوس» وكافيه «إچيبسيان»، وأشهر روادها الملك فؤاد بعد عودته من إيطاليا فترة تعطله قبل أن يرقى العرش، وكان دائم النداء على بائع السميط، والبرنس أحمد والد الأمير يوسف كمال الذى كان يملك مدنًا كاملة فى الصعيد، وفى صحبته الظريف محمد البابلى ومحمد على الأمير الإيرانى.

أما هواة لعب الشطرنج والطاولة فكان مكانهم المفضل مقهى «أوبرا بار»، مكان ملهى صفية حلمى بميدان الأوبرا، بينما كان مقهى «سبلندد بار» الذى يواجه حديقة الأزبكية ملتقى للأدباء السوريين من أمثال الدكتور إبراهيم شدووى، والدكتور شبلى شميل الذى لا يخفى شكه وإلحاده، وكذا جورج طنوس وطنوس عبده، يجالسهم ويحاورهم الشاعر ولى الدين يكن، والشاعر

حافظ إبراهيم، ووحيد الدين الأيوبى اللغوى العجيب، والشاعر أحمد نسيم، والأديب عبد الحليم المصرى.

و«متاتيا» كان مقهى من الدرجة الثانية لكن شهرته طبقت الآفاق، إذ كان أشهر رواده السيد جمال الدين الأفغانى والإمام محمد عبده، وسعد زغلول باشا وإبراهيم الهلباوى، ثم جاء بعدهم إمام العبد الزجال الظريف وقرينه الزجال خليل نظير الذى كان لا يفيق من الخمر، والأستاذان المازنى والعقاد والشاعر حافظ إبراهيم والشيخ فهيم قنديل صاحب جريدة «عكاظ» ونفر غفير من الأدباء الفقراء الذين كانوا يجدون حاجتهم من طعام الفول المدمس المستكن فى قدور النحاس فى المطعم الذى كان يحتل ركنًا قصيًا من هذا المقهى!

وفى قهوة «القزاز» على الجانب الأيمن من شارع الموسكى، كان زبائنها من هواة النظر إلى المحجبات بالبراقع البيضاء والسوداء المخرمة وفوق أنوفهن تعلو قصبات ذهبية لامعة، وهن جيئة وذهابًا فى الشارع التجارى الأول فى ذلك الزمان، وعلى مقربة من حلوانى يسمى «اللبان» يقدم أكواب اللبن وسلاطين المهلبية والفطائر بأنواعها، وكان ملتقى للعسكريين القدامى المتصابين ممن يصبغون شعورهم ويتظاهرون بالشباب ويتبادلون الذكريات الخوالى، فمنهم من حارب مع عرابى فى الثورة، ومنهم من شهد حرب الحبشة، ومنهم من شارك فى فتح السودان.

جروبى أول داعية للديمقراطية

ويأخذنا المؤلف الباحث المؤرخ أحمد محفوظ فى جولة متأنية بين المقاهى المجاورة، لنتعرف على ما يميزها عن غيرها، فكانت المقاهى المطلة على النيل ملتقى هواة اليانصيب والرهان على سباق الخيل، ومكان سوق الخضار اليوم كانت تنتشر مقاهى مدمنى تدخين الحشيش وهواة النكت والنوادر والقفشات وأصحاب القافية. وعلى يمين شارع محمد على كان المقهى التجارى وله من العمر أكثر من مائة عام، وكان منتدى للآلاتية والمطربين وأعضاء فرقة «حسب الله» ذلك الموسيقى الأول للحرس الخديوى، فلما أحيل إلى المعاش ألف أول جوقة للموسيقى النحاسية تسير فى مواكب الأفراح وجنائز الموتى!

وأمـام دار الكتب ـ «الكتبخـانة» ـ فى بـاب الخلق، كـان يجلس حـافظ إبراهيم يدخن النرجيلة ويسمر مع موظفى الدار وغيرهم من الأصدقاء من أمثال: الشيخ عبد المطلب والشيخ عبد العزيز البشرى والظريف محمد البابلى والوجيه على راتب، وعلى كثب من المقهى كان محل صالح الشربتلى الشهير الذى كان يقصده أولاد البلد على حمرهم الحصاوى الملجمة بعلائق الفضة لشرب منقوع الشعير والخروب والزبيب، أما وراء دار الكتب فكان يقع مقهى «الديوك»، ويستقطب هواة الديوك الهندى ومهارشتها، وكان من زوارها محرم بك شاهين وهو قريب الملكة نازلى، وعبد الحميد شريف بن على باشا التركى، وكان مولعًا بهذه الهواية ويزيد عليها باقتناء الثعابين وتربية الحمام «الهزاز» التى صرف عليها جل ماله حتى أفلس اتساقًا مع المثل القائل: «اللى معاه قرش محيره يشترى حمام ويطيره»!

وإذا تركنا باب الخلق وعرجنا إلى حى الصليبة أواسط القرن التاسع عشر، ألفينا مقهى الأتراك، وكان خاصًا بهؤلاء «الباشبوزق» الذين كانوا يؤجرون أنفسهم عهد أسرة محمد على لخوض المعارك كمرتزقة محترفين، وقد هلك معظمهم فى موقعة هكس بالسودان على يد دراويش المهدية، فإذا اتجهنا إلى دار صحيفة الأهرام وجدنا قبالتها بار «اللواء» الذى نهضت مكانه عمارة اللواء، وقد تأسس أوائل القرن العشرين تيمنًا باسم الصحيفة المجاهدة التى أصدرها الزعيم مصطفى كامل، وكان معظم جلسائه من الشعراء والظرفاء والسياسيين، من أمثال مصطفى كامل وأخيه على كامل، والشيخ عبد العزيز جاويش، وأنطون جميل، ومحمد البابلى، ثم تبعهم بعد ذلك الشيخ أحمد العسكرى والعزب موسى وحفنى محمود باشا، والشعراء كامل الشناوى، وعبد الحميد الديب وطاهر أبو فاشا وعبد الرحمن الخميسى. وفى الطريق المفضى إلى شارع قصر النيل عبر شارع شريف كان على يمينه بار «الأنجلو»، وكان معروفًا بشرابه المعتق وحسن أدب خدامه، وكان مألوفًا للدكتور الجراح على باشا إبراهيم والوزير محمد غالب، والدكتور شوشة باشا والشيخ عبد العزيز البشرى، وكان يؤمه أيضًا الفنان سليمان نجيب وبصحبته الشاعر كامل الشناوى.

أما مكان عمارة «الإيموبيليا» فكان مقهى «الرتز» ومن رواده توفيق الحكيم وعبد القادر المازنى ومحمد التابعى والصاوى محمد وأحمد الألفى عطية والشاعر

الدكتور إبراهيم ناجى. . وعلى أطرافه كان يجلس دومًا الأفاق المغامر عبد الحميد عكاشة يرقب بعين النسر ضحاياه من أبناء الذوات والوجهاء، حتى إذا رأى أحدهم انقض عليه فى سرعة خاطفة ونال منه مأربه!

ويشهد الكتاب بالفضل لمقهى وحلوانى «جروبى» فى شارع سليمان باشا الذى كان رواده أول نشأته من الباشوات والموالين للقصر وعملاء الاستعمار، ثم أصبح أول داعية للديمقراطية، فقد كان يجمع بين الارستقراطى الشركسى النشأة مع ابن الفلاح الفقير الذى نال قسطًا من التعليم، يتحاوران ويتآمران على السراى والإنجليز، ولطالما عرف الإنجليز طريقهم للبطش برواده، وكثيراً ما كانوا يدهمونه بالسلاح والتخويف والاعتقال والقتل فى بعض الأحيان، حتى انتقلت الريادة الديمقراطية من بعد إلى مقهى «ريش» المقابل الذى أقيم على أنقاض قصر محمد على، وقد شهد «ريش» العديد من الحفلات الغنائية التى أحياها صالح عبد الحى، والشيخ أبو العلا محمد أول أستاذ للسيدة أم كلثوم الذى استحضرها ووالدها وشقيقها إلى مقهى ريش ولم تزل طفلة تنشد التواشيح الدينية وتبشر بمستقبل عظيم.

عبده الحامولى فى استانبول

ويأخذنا الكتاب إلى الغناء فى جولة ثرية ومدهشة وهو يتابع هذا الدرب العزيز لدى أهل القاهرة، وكم كانوا يحتفون به ويطربون، بينما كان احتراف الغناء فى عهود الفاطميين وسلاطين الأيوبيين والمماليك وقفًا على الجوارى، حتى أصبح الغناء كله للمصريين والمصريات والعرب، وقد اختلف الغناء هبوطًا ورقيًا فى الملاهى ومسارح روض الفرج وعوالم شارع محمد على، عنه فى الحفلات والكازينوهات والمسارح المحترمة.

فى ملهى «الألدراتو» القديم بشارع كلوت بك أوائل القرن العشرين، كانت ثلاث من المطربات الشهيرات يتبادلن الغناء: الصرفية وسيدة اللاوندية وأسماء الكمسارية، وفى ملهى نزهة النفوس كانت تغنى منيرة المهدية بعد أن حققت شهرتها فى مقهى «بير حمص» وكانت تقرع خشبة المسرح بحذائها وهى تغنى

«أسمر ملك روحى»، وفى ملهى «ألف ليلة وليلة» بشارع البواكى كانت المطربة لبيبة فخر القادمة من الشام ألمع نجومه بعد أن اختارت لها اسم توحيدة، وكانت تغنى بصوت ناعم سيئ التأليف. وبين الحين والآخر يرسل إليها المعجبون زجاجات البيرة، وكانت شفيقة القبطية فى ملهاها بحديقة الأزبكية تقدم وصلاتها من الرقص الشرقى بين مطرب ومطربة من المشاهير، وقد ذاعت شهرتها وكسبت ثروة طائلة ثم سلخت شيخوختها هرمة بائسة، وفى كازينو «البوسفور» بميدان محطة مصر كان المطرب عبد الحى حلمى نجمه المفضل وطالما أفسد الليالى وتعرض لضرب الزبائن لسوء خلقه وعربدته، وفى هذا الكازينو أيضًا غنى محمد عبد الوهاب والسيدة أم كلثوم وملك ونعيمة المصرية.

على أن المؤلف يضفى الفضل كله فى الارتقاء بالغناء الشرقى فى مصر بعامة على الموسيقار المطرب عبده الحامولى، فلم يعرف قبله أصولاً مرعية لفن الغناء قط، بل كان مزيجًا من الفارسية والتركية المشوهة والمنقولة عن أفواه الجوارى والمخنثين من غلمان المماليك، وهو الذى عربها وخلصها من الشوائب وجعلها مستساغة، وهو الذى قرب البشارف التركية والتواشيح الفارسية إلى الأذواق المصرية، ووفق فى ذلك أبعد التوفيق، وقد عاصره من هو أحذق منه وألمع موهبة وهو محمد عثمان، وكان أهل الفن يسمونه طباخ المغنى، لكن الحامولى كان يتفوق عليه فى ملكاته الصوتية الفريدة التى اجتمع لها كل طبقات الغناء، وكان فريدًا فى حلاوته لا يجارى ولا يبارى.

ولم يكتف الحامولى وعثمان بالأخذ عن التركية والفارسية، بل أخذا أيضًا عن الفن العربى القديم الذى ظلت تتداوله الأجيال فى موطنه بمدينة الموصل بالعراق، ويذكر الشاعر أحمد سليم ـ وكان صديقًا للحامولى وملازمًا له كظله ـ أن فنانًا موصليًا كبيرًا كان فى مقام الأستاذ من عبده الحامولى، فلما زار القاهرة ظل يحضر كل حفل يغنى فيه، فلم يستطع إقناعه بالكف عن متابعته، لأنه لا يستطيع أن يتوخى كل ضروب الإجادة والتدقيق فى أدائه ما دام حاضرًا، باعتباره مرجعية يفهم فن الغناء الشرقى صحيحًا وهذا يقتضيه عسرًا وجهدًا فوق طاقته.

كان الحامولى ومحمد عثمان متنافسين شأن كل متقاربين فى الإبداع، كانا

كجرير والفرزدق، وشوقي وحافظ، وعبد الوهاب وأم كلثوم، وكان الحامولى يفضل ألحان عثمان بصوته كما تفضل أم كلثوم ألحان محمد عبد الوهاب بصوتها، ويقول المؤلف إن عبد الله أباظة روى له أن الحامولى مر به يومًا راكبًا عربته فدعاه إلى الركوب معه قائلاً: هيا معى إلى منزل المطرب الشنتورى لمجاملته فى زواج ابنته، فلما أشرفنا على الحفل ألفينا محمد عثمان يغنى والناس يكادون يخرجون من ثيابهم طربًا، فلما جاء الدور على الحامولى غنى نفس الدور فكان والله غناء محمد عثمان إلى جانب غنائه كأنه نقيق الضفادع جنب تطريب الكروان، فلم يلبث محمد عثمان أن أخرجه الغيظ عن الاتزان، فصاح مشيراً إلى الحامولى قائلاً: بقى الراجل ده جاى يجامل ولا جاى يموتنى!

وعندما سمع سلطان الباب العالى عن عبده الحامولى استدعاه إلى استانبول، فكان لا يمل سماعه ونشوته بصوته وأدائه كل ليلة على مدى شهور طويلة، حتى خشى أن يفضى إليه بحنينه إلى القاهرة وجمهورها، فكان أن أقنع حاشية السلطان بخشيته أن يكره المصريون السلطان لهذا السبب، فما كان منه إلا أن سمح له بالعودة بعد أن حمله وجوقته الموسيقية بالهدايا الثمينة.

زفة العجم

ويمضى المؤلف فى عرض كنوزه المخبأة عن أحوال أهل القاهرة الوجدانية فى لوحات ومشاهد بديعة يقتفى أثرها ويرصد نشاطاتها وأحداثها ونجومها فى عصور وحقب التاريخ، وتستوقفنا لغرابتها لوحتان على قدر ما تشى به من دلالات ومعان مهمة، يجدر التنويه عنها وتعرّفها.

الأولى: هى زفة العجم الدينية ويقصد طائفة الشيعة فى مصر آنذاك فى يوم عاشوراء، فمنذ الصباح الباكر كان المشهد الحسينى تغلق أبوابه بالسلاسل الحديدية ويقوم البوليس بحراسته المشددة من جميع الجهات استعداداً لزفة العجم بعد صلاة الظهر، حين يبدأ الموكب الذى يتصدره غلامان صغيران جميلا الوجه لا تتجاوز سنهما عشر سنوات يمتطيان جوادين يرمز لهما بالحسن والحسين وسط جمع غفير من أتباع المذهب الشيعى أغلبهم من الإيرانيين القاطنين القاهرة فى صفوف

متراصة، يضم كل منها أربعة منهم ونصفهم الأعلى عار، وبأيديهم سلاسل يضربون بها صدورهم، وخلفهم صفوف أخرى على نفس النسق يضربون جباههم بالسيوف والسكاكين، وتسيل دماؤهم على صدورهم ووجوههم وهم يرددون عبارات الحزن على مقتل الحسن والحسين حيث يخترق الموكب شارع الموسكى حتى المعبر، وعند منزل يقع فى أوله فتزداد ضرباتهم ونزف دمائهم، حتى إذا وصل الموكب إلى المشهد الحسينى وحاولوا اقتحامه منعهم البوليس بقوة وحالت الأبواب المغلقة دون دخولهم. . وعند نهاية الطواف كان ينتظرهم قنصل إيران ووجهاء الجالية الإيرانية وكبار رجال الدولة والسائحين، وعندئذ يأوى المصابون إلى الاغتسال من دمائهم وتضميد جراحهم، وينتهى الحفل الدموى الذى أبطلته الحكومة عام ١٩١٤، وخلال حكم الفاطميين كانت ذكرى مذبحة كربلاء التى شهدت مقتل الحسن والحسين على يد بنى أمية عيداً دينيًا يسمى يوم عاشوراء، حيث تعطل فيه الدواوين والأسواق وتمتد موائد الطعام التى تسمى «سماط الحزن». ولما جاء الأيوبيون جعلوا منه يوم فرح ومسرات وتوسعة فى الطعام والحلوى والزينات، وكذلك فعل المماليك نكاية فى الشيعة، ومن عجب أن تتحول الدراسة فى الأزهر الشريف إلى المذهب الشيعى قرابة المائة عام وتعود كما كانت إلى المذهب السنى بمجرد زوال دولة الفاطميين!

اللوحة الثانية: «ليالى الكرنفال» وكانت مهرجانًا مقنعًا من المرح فى ليال ضاحكة صاخبة، وكانت قبيل حلول عيد الفصح عند الأجانب وبعض المصريين الكاثوليك والبروتستانت والإنجليك، حيث يخرجون إلى الشوارع والمقاهى والمسارح فى أثواب وأقنعة تنكرية بين تاريخية وعصرية فيرقصون ويعبثون بالناس، وكانت تقام حفلات تنكرية خصوصًا آنذاك فى الفنادق الكبرى مثل شبرد والكونتيننتال وهليوبولس بالاس يمتزج فيها الجميع ويتعانقون ويرقصون ويتغازلون، ويتصادف أن يعجب رجل بصدر امرأة أو قوامها، فما إن ترفع قناعها حتى يكتشفها عجوزًا قبيحة، وقد ينكر آخر امرأة لثوبها الرث فإذا بها شابة حسناء فائقة الجمال، ولذلك كثيرًا ما شهدت تلك الليالى من مآسى الطلاق والهجر أو القتل أحيانًا!

وكان الناس يستأجرون فى ذلك اليوم أماكنهم فى مدرجات حول حديقة

الأزبكية، لمشاهدة مواكب الكرنفال المتتابعة ما بين العاشرة صباحًا حتى الغروب، وينثرون عليها حبات الفاصوليا والأوراق الملونة والزهور وهم فى جذل صبيانى وعبث مجنون، وفى المساء تعمر جنبات الحديقة الملفوفة بالظلام باللهو البرىء وغير البرىء، كما تتداعى لها البارات والكباريهات بالسكر والعربدة والمجون، وقد استمرت ليالى الكرنفال منتظمة حتى أبطلتها الحكومة لظروف الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤.

ولأن ما لا يدرك كله، لا يترك كله، رأينا أن نقتصر على الجوانب المعرفية الغائبة والمندثرة عن الحياة الوجدانية التى عاشتها القاهرة عبر العصور كما قدمها كتاب «خبايا القاهرة» فى ١٢٦ صفحة من القطع المتوسط، حفلت بنحو ٢٧ عنوانًا لأبوابه وفصوله، مما صعب القيام بعرضها كاملة وإشباع القارئ من مادتها الخصبة فى عجالة، فكان أن فرضت الانتقائية نفسها، بينما تفرض الأمانة ذكر تلك العناوين من باب الإفادة لمن أراد البحث والدراسة أو الاطلاع وهى حسب الترتيب المفهرس: ليالى القاهرة وملاهيها، مقاهى القاهرة وباراتها وكباريهاتها، نوادى القاهرة، الفنادق، التمثيل فى القاهرة، المغنون، أخلاقها وعاداتها، أطعمة أهل القاهرة، مواصلاتها، الشحاذون، الظرفاء، أعيادها الدينية، يوم عاشوراء، عيد الغدير، الأعياد الفاطمية، أعياد المسيحيين، عيد العجم، عيد وفاء النيل، قطع البحر، جبر البحر، شم النسيم، أعياد منقرضة . . .

عشنا وشوفنا سنين.. ومين عاش يشوف العجب

مطلع أغنية للملحن الكبير محمد عثمان

من الطبيعى وقد بلغنا سبعينيات العمر، أن تهيأت لنا الظروف لمعايشة المتغيرات المتلاحقة التى شهدتها مصر على كل صعيد خلال النصف الأخير من القرن العشرين، ومن حق بل وواجب الأجيال الجديدة إذن . . إدراك أن ما ترفل فيه مصر الآن من الاستقلال أو النظام الجمهورى ـ على سبيل المثال ـ يختلف فى إطاره ومحتواه عن كابوس الاحتلال البريطانى وجبروته وعن وطأة النظام الملكى المعادى لإرادة الشعب، وعن الديمقراطية المزيفة التى ظلت تنكل دوما بحزب الوفد صاحب الأغلبية الشعبية، ومن كان بوسعه أن يتصور عهدئذ أن تنزاح عن كاهل الشعب، تلك الطبقة بل الفئة محدودة العدد التى كانت تتحكم فى شئونه وثرواته من الباشاوات والإقطاعيين واليهود والخواجات. . و. .

لعل الأفلام السينمائية القديمة التى تؤرخ ضمنيا لمظاهر الجور والفقر والحرمان وكذا الفروق الاجتماعية الشاسعة بين الطبقات خير شاهد على مدى التغيير الجذرى للمجتمع المصرى فى أعقاب اندلاع ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م، كونها تجربة إنسانية وليست تنزيلا منزلا، ومن هنا كان حرصى على رصد تلك المتغيرات، على أن هذه المتغيرات بقدر ما حفلت به من إيجابيات، بقدر ما شابها من أخطاء بل وخطايا كذلك، حتى نستبين الفروق الجوهرية بين الماضى والحاضر.

فى الريف المصرى ـ على سبيل المثال ـ تلاشى البناء بالطوب النيئ مفسحًا

مكانه لغابات الأسمنت والطوب الأحمر، بالتوازى مع فرض نمط عمرانى شائه، ومعاد للبيئة والصحة والجمال، وبينما اختفت وسائل الزراعة والرى التقليدية الموروثة كالنورج والشادوف والطنبور أو الساقية الخشبية، راحت أصوات العصر تعلن عن نفسها عبر «الطرمبات» الميكانيكية والتراكتورات وماكينات دراس الحبوب، ومن المؤسف ألا تضيف هذه الوسائل الحديثة تراكما اقتصاديا للدخل القومى ولا للفلاح المصرى الذى تحول من منتج إلى مستهلك يشترى خبزه وطعامه من الأسواق.

ولم تكن القاهرة والمدن أسعد حالا من الريف المصرى، حيث سادت ظاهرة اللاتخطيط، بمعنى الارتجال العمرانى، فلا تكاد تعرف لها طرازا أو شخصية حضارية، وهل هى باهتة أم فاقعة الألوان، ومعظم المبانى الجديدة فى الريف وضواحى وأطراف المدن من مدخرات العاملين فى السعودية والخليج والعراق سابقًا، وقد جرى تشييدها لذلك على مراحل، بداية من وضع الأساس ثم الأعمدة الخرسانية و. . أخيراًبناء الحوائط بالطوب الأحمر، ولأن اليد قصيرة غالبا والعين بصيرة، تظل على حالها القبيح دون كسوتها بالبياض، وألف رحمة ونور على البارون إمبان صاحب مشروع عمران مصر الجديدة، بداية من مد المترو، مروراً بالتخطيط الحضارى «على وسع»، نهاية بطراز البناء المزيج بين الحداثة والتراث الإسلامى مع الحفاظ على الدور الوظيفى؛ ثم نتساءل بعد ذلك عن افتقار العديد من المدن الجديدة وبينها مدينة السادات ـ على سبيل المثال ـ لمقومات الجذب السكانى!

أذكر والذكرى تنفع المؤمنين أن كانت لوالدى أرض زراعية فى قرية أبى صير بمحافظة الجيزة، فكانت أجرة الفلاح المسكين وحماره لا تزيد على خمسة قروش أواخر الأربعينيات، وعليه أن يواصل عمله فى نقل السباخ أوالطمى أو المحاصيل من الصباح الباكر حتى تغيب الشمس، فهل كان فى دخله متسع للطعام سوى المش الأجاج والنباتات العشوائية مثل السريس والجعضيض!

لقد رأيت هذا الفلاح بأم عينى فى هذه الفترة وهو يصطاد الفئران «الغيطى» على حواف الترع بعصا تنتهى بحربة من الحديد المسنون، وكنت شاهدا عليه أو على زوجته وهى تشوى تلك الفئران على الحطب وتقدمها طعاما لأفراد الأسرة!

من فى الريف عهدئذ الذى كان يعرف طعم لحم الأبقار والجاموس والجمال أو الأغنام، إلا أن تأتيه صدقة أحيانا أو نذرا أو أضحية من الموسرين، أو ربما لأن بهيمة وقعت فى ساقية وتحطمت عظامها أو كانت مريضة لا شفاء لها، وعندئذ يشتريها جزار القرية، ويطوف بها أو بدونها وهو يصيح بالنداء الشهير «من ده بكره» ووراءه أطفال القرية وهم يستجيبون للنداء مرددين «بقرشين» أو ثلاثة بحسب ثمن رطل اللحم بعظمه!

وحين كان يقبل الفلاح على شراء اللحم المضروب، فالوفاء بالثمن مؤجل إلى حين جمع وبيع المحصول، وكم من الفلاحين الذين باعوا حطام الدنيا حتى يسددوا الثمن لمجرد أنهم استجابوا لإلحاح أطفالهم لتذوق طعم اللحم مثل غيرهم من أبناء القادرين!

حتى الشحاذون فى ذلك الزمان، كان الواحد منهم يحمل على ظهره «مخلة» أو «شوالا» يجمع فيه حسنات المحسنين وكانت خبزا فحسب، بينما شحاذ اليوم يستنكف أن يجود عليه أحد بورقة فئة خمسة وعشرين قرشا، وبعضهم يدفع إلى غيره الشيء الفلانى حتى يتخلى له عن شارع أو ميدان أو ناصية، وكثيراً ما نقرأ أو نسمع عن شحاذ يملك عمارة أو موبايل!

ونتساءل عن سر اختفاء «السبرسجية» ومفردها «سبرسجى» وهم الأولاد والبنات المشردون الذين كانوا يحترفون جمع أعقاب السجائر من الشوارع والمقاهى والمطاعم ودور السينما، ثم ينزعون عنها ما تبقى من الأوراق، ويبيعون دخانها بما يحتويه من «النيكوتين» القاتل لمحلات متخصصة، وبدورها تعبئه فى قراطيس من الورق، فكان الفلاحون الفقراء يقبلون على شرائه بثمن زهيد، ويلفونه سجائر بورق البفرة ويدخنونها فى شراهة واستمتاع!

ومصر كانت فى تقدير الغرب «بلد العميان» إذ كان مرض الرمد الحبيبى منتشرا وسط الطبقات الفقيرة، حتى أن الإنجليز إبان استعمارهم لمصر شيدوا العديد من مستشفيات ومراكز طب العيون فى الريف والحضر أشهرها مستشفى «الإنكلستوما» بالجيزة، ومصر كانت كذلك «بلد الحفيان»، ونادرا ما كان للفقراء أحذية، وكانت أقدام المصرى الفقير الحافى تكتسب أحيانا طبقة من الجلد الجاف

كما السمك البكلاة، فما كان يأبه لذلك عند الدوس فوق الأشواك أو الزجاج المكسور، ومن هنا كانت نشأة المشروع الخيرى لمكافحة الحفاء منذ ثلاثينيات القرن الماضى لتصنيع الأحذية والصنادل المتواضعة وتوزيعها بالمجان على الفقراء الحفاة، والطريف أن المتبرع للمشروع بمبلغ خمسة آلاف جنيه كان يستحق إنعام الملك عليه بالباشوية، وكم من المرات كانت الرتبة من نصيب تلاميذ المدارس وطلبة الجامعات من أبناء الموسرين!

ويلفت نظر جيلنا اليوم تلاشى عادة دق «الوشم» الأخضر، وهى كانت ظاهرة يختص بها أهل الريف بوجه خاص، وكانت على شكل عصافير على جانبى الوجه، ونقطة على الذقن أو إلى جوار الأنف، وصور وأشكال تراثية تزين الصدر أو الساعدين، وأحيانا اسم صاحبه وعنوانه، وكثير من الذين دقوا الوشم وصادف أن نالوا حظا من العلم أو المناصب، غالبا ما يسعون إلى إزالتها عبر الكى أو العمليات الجراحية.

على أن المصريين لم يعرفوا عادة التردد على الأطباء كما هم الآن، ولا كان السرطان والفشل الكلوى منتشرا فى مختلف الطبقات، ولا شك أن تلوث البيئة وماء الشرب أهم أسباب هذه الأمراض، فضلا عن التوترات العصبية والنفسية، ولأسباب لا تغيب عن أحد، بينما أصبح لدى كل أسرة فائض لم يستخدم من أدوية الشراب والحبوب التى يمكن أن يستفيد منها غير القادرين من المرضى، وأذكر أن الدواء فى الماضى كان يتم تركيب معظمه فى الصيدليات، وكانت لدى بعض عائلات الطبقة المتوسطة من باب التميز دولاب صغير اسمه «أجزخانة» يحتوى على زجاجة قطرة وأخرى بها صبغة يود أو ميكروكروم ولفافة شاش وقطن طبى.

ولعلنا ندرك عبر مشاهدة الأفلام السينمائية القديمة كم كان الدواء غاليا بالنسبة لمستوى الدخول أيام زمان، إلى الحد الذى يضطر بطلة الفيلم أحيانا للاشتغال راقصة أو بنت ليل حتى توفر لأمها المريضة أو أبيها أو طفلها ثمن الدواء، وكيف كان حال الأسرة الفقيرة يصعب على الطبيب الرقيق المشاعر ويأبى أن يتقاضى أجره مقابل الكشف على المريض. . طبعا فى الأفلام فحسب!

وأتحسر على ما كان لمحل الأدب «التواليت» العمومى من النظافة والعناية، إذ كان منتشرا فى كل مكان وبالمجان، بينما لا يجد المضطر مثيلا له اليوم حتى يقضى حاجته سوى البحث عنه فى مسجد أو فندق أو ورشة وإلا لحدث له ما لا تحمد عقباه.

ويتساءل جيلنا: أين ذهبت أشجار «دقن الباشا» و«التمر حنة» التى كانت تعبق أجواء البيوت القاهرية بروائحها العطرة، بينما لا تخلو بعض الشوارع الآن خصوصًا فى الأحياء الشعبية من روائح الصرف الصحى والعياذ بالله، حتى الريف المصرى تلاشت منه أبرز معالمه وهى شجرة الجميز، كونها تظلل على مساحة كبيرة من الأراضى التى باتت الحاجة ماسة الآن لزراعتها، وأذكر أنه كانت تجرى للملايين من حبات الجميز قبل نضجها عملية تسمى «التختين»، عبر ثقب كل حبة بمطواة رفيعة، وبعدها يكتسب الثقب لونا أسود ومذاقا حلوا، وبينما اختفت فاكهة الجميز والعجور ظهر الكانتلوب وغيره من فواكه الانفتاح!

ولعل أفدح ما نكبت به الزراعة فى مصر يكمن فى تدهور زراعة القطن الذى كان والسياحة يمثلان المصدر الأول للدخل القومى، فيما كانت للقطن المصرى شهرة عالمية غير قابلة للمنافسة خصوصًا القطن طويل التيلة، وكيف نصدق أنه جاء اليوم الذى تستورد فيه مصر بعض احتياجاتها من قطن من الصين والهند!

والشاهد أن الشارع المصرى كان يعج فى زماننا بأصوات باعة الخضر والفاكهة، وكانوا يرددون عبارات منغمة جميلة ودالة على الجودة والمذاق الحلو، مثل (يا قلل الشربات يا جوافة)، (والله لا تين ولا عنب زيك «يا نايح») وتعنى البلح الأمهات، (شنوانى يا قلقاس) نسبة إلى قرية شنوان، (مجنونة يا قوطة)، (فجل الجزاير يا ورور)، ولعل الراحلين محمد عبد الوهاب والشيخ سيد مكاوى كانا الحفظة المؤتمنين على تراث نداء الباعة الجائلين، ولا أدرى لماذا لا تعاد إذاعة تسجيلاتهم النادرة حولها، حتى تتذوق الأجيال الجديدة جمالياتها!

ولا أدرى لماذا اختفى فجأة مشهد الصقور والحدآت المحلقة طوال النهار بين السماء والأرض، وكذا تلاشى الصوت الجميل لطائر الكروان فى هزيع الليل، وتسأل عن السبب وتدرك أن تلوث البيئة والمبيدات السامة وراء هذه الظواهر المؤسفة!

ومن الظواهر اللافتة للنظر هذا التناقص التدريجي للون الأسود فى ملابس الفلاحات وعشقهن الجديد وخصوصًا الفتيات والشابات للألوان الزاهية، ولا شك أن هذه الألوان المتباينة مع خضرة الحقول ساعات جمع القطن أو نقاوته لمما يسرى عن النفس ويبهج النظر، ويوم غنى عبد الوهاب أغنية محلاها عيشة الفلاح، فقد كان هناك من يعتقد أن عبارة «الخيمة الزرقة ستراه» تعنى جلباب الفلاح التقليدى ذا اللون الأزرق، أما الآن فسبحان مغير الأحوال، فقد ابتكر كل مخرج لتمثيليات التليفزيون أو السينما أزياء للفلاحين ما أنزل الله بها من سلطان، بل وسادت الجلابية الخليجية ذات الياقة الملتصقة بالرقبة واختفت الجلابية المصرية ذات الياقة المنسدلة على الكتفين، حتى العباءة المصرية اختفت وكذا الطاقية واستبدلها المخرجون بالعباءة الخليجية والطاقية الشبيكة، فلم يعد للمصريين ما كان يلزم الحفاظ عليه من مفردات التراث ومعالم الشخصية الوطنية، زد على ذلك شيوع استخدام الكلمات والعبارات التى تتنكر للغة العربية وتعلى من قدر اللغات الأجنبية، سواء عبر الأحاديث اليومية، أو عبر لافتات المحلات وأسماء السلع الوطنية.

فى مسلسل أم كلثوم كانت عمائم المشايخ فضيحة بجلاجل، فأين ما كان للعمة المصرية من مهابة وجمال، وأذكر أن والدى وهو شيخ أزهرى كان يقضى أوقاتا سعيدة وهو يتفنن فى لف العمامة بالشال الحرير، وعندما أبديت ملاحظتى لإنعام محمد على مخرجة مسلسل «أم كلثوم»، قالت وما حيلتى وهناك متعهد لتوريد الملابس الخاصة بأدوار الممثلين.

ولأنه يحلو لى التجوال فى شوارع وأزقة القاهرة الفاطمية، من هنا لاحظت العديد من محلات سوق «التربيعة» بالغورية وقد غيرت من نشاطها، إيذانا بانحسار صناعة وتجارة «الملاية اللف»، ومن قبلها كانت قد اختفت لوازمها مثل البرقع و«العروسة» الذهب والمذهبة التى تعلو أنف النساء، وكانت من الذهب الخالص أو الذهب القشرة «الفالصو»!

وعلى ذكر الذهب القشرة أذكر أغنية شهيرة فى زماننا حيث كانت الفتاة العاشقة تغنى لحبيبها الذى يتردد فى خطبتها لضيق ذات اليد أغنية شهيرة مطلعها: «ابعت

لنا نينتك تبلف لنا نينتى، وإن كان على مهرى أبيع أنا لك صيغتى ـ وأبدلها بقشرة ولا حدش يدرى» ولا يزال حتى اليوم فى حارة اليهود ورشة صامدة لتصنيع المصوغات القشرة الجميلة التى لا تستطيع أن تفرقها بالنظر المجرد عن الذهب، ومعظم إنتاج هذه الورشة يستخدم فى الأفلام والتمثيليات التليفزيونية والمسرحيات ولا تزال تصنع منه زينة البدويات فى واحات سيوة والفرافرة وسيناء!

حتى قماش خيام السرادقات الموشى بالمنمنمات والموتيفات العربية، جار عليه الزمن وبات من القماش المطبوع، ولولا أن بعض الدول العربية لا تزال تقبل على اقتناء السرادقات المصرية التقليدية ولولا بعض الفنادق والقرى السياحية وشيوخ وأثرياء الخليج الذين يطلبون تصنيع خيامهم الخاصة لكان مصير هذه الصناعة اليدوية التاريخية إلى زوال، ولأغلق سوق الخيامية أبوابه بالضبة والمفتاح!

وعلى عهدنا برغيف العيش البلدى اللذيذ المذاق، أنه كان يصلنا كل صباح حتى بيوتنا وكان هذا التقليد يسمى «الراتب»، وألف حسرة على رغيف اليومين دول وما حل به من سوء اختيار الدقيق الرخيص، ومهزلة وزنه المنقوص وتصنيعه الردىء غير المطابق للمواصفات القياسية أو الآدمية، فضلا عن الوقوف بالساعات فى الطوابير أمام الأفران ومراكز التوزيع للحصول على أقل من احتياجات الزبون وأسرته من الخبز الشعبى!

ومن الملاحظ أن البذخ الاستهلاكى بات سمة عامة فى طعام المصريين، وفى شهر رمضان المبارك بوجه خاص وكذا المآدب تتعدد أصناف الخضار واللحوم والمحاشى والحلويات، والمؤسف حقّا أن تجد نسبة كبيرة من الطعام طريقها إلى سلة المهملات، بينما كانت العادة فى بيوت الطبقة الفقيرة أو المتوسطة الاكتفاء بصنف واحد من الطعام أو صنفين على الأكثر، وكان ذوونا يشددون علينا فى سن الطفولة اتباع تقاليد التقشف والحفاظ على النعمة عبر عبارة «كل من قدامك» أى من أقرب زاوية لصحن الطعام، وكذا تنبيهنا بعبارة «نونو ـ نونو» بمعنى الامتناع عن حشو الفم بالطعام والتمهل فى تناوله ومضغه وبلعه، فيما كان يلزم أكل كمية الطعام التى جرى غرفها فى الصحون كاملة دون أن نترك شيئا لسلة المهملات!

وأين هى الأسرة المصرية التى تصنع اليوم بعض طعامها، مثل المربى والرقاق

والشعرية أو «المفتقة» على أيامنا، وعلينا أن نتساءل: لماذا انتشرت محلات الوجبات السريعة «التيك أواى» إلا أن تكون نمطا استهلاكيا من باب الاستسهال وخراب الجيوب، ثم لماذا اختفت المشروبات والعصائر الشعبية مثل العرقسوس والتمر هندى والسوبيا على الرغم من أنها الأفضل للصحة وعمار الجيوب!

ويقول الجبرتى الكثير عن عادات المصريين فى ارتياد الأسواق وتقليب السلع والفصال حول الثمن « وشراء ما يلزم وما لا يلزم»، وأحسب أن هذه العادة لا تزال حية، عبر اقتناء ما يفوق الحاجة من الثياب والاستغناء تباعا عن القديم منها، بينما كانت الطبقة المتوسطة تشترى ملابس الأسرة مرتين فى العام، فيما كان يعرف بكسوة الشتاء وكسوة الصيف، ولو أن كل أسرة جردت ما لديها من الثياب لكان نصيب الفقراء والمحتاجين من فوائضها كبيرا، وذلك ما أكده مشروع قطار الرحمة أوائل ثورة ٢٣ يوليو!

وحتى الآن لم نسمع ولا قرأنا بحثًا اجتماعيا علميا حول الأسباب والدوافع وراء عودة العادة المرذولة والكيف المميت. . أعنى «شم الكوكايين»، وهى كانت فى الثلاثينيات موضوع مونولوج شهير يقول «شم الكوكايين خلانى مسكين». . إلخ» وبعدها تلاشى تدريجيا ثم نهائيا فى مصر ليفسح مكانه لتدخين الحشيش اللبنانى، حتى أن حى الباطنية أو الباطلية خلف الجامع الأزهر، كان سوقا رائجة لتجارته، وكانت غرز تدخين الحشيش فى كل مكان، لكن الحشيش اختفى كذلك تدريجيا أو كاد ليحل مكانه انتشار وباء البانجو والعياذ بالله الذى راح ضحيته صديقى المثال الشعبى الشهير عبد البديع، حيث اغتاله لص وهو فى حالة إدمان شديد للبانجو، والمشكلة الكبرى وراء انتشار البانجو أن زراعته سهلة وممكنة فى بلكونات وأسطح وحدائق البيوت، ونظرا لأن محصوله وفير، إذ بالمدمن يتحول تلقائيا إلى تاجر لتصريف الإنتاج الزائد عن حاجته، وبعض الباحثين بل والكتاب وبينهم محمود السعدنى وجه سهام نقده لانتشار هذا الوباء كونه نتيجة معادلة للتشدد الأمنى حول تهريب وبيع وتعاطى الحشيش، إذ كانت مضاره تهون أمام إدمان البانجو والكوكايين وتأثيرهما المدمر على العقول والمجتمع، وهو ما فطنت له بعض الدول الأوربية التى أباحت تدخين الحشيش فى إطار من الضوابط الصحية والأمنية والاجتماعية!

ثم نتساءل عن سر الانتشار المفاجئ لتدخين الشيشة مع بداية السبعينيات وزيادة عدد المقاهى بالتالى، والمثير للدهشة حقًا ظاهرة تدخين الجنس اللطيف للشيشة علانية ومعظمهن من الفتيات والشابات!

ومن فى الجيل الجديد يتذوق الغناء والموسيقى العربية اليوم، فهذا الجانب الوجدانى الذى يشكل واحدة من أهم مفردات ومعالم الشخصية الوطنية انهار تدريجيا أمام تبنى أجهزة الإعلام للموسيقى الغربية الراقصة، والإلحاح على إذاعة شرائط وأسطوانات «الفيديو كليب»، ومن عجب أنها تخضع أيضا لنمط الاستهلاك الرائج، فلا يكاد يمضى شهر أو أكثر على إذاعة الأغنية حتى ينساها المستمع وربما المطرب صاحب الأغنية، وصدق الشيخ سيد مكاوى عندما وصف ما يسمى الأغنية الشبابية بالأغنية الكلينكس، بينما كان الجيل القديم يجيد بل ويعشق الاستماع إلى أساطين الطرب العربى، ويستطيع الحكم على مدى إتقان المطرب فى أدائه للجواب والقرار، واستبيان مقام الرصد من البياتى أو الزنجرانى، وحتى قراء القرآن الكريم من المشايخ الصييتة لم تعد لهم الدراية الكافية الآن بالفروق بين قراءة «ورش» وقراءة «حفص»، والمشكلة تكمن فى تلاشى كتاتيب تحفيظ القرآن، مما يهدد تراث مصر المميز فى تلاوة وقراءة القرآن!

والبيوت وأسطح البيوت وربما حدائق وأحواش البيوت كانت الأمكنة المفضلة وشبه الوحيدة لحفلات الزواج والليالى الملاح قبل أن تجتذبها الآن صالات الفنادق والنوادى، وكانت «العالمة» الفنانة الوحيدة المؤهلة لإحياء الحفلات من الغناء إلى الرقص إلى الزفة، يساعدها فى مهمتها طاقم محترف من بنات وسيدات شارع محمد على، إضافة إلى الفرق الموسيقية المصاحبة لها، وأذكر أن العالمة كانت غالبا ما تصل الفرح متأخرة وفى أبهى زينتها من باب التشويق، ولا أنسى العالمة الشهيرة «أونس» والدة الراقصة نبوية مصطفى، إذ كان لديها رصيد من الأغنيات التى تتغنى بمهنة كل عريس، وقد سمعتها تغنى فى حفل زواج ابن المستشار إبراهيم بك شلبى بمنزله فى حى الروضة، ولأن العريس كان ضابطا فى الجيش برتبة ملازم، من ثم انطلقت الست أونس تغنى قائلة: (النجمة بتاعتك عاجبانى والسيف على جنبك خلانى.. حبيتك يا ملازم تانى).

ومما لا شك فيه أن جرائم النشل وسرقة الغسيل من أسطح البيوت والبلكونات انحسرت إلى حد كبير، لكن جرائم أخرى أشد وبالا حلت مكانها، وبينها الاغتصاب والقتل لأسباب تافهة، ودائمًا فتش عن الدوافع فى ظواهر المخدرات والبطالة والعشوائيات السكانية والتطلعات الطبقية المريضة، إضافة لتفشى العنوسة والعزوبية، وقد لفت نظرى تكرار حوادث الاغتصاب عبر اختطاف الضحايا من مواقف الميكروباصات، ثم ارتكاب الجريمة فى الأماكن النائية والمبانى تحت الإنشاء، بينما لم يشهد حى منيل الروضة حيث نشأت وترعرعت سوى ثلاثة من الخارجين عن القانون، أذكر بينهم الشاب عيد الذى سرق جملا من قافلة جمال كانت فى طريقها إلى المذبح بعد أن سمع من يقول له: «إذا سرقت اسرق جمل»، ثم لم تمض أيام على خروجه من السجن حتى ساورته نفسه لسرقة سرير حديدى متواضع كان ينام فوقه وقتئذ حارس مستشفى الدكتور رامز!

والحقيقة أن عسكرى البوليس زمان كان مهابًا وأنيقًا، حيث كان هندامه خاضعا للتفتيش يوميًا، حتى زراير البدلة النحاس كان يلزم تلميعها، وكانت مهمته حماية أمن المواطنين وممتلكاتهم، قبل أن تتفاقم المشكلات السياسية والإرهاب، حيث أصبح أمن النظام يجور على غيره من واجبات الشرطة، إلى حد التراخى والاستعجال فى قيد محاضر الجنح شفاهة وخارج دفتر الأحوال غالبا!

وبينما كان المثل القائل «إذا أردت أن تنجز فعليك بالونجز» عنوانا لتسهيل قضاء مصالح الجمهور فى الدوائر الحكومية عبر تقديم سيجارة رخيصة ماركة «ونجز» للموظف المختص، بات المثل الراهن «أبرز إذا أردت أن تنجز» بمعنى المبالغة فى الرشوة عينى عينك إلى حد اقتسام الأموال المختلسة من البنوك وتمرير عطاءات المشروعات الحكومية دون وجه حق!

ونحسب أن أبرز مظاهر التغيير فى حياتنا إلى الأسوأ، تكمن فى تدهور نظام التعليم، إذ كانت المدارس على أيامنا جنة فيحاء، ولا أنسى أن التلميذ فى مدرسة العقادين الابتدائية بمصر القديمة، كان من حقه حتى أواخر الأربعينيات الاستمتاع بزراعة حوض خاص به فى حديقة المدرسة، وله الحرية أن يزرعه ذرة أو فولا أو زهورا، وكان الفصل على اتساع مساحته يستوعب ما بين عشرين إلى خمسة

وعشرين تلميذا فحسب، وكان اليوم الدراسى ممتدا من الصباح حتى ما بعد العصر، وفضلا عن الدراسة المشوقة فى الفصول، كانت لها امتدادات خارجها لممارسة فنون الرسم والأشغال وفلاحة البساتين فى قاعات خاصة، كما كان للرياضة نصيبها الأوفى من النشاطات المدرسية، وكذا التمثيل والخطابة والكشافة والقسم المخصوص أى الألعاب السويدية، وهل ننسى الرحلات المدرسية إلى ربوع مصر التاريخية والسياحية، وتلك الخرائط الجميلة التى كان يطالعنا بها مدرس الجغرافيا، وكذا وسائل الإيضاح فى حصة الطبيعة؟! والأهم من هذا وذاك تلك العلاقة التربوية الرائعة التى كانت تربط التلاميذ بالحب والاحترام للمدرسين، و. .

أتذكر أن طلبة المدارس الثانوية الكبرى كالسعيدية والإبراهيمية والخديوية كانوا يأخذون على عاتقهم تمكين تلاميذ المدارس الابتدائية من الخروج فى المظاهرات الوطنية التى كانت تندد بالملكية وتهتف بسقوط الاستعمار وشعاراتها الأثيرة «اليوم حرام فيه العلم» و«مصر والسودان لنا وإنجلترا إن أمكنا»، ثم نضرب كفاً بكف على ما آل إليه التعليم اليوم من الظواهر المرضية، بداية بضعف الانتماء الوطنى وافتقار العلاقة بين الطالب والمدرس إلى الاحترام، مرورا بتحول المدارس إلى ما يشبه أقفاص الفراخ البيضاء، نهاية بالدروس الخصوصية ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ولعله من المخاطر النفسية والسياسية التى تهدد السلم الاجتماعى، تلك النبرة التى تشى فى أحاديث المصريين باليأس والإحباط أو الاكتئاب، فلم يعودوا يجتمعون إلا وكان حوارهم فى الغالب عن السلبيات، وبأكثر من التفاؤل بالمستقبل الأفضل، لكن من الملاحظ أن أحوال المصريين باتت تسلك الطريق الصحيح فى الآونة الأخيرة، عبر الشروع ـ وخاصة الشباب ـ إلى المشاركة السياسية فى أشكال نضالية وثقافية متباينة لإرساء معالم جديدة للديمقراطية عملا بالمثل القائل «ما حك جلدك مثل ظفرك»!

وبينما تبتدع الدول والشعوب المتقدمة المناسبات التى تحتشد من أجلها للفرح والحبور، اندثر واحد من أهم الأعياد المصرية الموسمية السعيدة، حيث كانت

القاهرة تشهد فى موسم فيضان النيل كل عام عيد «جبر البحر» الذى تغير اسمه بعدئذ إلى عيد «وفاء النيل»، حيث كانت باخرة كبيرة مزينة بالأعلام والبالونات تبدأ رحلتها من كوبرى قصر النيل، تزفها المئات من المراكب الشراعية والقوارب حتى تصل إلى مقياس النيل بالروضة، وعندها يلقى محافظ القاهرة دمية جميلة فى النيل بديلا عن قربان الفتاة الشابة التى تتحدث عنها الأساطير الفرعونية من باب التعبير عن الشكر والسعادة لوفاء النيل بالفيضان الذى يحمل الطمى إلى مصر عاما بعد عام إيذانا بالنماء والخصوبة، ثم أذكر أصوات الباعة ليلة شم النسيم وهم ينادون على بضاعتهم من نبات «رعراع أيوب»، إذ كان بديل الصابون لاستحمام الأطفال فى تلك الليلة، بانتظار أن تزورهم «الشمامة» وهم نيام حتى تتأكد من نظافتهم ونعومة بشرتهم ورائحتهم العطرة، ومما ترويه الأساطير عن هذا النبات، أن سيدنا أيوب صبر طويلا على مرض جلدى ابتلى به، إلى حد أن الناس كانت تفر منه خشية العدوى، حتى كان اغتساله يومًا فى النيل، حتى راحت زوجته تحك جلده بنبات عشوائى كان منتشرا على الشاطئ اسمه «رعراع» ومن يومها بات لصيقا باسم سيدنا أيوب!

* * *

على أنه لكى تكتمل ملامح المجتمع المصرى والكشف عما تيسر من خباياه فى النصف الثانى من القرن العشرين الذى عشناه بالطول وبالعرض وتجرعنا مراراته وارتشفنا مباهجه حتى الثمالة، يجدر بنا أن نعرض لبعض الوقائع التى تشى بعشق المصريين التاريخى للسخرية وحبك النكتة التى تفصح عن مسرات القلب أو تعبر عن موقف ما، وربما كانت أداة للإنقاذ من مأزق أو مشكلة بذكاء ولماحية!

* كان لنا صديق صحفى سكندرى اسمه إبراهيم العربى ـ يرحمه الله ـ وكان آية فى الخلق والثقافة وطيبة القلب، ولأنه زمان كان الفيلم الأجنبى يجرى عرضه حتى أوائل الخمسينيات على شاشة كبيرة، وإلى جوارها شاشة صغيرة تتابع ترجمة حوار الفيلم إلى اللغة العربية بشكل متزامن مع أحداثه وحواراته، ومن هنا شاء حظ إبراهيم العربى العاثر أن يدخل السينما لأول مرة فى حياته لمشاهدة فيلم أجنبى وكان قد مضى على بداية عرضه ربع ساعة، وفى تلك اللحظة كانت

الشاشة التى تعرض الترجمة العربية قد تعطلت، والجمهور الساخط يسب العامل المسئول عن عرض الفيلم قائلا: «العربى يا وسخ»، وعندئذ ظن إبراهيم العربى المسكين أنه المقصود بالسباب.. وقفل راجعا وهو يقسم يمينا مغلظا بالامتناع عن ارتياد السينما طوال حياته.

* صديق آخر ظريف غاية فى الرقة والأدب الجم يدعى «ع. زينهم»، كان طالبا بكلية الشرطة أوائل الخمسينيات حين كلف فى السنة النهائية للدراسة بالتدريب فى قسم شرطة الدقى عام ١٩٦٢ حتى يكتسب الخبرة العملية التى تؤهله للتخرج، وهكذا أقبل على التجربة فى همة ونشاط، فكان يتعامل مع المترددين من الجمهور على القسم فى ود واحترام ويحل مشكلاتهم بالفهم والصبر والقانون ومراعاة حقوق الإنسان، لكن هذا السلوك لم يرق للصول المكلف بتدريبه وقال له إن عليك لكى تصبح ضابط شرطة مهابا أن تجعل بينك وبين الجمهور حجابا لا تتعداه ولا يتعدونه، حتى لو اقتضى الأمر للحفاظ على هيبتك وهيبة قسم الشرطة تأديب المتطاولين ومثيرى الجلبة عبر صفعهم على أصداغهم أو أقفيتهم!

ذات مساء كان الطقس صيفا قائظا، عندما اصطحب محافظ الجيزة... السيدة حرمه فى نزهة بسيارته الخاصة، فلما وصل إلى كوبرى بديعة سابقا والجلاء حاليا اكتشف أنه مغلق أمام السيارات حتى تتمكن المراكب الشراعية ذات الصوارى العالية من المرور فى النيل ومن ثم كان عليه أن ينتظر، وعندئذ وجد رجلا يحوم حول سيارته، ثم يعرض عليه أن ينال حريته وأن يكمل مزاجه «مع الست اللى معاه» فى إحدى المراكب الراسية إلى جوار الكوبرى، واستفهم المحافظ منه حول ما يعنيه بالمزاج، وقال: البيرة متوفرة والحشيش كمان؛ ومن ثم استدار بسيارته عدة أمتار حتى توقف قبالة قسم الدقى، وهناك صاح بأعلى صوته «فين الضابط النوبتشى»، وخرج إليه صاحبنا «ع. زينهم» يطلب منه أن يلزم حدوده ويخفض من صوته فلما لم يرتدع، عندئذ لم يجد بدا من أن يوبخه ويسبه أولا ثم صفعه بعد ذلك على وجهه، ولم يكن ثمة مفر من أن يعلن المحافظ عن شخصيته وكفى ما ناله من إهانة، وعندئذ وقع صديقنا الهمام على الأرض مغشيا عليه، ثم احتضن ساقى المحافظ بكل قوته وهو يقبلهما دون أن يسمح له بالفكاك قبل أن يحكى عليه قصته، وأنه من أسرة فقيرة للغاية، ولم يبق سوى أيام على تخرجه

وإسعاد أمه المسكينة، وكيف أنه ضحية تعليمات ونصائح حضرة الصول المسئول عن تدريبه، وعلى الرغم من أن المحافظ أدرك الموقف، إلا أن صديقنا ظل يمسك بتلابيب ساقيه حتى أقسم المحافظ بالامتناع عن محاكمته وفصله بالتالى من كلية الشرطة، وبعدها تخرج «ع. زينهم» وتدرج فى السلك الوظيفى حتى أحيل إلى المعاش برتبة لواء!

* كان الشيخ عبد الحميد قطامش محامى الأحوال الشخصية من ظرفاء عصره ومن الرواة الحكائين الذين لا يشق لهم غبار، وكان زميلنا حمدى لطفى الكاتب الصحفى بمجلة المصور قد وكله فى رفع قضية خاصة، لكن يشاء حظه العاثر أن محامى خصمه ظل دائما يطلب من المحكمة تأجيل المرافعة فى تلك القضية عدة مرات مما عطل الفصل فى مصيرها عامين، لكن حمدى لم يقتنع بأسباب التعطيل وظن أن قطامش لا يعير قضيته الاهتمام الكافى خاصة أنه لا يتقاضى منه أجرا بحكم الصداقة، ومن ثم قرر أن يدبر له مقلبا محبوكا على سبيل الانتقام.

ولأن قطامش كان منفصلا وقتئذ عن زوجته، ودائما ما يبدى اشتياقه وولعه بالمرأة عن بعد، من هنا كان سروره البالغ عندما تلقى فى ساعة متأخرة من الليل مكالمة تليفونية بصوت أنثوى ساحر، راحت صاحبته تتغزل فى محاسنه والإشادة بمواهبه، وكيف أنها شاهدته واستمعت لمرافعته فى إحدى القضايا المنظورة أمام محكمة باب الخلق، وأثنت على لباقته وذكائه حتى حكمت المحكمة لصالح موكلته و. . كان ذلك صحيحا بالفعل، فهو سبق وروى تفاصيل مرافعته المشهودة فى محكمة باب الخلق أمام حمدى لطفى الذى استغلها فى مكالمته التليفونية معه مقلدا صوت المعجبة التى شغفت به، وهكذا ظل يروى على مسامعنا تباعا ما يجد من حوارهما المثير كل مساء!

بعدها راق لحمدى لطفى إيهام قطامش أن صاحبة الصوت الأنثوى التى تقمصها أميرة من أسرة محمد على تدعى شاهيناز، وروى له الكثير عن حالها وأحوالها فى أعقاب اندلاع ثورة يوليو ١٩٥٢، وأنها وحيدة، وكثيرا ما تفكر فى بيع ما لديها من المجوهرات الثمينة والهجرة إلى الخارج، لكن قطامش حبب لها البقاء فى مصر، ثم تجرأ وأبدى استعداده للزواج بها بعد أن يتم اللقاء المباشر بينهما!

وكنا أصدقاؤه على علم بالمقلب الذى دبره حمدى لطفى، حتى أن الشاعر الفنان عبد الرحمن الخميسى روى على قطامش قصة مشابهة من الأدب الروسى تكاد تتطابق وقصته مع الأميرة شاهيناز، حول أميرة من سلالة القياصرة أطاحت بها الثورة الشيوعية، وكيف أنها وقعت فى غرام واحد من أبرز زعماء الثورة!

على أننى عندما عدت إلى القاهرة بعد نحو شهر من مهمة صحفية باليمن وكان برفقتى حمدى لطفى المحرر العسكرى بمجلة المصور، كانت أول زيارة قمنا بها لصديقنا عبد الحميد قطامش فى مكتبه وسكنه معا بالسيدة زينب و. . سألته: يا ترى أخبارك إيه مع الأميرة شاهيناز؟

قال: وحياتك كانت هنا إمبارح وكانت ليلة لها العجب!

* كان الفنان الكبير يوسف وهبى يعرض مع فرقة رمسيس رواية «راسبوتين» فى مدينة دمياط، . وبينما كان مندمجا فى مشاهد المسرحية العنيفة التى كان يؤديها باللغة العربية الفصحى، إذ بواحد من المتفرجين الدمايطة يقف معلنا تبرمه وقال: ما تسيبك من النكد ده يا يوسف بك وغنى لينا مونولوج فرايحى لشكوكو!

* اشترك قسيس وشيخ فى شراء موبايل تمكينا للصداقة وزيادة المحبة بينهما، ومضى بعد ذلك ثلاثة أسابيع والقسيس منفرد بالحديث وتلقى المكالمات عبر الموبايل، وقال له الشيخ محتجا: كيف تنفرد بالموبايل وتحرمنى منه. . ألسنا شركاء فى ملكيته؟ وقال القسيس: المسألة ببساطة أننى أستخدمه كلما «دق الجرس»، ومن حقك كذلك أن تستخدم الموبايل عندما تسمع «الأذان»!

وإذا كانت تلك بعضا من ملامح التغيير التى طرأت على المجتمع المصرى خلال النصف الأخير من القرن العشرين، إلا أن هذا التغيير تمادى فى إيقاعه وتأثيره المباشر سواء بإيجابياته وسلبياته على كل صعيد فى أعقاب رحيل جمال عبد الناصر وقدوم عهد الرئيس أنور السادات، وذلك ما تحريناه ضمنيا بالرصد والعرض عبر صفحات هذا الكتاب بكل شفافية وتجرد وأمانة لا تخلو من الانتقائية بالطبع!

مقاهى الفكر والأدب والفن

لا شك أن الرصد الأمين والممتع للمقاهى فى كتاب «خبايا القاهرة» الذى عرضناه فى البداية، سبقه ثم لحقه من بعد العديد من الكتب والكتابات التى عنيت بالتأريخ لعوالم وأجواء المقاهى، وما طرأ عليها من متغيرات أو مستجدات، سواء على الصعيد الوظيفى أو على صعيد الزبائن بطبقاتهم وحرفهم وأمزجتهم وشواغلهم. والشاهد أنه منذ أدركنى الوعى وأنا عاشق للمقاهى، إذ كان والدى العالم الأزهرى يصحبنى إليها حتى يمارس تدخين التمباك العجمى والالتقاء بأقرانه المشايخ وأصدقائه الأفندية، يتبادلون الحوارات الجادة وآيات الظرف والفكاهة التى كانت عقليتى الغضة تئن بلا جدوى من متابعتها وفهمها، فكان والدى يكافئنى على صبرى واحتمالى كأن يطلب لى واحد سحلب أو كاكاو باللبن أو زجاجة كازوزة مثلجة. . وربما طلب من الجارسون أن يشترى لى طبقًا مشكلاً من الكنافة والبقلاوة والبسبوسة من أقرب حلوانى. . فكنت أتلهى بمراقبة حركة الزبائن والتفرس فى وجوههم ومتابعة أحاديثهم ولهوهم البرىء لألعاب الطاولة والدومينو والشطرنج، وأحسب لذلك أننى اكتسبت عبر هذه المقاهى ملكات مضافة تتراوح بين الفضول والتأمل وحسن المعاشرة ومناقشة أصعب المشكلات بهوادة وصبر!

ومنذ الأربعينيات أصبحت مع توالى السنين زبونًا شبه دائم ومنتظمًا لمعظم مقاهى القاهرة المعروفة والمجهولة، أهفو إلى هذه أو تلك بحسب الظروف والرفقة الجميلة وحالتى النفسية وأيضًا من باب التواصل مع المكان والأجواء والزبائن. .

وكثيرًا ما ذاكرت بعضًا من دروس الثانوية والجامعة واستوعبت معضلاتها جالسًا على مقعد قصى برغم الجلبة فى واحدة من تلك المقاهى، فيما نعتنى البعض من أقاربى المحافظين ظلمًا بأوصاف تتراوح بين البوظان والانفلات الاجتماعى، بدعوى أننى ولد بتاع قهاوى!

على أننى لم أنتظم فى تدخين النارجيلة أوالبورى إلا فى السبعينيات، كلما عزمت على الامتناع عن تدخين السجائر بالتدريج، وبعدها اكتشفت أننى أداوى نفسى بالتى كانت هى الداء. وأننى أسير العادتين عبر استشراء تدخينى للبلاءين معًا.. وكلما قرأت عن مضار التدخين ضحكت.. وشر البلية ما يضحك.. فهأنذا والحمد لله فى السبعين والصحة «بمب» وعال العال، لكن بعد أن داهمنى المرض «إياه».. كان لا مفر من الإقلاع بتاتًا عن التدخين والباب اللى جاءنى منه الريح أغلقته واسترحت غصبًا عنى.

الفاطميون فى مصر

كثيرون هؤلاء الذين التفتوا إلى الكتابة عن ظاهرة عشق المصريين للمقاهى بوجه خاص وتسجيل أجوائها وتقاليدها وزخارفها ومبانيها ومنقولاتها ومعداتها ونمارقها على غرار كتاب «وصف مصر» الذى توافر على إعداده نخبة من العلماء والخبراء الفرنسيين الذين وفدوا فى ركاب حملة نابليون بونابرت وأكدوا أن القاهرة كانت تضم وحدها عهدئذ ١٣٥٠ مقهى على الرغم من أن سكانها لم يتجاوزوا ثلاثمائة ألف نسمة.

وقد أحصى العالم المؤرخ على باشا مبارك زهاء ١٠٦٧ مقهى فى القاهرة وحدها عام ١٨٨٠، وهناك كتاب «مقاهى الشرق» لجورج ليمر ترجمه الأديب جمال الغيطانى وكتاب قهاوى الأدب والفن للأستاذ عبد المنعم شميس الكاتب الصحفى المعروف، ثم كتاب «القهوة والمقاهى فى الشرق» وهو دراسة ميدانية للباحث الأمريكى رالف هاتوكس من مطبوعات جامعة واشنطن.. فيما صدر أخيرا كتاب للصحفى الأديب محمد عبد الواحد بعنوان «حرائق الكلام فى مقاهى القاهرة».

ويروى أن الفاطميين على الرغم من تزمتهم الدينى كانوا أكثر الذين حكموا مصر فهمًا لطبائع المصريين ومجاراتها على حد رصد العديد من المؤرخين والدارسين، إذ كانوا ولايزالون يغلب عليهم حب التنفيس عما يدور فى عقولهم وتضيق به صدورهم، ولذلك يسعدون بالتحشد والأفراح والتهاليل، ومن هنا ظلت آثار الفاطميين والتقاليد الموروثة عنهم باقية ومتجددة حتى يومنا هذا. . مثل احتفالات عاشوراء والاحتفالات الرمضانية ومناسبة شم النسيم وموالد أهل البيت. ولا يزال أهل القاهرة يحبون المرح والسهر والحديث والسماع واللهو البرىء والاختلاف إلى المقاهى التى تلبى هذه المشارب وما توفره من المتع الإنسانية المشروعة!

من أعرق مقاهى القاهرة وأكثرها قدما وشهرة، تلك التى كان يرتادها أرباب الحرف، فكان للخطاطين والنساخين والرسامين والمجلداتية والمذهبتية مقهى فى حى الحسين على مقربة من مكتبة «الحلبى» الشهيرة المتخصصة فى طبع أمهات الكتب وعيون التراث العربى والإسلامى. كما كان للحلاقين مقهى وآخر للبنائين والمبلطين والمنجدين والسفرجية، وكذا مقاهى الآلاتية التى تجمع العازفين للموسيقى والمطربين والملحنين وكانت فى شارع محمد على. . ولا يزال حتى الآن العديد من المقاهى الخاصة بأبناء محافظات الصعيد والدلتا والنوبة، وتنهض كذلك بدور مكاتب تشغيل العمالة وحل مشكلاتهم!

من المعالم التاريخية لأهل الفكر والسياسة وأصحاب العقائد والرسالات مقهى «متاتيا» أو قهوة البوستة فى ميدان العتبة فكان من روادها سعد زغلول باشا والعقاد والمازنى وحافظ إبراهيم والبارودى والهلباوى والمويلحى ويعقوب صنوع وعبد الله النديم والشيخ الداعية والمفكر الإسلامى الثائر جمال الدين الأفغانى الذى كان يوزع عليهم «السعوط» بيمينه والثورة بشماله وينسج من تفاعلات الحوارات المتبادلة مناهج وأساليب للنضال والتغيير ومهام وطنية وقومية جاهزة للتنفيذ، بينما كان للسينمائيين والكومبارس والمسرحيين مقاهيهم الخاصة بشارع عماد الدين، فكان الناس يمرون عليها أو يقفون أمامها حتى يشاهدوا النجوم والكواكب ويبادلوهم التحايا والفوز بصورهم أو توقيعاتهم!

منتدى الظرفاء والشعراء

مقهى اللواء بباب اللوق الذى اكتسب اسمه من جريدة اللواء التى كان يصدرها الزعيم الوطنى الشاب مصطفى كامل باشا رئيس الحزب الوطنى وكان ملتقى السياسيين وفحول الظرفاء والشعراء والمثقفين والصحفيين المطربشين والمعممين منذ أوائل القرن العشرين وفى مقدمتهم مصطفى كامل وشقيقه على كامل والشيخ عبد العزيز جاويش ومحجوب ثابت والشيخ حلمى طومارة وحفنى محمود باشا وزير المواصلات وأنطون الجميل صاحب جريدة الأهرام والشعراء كامل الشناوى وطاهر أبو فاشا وعبد الرحمن الخميسى والشيخ عبد الحميد قطامش ومصطفى حمام وعبد الحميد الديب ودسوقى أباظة باشا والضاحك الباكى فكرى أباظة باشا الكاتب الصحفى والنائب البرلمانى ومحمد البابلى وعبد العزيز البشرى ومندوب الأهرام فى القصر الملكى ثم فى رئاسة الجمهورية عبد الحليم الغمراوى الذى أقسم على الاستمرار فى ارتداء الطربوش والبدلة السوداء حتى تتحرر مصر من الاستعمار البريطانى! .

والحقيقة أننى عندما أراجع كم المعلومات والذكريات الباقية عن مقهى اللواء والحافلة بالإبداعات الأدبية والمساجلات الشعرية ونوادر الظرفاء ومقالبهم، أشعر بمدى الحاجة إلى إصدار كتاب خاص يسجل التاريخ الوجدانى لهذا المقهى تحديداً خلال تلك الفترة الخصبة الحافلة بالأحداث السياسية والتقلبات الاجتماعية، وتلك الشخصيات النادرة التى لاتتكرر، كونها صورة صادقة تعكس أدق التفاصيل المثيرة والحية لذلك الزمان الجميل!

كذلك كان للمقاهى دور مهم وحيوى فى ازدهار الحياة الثقافية والأدبية والفنية، وملتقى للحوار بين أربابها، واكتشاف الموهوبين فى أجوائها، والعناية بتراث الآداب والفنون الشعبية وبينها المساجلة الأدبية المعروفة بأولاد رمز أو «بتوع رمز» التى تعتمد على رواية الحكايات عبر أسلوب الرمز، وكذلك فن «القافية» وأسلوبها الفكاهى المتبادل بين رجلين، الأول يطرح معلومة فرضية والثانى يرد عليه بكلمة «اشمعنى» فيرد عليه بالإجابة الذكية أو الساخرة التى تثير الضحكات، وكذا رواية السير الشعبية على الربابة مثل سير الهلالية والظاهر بيبرس والأميرة

ذات الهمة، وفى المناسبات الدينية كانت بعض المقاهى خصوصاً فى الحسين تقدم هذه الفنون الشعبية ،كذا المشايخ الذين يتلون القرآن وينشدون المدائح النبوية!

من مقاهى المثقفين والأدباء والسياسيين التى ظلت تجمع شملهم، مقهى «السلام» فى شارع إبراهيم باشا وكان ملتقى للصحفيين، ومقهى الحرية بباب اللوق وشهد نجوما من رجالات العهد الملكى البائد وكذا بعضا من اجتماعات الضباط الأحرار الذين قاموا بثورة ٢٣ يوليو، بينما كان مقهى «ركس» يحفل برواده من ألمع النجوم وبينهم نجيب الريحانى وأنور وجدى ومحمود المليجى وإستيفان روستى ومعظم فنانات هذا الجيل، وفى السنوات الأخيرة شهدنا افتتاح مقهى «الأبيض» بشارع السودان حتى أصبح تلقائيا ملتقى المخرجين والكتاب والفنانين التشكيليين والملحنين ومؤلفى الأغانى!

ليلة الدخلة الأدبية

وقد عرفت القاهرة مقهى الفيشاوى منذ القرن التاسع عشر وكان فى زمانه المتلألئ تحفة من فنون الأرابيسك والنجف الكريستال التركى والبوهيمى الملون والمرايا البلورية المشطوفة، ويصعب استثناء واحد من مشاهير مصر وعلية قومها لم تتح له فرصة التردد على الفيشاوى. وكان من بين زبائنه الدائمين الشاعر البائس عبد الحميد الديب الذى أقام له الأدباء والشعراء فى الأربعينيات حفلاً تاريخياً حيث تباروا فى تقريظ موهبته والسخرية من غبائه الاجتماعى حتى مطلع الفجر، وذلك بمناسبة زواجه الذى أطلقت عليه الصحافة وقتئذ وصف «ليلة الدخلة الأدبية».

وكم كانت فرحتى لا توصف عندما كنت فى انتظار قدوم نجيب محفوظ لعلّى أفوز بجلسة للحوار معه، وكان على عادته اليومية السابقة بعد خروجه من عمله فى إدارة القرض الحسن التابعة لوزارة الأوقاف، حيث يصل الفيشاوى فى تمام الثانية والنصف عصراً ويمر أولاً على المكتبة التجارية المجاورة لعله يجد فيها جديداً يصلح للقراءة وبعدها يبادر صديقه بائع الكتب الضرير القصير القامة عم إبراهيم بمداعباته، وكان عم إبراهيم على عادته دائماً حين كان يقف على قدميه أو

يطوف بجنبات مقهى الفيشاوى وهو ينادى بأعلى صوته على بضاعته : معانا «الأغانى للأصفهانى»، معانا «مروج الذهب»، معانا «ابن إياس»، وكم كان يحلو لى تنسم عبق الماضى عبر الاستماع إلى ذكريات وعنتريات الحاج فهمى الفيشاوى إبان فترة فتوته وفروسيته وولعه بمجالس المثقفين والظرفاء وحفظ نوادرهم التى ظلت تتردد فى جنبات المقهى وحكاياته الطريفة عن هوايته القديمة المفضلة . . وكانت مصارعة الديوك الهندى!

ولا أنسى بالمناسبة المفكر والكاتب الكبير محمد عودة عندما كان يصطحب بريما كوف مراسل صحيفة «البرافد» بالقاهرة، حيث كان يحلو له تدخين النارجيلة وشرب الشاى الأخضر فى الفيشاوى قبل أن يصبح رئيسا للحكومة الروسية فيما بعد!

المشايخ كذلك وطلبة الأزهر كانت لهم مقاهيهم الخاصة فى حى الحسين وأشهرها «قهوة شعبان» وكان من زبائنها الدائمين المطرب محمد الكحلاوى، بينما كانت «قهوة الأفندية» وقفًا على روادها من الأفندية المطربشين وأشهرهم الكاتب الصحفى فكرى أباظة الذى عرف بلقب «الضاحك الباكى»، غير العديد من المقاهى التى كان يرتادها أرباب الطرق الصوفية وكذا المقاهى التى كانت تأوى إليها صنوف وألوان المغيبين عن الوعى من مجاذيب سيدنا الحسين، وكان أشهرهم «على نيابة» ذلك الرجل العجيب الذى تقمصته روح ضابط فى جيش محمد على، فكان حريصا على ارتداء ملابسه العسكرية التاريخية، وهو يضع على رأسه طربوشا له زر طويل، ويزين صدره بأنواع عديدة من الأوسمة «الفالصو» وسدادات زجاجات المرطبات، والحق أنه كان بطلعته الكوميدية وعينيه المكحلتين ومشيته العسكرية وسيفه الصفيح ونداءاته الحماسية المبهمة، الفرجة المفرحة لرواد الليالى الرمضانية فى حى الحسين!

أما مقاهى ميدان باب الخلق فكانت ملتقى المشتغلين بالمحاماة وأصحاب القضايا التى تنظرها محكمة باب الخلق، وكانت أيضًا ملتقى بعض الأدباء والشعراء الذين يتحلقون بشاعر النيل حافظ إبراهيم والشاعر أحمد رامى كلما اختلسا بعض الوقت من العمل فى «الكتبخانة» أى دار الكتب المجاورة، وكان من

جلسائهما الشاعر الأسمر الظريف إمام العبد، إضافة إلى ما ذكره كتاب «خفايا القاهرة» عن روادها السابقين!

أما الدكاترة زكى مبارك فكانت جلسته المعتادة مع قرائه ومحبيه فى مقهى «مانولى» بميدان سليمان باشا سابقًا، كذلك كان للأدباء وقتئذ ملتقى آخر ليلى فى «المقهى العالى» بشارع محمد على، وكان من أشهر رواده الأديب محمد السباعى والد يوسف السباعى، بينما كان لفنان الشعب الخالد سيد درويش جلساته وحواراته وسهراته مع الشعراء والموسيقيين فى مقهى أبو شنب قبالة وزارة الداخلية بالسيدة زينب، بل وكان للشعراء الرومانسيين مقاه خاصة وبينها مقهى المهدى بالسيدة زينب، ومقهى عرابى بباب الشعرية، ومقهى الكمال فى درب الجماميز وكان بين ألمع هؤلاء الشعراء محمود حسن إسماعيل وأحمد مخيمر ومصطفى حمام وعبد الحميد الديب وعبد الرحمن الشرقاوى وعبد الرحمن الخميسى وكمال الحناوى وكامل أمين وعبد الفتاح إبراهيم والشاعر السودانى الدكتور محيى الدين صابر الذى أصبح وزيرا للتعليم إبان فترة حكم الرئيس النميرى.

وعندما عرفت القاهرة ظاهرة الفنادق فئة الخمسة نجوم أواخر الخمسينيات، كان للشاعر كامل الشناوى منتداه كل مساء فى كافيتريا فندق الهيلتون، وكافيتريا «داى أند نيت» بفندق سميراميس القديم، واستطاع بمكانته ونفوذه تحويل الركن الذى كان يلتقى فيه مع أصدقائه ومريديه إلى ما يشبه المقهى الشعبى بأجوائه وصخبه وأسعاره التى كانت فى متناوله هو. . إذ كان يرحمه الله لا يقبل أن يدفع أحد حسابه فى حضوره!

قهوة محمد عبد الله والهجرة إلى أنديانا

وقد أسعدنى الحظ حين قدر لى ارتياد قهوة محمد عبد الله الشهير التى كانت تطل على ميدان الساعة بالجيزة قبل أن تغلق أبوابها منتصف الخمسينيات، وخلدها الأديب والكاتب الساخر محمود السعدنى فى كتابه الممتع «مسافر على الرصيف»، وحكى المهم والمثير عن زكريا الحجاوى عمدة المنتدى وعن الشيخ عبد الحميد قطامش المحامى الشرعى وعن الشاعر الفنان البوهيمى عبد الرحمن الخميسى

وغيرهم، بل إن هذا المقهى شهد ولادة العشرات من نوابغ الأدب والصحافة، وبينهم الدكتور يوسف إدريس والكاتب الأديب سمير سرحان ورسام الكاريكاتير طوغان والفنان الشامل صلاح جاهين والناقد المبدع رجاء النقاش وشقيقه الأديب الراحل وحيد النقاش، والأديب الأردنى غالب هلسا والشاعر الفلسطينى معين بسيسو والشاعر السودانى محمد الفيتورى، بل وكان الرئيس أنور السادات أيضًا من المترددين على المقهى فترة فصله من الجيش، وهو قد أخذ عن أستاذه زكريا الحجاوى الكثير من العبارات الشعبية التى كان يستخدمها عادة فى خطبه الارتجالية مثل «كبير العائلة» وهو الوصف الذى خلعه على نفسه و«صينية العشاء» التى وصف بها موقف الاتحاد السوفيتى الشهير عندما بادر إلى تعويض الجيش المصرى بالأسلحة والمعدات العسكرية التى فقدها فى حرب يونيو ١٩٦٧!

وفى كتابه الجميل «على مقهى الحياة»، أرخ الدكتور سمير سرحان للعلاقة الحميمة بين زكريا الحجاوى وشيخ النقاد أنور المعداوى وبين الأدباء الشبان، كما لو أنها العلاقة الروحية بين شيخ الطريقة ومريديه وأتباعه، يقول: «كان محمود السعدنى وزكريا الحجاوى هما رمزا قهوة محمد عبد الله، بولعهما الشديد ـ بل وعشقهما ـ لحوارى الجيزة القابعة خلف قهوة محمد عبد الله، خلال الأزقة والحوارى المتعرجة وصولاً إلى ميدان «سوق الحد» وحتى منطقة «ساقية مكى» التى تفصل حضر الجيزة عن ريفها فى عالم زاخر بالشخصيات والأنماط الشعبية والتراث. وهو ـ فى اعتقادى ـ الذى أعطى زكريا الحجاوى الشرارة المقدسة التى أطلقها باحثًا فى أرجاء مصر كلها عن حكمة هذا الشعب ممثلة فى الكلمة والموال والحكاية والأغنية!

ويقول الدكتور سمير سرحان: «إلى جانب الحركة الثقافية والفكرية والنقدية الزاخرة التى ارتبطت بقهوة محمد عبد الله، فقد ارتبطت بها أيضًا حركة اكتشاف الينابيع الأصيلة للأدب الشعبى والفنون الشعبية، وإثارة الاهتمام بالفولكلور بوصفه الكنز الهائل للموروث الشعبى الذى شكل وجدان الشعب وشخصيته الثقافية المميزة على مر العصور، وإذا كان زكريا الحجاوى فارس هذه الحركة على المستوى الميدانى، فإن أحمد رشدى صالح هو فارسها أيضًا على المستوى الأكاديمى، وقد كان رشدى صالح من رواد قهوة محمد عبد الله وارتبط بجلستها

الليلية شأن بقية أدباء المقهى، لكنه كثيراً ما كان يخلد إلى جلسة أخرى فى كازينو يقع على الجانب الآخر من ميدان الجيزة العتيد هو كازينو «صان صوصى» وهى كلمة فرنسية تعنى «بلا أحزان» وكان من جلسائه الدكتور على الراعى الجاد دومًا والمتجهم دومًا!

على أنه فى أجواء قهوة محمد عبد الله الشعبية البسيطة الودودة، كان تألق موهبتين شعريتين، ربما لم يكن ليتاح لهما الظهور والنبوغ والشهرة فى مكان آخر ولا فى أجواء سواها آنذاك، الأول كان الشاعر أحمد عبد المعطى حجازى الذى عبر عن ضياعه الريفى فى زحمة القاهرة وصخبها عبر قصيدته الشهيرة «مدينة بلا قلب» وهى كانت عنوان أول دواوينه:

يا عم
من أين الطريق
أين طريق السيدة
أيمن قليلاً ثم أيسر يا بنى
قال ولم ينظر إلى
وسرت يا ليل المدينة
أرقرق الآه الحزينة
أجر ساقى المجهدة
للسيدة
بلا نقود جائع حتى العياء
بلا رفيق
كأننى طفل رمته خاطئة
فلم يعره العابرون فى الطريق
حتى الرثاء.

وعلى الجانب الآخر كان الشاعر صلاح عبد الصبور فى ديوانه «أحلام الفارس القديم» يعبر عن مشاعر مشابهة فى قصيدته الرائعة «أغنية للقاهرة»:

لقاك يا مدينتى حجى ومبكايا

لقاك يا مدينتى أسايا
وحين رأيت من خلال ظلمة المطار
نورك يا مدينتى
عرفت أننى غللت للشوارع المسفلتة
إلى الميادين التى
تموت فى وقدتها خضرة أيامى

ويرصد الدكتور سمير سرحان أجواء قهوة محمد عبد الله بأجوائها الشعبية الزاخرة وأنماطها الإنسانية والأدبية التى حملت مشاعل الأدب والثقافة والتنوير، وكيف انتقلوا وراء أنور المعداوى إلى مقهى «أنديانا» فى الدقى ثم يقول: إنها حقا عدة كيلومترات قليلة تفصل بين قهوة «محمد عبد الله» فى الجيزة وقهوة «أنديانا» فى الدقى، لكنها وإن كانت خطوات قصيرة فى المكان، إلا أنها كانت تمثل قفزة هائلة فى الروح والمزاج والحساسية التى ميزت الأدب المصرى والعربى فى أوائل الستينيات!

والشاهد أن رحيل أنور المعداوى المفاجئ كان فى أعقاب الانتقال من مقهى محمد عبد الله إلى مقهى «أنديانا»، وبعدها انفرط عقد هذا الجمع من الرواد والأدباء الشبان، فكنا نلتقى بغير انتظام مع زكريا الحجاوى ومحمود السعدنى على بضعة مقاعد يقدمها مع المشاريب صاحب محل الفطاطرى الدمياطى بميدان الجيزة حتى تلاشت معالمه القديمة!

ويطرح الدكتور سمير سرحان فى ذكاء ما يشى بالمتغيرات التى طرأت على مصر فى زمن الانفتاح عبر الحديث عن «إنديانا».. يقول:

هل قدر لهذا المقهى المستطيل القبيح الشكل.. المطل على ميدان الدقى أن يرمز إلى كل ما فى حياة المدينة من دلالات، أن يكون هو الرمز لهذا الانتقال الغريب من مرحلة إلى أخرى.. لست أدرى، كل ما أدريه أن هذا ما ينطبع فى نفسى كلما مررت بميدان الدقى.. أتوقف قليلاً.. وأتذكر!

يعيش المثقف على مقهى ريش

في قاهرة الثلاثينيات وحتى اندلاع ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢، كانت للأحزاب مقاهيها الخاصة التي تجتذب قياداتها السياسية والمتشيعين لها، مقهى «اللواء» في باب اللوق كان ملتقى «الأحرار الدستوريين» حزب الأقلية، ومقهى «نيو أوبرا» كان وقفًا على «الوفد» حزب الأغلبية الشعبية، بينما كان مقهى ايزافيتشي الذي كان يملكه لاجئ سياسي يوغوسلافي ـ منتدى فصائل الأحزاب المحجوبة عن الشرعية مثل الشيوعيين، والطريف أن ظل ايزافيتشي رهن الاعتقال وإغلاق مقهاه ـ من باب التأمين على حياة الزعيم اليوغوسلافي تيتو كلما جاء لزيارة مصر!

أما مقهى وحلواني جروبي فقد استمر يواصل نهجه الفكري ـ الذي ذكره كتاب «خبايا القاهرة» ـ ملتقى للأدباء والسياسيين والتكنوقراط الذين تعلموا وبخاصة في أوربا وتشربوا مبادئ الديمقراطية الليبرالية وأبرزهم الأديب توفيق الحكيم والدكتور حسين فوزي والدكتور زكي نجيب محمود والدكتور لويس عوض والمهندس محمد فتحي والدكتور محمد مندور والكاتب محمد عودة، بينما كان مقهى سفنكس قبالة سينما راديو بشارع قصر النيل ملتقى نجيب محفوظ أحيانًا مع صديقه المخرج السينمائي صلاح أبو سيف والسينمائيين وهواة الأدب!

مقهى ريش الشهير بشارع سليمان باشا كان شيئًا آخر، فهو كان معقلاً في الغالب لمختلف الطلائع والكوادر السياسية المتحررة من التعصب الحزبي،

يتحاورون ويتسامرون ويتندرون وينمون ويتشاغبون لكنهم غالبًا ما يتفقون على موقف واحد فى مواجهة الملمات الكبرى التى تحتاج إلى التحشد والوحدة الوطنية، وربما لذلك خرجت معظم بيانات الجبهات الوطنية التى تشكلت فى تلك الآونة من هذا المكان!

حتى المثقفون والفوضويون من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين الوطنى وحتى علية القوم وصعاليك الأدب «الشوارعية» الذين يستلهمون تجاربهم الإبداعية خارج جدران البيوت والمكاتب، سواء فى الشوارع وعلى الأرصفة أو فى المقاهى والمصانع والورش والحقول، ويفرون من خنقة الأبراج العاجية وسفسطة روادها، كان مقهى ريش متنفسًا لهم على اختلاف نزعاتهم وشطحاتهم منذ ما قبل اندلاع ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، ولذلك ظل شاغل البوليس السياسى ومقصد العسس والجواسيس ورجال المخابرات الدولية والصحفيين الأجانب، كلٌّ يفتش عن مأربه المتباين فى تسقط الأخبار وقياس الرأى العام ومواكبة نبض المجتمع المصرى.

وكان الروائىّ الكبير نجيب محفوظ قد استقر بندوته الأدبية الأسبوعية فى «ريش» بعد إغلاق ندوته السابقة صباح الجمعة من كل أسبوع فى مقهى الأوبرا الذى كان يعلو ملهى صفية حلمى، حيث انتقل بندوته إلى مقهى ريش إثر واقعة طريفة كنت شاهدًا عليها فى أواخر الخمسينيات، عندما اقتحم ضابط مباحث ندوة الأوبرا وقال فى صوت جهورى: «إنتم مش عارفين يا حضرات أن الاجتماعات ممنوعة»، ثم لم يمهلنا الإجابة حتى قال «كل واحد من فضلكم يبعد عن الثانى»، عندئذ وقفت شقيقتى الأديبة عايدة الشريف وقالت للضابط: «دى ندوة الأستاذ نجيب محفوظ الأسبوعية» وقال الضابط فى اندهاش: «يبقى مين بسلامته نجيب محفوظ؟» وقالت عايدة: «الأستاذ نجيب محفوظ الروائى المعروف اللى كتب زقاق المدق وبين القصرين والسكرية» وقاطعها باستخفاف: «شيخ حارة يعنى؟» ثم راح يتأكد بنفسه من جلوسنا متفرقين، ولم تمض ربع ساعة حتى سمعنا أصوات الموتوسيكلات التى تتقدم موكب جمال عبد الناصر وهو فى طريقه إلى مسجد الحسين، وبعدها عاد الضابط يعتذر قائلاً فى لهجة ودود: «اللى ما يعرفك يجهلك يا أستاذ نجيب،

اتفضلوا اجتمعوا زى ما كنتم» ولم يجرؤ أحد على نشر هذه الواقعة فى حينها حتى كتبها الروائى خيرى شلبى فى التسعينيات!

على أن نجيب محفوظ قرر فجأة أن ينتقل بندوته إلى مقهى ريش؛ وكانت تقدم آنذاك المشاريب ووجبات الطعام الجيد بتخفيض خاص فى الأسعار من باب الحفاوة بضيوف الروائى الكبير وحوارييه ومريديه، ولأن موقعه وسط القاهرة يسهل الوصول إليه يوم الإجازة الأسبوعية، ولأن مصر كانت حبلى آنذاك بالمشكلات والإخفاقات والإرهاصات فى أعقاب اغتيال الرئيس أنور السادات، من ثم اجتذبت ندوة نجيب محفوظ المئات من الأدباء وشباب الجامعات الذين جاءوا يستطلعون رؤى وأفكار الأديب الكبير فى كل ما يعن لهم من القضايا السياسية والأدبية والنقدية. . وأحيانًا كانوا يفرغون ما فى صدورهم من شحنات الغضب والابتئاس ويتجادلون فى حدة ويشتبكون. . وندوة وراء ندوة أصبحوا يشكلون «لوبى» قويًا من المعارضين الساخطين على حكم الرئيس السادات واتفاق السلام مع إسرائيل وبينهم عدد من الطلبة واللاجئين السياسيين وضيوف القاهرة العرب، وخشى صاحب المقهى إغلاقه بقرارٍ إدارى كونه يخالف قوانين الطوارئ التى تقتفى أثر التجمعات السياسية بدعوى حساسية الظروف التى تمر بها البلاد آنذاك!

من هنا قرر إغلاق ريش عملاً بالمثل القائل «بيدى لا بيد عمرو». . وربما مثل آخر «الباب اللى يجيلك منه الريح سده واستريح» لكن الشاب مجدى وريث ريش ومديره العام أعاد افتتاحه بعد سنوات وقد استعاد الكثير من رونقه الحضارى ومعالمه التاريخية المندثرة لكن بعد أن تغيرت تقاليده ومواقع طاولاته ومقاعده، واعتمد أسلوب «المنمم تشارج» حتى يتماشى مع سياسة الانفتاح عبر تحديد سقف وحد أدنى مرتفع لثمن أول الطلبات. . مما أفقده رواده التقليديين من متوسطى الحال، وتلك الروح التى كانت تؤجج الحوار والانسجام والتوافق والألفة التى ظلت من أبرز سماته الثقافية و الاجتماعية على نحو ما كان عليه المقهى منذ أوائل العشرينيات. إضافة إلى رحيل العديد من رواده البارزين الذين خلدهم المقهى فى صور ورسوم تزين جنباته!

مفاجأة نجم وإمام (*)

فى قصيدة شعبية ذائعة الصيت وصف فيها الشاعر أحمد فؤاد نجم ما آل إليه مقهى ريش ورواده، وأنماطهم الثقافية وجدلهم السفسطائى يقول:

يعيش المثقف على مقهى ريش
كثير الكلام.. عدو الزحام
بكام كلمة فاضية.. وكام اصطلاح
يفبرك حلول المشاكل قوام
يعيش المثقف.. يعيش.. يعيش.. يعيش

والحقيقة أن ظهور نجم ورفيق دربه الشيخ إمام عيسى الذى لحن وغنى أشعاره، كان بمثابة قنبلة موقوتة فجرت الكثير من القضايا السياسية والأدبية والثقافية المسكوت عنها، ورغم ما كانا عليه من حيث النمط الاجتماعى المتواضع، إلا أنهما جسدا فى جسارة واقتدار الثورة العارمة على السائد من التقاليد البالية والنفاق الاجتماعى والسياسى، عبر التحريض على مجابهة المظالم وكسر القيود التى تكبل الحريات، وتعبئة الشعب للخلاص والانعتاق!

وساهم فى شعبية هذا الثنائى وانتشار إبداعاتهما فى طول وعرض مصر والوطن العربى كما اشتعال النار فى الهشيم، حين وجها سهام النقد الصارخ إلى المسئولين عن نكسة الخامس من يونيو ١٩٦٧، على الرغم من أنهما لم يكن يساندهما أى من أجهزة الدولة الإعلامية أو مؤسساتها الثقافية، فكانا أشبه بتنظيم سياسى سرى أو علنى بحسب الظروف، حين كانا ينتقلان معًا من بيت إلى منتدى طلابى إلى مقهى للعمال أو الفلاحين للتعبير عن لواعج الوطن والأمة وطموحاتها، وقد ساهم فى هذا الزخم انتشار أجهزة «الكاسيت»، على غرار زعامة وتوجيه الإمام الخمينى للثورة فى إيران من مقره آنذاك فى باريس عبر «الكاسيت»!

وللحقيقة وللتاريخ أن صديقى الأثير رسام الكاريكاتير العملاق أحمد إبراهيم حجازى كان صاحب الفضل فى اكتشاف وتبنى موهبة نجم كشاعر، وأذكر أنه صحبنى يوما بعد فراغنا من العمل فى«روز اليوسف» لقضاء ساعات القيلولة لدى أحد أصدقائه دون أن أسأله عنه.. إذ يكفى صحبته لأى مكان حتى تكتمل

السعادة وأسباب المؤانسة الجميلة؛ خصوصًا وظروف وأجواء النكسة المأساوية كانت أشبه بوصف الشاعر القديم: كجلمود صخر حطه السيل من علِ!

هناك فى الزمالك وفى أعلى إحدى عماراتها الشامخة، وفى غرفة متواضعة على السطوح كانت مخصصة من قبل لغسيل ملابس السكان، التقينا بالمصور الفوتوغرافى المبدع أحمد نور الدين وإلى جواره ساكن آخر كان الفنان العظيم جودة خليفة، ثم لم يمض الوقت، حتى انضم إلينا الفنان التشكيلى عدلى رزق الله والأديب محمد جادو وشاعر مجهول آنذاك هو محمد لاشين.

ثم لم يمض من الوقت كثيراً حتى دخل إلى مجلسنا الثنائى نجم وإمام وشاب طويل يحمل عوداً موسيقيًا اسمه محمد على و.. حتى هذه اللحظة لم أكن أعرف شيئًا عن الثلاثة ولا مهنة أو وظيفة أى منهم.

بعد حين من الحديث والطعام والشراب والدردشة تدفقت فجأة شلالات العبقرية.. شعراً لنجم وغناء الشيخ إمام وإيقاعات محمد على بيده على الترابيزة، وأذكر أننى سمعت فى البداية أغنية توت حاوى توت، ثم إيه آخر الصبر يا شيخ أيوب، ثم الله الله يا بدوى هات الشخاليل و.. وأخيراً كانت ملحمة جيفارا مات آخر خبر فى الراديوهات.

ولا أدرى لماذا أدركت أن كل ما يروق لى من الأغانى بات مجرد ماض لا محل له من الإعراب وقتئذ، وأن أوضاعنا السياسية والثقافية والاجتماعية من رابع المستحيل إلا أن تؤدى بنا بعد النكسة إلى نكسات جديدة. إذ كانت أشعار نجم بمثابة علقة ساخنة من النقد الذاتى الموجع وفضح لكل ما هو معلن ومستور فى حياتنا من التسيب والغفلة والفرقة، خاصة وأن ألحان الشيخ إمام كانت تجسد هذه المعانى وتلهب المشاعر والضمائر بالحماس والدعوة إلى النهوض.

الغناء من وراء القضبان

حتى حين ألقت المقادير بنجم وإمام وراء القضبان، خرجت من زنزانتهما أروع الإبداعات الثورية، وهكذا من وحى الحوارات المتبادلة بين المساجين وهم داخل

الزنازين، كانت القصيدة المغناة التى حملت عنوان «كله يسمع . . أعرفكم جميعًا . . وأبشركم جميعًا» يقول فى مطلعها:

عنبر . . كله يسمع
شخشخت بالزهر
ما نصفنيش ولا مرة
وراهنت بالمهر
وبالبقشيش على مرة
والسجن للحر . .
وإن كان مرة
فكرت فى التوبة
من دى النوبة

وحتى تنتهى القصيدة بعد أن أدت دورها فى شرح أحوال العباد والبلاد التى لا تسر عدوا ولا حبيبا، باللعب على أوتار الإرادة الوطنية وضرورة حمايتها من الاستكانة والانكسار، ختامًا بالحقيقة التى يستحيل إخفاؤها وإطفاء أنوارها يقول:

وأعرفكم جميعًا إن السجن . . سور
وأعرفكم جميعًا إن الفكرة نور
وعمر السور ما يقدر يحجز بنت حور
وعمر النور ما يعجزه يفتح ألف سور
وأعرفكم جميعًا إن الظلم شايخ
وأعرفكم جميعًا إن السجن خايخ
وأعرفكم جميعًا إنه مالهش أكره
وأعرفكم جميعًا إنه ها يبقى ذكرى
وأعرفكم جميعًا إن الثورة بكره
وأعرفكم جميعًا إن الوعد بكره .

وأظن لذلك أن الشاعر أحمد فؤاد نجم الذى استطاب له السكن شديد التواضع فى زقاق «حوش قدم» بالغورية، كان على حق عندما اختلف مع المثقف الذى

يعيش على مقهى ريش.. كونه مظفلط محفلط كثير الكلام.. بكام كلمة فاضية.. وكام اصطلاح.. يفبرك حلول المشاكل قوام!

القدوة فلفل

إلى هذا وذاك مما يميز تاريخ ريش عن غيره من مقاهى القاهرة لكونه معلمًا بارزا فى تاريخ مصر الأدبى والثقافى والسياسى منذ نحو مائة عام، وظل كذلك المقهى همزة وصل بين الجيلين القديم والحديث من ظرفاء ذلك الزمان ومبدعيه وبينهم شاعر النيل حافظ إبراهيم وإمام العبد ومحجوب ثابت ومحمد البابلى والشيخ أحمد العسكرى وكامل الشناوى.. ومن المحدثين محمد عودة ويوسف إدريس وكامل زهيرى ومحمود السعدنى وعبد الرحمن الخميسى وزكريا الحجاوى وعباس الأسوانى، وكان أيضًا الواحة الوارفة التى يستظل بها مجموعات اللاجئين السياسيين السوريين والعراقيين واليمنيين بوجه خاص وأشهرهم: الشاعر العراقى عبد الوهاب البياتى وحسين الحلاق السورى والشاعر معين بسيسو الفلسطينى والشاعر السودانى محمد الفيتورى ومحمد أحمد نعمان السياسى اليمنى والأمير على عبد الكريم سلطان الحج المخلوع.. وهؤلاء كان يتعهدهم بالرعاية فلفل النوبى، وهو اسم الشهرة لأشهر جارسونات مقاهى القاهرة وأقدم العاملين فى هذه المهنة فى طول مصر وعرضها، وهو محمد حسين صادق، أطال الله فى عمره، فقد استمر عمله فى ريش زهاء خمسين عامًا متصلة ظل خلالها موضع حب واحترام زبائن المقهى، فكان يحمل فى جيبه أجندة يدون فيها ثمن طلباتهم من الشراب والطعام إلى حين ميسرة، وقد خلدت ريش فلفل حيًا عبر صورة كبيرة له تتصدر مدخلها وتحمل عبارة «القدوة»!

بروتوكولات حكماء ريش

على أن أشهر رواد ريش من المثقفين، الذين لم تكن تمر من أمامه حتى ترى واحدًا منهم يتصدر صفوفه الأولى، الصديق إبراهيم منصور الصحفى الأديب

المترجم ـ يرحمه الله ـ الذى كان يدهشك دائمًا بسخرياته اللاذعة وقراءته للإبداعات المصرية والعربية والمؤلفات والدوريات العالمية والإلمام بآخر الشائعات والمقالب فى أوساط المثقفين، والناقد إبراهيم فتحى الذى يسألك عن آخر كتاب قرأته أو مجموعة قصصية ثم يبادر إلى نقد هذه الأعمال والدعاية لما يروقه منها، ثم صديقنا الأثير الشاعر الشاب الراحل نجيب سرور الذى كتب عن عوالم المقهى وأجوائه ديوانه الشهير «بروتوكولات حكماء ريش»، وهو قد بدأ حياته العملية ممثلا إثر تخرجه فى معهد الفنون المسرحية ودراسته بالاتحاد السوفيتى والمجر، وإذا به يفاجئ الوسط الأدبى بإبداعاته الشعرية حيث قدم له مسرح الجيب باكورة إنتاجه، وكانت مسرحيته الشعرية «ياسين وبهية» التى أخرجها كرم مطاوع، وتعكس صراع الفلاحين ضد الإقطاع، وبعدها قدم من التراث الشعبى مسرحيته «قولوا لعين الشمس» و«آه يا ليل يا قمر» و«يا بهية خبرينى» و«منين أجيب ناس» . . إلخ، إضافة إلى خمسة دواوين شعرية أشهرها «لزوم ما يلزم»، ثم خلص فى النهاية إلى ممارسة الإخراج والتمثيل والتأليف المسرحى والتدريس فى معهد الفنون المسرحية، ولعله بعد أن خاض تجارب شتى من الإبداعات اكتشف أنه يحرث فى البحر وأن الحياة ملهاة عبثية وقبض الريح، حتى داهمه الاكتئاب وإدمان الخمر ورحل مأسوفا على شبابه عام ١٩٧٨ وهو فى السادسة والأربعين مخلفا وراءه فى هذا العمر القصير كما نوعيا راقيا من الإبداعات كما لو أنه نسخة مكررة بشكل ما من فنان الشعب العظيم سيد درويش.

كذلك كان الشاعر الراحل أمل دنقل من رواد ريش الدائمين، وهو كان متربصا دومًا بكل كاتب أو شاعر أو أديب أو ناقد يخون شرف الكلمة ويبيع ضميره بالغالى أو الرخيص، ثم المثال كامل جاويش الذى كان على أهبة الاستعداد لعقد الصداقات مع زرافات الشباب والشابات الأجانب من نوع «الهيبى» الصيع الذين يحترفون الانتقال من مكان لآخر بالمجان على طريقة «الأوتوستوب» فكان يدعوهم من جيبه الخاص على مشروب أو وجبة طعام رخيصة، وغالبًا ما تنتهى علاقته بهم فى مرسمه الخاص بالهرم.

من طريف ما يذكر عن جاويش، حين استدعى إلى ليبيا لإقامة عدد من التماثيل للعقيد معمر القذافى والزعيم التاريخى عمر المختار تجسيداً لكفاح الشعب

الليبى، فلما انتهت مهمته ونال ما يستحقه فى المقابل من الدولارات، خطر له السفر إلى إيطاليا للترويح عن نفسه من عناء العمل الشاق، وفى طريق العودة إلى مصر ركب إحدى البواخر من ميناء مرسيليا، حيث تعرف على راكب مصرى ونسج معه خيوطا للصداقة العابرة، وإذا بهذا المصرى يسأله بعد حين إن كان يحمل معه عملة صعبة وأجاب جاويش بنعم، وسأله: ماذا أنت فاعل فى الجمارك، فقال له سوف أسجل ما معى من الدولارات رسميًا.. لكن الصديق العابر كشف له عن ساقه وقال له: إنه يخبئ ما معه من الدولارات تحت الشراب، وبذلك يوفر المبلغ المفروض دفعه للجمارك، ثم نصح جاويش بأن يحذو حذوه، فلما وصلت الباخرة الإسكندرية سأله موظف الجمارك: هل معك عملة صعبة؟

قال: لا!

عندئذ طلب موظف الجمارك من جاويش أن يخلع حذاءه وشرابه، واتضح أنه كان يخفى حوالى ٢٠ ألف دولار عدا ونقدا؛ لكن ما حز فى نفس جاويش أن الصديق العابر الذى زين له إخفاء العملة الصعبة كان مرشدًا للجمارك، وأنه نال نصيبه وافرا من المكافأة الرسمية قبل أن يغادر الميناء!

كذلك الرسام أحمد طوغان عندما كان أشهر عازب فى أوساط المثقفين والفنانين، إذ كان على شاكلة جاويش ينجذب إلى الأجانب من زبائن ريش، ويومًا تعرف إلى صحفى من غانا يدعى ديفيد دى بوا كان يعمل مراسلاً لوكالة «الأسوشتيدبرس» فى القاهرة حتى وجد له سكنًا إلى جوار شقة طوغان، وكان هذا الصحفى مكلفًا من قبل الوكالة آنذاك بتحسس صدى هروب جون فيلبى رجل المخابرات البريطانى، وكانت قد ترددت أنباء وأقاويل ترجح لجوءه إلى القاهرة فى حماية الرئيس جمال عبد الناصر، وهكذا فى بساطة وعفوية متناهية أكد له طوغان فى جدية يحسد عليها أن جون فيلبى لجأ إلى اليمن وانضم إلى ثوارها الذين يحاربون الإنجليز فى عدن، وطير ديفيد دى بوا الخبر إلى وكالته بانتظار مكافأة ضخمة أو منصب كبير تقديرًا لهذه الخبطة الصحفية النادرة.. ومرت أيام حتى تلقى لومًا شديدًا من وكالته وقرارًا بنقله من القاهرة دون إبطاء بعد أن أعلنت موسكو لجوء فيلبى إليها، وعرف العالم أنه كان عميلاً شيوعيًا وفيًا

للاتحاد السوفيتى* منذ عدة سنوات ونقل إلى موسكو المهم والخطير من أدق الأسرار والمعلومات السياسية والعسكرية والاستراتيجية عن حلف الأطلنطى.

أذكر فى ستينيات القرن العشرين شخصية بوهيمية غائبة عن الوعى كثيراً ما كان يقف للحوار قبالة مقهى ريش مع بعض رواده فى السياسة والأدب وقلة الأدب، وهو رجل تجاوز الأربعين يرتدى بدلة رثة ملتصقة بجسمه صيفًا وشتاء كأنها ولدت معه، وكان يسير فى شوارع القاهرة وهو يكلم نفسه بصوت مرتفع ويوجه سهام نقده إلى الأوضاع السياسية والاجتماعية المقلوبة، وقال لى الكاتب الكبير محمد عودة إنه كان شابًا مثقفًا وله مواقف وطنية مشهودة إبان كان طالبًا معه فى كلية الحقوق، حتى داهمته قصة عاطفية فاشلة راح ضحيتها، وقد رأيته ذات يوم وهو يثير جلبة فى مطعم الإكسلسيور المجاور لريش حتى رأى عودة فتوقف عن الجلبة وراح يناقشه فى كتبه ومقالاته، وبعدها دس عودة فى جيبه مبلغًا من المال حتى انصرف إلى حال سبيله!

ذات مساء كنا نسهر فى صحبة المحامى الأديب الظريف عباس الأسوانى فى مقهى الفيشاوى، ولأن الطقس الصيفى كان قائظا، خرجنا نجلس قبالة المقهى فى الهواء الطلق، وإذا بذلك الحقوقى السابق المغيب عن الوعى لا يكتفى بممارسة نقد الأوضاع المقلوبة بصوت مرتفع، لكنه أيضا ظل يكتب ما يعن له من نقد وسخريات بالطباشير على الحوائط، وعلى ما يبدو أن سكان خان الخليلى قد اتصلوا بالشرطة لتخلصهم من الجلبة وربما للإبلاغ عن نقده وهجومه على النظام، فما إن رأى الشرطة تحيط به حتى راح يهتف لجمال عبد الناصر والإشادة بمواقفه الوطنية وإنجازاته على كل صعيد، وعندما سألوه عن كتاباته النقدية على الحوائط.. قال إنه يقصد رئيس دولة خليجية كان عبد الناصر آنذاك على خلاف معه!

المطبعة السرية لثورة ١٩١٩

من المؤسف أن تغلق ريش أبوابها للمرة الثانية منذ سنوات لأن محافظة القاهرة ظلت تمانع فى استمرار امتداد ريش على شارع سليمان باشا وعلى طريق جانبى بدعوى إعاقة انسياب حركة المشاة بينما كانت امتدادات ريش فى العشرينيات

وحتى الثمانينيات من هذا القرن كما هى دون تدخل من سلطة المحليات باعتبارها من معالم القاهرة السياحية والحضارية التى تستحق الحفاظ عليها .

المعروف تاريخيًا أن المؤسس الأول لكافيه ريش كان رجلا نمساويا يدعى «بيرنارد ستينبرج» فى ٢٦ أكتوبر ١٩١٤م، ثم انتقلت ملكيته إلى رجل أعمال فرنسى هو هنرى ريش الذى أطلق اسمه على المقهى، وحتى آلت ملكيته إلى رجل صعيدى مصرى هو عم عبد الملك خليل الذى وعى قيمته وحافظ على تراثه باعتباره ركنا ركينا من ذاكرة الأمة .

وقد شهد «ريش» وقائع اغتيال عريان يوسف سعد لصاحب الدولة يوسف وهبة باشا رئيس وزراء مصر فى ١٥ ديسمبر ١٩١٩م، عندما ألقى عليه قنبلتين قبل أن يهبط من سيارته، ويلاحظ أن التنظيم السرى لثورة ١٩١٩م كان صاحب قرار اغتياله باعتباره خائنا للوطن، وكذا اختيار مسيحى للقيام بمهمة الاغتيال تحسبا للفتنة الطائفية!

وتشير وثائق المقهى أن صاحبه تقدم للتصريح له بحفلات موسيقية كلاسيك، لكن الإنجليز رفضوا بدعوى أن أصوات «الأوركسترا» سوف تقلق مضاجع السكان، فما كان منه إلا أن جمع توقيعاتهم بالموافقة، حيث تبين أن الرفض صادر من قيادة الحلفاء التى كانت تتخذ مقرا لها فى فندق «سافوى» المقابل للمقهى، الأمر الذى اضطر صاحب المقهى إلى وضع السلطات أمام الأمر الواقع عبر استقدام «الأوركسترا» التى راحت تصدح بالموسيقى الكلاسيك .

على أنه من المفارقات المثيرة اكتشاف المطبعة السرية لتنظيم ثورة ١٩١٩م مصادفة فى أعقاب الزلزال الذى شهدته مدينة القاهرة عام ١٩٩٢، وأدى إلى تصدع فى أحد حوائط مقهى ريش، حيث أفضت عملية الترميم إلى سرداب مغلق ينتهى بمطبعة يدوية وبعض المنشورات الثورية .

والشاهد أن كافيه ريش اجتذب ـ فى الأربعينيات من القرن الماضى ـ بعضا من المثقفين السياسيين الذين تعلموا فى فرنسا أو تأثروا بثقافتها، وبينهم الدكتور طه حسين والفنان التشكيلى اليسارى رمسيس يونان والدكتور محمد مندور والدكتور لويس عوض، والطريف أن معظم حواراتهم كانت باللغة الفرنسية التى لا يدركها

رجال القلم السياسى المنتشرون فى المقهى، ويلاحظ أن نموذج ريش الذى جمع بين الذين درسوا فى باريس أو تأثروا بالثقافة الفرنسية، كان له ما يشابهه من المقاهى الثقافية «الفرانكفونية» فى لبنان وسوريا ومعظم دول المغرب العربى التى نكبت بالاستعمار الفرنسى!

إلى ذلك فقد كان «كافيه ريش» القاهرة نسخة طبق الأصل من «كافيه ريش» باريس سواء فى تقاليده وأنواع مشروباته وأصناف وجباته وحتى ديكوراته ومفروشاته وأدواته، وذلك موضوع الكتاب الذى نهض إلى جمع مادته التاريخية وإعداده مجدى الابن الأصغر لصاحبه عم عبد الملك إيذانًا بإقناع المثقفين بتبنى قضية استعادة المقهى سابق عراقته وتقاليده وامتداداته!

الحنين لأيام الصبا

من المعلومات الموثقة التى جمعها مجدى فى كتابه المرتقب عن ريش أنه نهض أوائل العشرينيات مكان قصر الأمير محمد على توفيق ولى العهد قبل أن يشيد قصره المنيف بجزيرة الروضة. . وكانت امتداداته تصل حتى ميدان سليمان باشا، وكان ملتقى سعد زغلول باشا بثوار ثورة ١٩١٩ وكانت طرقات حديقته الغناء مفروشة بالرمال الحمراء، بالإضافة إلى تحويل جلساته الساحرة صيفًا مسرحًا لليالى الغناء والترفيه البرىء. . وأشهر المطربين الذين لعلعت أصواتهم الجميلة فى ساحته صالح عبد الحى حتى جاء المطرب الملحن الشيخ أبو العلا محمد ذات مساء مصطحبًا تلميذته الواعدة أم كلثوم وكانت لا تزال طفلة ترتدى العقال والملابس العربية ومعها جوقتها الموسيقية التى تضم والدها وشقيقها، حيث أنشدت فاصلاً من التواشيح الدينية بصوت ينفذ إلى القلب برقته ونقاء معدنه الذى يبشر بمستقبل عظيم لصاحبته الصغيرة وبعدها تعاقد مقهى «ريش» على إقامة حفلات غنائية منتظمة لأم كلثوم حسبما أكدته صحيفة المقطم فى عددها رقم ٣٠ الصادر فى مايو عام ١٩٢٣م، عبر نشر إعلان يحدد يوم الخميس موعدا أسبوعيًا لوصلاتها الغنائية فى المقهى تحت عنوان «هلموا احجزوا محلاتكم من الآن ـ كرسى مخصوص بـ ١٥ قرشا ودخول عمومى عشرة قروش!

يذكر أن الفنان محمد عبد القدوس كان يلقى أزجاله ومونولوجاته السريعة وقتئذ بين فواصل المسرحيات التى كان يقدمها عزيز عيد على مسرح مقهى «ريش»، حيث تعرف على الفنانة روز اليوسف بطلة الفرقة وأعلنا ذات مساء على الملأ تتويج قصة حبهما بالزواج!

كانت السيدة أم كلثوم بعد أن بلغت من الشهرة قمتها تحن إلى «ريش» أحيانًا، وقد شوهدت مراراً فى الستينيات وهى تقف بسيارتها لمشاهدة المقهى عن بعد من باب استعادة ذكريات الصبا والأمل المنشود، وكانت قد شوهدت أواخر الأربعينيات تجلس فى المقهى على طاولة تضم كامل الشناوى وأحمد رامى والفنان سليمان بك نجيب بينما القصبجي يشنف أسماعهم بأرق الأنغام على آلة العود.

ولعل من غرائب أطوار القاهرة وعشاق مباهجها ومنتدياتها أن يظل شباب المثقفين والفنانين والصحفيين على ولاء الجيل القديم لأجواء مقهى ريش والحنين إلى ذكرياته الجميلة المعتقة، عندما وقع اختيارهم بشكل تلقائى على مقهى «زهرة البستان» المتواضع الذى يقع فى شارع خلفى ضيق يفضى إلى موقع ريش. . وأن ينقلوا إليه بعضا من تقاليد ريش وأجوائه وصخبهم وجدلهم وإبداعاتهم وسخرياتهم ومقالبهم وشائعاتهم، فضلا عن أسعار الطلبات الرخيصة!

أذكر من الرواد الأوائل لزهرة البستان الأديب الراحل يحيى الطاهر عبد الله وإبراهيم فهمى الكاتب النوبى. . إلى ذلك ظل المقهى مقصداً لأدباء الأقاليم من كل حدب وصوب، لعلهم يلتقون بأحد النقاد حتى تأخذ إبداعاتهم طريقها إلى النشر والشهرة.

ولأن الشيء بالشيء يذكر، فالحق أن «مقهى أم كلثوم» الذى يقع وسط القاهرة نال شهرة واسعة قبل انتشار المسجلات الكهربائية الرخيصة والأسطوانات المدمجة التى تحافظ على نقاء الصوت وحلاوته.

وقد اكتسب مقهى أم كلثوم شهرته منذ منتصف أربعينيات القرن العشرين عندما قام بتأسيسه الحاج مصطفى عبد الله عام ١٩٤٦م، وكان من المتيمين بسماع أم كلثوم وحضور حفلاتها.

ولما علمت أم كلثوم بالخبر زارت المقهى بنفسها وجلست تستمع إلى تسجيلات أغنياتها، وبعدها كلفت محاميها برفع دعوى قضائية ضد الحاج مصطفى لاستغلاله اسمها وإبداعاتها فى عمل تجارى دون إذنها، وظلت الدعوى متداولة أمام المحاكم عدة سنوات حتى تنازلت أم كلثوم عنها، بعد أن أثبت المقهى جدارته فى الانتماء لكوكب الشرق بعد تحريم لعبة الطاولة والدومينو والشطرنج وتوفير أجواء الانسجام والاستغراق التام لسماع أغنيات أم كلثوم، وحتى أصبح المقهى كعبة لعشاقها من المصريين والعرب.

أما الحاج مصطفى محمد الذى آلت إليه أخيراً ملكية المقهى، فقد حفل بجمع وتعليق النادر والرائع من صور أم كلثوم على جنباته تتصدرها صورة كبيرة فى المدخل، وقد جذب المقهى العديد من مخرجى السينما والتليفزيون لتصويره فى أعمالهم الدرامية!

وإذا كان البعض من رسامى الكاريكاتير قد جسد الكسل والغيبوبة واللامبالاة عبر جلسات رواد مقهى أم كلثوم، واتهامهم ظلما بتعاطى الحشيش، إلا أن هذا الاتهام الذى شمل كذلك لعبة كرة القدم بدعوى تغييب وعى الشعب بمشكلاته لم يصمد أمام الحقيقة، حيث ظل المقهى مرجعًا لأغنيات أم كلثوم كما ظلت كرة القدم معبودة للجماهير حتى فى الدول التى لم تعرف الحشيش!

إبراهيم كروم فتوة بولاق

أحيانًا ما كنت أتردد أوائل الستينيات فى ساعة متأخرة من الليل على أحد مقاهى حى «الناصرية» للقاء الصديقين.. الكاتب الصحفى أحمد بهجت والملحن المطرب سيد مكاوى وكانا جارين متقابلين فى إحدى عمارات حى عابدين لا يفترقان أبدًا آنذاك، وتعجبت لماذا يسهر ذلك المقهى دون غيره حتى الصباح، وعرفت أن السبب يعود إلى نشاط خفى يستمر طوال الليل لبعض لصوص وسط القاهرة المتخصصين فى سرقة الشقق والمحلات التجارية والملابس والسجاد المنشور فى البلكونات.. وبعدها يجتمعون فى ذلك المقهى لاقتسام الغنائم والاتفاق على عمليات جديدة للسطو.. ومن هنا أطلق عليه أحد الظرفاء وصف «قهوة الحرامية» وظل لصيقا به حتى اليوم!

الطريف كذلك أن كان للنشالين مقاهيهم التى يجتمعون بها.. واحد فى ميدان باب الحديد والآخر خلف سوق الخضار بميدان العتبة، وكان لكل منهما شيخ يحدد نشاط كل نشال ومكان عمله، واعتماد النشالين المستجدين والإشراف على تدريبهم ومعظمهم من الغجر الوافدين على القاهرة ويسكنون أطرافها وخصوصًا الجنس اللطيف من النشالات. فإذا وقع أحد فى حبائل نشال أو نشالة فإما أن يلجأ إلى البوليس أو إلى مقهى النشالين، وعليه فى هذه الحالة أن يحدد لشيخ النشالين مكان وظروف الحادث ووسيلة النشل المتبعة معه والمواصفات الدقيقة للمفقودات.. وبعدها يتولى شيخ النشالين إحضارها سريعًا وتسليمها لصاحبها مقابل المعلوم، وذلك على وجه الطرافة ما جرت عليه العادة فى قرية طهواج

بمحافظة الغربية* حتى وقت قريب على حد علمى، حيث تضم القرية العديد من مضارب الغجر الذين يحترفون سرقة الماشية وحتى الحمير ثم بيعها بعد صبغها وتغيير بعض من ملامحها، وكذا احتراف نسائهم لسرقة أقراط الأطفال، ثم رد المسروقات إلى أصحابها مقابل المعلوم فى غضون أسبوعين على الأكثر.

وعلى غرار طهواج كانت شهرة قرية «البروم» مسقط رأس الدكتور يوسف إدريس بمحافظة الشرقية فى تزوير المستندات الرسمية، عبر تحريك بيضة دجاج أو بطة مسلوقة فوق الأختام والتوقيعات الرسمية، ثم تحريكها مرة ثانية فوق المستندات المزورة، وقيل فى هذا الصدد ـ والعهدة على الرواة ـ إن عددا كبيرا من وكلاء المحامين من أبناء «بروم»!

من غرائب مقاهى القاهرة حتى أوائل الخمسينيات تلك التى كان يملكها فتوات زمان أو إدارتها لحساب الغير من باب جذب الزبائن التواقين إلى تنسم ما كان لهؤلاء الفتوات من بأس وشهرة، وعلى غير ما قدمتهم السينما المصرية فى صورة بلطجية وخارجين** على القانون على غرار عصبجية حانات «الكاوبوى» فى الغرب الأمريكى أو قبضايات «ملاهى بيروت»، كان هؤلاء الفتوات ورثة لتقاليد وقيم أولاد البلد العريقة فى إغاثة الملهوفين ونصرة الضعفاء والمظلومين وتجسيدهم فى الماضى لمعانى الشجاعة والبطولة والفداء فى مواجهة الغزاة والمستعمرين.

وتشهد «الجازيته» صحيفة الحملة الفرنسية اليومية التى كانت تطبع فى مصر بالفرنسية وتوزع على ضباط وجنود وعلماء الحملة ورعايا وقناصل الدول الأجنبية فى مصر أن هؤلاء الفتوات كانوا قادرين دومًا على تهديد أمن وسلامة أفراد الحملة عبر اغتيالهم أو اختطافهم والمساومة عليهم مقابل الإفراج عن المعتقلين المصريين الأحرار، وتروى الصحيفة فى يومياتها باهتمام وقائع الثورة التى اندلعت فى حى بولاق معقل أولاد البلد، والإشادة بدور الفتوات عندما حاصر الفرنسيون الحى ونصبوا مدافعهم فوق جبل المقطم وراحت ترجمه بالقنابل والقذائف النارية المشتعلة، فكان للفتوات شرف المبادرة إلى تنظيم صفوف المقاومة والصمود ورفع الروح المعنوية والتهديد باغتيال كل من تسول له نفسه بالاستسلام، وتدبير الماء والطعام ونقل الأطفال والنساء والعجائز والجرحى إلى مخابئ آمنة.. إلخ.

فؤاد الشامى بلطجى شارع عماد الدين

على أن القاهرة عرفت كذلك ظاهرة «البلطجية» الذين كانوا يمارسون ألوانا شتى من الابتزاز بالقوة عبر فرض الإتاوات على التجار وأصحاب المقاهى والفنانات وفتيات الليل ومحترفات الدعارة، بل وأصحاب الأفراح والليالى الملاح أحيانا وإلا انقلبت غما وعنفا وموتا بمجرد تصويب كرسى فى أقرب كلوب!

يقول الدكتور عبد الوهاب بكر فى دراسة له عن الدعارة والبلطجة فى مصر منتصف القرن العشرين، إن «البلطجة» لغويًا تعنى الإنسان الذى يستخدم البلطة فى قطع الأشجار، وقد انتشر تعبير «البلطجية» فى الجيش التركى إبان ازدهار الإمبراطورية العثمانية، وكذلك تعبير «الكوبرجى» الذى يستخدم تلك الأشجار فى إقامة الكبارى، وبعدها أصبح البلطجى من يستخدم الأدوات المسببة للجروح كالبلطة فى إيذاء الناس وغير ذلك من المسدسات وماء النار، وغالبًا ما كان البلطجى يمارس نشاطه عندما يتسع نطاقه الإجرامى عبر مجموعة تعرف بـ«المشادية» ومفردها «مشد» وهى مأخوذة لغويا عن الرباط والرابطة، ومن هنا جاء التعبير الدارج فى مشاحنات أولاد البلد كأن يقول الخصم لخصمه مهددا «إنت واللى يتشدد لك» ويقصد بالبلطجى الكبير الذى يتشدد للمشدود!

ولعله من هنا بات شارع عماد الدين مرتعًا للبلطجة بعد أن انتقل إليه معظم الملاهى والحانات ودور الدعارة من الأزبكية ووش البركة والوسعاية، وكان التهديد بالعدوان المفرط وسيلة البلطجية لفرض الإتاوات على الراقصات والمومسات بوجه خاص، وهم مطمئنون من الإفلات من العقاب عبر صلاته الوثيقة المشبوهة بضباط و«كونستبلات» الشرطة الذين كانوا يتقاضون منهم ما يفوق أضعاف مرتباتهم الرسمية الهزيلة، وقد وصف رسل باشا البريطانى نائب حكمدار القاهرة حى الأزبكية فى مذكراته عام ١٩٢٦ وقال «إنه كان يجمع أسوأ عناصر المدينة، ويولد الإجرام، ويفسد أى قوة من قوات البوليس تتولى شئونه».

ويشهد التاريخ على أن فؤاد الشامى وشقيقه مختار تزعما أشهر عصابة للبلطجة فى شارع عماد الدين إبان ثلاثينيات القرن العشرين، وحين ظهرت

الراقصة، امتثال فوزى وحققت شهرة واسعة فى الرقص والغناء معا، وتزايد دخلها إلى حد مشاركة الراقصة مارى منصور فى كازينو البسفور بعد أن تركت العمل مع بديعة مصابنى، ويوم افتتاح الكازينو اتصل بها البلطجى فؤاد الشامى وعرض حمايتها مقابل أربعة جنيهات شهريا، لكنها رفضت وتقدمت ببلاغ ضده فى قسم الأزبكية، ثم تكرر الابتزاز والرفض والشكوى لدى البوليس دون جدوى، وخاصة ومعظم ضباطه من أصدقائه المتفعين ماديا من نشاطه الإجرامى، حيث أفهموها أن مهمتهم تبدأ من وقوع الحوادث لا الوقاية منها.. وهكذا كان لا مفر من انتقام فؤاد الشامى من الراقصة امتثال فوزى والحفاظ على هيبته فى شارع عماد الدين، حيث جرى اغتيالها برقبة زجاجة خمر!

على أنه بالأمس وحتى اليوم مازال الجيل القديم من سكان القاهرة يذكر الحاج إبراهيم كروم كونه آخر العنقود فى سلسلة عائلته العريقة وما كان لهم من صولات وجولات فى عالم الفتونة أو «المجدعة» إبان ثورة بولاق ضد الحملة الفرنسية.

كان إبراهيم كروم ـ وهو عم صديقنا الكاتب الصحفى الناصرى حسنين كروم ـ وسيم الطلعة يرتدى الجلباب البلدى الجوخ والطربوش ويشتغل بتجارة الحديد الخردة ويملك مقهى شهيراً يحمل اسمه كان بمثابة «ديوان المظالم» الذى يعقد فيه مجلسه الليلى لحل مشاكل سكان بولاق وفض خصوماتهم، فكان عدله ورجاحة عقله وحكمه المشمول بالنفاذ بديلاً عن لجوئهم إلى أقسام البوليس وساحات المحاكم.

كان قوى البنية على النحو الذى يمكنه من مصارعة عشرة من الرجال الأشداء، وكان ضعيفًا وربما باكيًا حين يعود صديقا مريضا أو يعزى أسرة فقدت عزيزها دون أن يترك لها ما يعينها على مواصلة الحياة الكريمة، وعندئذ يفرض على الأثرياء والقادرين جُعلاً من أرباحهم وريع أملاكهم يتعهد بتقديمه أول كل شهر حسنة «مخفية» إلى تلك الأسرة المنكوبة، فإذا كانت ثمة خلافات بين أصحاب المحلات وتجار بولاق والسبتية ووكالة البلح وأى من الإدارات الحكومية كالبلدية والضرائب والبوليس بادر بنفسه إلى حلها مع جهة الاختصاص، وكان يتعهد للدائن بالوفاء نيابة عن المدين وكثيراً ما كان الوفاء من ماله الخاص إذا عجز عن السداد!

إلى جانب تلك الفضائل كان فنانًا مبدعًا . . فكانت «الحاجة» وهو اسم «الشومة» أى العصا الغليظة التى يستعين بها فى الملمات وفض الخناقات ومنازلة العصاة والمجرمين تتحول بين يديه إلى آلة رشيقة لممارسة رياضة التحطيب وألوان الرقص البلدى الخاصة بالرجال، وفى الأربعينيات جاءت إلى القاهرة بعثة سينمائية ألمانية صورت له فيلمًا تسجيليًا وهو يرقص بـ«عصاتين» على أنغام موسيقى «النقرزان» وتلك كانت ميزة ينفرد بها عن غيره من الهواة والمحترفين لهذا اللون من الفن الشعبى، كذلك ظهر فى مشهد سينمائى مع المطرب محمد الكحلاوى وهو يرقص بعصاه فوق حصانه العربى «مرزوقة» على أنغام المزمار البلدى فى فيلم «بنت الحتة»!

مع نهاية الأربعينيات انضم إبراهيم كروم إلى جماعة الإخوان المسلمين، وتدرج فى سلكها القيادى حتى أصبح رئيسًا لشعبة بولاق، ويذكر أنه توجه إلى الصحراء الغربية وإلى منطقة قناة السويس لشراء البنادق والرشاشات والمتفجرات من المخلفات ومسروقات من الجيش البريطانى حتى امتلأت بها عشر سيارات جيب، قدمها جميعها هدية من حر ماله لدعم الجيش المصرى فى حرب فلسطين عام ١٩٤٨م.

وعندما اندلعت ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ كان من أشد أنصارها. . وكان صديقًا محبوبًا ومقربًا من اللواء محمد نجيب والبكباشى جمال عبد الناصر والقائم مقام أنور السادات ومعظم قادتها ورجالها. . إذ كان يرى فى مجرد التفكير فى الثورة ونجاحها فى عزل الملك فاروق وإجبار الاستعمار البريطانى على الرحيل لونًا من «الفتونة» أو الجدعنة الجماعية المنظمة وانتصارًا لحقوق مصر المشروعة فى الاستقلال والحرية وتغيير الأوضاع المقلوبة إلى الأفضل. .

وقد رأيت المعلم إبراهيم كروم مرارًا، عندما كان يتردد على مسجد «الشريف» المجاور لمنزلنا بالروضة لصلاة الجمعة، وكان هذا المسجد البسيط المتواضع المفروش والمسقوف بالحصير يقع فى ميدان «الروضة» ويشرف الإخوان المسلمون على شئونه حيث كان يؤم الصلاة وخطبة الجمعة أبرز دعاة الجماعة وبينهم الشيخ يوسف القرضاوى والشيخ عبد المعز عبد الستار وسعيد رمضان وصالح العشماوى

وعبد القادر عودة وحسن دوح والشيخ سيد سابق والشيخ محمد الغزالى وعبد البديع صقر وأحيانًا الأستاذ الهضيبى المرشد العام الذى كان يسكن قبالة المسجد، فكان المصلون يتقاطرون بالمئات من الإخوان وغيرهم لرؤية الحاج إبراهيم كروم ومصافحة أشهر فتوات القاهرة بلا منازع كما لو أنه نجم سينمائى معروف!

ورغم أن اللواء محمد نجيب كان أول رئيس للجمهورية فى أعقاب اندلاع ثورة يوليو، إلا أن الحاج إبراهيم كروم كان يدرك أن عبد الناصر هو الزعيم الحقيقى لتنظيم الضباط الأحرار الذى فجر الثورة، والطريف أن موكبه كان يمر يوما بحى بولاق وإذا بلافتة كبيرة تطالعه وتشد انتباهه. . إذ كانت تقول «إبراهيم كروم فتوة بولاق يحيى جمال عبد الناصر فتوة مصر»!

أذكر آنذاك أن إبراهيم كروم قاد مظاهرة وطنية ضخمة أوائل الخمسينيات ـ لا أتذكر مناسبتها ـ كانت طليعتها كوادر الإخوان المسلمين حيث توجهت إلى قصر عابدين، وحين ظهر اللواء محمد نجيب يطل على الجموع المحتشدة ويلوح لها، إذا بإبراهيم كروم يخترق الصفوف راكبًا صهوة حصانه «مرزوقة» ويخاطب اللواء نجيب وقادة الثورة ويحثهم على وحدة الصف والعمل بكتاب الله وسنة رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأن الشعب وراءهم كتلة كالجرانيت والصلب كلما كانوا قريبين من الله والشعب، محذراً من الراحة والقعود داخل القصور.

لكن حدث فى تلك اللحظات ما لم يتوقعه أحد. . حين أطلق أحد ضباط الشرطة مسدسه، وأصابت الرصاصات اثنين من المتظاهرين المسالمين، وعندئذ اتجه إبراهيم كروم بحصانه فأفسح أمامهما الطريق إلى سيارة الإسعاف، ثم عاد إلى حيث كان أمام شرفة قصر عابدين وهو يرفع بيديه شاله الكشمير ملطخًا بدماء المصابين لإشعار محمد نجيب وعبد الناصر بمدى استفزازات رجال الأمن وتحرشهم بالمتظاهرين من دون مبرر!

ولعله نفس المشهد الذى تكرر قبل نحو قرن من الزمان، عندما خاطب الزعيم أحمد عرابى ووراءه ضباط وجنود الجيش الخديو توفيق باسم الأمة المصرية فى ساحة قصر عابدين، الفرق الوحيد أن عرابى ترجل عن حصانه عندما نزل الخديو بنفسه من شرفة قصر عابدين، بينما ظل إبراهيم كروم فوق حصانه ومحمد نجيب

فى مكانه بشرفة القصر، طبعًا مع اختلاف الظروف والخطاب العام الخيانى للخديو والخطاب الوطنى العام لثورة يوليو!

أذكر عندما قررت الثورة حل الأحزاب وسمحت للإخوان المسلمين وحدهم بممارسة أنشطتهم الدينية والنقابية والتطوعية من دون الاشتغال بالسياسة، ودب الشقاق بين الجانبين، إذا الحاج إبراهيم كروم يسعى بحكم وشائج الصداقة والاستلطاف المتبادل مع قيادة مجلس الثورة لإقناعهم بعرض أفكارهم وإقناع الإخوان المسلمين بالحسنى والحوار المتبادل خلال اجتماعهم الأسبوعى يوم الثلاثاء فى مقر الجماعة بميدان الحلمية، فكانت المفاجأة التى لم يتوقعها أحد فى استجابة محمد نجيب وجمال عبد الناصر وقيادات الثورة للدعوة، وكانت المفاجأة الثانية عندما أقبل الحاج إبراهيم كروم لاستقبالهم ممتطيًا ظهر مرزوقة وهو يرقص على إيقاعات الطبل البلدى خروجًا على تقاليد الإخوان المسلمين المرعية فى التزام الجد والوقار!

بعدها فى عام ١٩٥٤ كان اعتقال الإخوان المسلمين فى أعقاب محاولة الاعتداء على حياة جمال عبد الناصر فى ميدان المنشية، ومضت عدة شهور حتى ذكَّر أنور السادات الرئيس جمال عبد الناصر بصديقه إبراهيم كروم ومرضه، فأصدر أمرًا بنقله إلى مستشفى قصر العينى للعلاج.. ثم الإفراج عنه بقرار صحى.. فقد كان - يرحمه الله - رجلاً وطنيًا مسالمًا يكره العنف إلا بالحق وللشديد القوى!

بوليس النجدة

والشاهد أن مقاهى الفتوات التى عرفتها القاهرة فى العصر الحديث لم تكن مقصورة على حى بولاق أو على الحاج إبراهيم كروم فحسب، إذ كان على غرارها مقهى الحاج مصطفى عرابى فى الحسينية، ومقهى الحاج فهمى الفيشاوى بخان الخليلى، وأبو دومة فى مصر القديمة وعبده الجباس فى عابدين، إضافة إلى «المشادية» من أمثال محمود الحكيم، ورزق الحشاش وجرجس «ابن تهتهه» وميخائيل العجوز وأحمد البيومى وبيومى الشرقاوى وعزيزة الفحلة والزفتاوى،

بل إن حارة اليهود كان لها فتواتها مثل «جداليا» و «بالميطون» و« الولى»، كما كان لأنصاف الخواجات المتمصرين فتواتهم، بينما كانت أشهر المعارك عهدئذ بين فتوات حى السلخانة «المذبح» والحسينية والبلاقسة والقبيسى وكانت ساحتها فى باب اللوق وحى الظاهر، كذلك لا أنسى من فتوات ذلك الزمان إبراهيم عبد البر فى الجيزة، والرواس فى المدبح، والشيخ متولى الضرير فى سوق السلاح، وكانت بين هؤلاء الفتوات معارك وغارات متبادلة حين ينشب الخلاف بين الأحياء، وعندئذ يهب الفتوة مع أنصاره للهجوم على قهوة الفتوة الآخر. حيث تبدأ المعركة فى العادة بتكسير «كلوب» الإضاءة فى أحد الأفراح أو المناسبات السياسية سواء بعصا أو كرسى حتى يعم الظلام، و. . هات يا ضرب وتكسير، وبعدها يتدخل باقى فتوات الأحياء للصلح على الطريقة العربية فى التحكيم وتوقيع العقوبات وعلى الباغى تدور الدوائر!

لكن مع تصاعد هيبة السلطة المركزية وقوة الأمن وانتشار دوريات بوليس النجدة انحسرت ظاهرة فتوات المقاهى ومقاهى الفتوات واختفت صراعاتهم المتبادلة، واستبدلت بالمناظرات الزجلية وحلبات الغناء ومباريات القافية الفكاهية، وكل فتوة يستوفى أمجاده وبطولاته أو يشيد بأبناء حيه والمهن التى يحترفونها والأموال التى يكسبونها بعرق الجبين وبالحلال، وبعض هذه المقاهى كانت تقدم شعراء الربابة، فكانوا يقصون على الزبائن ملاحم وبطولات عنترة بن شداد والزناتى خليفة وأبو زيد الهلالى، بينما الفتوة يتصدر المقهى وهو يهز رأسه انتشاء كما لو أنه المعنى وحده بتلك البطولات أو كأن بطولاتهم تجسدت فى شخصه.

الإكسليسيور ملهى الماسونية

كان المطلوب بعد اختياري مديراً لمكتب روز اليوسف في الإسكندرية عام ١٩٦٤، موافاة المجلة كل أسبوع بأخبار وتحقيقات وحوارات تغطي أنشطة المحافظة الثانية في مصر - بعد القاهرة - في شتى المجالات.

يوماً جاء رئيس التحرير الأستاذ إحسان عبد القدوس - يرحمه الله - لقضاء أجازة نهاية الأسبوع للراحة والاستجمام كعادته في فندق «البوريفاج» وخلال لقائي به أبدى ملاحظة على إهمالي للأخبار الخفيفة التي تغطي نشاطات المجتمع والفن في الإسكندرية وتصلح للنشر في باب «أين يذهب الناس» وقال: هل تعلم أن هذا الباب أسهم بدور كبير في تعرية مجون وسفه الطبقة الأرستقراطية الفاسدة التي كانت تحكم مصر قبل ثورة ٢٣ يوليو. . وتهيئة الرأي العام لقيامها وضروراتها؟. وقلت له: أعلم ذلك جيداً. . وأن الرئيس جمال عبد الناصر أشاد بهذا الدور بعد قيام الثورة، ثم قلت للأستاذ إحسان: إن مشكلة عدم وفائي بهذه المادة الصحفية تحديدا تكمن في المكافأة المتواضعة التي تدفعها المؤسسة فوق مرتبي الشهري، وأنها لا تكفي لارتياد منتديات وحفلات المجتمع السكندري، كما أن مجالات الفن السكندري مقصورة على الإذاعة المحلية ومعارض الفنون التشكيلية وهو ما أبذل في متابعته قصاري جهدي. وقال الأستاذ إحسان: أنا أعني الاهتمام بأخبار نجوم الفن الليلي في ملاهي شارع الكورنيش وسهرات الطبقة الجديدة العارمة ووعدني بزيادة المكافأة.

بعدها شُغلتُ بالتعرّف على المجتمع السكندرى فى همة ودأب، إذ كان رضاء إحسان علىَّ يفوق رضاء كل الناس بعد الله سبحانه وتعالى. وحتى نجحت بداية فى إعداد تحقيق صحفى شامل تحت عنوان «الإسكندرية فى الليل» وكان مدخلى إلى معرفة خبايا وأسرار ملاهى وكباريهات شارع الكورنيش من أول ملهى «الأجلون» الراقى حتى كباريه «عطيات حسين» الهابط والاقتراب من ألوان فنونها والتعرف عن قرب على نجومها وسهراتها وخباياها حين يختلط فيها الحابل بالنابل.

ثم كانت تجربتى الثانية فى ملهى الإكسليسيور الشهير الأنيق الذى كان يقع فى حى «الأزاريطة» على شارع الكورنيش ولا يبعد سوى أقل من كيلومتر واحد شرق محطة الرمل، حيث وقفت أمام مدخله مترددًا إذ كان العشاء ورسم الدخول ١٥ جنيهًا وهو مبلغ كبير يساوى اليوم ١٥٠ جنيهًا وأكثر حتى كدت أتراجع عن الدخول.. و.. فجأة وجدت أمامى الزميل رءوف توفيق المحرر فى مجلة صباح الخير آنذاك ورئيس تحريرها بعدئذ. وكان برفقته صديق سكندرى.. فما إن قدمنى إليه.. حتى أصر على دعوتى معه لقضاء السهرة فى «الإكسليسيور».. حيث قدمنى فى تلك الليلة إلى مدير الملهى فوزى ثابت.

جلسنا نتابع برنامج السهرة الحافل الذى كانت تقدمه فرقة ألمانية استعراضية تقدم ألوانًا من الرقصات الفانتازية تدعى «تروبيكال أتركشن»، وهى كانت تقدم عروضها منذ أسبوع فى ملهى «الأوبرج» الشهير بشارع الهرم. وتضم عددًا من الراقصين والراقصات الفاتنات وساحرًا وبعض لاعبى الأكروبات، ثم كانت نمرة الراقصة آمال التى قدمها المذيع بعد أن خلع عليها لقب راقصة الإسكندرية الأولى فكانت خاتمة السهرة.

جانيت راقصة الإستربتيز

باختصار خرجت من السهرة بخبر مثير حول نجمة فرقة «تروبيكال أتركشن» واسمها «جانيت» التى قدمت رقصة «الإستربتيز»، حين همس فوزى ثابت مدير الملهى فى أذنى قائلاً: قد لا تصدق أن هذه الراقصة رجل وأنه يستعد لإجراء

عملية جراحية لدى طبيب سكندرى مشهور يتحول بعدها إلى امرأة. وتعجبت أشد العجب ولم أصدق، خصوصًا أنه يبدو كما لو أنه امرأة فاتنة تضج بالأنوثة، ومن ثم طلبت لقاءه حتى أتحقق من الأمر، ووافق فوزى ثابت مرحبًا بعد أن أفهمته أن نشر الخبر سوف يجلب الشهرة للملهى ومزيدًا من الزبائن أيضًا. وهكذا فى مساء اليوم التالى وصلت إلى الملهى مبكرًا.. وكان لقائى مع المدعو «جانيت» الذى وصف لى بدقة العوامل والمتغيرات الفسيولوجية التى طرأت على غدده الجسمانية وكيف أن مشاعره بدأت تتغير منذ سنوات فى «ميونخ» مسقط رأسه بألمانيا الغربية وتباعد بينه وبين الجنس الخشن تدريجيًا وتقترب سريعًا وبشكل تلقائى إلى مشاعر الجنس اللطيف، وقال إنه غير نادم على ذلك فهذا قدره ويأمل فى الزواج بعد نجاح العملية.. و...

نشرت قصة جانيت والملهى الذى تعمل على مسرحه. فإذا بالأستاذ إحسان يطلب فى مكالمة تليفونية متابعة الخبر وتحقيق صحته عبر لقائى مع الطبيب الذى قرر أن يتولى إجراء العملية وكان له ما أراد.. ثم التقيت جانيت والطبيب بعد نجاح العملية.. ونشرت تلك التطورات تباعًا فى باب «أين يذهب الناس».

بعدها أصبحت أتردد على الملهى وقتما أشاء وأشاهد برامجه وأنتقى أخبار زبائنه من علية القوم، وألتقط ما يقع تحت دائرة سمعى وبصرى من الحوادث الطريفة أو المثيرة الصالحة للنشر. دون أن أدفع فى المقابل سوى ثمن فنجان قهوة أو كوب شاى وربما السندويتشات الخفيفة أحيانًا.

يومًا بعد يوم استيقظت حاستى الصحفية حين أدركت أن هذا الملهى تحوم حوله الشبهات، وأن هذا الفوزى الوسيم الأنيق المهذب ـ مدير الملهى ـ ليس أكثر من شيطان محترف يتقن فن الغواية وترويج الأعمال القذرة.. وفى البداية اعتقدت أن الملهى مجرد غطاء لنشاطات غامضة غير مشروعة، حيث كانت السهرة فى الملهى تمتد بعد نهاية البرنامج إلى كباريه آخر يجاوره يحمل اسم «كسبا» يضم العديد من بنات الليل على أهبة الاستعداد لمجالسة الزبائن وفق نظام «الفتح»، أى أن يفتح الزبون للفتاة زجاجة من الشمبانيا بالشيء الفلانى أو تصحبه خارج الكباريه بالشيء العلانى، لكننى قبلت الأمر فى البداية على

عواهنه باعتباره ظاهرة عادية فى معظم كباريهات شارع الكورنيش فى انتظار المزيد من المعلومات والأسرار.

شخصية غامضة

حتى كانت ليلة دخل فيها الملهى شخصية غامضة. ربع القوام فى الخمسينيات. يرتدى بدلة أنيقة ويضع نظارة سميكة على عينيه، وقد عرفت أهميته من اهتمام فوزى ثابت بقدومه وكذا سمير شقيقه وساعده الأيمن وكل العاملين فى الملهى الذين وقفوا له زنهارا كما لو كان قائدا عسكريا أو زعيما لإحدى عصابات المافيا. وكان يبدى ملاحظاته على مفارش الموائد و«سيرفيس» الطعام وأزياء الجرسونات وبعدها طاف ببعض الموائد يلقى التحية على بعض الزبائن أو يجلس معهم ويحدثهم، حتى وصل إلى مائدتى حيث تولى فوزى ثابت مهمة التعارف بيننا، وعرفت لقبه دكتورا وعمله محاسبا كبيرا فى الإسكندرية.

سحب الدكتور مقعداً وجلس قبالتى يشكرنى على ما نشرته حول حكاية جانيت ويمتدح فى وصلة نفاق أخلاقى المستقيمة بدعوى أننى لا أشرب الخمر على الرغم من أن معظم دخل الملهى من بيع الخمور، ثم سألنى عن مجلة روز اليوسف وأحوال الصحافة ورأيى فى الثورة وعبد الناصر وهل أنا متزوج أم عازب؟ وأجبته فى اقتضاب حسب الأحوال من باب الحذر والتحوط وكسب ثقته معًا.. ثم غادر مائدتى بعد أن طلب لى واحد «آيس كريم» وشكرته على وعد بقبول دعوته لى على العشاء فى المرة القادمة. ويشاء القدر أن ألتقى بعد ذلك بصديقى «تونى» وكان صاحب «لورانتوس» وهو مطعم شهير فى محطة الرمل وله فرع آخر يحمل اسم تونى يقع على شاطئ حى الشاطبى، وكان ملتقى الفنانين والصحفيين فى موسم الصيف، وكان تونى يبدو من بدانته المفرطة وملامحه يونانيًا أو أرمينيًا من مواليد الإسكندرية، بينما الحقيقة أنه كان مصريًا وعلى قدر من الثقافة وحسن الاطلاع، وعلى عادته مع أصدقائه وزبائنه المقربين كان يتولى بنفسه تقديم الطعام على موائدهم ورعايتهم ومؤانستهم.

مسرحية لعباس الأسوانى

كان صديقى عباس الأسوانى المحامى - يرحمه الله - قد دعانى والكاتب الصحفى سعد كامل لتناول العشاء من الأسماك والجمبرى والقواقع البحرية فى مطعم تونى احتفالاً بعرض مسرحية كوميدية من تأليفه فى الإسكندرية . . ولمحنى تونى من بعيد وجاء يطلب منى الحديث على انفراد. فلما انتحينا جانبًا قال: قرأت كل ما كتبته عن الإسكندرية وحتى عن «جانيت» وأود أن تكتم سرًا . . فهذا الملهى «الإكسليسيور» تديره الحركة الماسونية ويملكه الدكتور المحاسب وهو أيضًا ماسونى كبير، ثم قال «تيك كير يا جو». أى خذ حذرك يا يوسف و . . شكرته بعد أن وعدته بكتمان السر.

لم أتوقف عن التفكير منذ تلك الليلة فيما وراء الإكسليسيور من أسرار، لكنى تذكرت المثل الشعبى الدارج «عدوك ابن كارك» ومن ثم قدرت - ربما - يكون الأمر نميمة أو غيرة من تونى لا تستقيم على قدمين باعتباره صاحب مطعم منافس، فكان همى أن أتحقق بنفسى من الأمر على الرغم من أن شكوكى كانت تحوم حول هذا الملهى من قبل أن يتطوع تونى بتأكيدها . . وبدأت أرسم طريقى لكسب ثقة الدكتور المحاسب وإقناعه بالبوح، وكثفت التردد على الملهى وكان قليلاً ما يتردد، لكننى فى هذه المرات القليلة نجحت فى توثيق صلاتى الشخصية معه. وكنت أحاوره فى كل شيء وأى موضوع، وأتولى الإجابة عن أسئلته دون تحفظ. فإذا امتدح أحد أثنيت على مبرراته . . وإذا أعلن كراهيته للثورة ومقته لعبد الناصر، رجحت قناعتى بوجهة نظره. حتى سألنى يومًا عن «الماسونية» وماذا أعرف عنها. ولم تتجاوز إجابتى عن وصفها بأنها حركة خيرية إصلاحية - على حد علمى - بدليل أن المجاهد الكبير جمال الدين الأفغانى وتلميذه الشيخ محمد عبده كانا من أعضائها كما قرأت!

وهنا كان الموعد الذى انتظرته طويلاً للبوح، واعترف لى الدكتور المحاسب بأنه أيضًا ماسونى كبير، وقال إنه يوم قامت الثورة قررنا فى الهيئة الرئاسية للمحفل الماسونى بالإسكندرية لقاء جمال عبد الناصر لجس نبضه على أمل كسبه إلى صفنا ودعم نشاطنا أو اتقاء شره. حتى نجحت مساعينا فى لقائه بقصر رأس التين بالإسكندرية.

وقال: استغرقتْ المقابلة زهاء الساعة.. وكان عبد الناصر هادئًا مبتسمًا وهو يستمع لشرحنا الوافى حول نشاطات الحركة الماسونية.. واستعدادنا لدعم جهود الثورة فى مجالات الإصلاح الاجتماعى والثقافى والاقتصادى، وشكرنا فى النهاية على مبادرتنا وصافحنا مودعًا فى مودة بعد أن وعدنا خيرًا.. كان اللقاء فى العاشرة صباحًا.. وفى المساء فوجئنا باعتقال جميع هيئة رئاسة المحفل الماسونى للتحقيق معنا. وعلمنا فى معتقلنا أن عبد الناصر أصدر قرارًا بإلغاء الحركة الماسونية فى مصر وإغلاق مبنى المحفل الماسونى فى الإسكندرية، وكان أجمل محافل الحركة الماسونية فى مختلف ربوع العالم آنذاك، وبعدها أغلقت المحافل الماسونية وجرم نشاطها فى الدول العربية!

عندئذ أبديت له أسفى لموقف عبد الناصر الذى سبق وحل كل الأحزاب والمنظمات الشعبية الموروثة عن عهود الديمقراطية الزاهرة.. لكن بعد ما أفضى لى الدكتور المحاسب بسره أو اعترافه لم يعد هناك بد من تقصى أسرار الحركة الماسونية.. وسألته عن وسيلة الانتماء إلى الحركة، وقال إننا كنا نهتم بضم القيادات والرءوس الكبيرة فى المجتمع.. من رجال الأعمال والمصرفيين والمضاربين فى البورصة والفنانين والمثقفين والوزراء وكبار الموظفين والمهنيين وضباط البوليس والجيش، وفسر لى أسلوب الانتقاء كونه وسيلة لتسهيل مهام الحركة الماسونية التطوعية والخيرية، وقال إن الحركة الماسونية فى مصر كانت تغير بين الحين والآخر «كلمة السر» التى تعممها على أعضائها حتى ينالوا تخفيضًا فى سلعة أو أداء خدمة لدى أعضاء آخرين.. وسألته عن دواعى السرية وقصر التخفيض أو الخدمات على أعضائها فحسب، وفسر الأمر بأنه عمل إجرائى لمنع اختراق الحركة وتشجيع الآخرين على الانضمام إليها والانخراط فى تنظيمها تدريجيًا حتى يصبحوا مؤهلين لارتقاء سلمها الأعلى، وقال إنه كانت هناك اختبارات يجب أن يمر بها العضو الجديد كأن نصدر له أمرًا بالسفر إلى أسوان مثلاً لنجدة عضو فى ضائقة ما.. وكان هذا الاختبار أسلوبًا للفرز وقياس مدى استعداده لكتمان السر وسرعة التلبية والطاعة العمياء.. وقلت للدكتور المحاسب إن البعض يثير التساؤلات حول علاقة الماسونية بالحركة الصهيونية؟ ونفى ذلك الاتهام بشدة.. وقال إن سبب هذه

الشائعات أن الحركة كانت تفتح باب عضويتها لليهود المصريين بحكم ثرائهم وسيطرتهم على الاقتصاد والتجارة والمصارف فحسب. وعند ذلك توقف عن الإجابة عن تساؤلاتي وغير موضوع الحوار عامداً.

غير مرغوب فيه

كتبت حكاية الدكتور الماسوني بشكل مختصر في روز اليوسف تحت عنوان «اعترافات ماسوني سابق». . وذكرت وظيفته ومكان لقائنا تلميحاً في ملهى يقع على كورنيش الإسكندرية دون أن أذكر اسمه في ضوء نصائح توني وتحذيراته «تيك كير يا جو»، وبعدها ذهبت إلى الملهى حتى أتبين ردود فعل نشر الموضوع، وإذا بالدكتور يحاول كبت مشاعره الغاضبة تجاهي وقال إنه تلقى لوماً من أشخاص عديدين على أقواله وأن تلميحي بوظيفته ومكان اللقاء كشف عن شخصيته التي أكدتها حكاية عبد الناصر مع الحركة الماسونية. لكني تصنعت البلاهة أو السذاجة وقلت له: «كان مطلوباً أن تحذرني من النشر مسبقاً، وقد نشرت دفاعك عن الماسونية بأمانة ودون تحريف. لكني أدركت من نظرات العاملين في الملهى وتغيير معاملاتهم السابقة الودودة تجاهي أنني أصبحت شخصاً غير مرغوب فيه. . حتى أغلق الملهى أبوابه بالضبة والمفتاح بعد أن انفض عنه معظم رواده تباعاً إذ كان أغلبهم - على ما يبدو - من الماسونيين السابقين واللاحقين. . بل إن الملهى لحقه بعد ذلك قرار الإزالة بعد انتقالي للعمل بمقر روز اليوسف في القاهرة. .

على أنني حين عدت إلى الإسكندرية في زيارة قصيرة بصحبة بعض الأصدقاء. . شاءت مصادفات الحياة أن ندخل مطعماً جديداً للأسماك على بعد خطوات من مكان الملهى السابق الذكر، وهناك التقيت بفوزي ثابت وجهاً لوجه، واستقبلني ببشاشة مصطنعة في البداية وعرفت أنه صاحب المطعم. . وعندما تقدمت إليه لدفع الحساب بادرني بعبارة قاسية: «خربت بيتنا الله يخرب بيتك!».

ملهى النيل فى لندن

بعدها بسنوات سافرت إلى لندن حيث دعانى والصديقة نعم الباز الكاتبة بصحيفة الأخبار وأسرتها المنتج السينمائى أحمد فؤاد الوردانى لقضاء السهرة بملهى يملكه يدعى «النيل»، ومرة أخرى وجدت نفسى وجهًا لوجه مع سمير الشقيق الأصغر فى عائلة ثابت الذى كان بانتظارنا فى مدخل الملهى. وعرفت أنه يعمل مديرًا له وأنه هارب من اتهامه بارتكاب جريمة قتل جارسون بالإسكندرية. . وعادت بى الذكريات من جديد إلى حكايتى مع شقيقه فوزى والدكتور المحاسب. . ولم أكن بحاجة إلى قناعات جديدة بما سمعته وقرأته عن الحركة الماسونية وأدبياتها القذرة فى إفساد القيم والأخلاقيات وتفكيك المجتمعات والتشكيك فى الأديان عبر واجهات من الأنشطة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والشعارات البراقة التى تخدم فى النهاية أهداف الحركة الصهيونية العالمية، وإلا لماذا يحترف الإخوة الثلاثة امتلاك الكباريهات والملاهى أو إدارة أنشطتها المشروعة والمشبوهة، وكم تعانى إيطاليا ـ على سبيل المثال ـ من النشاطات السرية التى تمارسها الماسونية عبر تعاونها مع عصابات المافيا، إذ حتى بعد تقديم قيادات الماسونية الإيطالية للمحاكمة اقتصرت التهمة على مجرد القيام بتنظيم سرى من غير الحصول على ترخيص دون التحقيق والمحاكمة على مضمون أنشطتها الإجرامية وعدم مشروعيتها وهو ما يؤكد نفوذها الخطير وأنها فوق القانون.

نهاية الحكاية. . خبر مثير نشرته كل الصحف المصرية أواخر التسعينيات تحت عنوان «اغتيال أخطر قواد فى الإسكندرية» وكانت صورة واسم القتيل هو فوزى ثابت مدير ملهى الإكسليسيور بشحمه ولحمه وأصله وفعله الوضيع.

رجال الأمن يتسترون على المجرمين

ومضى زهاء نصف قرن على قرار جمال عبد الناصر الصادر فى أوائل الخمسينيات بحل المحفل الماسونى بالإسكندرية وتحريم النشاطات الماسونية فى مصر حتى انكشف عام ٢٠٠٣ مستور السرية الصارمة التى تحيط بالحركة الماسونية

العالمية، حين أدركت الحكومة البريطانية مخاطرها وأساليبها الملتوية، على الرغم من أن بريطانيا تمثل المركز الرئيسى الذى يهيمن اليوم على نشاطات الإمبراطورية الماسونية وقيادتها فى شتى ربوع العالم، خصوصًا وأجيال متتابعة من الأسرة المالكة ظلت ولا تزال تشغل مناصبها القيادية وآخرهم دوق «كنت» ابن عم الملكة إليزابيث الذى يشغل الآن منصب الرئيس الأعلى للمحفل الماسونى الحالى، ومن بين أعضائها السابقين الزعيم البريطانى المرموق ونستون تشرشل رئيس حكومتها إبان الحرب العالمية الثانية، ولورد كيتشنر وزير الحربية والشاعر الروائى البريطانى روديارد كيبلنج، وفى الولايات المتحدة حيث يبلغ عدد أعضاء الحركة أربعة ملايين عضو ماسونى كان من أبرزهم الرئيس جورج واشنطن وبنجامين فرانكلين وفى أوربا كان الموسيقار الشهير موزارت ماسونيًا!

وعلى الرغم من أن الحركة الماسونية تستقطب صفوة حزب المحافظين البريطانى، إلا أن الحملة السياسية الضارية التى بدأت حكومة العمال فى شنها ضد الحركة لا تندرج تحت معايير التنافس والصراع السياسى بين الحزبين، وإنما لأن وزير الداخلية «العمالى» ـ بناء على شواهد ووثائق مؤكدة ـ وجد أن نفوذ الماسونية الطاغى على سلطات القضاء والأمن والسجون بوجه خاص، يلقى بظلال من الشكوك على حيادها على حساب القانون والصالح العام، كون دستور الماسونية يفرض على أعضائه رعاية مصالحهم حتى لو أدى الأمر أحيانًا إلى الإجحاف بمصالح خصومهم مما يهدد مصداقية العدالة والنظام الإنجليزى العريق فى الصميم!

وهكذا توصلت اللجنة البرلمانية التى كلفتها حكومة العمال بسبر أغوار وكشف أسرار الماسونية الدفينة، إلى قرار يلزم العاملين فى القطاعات الثلاثة بوجه خاص، إلى تقديم بيانات تؤكد أو تنفى عضويتهم فى الحركة وإلا تعرضوا لأشد العقاب، خصوصًا بعد ما تصاعدت موجة إعلامية وسياسية تراوحت بين الحقائق والشائعات عن القضاة ورجال الأمن الماسونيين وتسترهم مؤخرًا على بعض الجرائم. بل إن المعركة سرعان ما نشبت واحتدمت كذلك على صعيد البرلمان إيذانًا بنهاية الإمبراطورية المشبوهة.

حركة البنائين الأحرار

والشاهد أن الماسونية أو حركة «البنائين الأحرار» التى نشأت لأول مرة فى القرون الوسطى، استهدفت فى البداية الحفاظ على مصالح صفوة المجتمعات وتبادل المنافع بين أعضائها، دونما حاجة إلى الولاء لدين سماوى معين بدعوى كونهم أكثر قربًا من الآلهة عبر أعمالهم الطوعية والتضامنية، لكن مع التطور الذى شهدته الماسونية على مستوى العقيدة والأساليب والآليات وتأسيس المركز الأعظم فى بريطانيا عام ١٧١٧، تحولت إلى منظومة للمحسوبيات، وارتكاب الجرائم والموبقات وأعمال التجسس دون وازع من دين أو احترام للقوانين فى أى دولة من الدول التى تمارس فيها نشاطاتها المشبوهة، ومن هنا حامت الشبهات تدريجيًا حول تسلل اليهود إلى تنظيماتها وتسيير نشاطاتها لخدمة مخططات الحركة الصهيونية!

أذكر أننى شُغلت بأمر الماسونية لأول مرة فى الأربعينيات، حين نشرت الصحف المصرية إعلانًا عن كتّاب حول أسرارها لماسونى سابق من الفيوم، وبعد أيام اختفى الكتاب من السوق ثم عثر على جثة المؤلف قتيلاً فى أحد فنادق القاهرة، بعدها سمعت عن كتاب آخر حول الماسونية شرع الكاتب الكبير عباس محمود العقاد إلى تأليفه لكنه لم ير النور، وعبر علاقتى بأستاذى المجاهد السورى والعلامة الكبير محب الدين الخطيب الذى كان يرأس تحرير مجلة «الفتح» ويملك مطبعة تحمل نفس الاسم تقع أيضًا فى شارع الفتح على مقربة من منزلى بحى الروضة، من هنا كان متاحًا لى أن أسأله عن الماسونية وأسرارها، وقال - يرحمه الله - إنها حركة خبيثة ضد الأديان والأخلاق والقيم الوطنية والقومية، هدفها تسيب المجتمعات وتفكيكها حتى يسهل على اليهود السيطرة عليها وتحقيق مصالحهم بسهولة عبر أعضائها المتنفذين ومن بيدهم سلطة القرار.

وقال إن الحركة الماسونية لعبت دورًا مبكرًا فى فتح العرب للأندلس ودورًا لاحقًا فى إخراجهم منها، وسعت بمختلف الوسائل إلى التعجيل بتقويض الخلافة الإسلامية العثمانية فى تركيا، ووعدنى بأن يجمع من مكتبته الزاخرة كل ما يهمنى من مؤلفات وبحوث عن الماسونية لكنه توفى إلى رحمة الله قبل أن يفى بوعده!

لكن أكثر ما علق فى ذاكرتى من حديثه عن الماسونية أن الإمام محمد عبده والداعية الكبير جمال الدين الأفغانى والزعيم الوطنى أحمد عرابى وغيرهم من المصلحين والوطنيين فروا من الماسونية فرار السليم من الأجرب، عندما اكتشفوا فى مرحلة لاحقة عداءها للعرب والمسلمين وحدبها على اليهود بعد تصعيد عضويتهم إلى مرحلة السرية وقبل حلف القسم الذى يبيح قتلهم إن أفشوا أسرارها أو عصوا أوامرها!

جدير بالذكر أن إيطاليا عانت وطأة نشاطات الحركة الماسونية فى خلال العشرين عامًا الأخيرة، سواء عبر دورها المشبوه فى إقالة الحكومات، أو عبر علاقتها المشبوهة بتنظيمات المافيا السرية، وقد افتضحت العلاقة فى يونيو ١٩٨٢، عندما وجد «كالفى» مشنوقًا على جسر «بلاك فرايز» فى لندن، وكان «كالفى» وقتها يعمل رئيسًا لمجلس إدارة بنك «بانكو إمبروزيانو» ويلقب بالمصرفى الصالح نظرًا لعلاقته الوثيقة مع الفاتيكان، وبتفتيش جيوبه عثر على بعض الحصى قيل إنها تمثل إشارة التعارف الكودية الدورية بين الماسونيين الإيطاليين آنذاك، حيث انتشرت الشائعات تؤكد مسئولية الماسونيين الإيطاليين عن قتله، لمجرد أنه حاول التبرؤ من علاقتهم به وأفشى أسرارهم وجرائمهم!

وفى الاتحاد السوفيتى سابقًا لعبت الماسونية دورًا مهمًا فى انهياره، وفى ممارسة الضغوط لتهريب اليهود السوفييت إلى إسرائيل، وعلى الرغم من أن الحزب الشيوعى كان قد تنبه مؤخرًا إلى علاقة الحركة الماسونية بالحركة الصهيونية، وشكل لجنة خاصة برئاسة جنرال سابق لتقصى الحقائق توطئة لاستبعاد أعضائها من المناصب الحساسة، لكن هذا الجنرال كان للمفارقة يهوديًا وماسونيًا أيضًا.

الآن تحاول الحركة الماسونية فى مقرها الرئيسى ببريطانيا تجميل وجهها القبيح، عبر التخفيف من قيود السرية الصارمة، وفتح باب العضوية لغير الأثرياء وأصحاب النفوذ، وتحويلها إلى حركة شعبية بعدما شددت حكومة العمال من قبضتها وباتت تهدد بشل حركتها، لكن «مايكل هيجام» الأمين الأكبر للمحفل الماسونى المتحد فى بريطانيا وويلز قال: شىء وحيد سوف نظل نحتفظ بسريته

حتى نهرب من اتهامنا بالتآمر، ويكمن فى إشارات ورموز وكلمات التعارف السرية بين الأعضاء وإلا تفكك تماسك الحركة وتلاشى نشاطها تباعًا.

ومما لا شك فيه أن المعلومات والحقائق التى توافرت لأجهزة الأمن فى مصر عن الحركة الماسونية وأنشطتها الملتوية وأهدافها المشبوهة إبان المرحلة الناصرية، عجلت تباعًا بتجريمها وحل منظماتها فى السودان، ثم فى غيرها من الدول العربية، لكن إذا كانت الماسونية تحيط نفسها بالسرية الصارمة عندما كانت مشروعة فى السابق ووفقًا للقانون، فلاشك أنها الآن أكثر سرية وتمويهًا على نشاطاتها المشبوهة بعد أن فقدت غطاء المشروعية!

الانقلاب على السلطان عبد الحميد

والحقيقة أن الدكتور على شلش ـ يرحمه الله ـ الناقد والكاتب المعروف كان قد بذل جهدًا كبيرًا فى البحث ودراسة الحركة الماسونية فى كتابه القيم عنها وحمل عنوان «الماسونية فى مصر» الصادر عن مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر عام ١٩٩١، وقد فض الكثير من الغموض الذى يكتنفها، والمهم والخطير من آرائها، وتقصى جذورها التاريخية ومنابعها الفكرية وأهدافها المشبوهة، مما لا غنى معه عن هذا الكتاب لأى مهتم بشأن الماسونية، منذ تأسيس الحركة فى مصر لأول مرة مع غزو نابليون لمصر عام ١٧٩٨، ثم كان غزوها لمصر للمرة الثانية إبان الاحتلال الإنجليزى عام ١٨٨٣، كذلك ظل كتاب جورجى زيدان «تاريخ الماسونية العام» الصادر عام ١٨٨٩ مرجعية هامة بشأنها، بينما يسجل التاريخ لأهم واقعة تشى بنفوذ الحركة الماسونية فى مصر، حينما تدخلت لإطلاق سراح الضابط لطيف سليم المدرس بالمدرسة الحربية الذى اعتقل بسبب مظاهرة الضباط ضد حكومة نوبار ذات التوجه الأوربى فى فبراير عام ١٨٧٩!

على أنه وفقا لتعريف الموسوعة البريطانية، فإن الجمعيات السرية وفى مقدمتها الماسونية تدعى لنفسها نشاطا اجتماعيا، ومع ذلك تطلب من أعضائها أن يخفوا عن الآخرين أنشطة معينة يمارسونها داخل الجمعية، مثل الطقوس الخاصة الواجب ممارستها عند الانضمام إلى عضوية الجمعية أو مراسم الاحتفالات التى

تجرى داخل أنديتهم الخاصة وأماكن تجمعاتهم الغامضة، وقد يطلب من الأعضاء أن يحتفظوا أو ينكروا عضويتهم عند الضرورة، وعادة يقسمون على حفظ أسرار الجمعية، ومن هنا استخدم مصطلح الجمعيات السرية لوصف منظمات «الإخوة» و«الماسونية» أو«البناءون الأحرار» لكونها تتميز بغرابة مراسمها وطقوسها وأنشطتها السرية.

المعروف أن البنائين الأحرار أو الماسونية من أقدم الجمعيات السرية، حيث نشأت عام ٤٤ ميلاديا تحت اسم القوة الخفية، وكان الغرض منها تنفيذ مشيئة ملك هيرودوس الثانى ملك الرومان فى وضع الخطط وحبك المؤامرات الكفيلة بالقضاء على الدين المسيحى وأتباعه.

ويذكر أنه فى عام ١٧٧٠ قرر قادة الجمعية وهم ورثة أسرارها عقد اجتماع فى لندن للمرة الأولى، وأعلنوا عن مبادئها فى الحرية والمساواة والإخاء والتعاون فى مساعدة البسطاء، ثم غيروا اسم الجمعية من القوة الخفية إلى «البنائين الأحرار» حيث تعنى كلمة «ماسون» البناء وكلمة «فرى» الأحرار. وهكذا كانت نشأة محفل لندن للحركة الماسونية.

ويذكر التاريخ كذلك أن الحركة الماسونية كانت المدبر الأساسى للانقلاب على السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٩، حيث دُخلت الإمبراطورية العثمانية تحت هيمنتها فى الحرب العالمية الأولى التى قضت عليها وفرقتها، وكان أول محفل ماسونى قد تأسس فى الدولة العثمانية عام ١٨٠١م تحت اسم «الثورة العثمانية العالية»، بل إن البعض من المؤرخين يرى أن الحركة الماسونية كانت لها صولات وجولات فى التدبير للثورة الفرنسية وإنها لم تكن حدثا تاريخيا مفاجئا وقع نتيجة نزوة وغضب شعبى فحسب، كما أن لورد بلفور ـ صاحب وعد بلفور الذى منح اليهود حقا تاريخيا مزيفا فى فلسطين ـ كان ماسونيا، وكذلك المليونير اليهودى «روتشيلر» الذى اجتمع فى القرن السابع عشر بفرانكفورت مع اثنى عشر من رجال الأعمال وكبار الأثرياء حيث وافقوا على خطته الرامية للسيطرة على ثروات العالم و...

ليس هذا مبحثا تاريخيا شاملا حول نشأة الحركة الماسونية وتطورها وانتشارها

وأهدافها المشبوهة، لكن على نحو ما جرت عليه العادة «ما لا يدرك كله لا يترك جله»، وعلينا إذن من باب الحذر والاحتياط أن نفتش حولنا عن الظواهر المرضية الدعوبة التى تسعى إلى تمرير أخبار الجنس والترويج للمخدرات وإشاعة الفساد وإفساد الأخلاق والسخرية من الأديان وإحباط المعنويات وإثارة قضايا الأقليات والترويج لتطبيع العلاقات مع إسرائيل وفصم اللحمة العربية، وذلك أنها تندرج بلا استثناء تحت أساليب الماسونية فى تفسخ المجتمعات وانحلالها، للحيلولة دون التحشد فى مواجهة الخطر الصهيونى الداهم على العالم والمتمثل فى إسرائيل بالنسبة إلى العرب!

الأسوانى على حافة الإعدام

عندما اختار الزعيم الإيرانى الدكتور مصدق شعبا يرنو إليه لمساندة قراره التاريخى الباسل بانتزاع احتكار بريطانيا العظمى ثروات بلاده البترولية لصالح الشعب، لم يجد سوى مصر وزعيمها العظيم مصطفى النحاس باشا الذى كان يتولى رئاسة الحكومة عام ١٩٥١.

خرجت مصر على بكرة أبيها لاستقباله والحفاوة به، وإعلان دعمها لقراره الجسور فكانت المظاهرات الشعبية تطوف شوارع القاهرة على مدى أيام زيارته للقاهرة.. وتتجمع من كل فج عميق أمام مقر إقامته بفندق شبرد القديم بشارع إبراهيم باشا.. وبين حين وآخر يتحامل الزعيم العجوز المريض على نفسه ويطل من شرفة جناحه على الجماهير ملوحًا لها بأصابع يده الواهنة. وعندئذ ترتفع الحناجر إلى عنان السماء تهتف بحياته وبالمجد والخلود للشعب الإيرانى.

وسط هذا الزحام البشرى العارم وصلت سيارة سوداء فاخرة طراز «رولزرويس» حيث أسرع عمال الفندق إلى فتح أبوابها لاستقبال أمير حبشى أسمر البشرة عريض المنكبين، بينما ارتفعت أكف رجال الشرطة تؤدى التحية العسكرية للزائر العظيم، ولم يكن هذا الأمير الحبشى سوى الظريف عباس الأسوانى المحامى الذى جاء لزيارة الدكتور مصدق بدعوى أنه ممثل للإمبراطور هيلا سلاسى فى إجراء مشاورات سياسية مع الزعيم الإيرانى والوفد المرافق الذى كان يضم حسين زاهدى وزير خارجية إيران عهدئذ!

ساعة من الزمن. خرج الأسوانى بعدها من الفندق تحفه مظاهر الأبهة والتكريم، حيث أعاد السيارة الرولزرويس إلى صاحبها وكان من أثرياء عائلة الألفى المشهورة بزراعة الموز الفاخر المعروف بـ «أبو نقطة»، ثم مشى على قدميه حتى وصل إلى دار صحيفة «الجمهور المصرى» حيث وضع نص مباحثاته مع مصدق وزاهدى أمام أبو الخير نجيب رئيس التحرير الذى نهض إلى احتضان الأسوانى وتحيته على تلك الخبطة الصحفية التى انفرد بها دون كل الصحف والصحفيين.

السفارة الإيرانية بالقاهرة هالها نشر الحديث وبادرت إلى إنكاره جملة وتفصيلا لكل ما جاء فى سياقه من تصريحات خطيرة وأسرار تذاع لأول مرة.. وعندئذ توجه المستشار الصحفى للسفارة للقاء أبو الخير وقدم له تكذيبا رسميا للحديث وينفى أن يكون الدكتور مصدق أو زاهدى قد التقيا بصحفى اسمه عباس الأسوانى.. ولم يكن ثمة مفر من دليل على مصداقية ما حدث، وعندئذ قدم له رئيس تحرير الجمهور المصرى توقيعات مصدق وزاهدى على كل أوراق الحوار الدبلوماسى الذى أجراه الأسوانى.. وهكذا قفل المستشار الصحفى راجعًا إلى السفارة الإيرانية وبعث برسالة إلى حكومته تؤكد صحة الحديث عبر قصة الأمير الحبشى المزعوم.

كانت «الجمهور المصرى» صحيفة أسبوعية «تابلويد» تعنى بالإثارة والمغامرة والخبطات الصحفية. لذلك كثيراً ما تعرضت للمصادرة والمساءلات القضائية.. وكان الأسوانى واحداً من أبرز محرريها المشاغبين الذين انتشروا بعد إغلاقها فى مختلف الصحف والمجلات المصرية، وبينهم المفكر والكاتب الكبير محمد عودة ومحمود السعدنى الكاتب الساخر، والمرحوم حمدى لطفى البوهيمى الشهير الذى تخصص فى الشئون العسكرية فى مجلة المصور وخاض غمار مختلف الحروب العربية، والمناضل المغامر زغلول فؤاد الذى كان يخرج من ورطة صحفية إلى ورطة أخرى سياسية أشد وأنكى.

كان سعد زغلول نزيل سجن طرة أواخر الأربعينيات بعد اتهامه ـ لا أذكر تحديدًا ـ فى قضية «قنبلة سينما مترو» وربما باختطاف ضابط إنجليزى والشروع فى اغتياله، وعندئذ وقع اختياره على زميله المحرر فى الجمهور المصرى عباس الأسوانى الذى يشتغل بالمحاماة إلى جانب إشباع هوايته للصحافة للدفاع عنه.

عباس بعد أن قرأ ملف القضية وجد أن الشواهد تدين صديقه من مختلف الزوايا ولا مفر من توقيع العقوبة عليه فى النهاية مهما أوتى من براعة المرافعة ودرايته بالقانون الجنائى والإجراءات والمرافعات وأحكام محكمة النقض والسوابق القضائية. . وهكذا عندما عقدت المحكمة جلستها للنظر فى القضية طلب الأسوانى التأجيل للاطلاع . . وخلالها التقى بصديقه سعد زغلول فؤاد من وراء قضبان القفص الحديدى الذى يقبع داخله ألوان وأشكال شتى من المتهمين السياسيين وعتاة المجرمين والمظلومين.

مد سعد يده بورقة صغيرة كان قد تمكن من إخفائها فى طيات ملابس السجن وسلمها للأسوانى تتضمن ملاحظات ووصايا ونصوصًا قانونية حتى يضمنها دفاعه عنه وتبرئة ساحته . . وقرأها عباس بعناية ثم سأل سعد عن صاحب هذه الورقة وقال: زميلنا المشترك عادل أمين المحامى الذى التقيت به فى السجن متهما فى قضية سياسية أخرى . . وضحك الأسوانى وقال لسعد وهو يكور الورقة ويقذفها بعيدًا: لو أننى استمعت إلى نصائح عادل أمين وتبنيت وجهة نظره وضمنت اجتهاداته القانونية فى مرافعتى . . إذن لكانت العقوبات فى انتظارك حتما ومن كل بد، مصيبتك يا سعد لا فكاك منها ولا نجاة سوى استبعاد القانون أصلاً و . . هكذا تحولت القضية عبر مرافعة الأسوانى ودفاعه الباسل عن سعد من مجرد قضية جنائية إلى قضية سياسية كبرى، جذبت إليها الصحافة والأحزاب والرأى العام وشكلت ضغوطًا معنوية وسياسية على هيئة المحكمة . . . فكان انحيازها إلى الصف الوطنى فى مواجهة القصر الملكى والاحتلال البريطانى والحكم ببراءة المتهم سعد زغلول فؤاد!

أذكر أن الأسوانى كان قد ترجم عن الفرنسية رواية «سأعود مع الجمهورية» فى ديسمبر عام ١٩٥١، لكن رئيس تحرير الجمهور المصرى اعتذر عن نشرها، وكانت حجته أنها تتضمن إسقاطات واضحة على الأوضاع السياسية فى مصر . . ودعوة صريحة إلى الخلاص من النظام الملكى وإعلان الجمهورية . . وهدد الأسوانى بالاستقالة وعندئذ تدخل يوسف فكرى سكرتير التحرير للوساطة بين الجانبين وقدم حلا ذكيا للخلاف ونشرت القصة تحت عنوان آخر «سأعود مع الحرية»!

لم يكن الأسوانى فحسب ظريفا نادرا ولا محدثا تسترق له الأسماع ولا شاعرا محرضا على الثورة ولا محاميا ضليعا ولا صحفيا جريئا رشيق العبارة فحسب. . كان أيضا أديبا ذا نكهة خاصة، فقد كتب القصة والرواية والمسرحيات والتمثيليات الإذاعية، وتفوق على معاصريه من كتاب المقامات ونال جائزة الدولة التقديرية عام ١٩٧٤، عن روايته «الأسوار العالية» التى تعالج فكرة السلطة وآفاتها حين يتحول الإنسان السوى إلى إنسان آخر تتصاعد شهوته إلى السلطة إلى حد الإشباع بلا نهاية حتى لو اقتضى الأمر تخليه عن أسرته وقيم المجتمع وارتكاب المزيد من الجرائم تباعًا، وكانت رواية الأسوار العالية قد أوشكت على إنتاجها فيلما سينمائيا. . إلا أن السيناريست بشير الديك تخلى عن مهنته بعد أن قطع شوطًا كبيرا فى كتابة السيناريو، وقال فى تصريح صحفى: «بهرنى السرد الروائى الممتع. . لكننى خشيت ألا يصل السيناريو إلى عمق المضمون ولذلك تراجعت»!

أذكر أن عباس الأسوانى كان يترافع يوما عن متهم بالقتل، ورغم أنه كان مقتنعا فى قرارة نفسه ببراءته، إلا أن كل الشواهد والأدلة ثابتة ضده، عندئذ استنهض مواهبه وقراءاته للتراث وخبراته بأحوال البشر وتصاريف النفس الإنسانية، وراح يفند الاتهام ويوقع بين الشهود حتى شكك فى أقوالهم دون اللجوء كثيرا إلى نصوص القانون. . لدرجة أن صوته ارتفع حتى وصل إلى قاعات المحاكم المجاورة التى يضمها مبنى دار القضاء العالى وتوقفت عن العمل، حتى اقتنعت الهيئة القضائية ببراءة المتهم وقررت الإفراج عنه!

أصدقاء الأسوانى من المحامين الذين حضروا المحاكمة واستمعوا إلى مرافعته الباسلة يؤكدون فيما يشبه الحسد أن نجاحه فى تبرئة ساحة المتهم فى آخر فرصة للتقاضى، جلبت له كثيرا من الزبائن الذين يراهنون على البراءة على يديه من تهم جنائية عويصة، لكنه كان يختار من هذه القضايا ما يؤمن بأنها تستحق أن يذود عن حياضها بصرف النظر عن الإغراءات المالية.

فلما استفسرت من عباس الأسوانى عن دوافع إيمانه ببراءة ذلك المتهم بالقتل وحرارة دفاعه عنه. . روى لى قصة وقعت له شخصيا كادت تطوق رقبته بحبل المشنقة أو الحكم عليه على الأقل بالسجن المؤبد مع الأشغال الشاقة رغم براءته!

كان ذلك فى أعقاب حريق ٢٦ من يناير سنة ١٩٥٢ الذى التهم معظم المؤسسات والبنوك ودور العرض والمحلات التجارية فى وسط القاهرة، وتم القبض على الأسوانى بوصفه المتهم الأول، لكونه من زعامات وأبرز شعراء حزب «مصر الفتاة» الذى تحول فيما بعد إلى «الحزب الاشتراكى»، وراح يندد بالملك ويهاجم الإنجليز بضراوة، وكانت له قصيدة كان قد ألقاها فى مظاهرة حاشدة ـ قبل أيام من حريق القاهرة ـ يقول فى مطلعها:

إما جلاء لوادى النيل مكتمل
أو أن تسيل من الخصم الحشاشات

بعد أربعة أيام من الاعتقال أفرجت النيابة العامة عن الأسوانى لعدم كفاية الأدلة خصوصا بعد شهادة النبيل عباس حليم على مكالمته الهاتفية للأسوانى من مكتبه بميدان الأوبرا.. حيث وجده يؤدى عمله فى نادى السيارات الملكى خلال اندلاع حريق القاهرة، لكن فى آخر لحظة تقدم للشهادة خواجة أرمنى متمصر مؤكدا أن شابا أسمر البشرة عريض المنكبين يرتدى قميصا وبنطلونا و«بلوفر» كان المحرض والفاعل وراء إشعال الحرائق فى سينما ريفولى بشارع فؤاد وفندق شبرد العتيق بشارع إبراهيم باشا وكازينو بديعة بميدان الأوبرا والنادى الإنجليزى «تيرف كلوب»، وقال إنه تتبع نشاطه الإجرامى هنا وهناك ويستطيع بسهولة أن يتعرف عليه!

جمال العطيفى ـ وزير الإعلام الأسبق ـ كان وكيل النيابة الذى عهد إليه بالتحقيق فى حريق القاهرة، ولأن كامل أوصاف المتهم التى أدلى بها الشاهد الخواجة كانت تنطبق على عباس الأسوانى، لذلك قرر إجراء عرض لطابور يضم عددا من المتهمين ورجال المباحث وعامة الناس وعباس الذى وقف بينهم مرتجفا هلعا.

بدأ الخواجة يستعرض طابور العرض.. ثم توقف فجأة أمام الأسوانى وقال فى ثقة: هذا هو المتهم! وعندئذ أدرك جمال العطيفى ـ وكان صديقا لعباس ـ أنه وقع فى شر أعماله لا محالة ظالما أو مظلوما.. وعندئذ انتحى بالخواجة جانبا وقال له: سوف نعيد العرض مرة ثانية وعليك ألا تتردد فى الإمساك بتلابيب المتهم وإخراجه من الطابور تمهيدا لإعدامه فورا.

الخواجة الأرمنى العجوز هاله على ما يبدو عبارة «إعدامه فورا» وأدرك عظم

المسئولية، حيث تتوقف على شهادته حياة أو إعدام إنسان، وراح يحملق من جديد فى وجوه المصطفين فى طابور العرض مرة ثانية فردا فردا . . وعندما وصل إلى الأسوانى عاد يتفحصه من جميع الزوايا عدة دقائق فى تباطؤ وهدوء . . ثم التفت إلى جمال العطيفى وقال: موش ده يا خبيبى المتهم . . حصل واحد غلطة . . المتهم نحيف شوية وطويل شوية وأسود خالص موش نص نص! . .

عندئذ فقط اطمأن جمال العطيفى على مصير الأسوانى وبراءته . . حيث الشك دائما ـ بحكم القانون ـ فى صالح المتهم، ولذا عاد يسأل الشاهد: «أنت متأكد يا خواجة أن هذا الشخص غير متهم بحرق القاهرة» . . وقال الخواجة: متأكد ونص يا جنابو . . الراجل ده وشه سمح . . والراجل الثانى وشه شيطان وبطال خالص . . الله يخرب بيته!

ومع ذلك ظل عباس رهن سجن هايكستب ستة شهور مع نخبة من المثقفين المتهمين بالعيب فى ذات الملك فاروق، ولولا اندلاع ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ لما كان الإفراج عنهم وبراءتهم!

من يومها وعباس الأسوانى لا تفارقه تلك الذكرى المأساوية عندما صوب الخواجة عينيه فى عينيه، وسقط فى براثن اليأس فى المرة الأولى للعرض . . وكادت تصيبه السكتة القلبية فى المرة الثانية . . ومنذ ذلك الامتحان الصعب لم تعد هناك مشكلة فى حياته تستحق أن يخاف منها أو يضطرب لها .

جاءه موظف بسيط يطلب منه رفع قضية ضد جزار فى السيدة زينب يماطل فى دفع «كمبيالة» مقابل مبلغ ألف جنيه دينا فى عنقه . . ولأن الموظف فقير ولا يملك من حطام الدنيا شيئا لدفع الأتعاب والرسوم . . ولأن عباس كان يعرف الجزار شخصيا، لذلك صحب موكله وذهب إليه فى محله للتفاهم وحل المشكلة وديا . . لكن الجزار أنكر أن يكون قد كتب على نفسه كمبيالة بالدين . . وعندئذ أخرج الموظف الكمبيالة من حافظته لإثبات صحة ادعائه، ومد الجزار يده وتناول الكمبيالة للاطلاع عليها والتأكد من توقيعه . . ثم إذا به يكورها فجأة ويقذفها فى فمه ويبتلعها فى جوفه ثم قال فى بجاحة وارتياح «مالكش حاجة عندى» . وهكذا ضاع الدليل الوحيد الذى يثبت حق الموظف المسكين!

ماذا يفعل الأسوانى؟ هجم على الجزار وكان فى قوة الثور . . وأمسك بذراعه ولواها بشدة حتى أحنى رأسه إلى الأرض وبدأ يضربه بقبضته من خلف رأسه وظهره عدة مرات . . حتى تقيأ الجزار وقذف الكمبيالة من جوفه والتقطها عباس من الأرض . . واضطر إلى دفع رسوم القضية من جيبه الخاص والتنازل عن أتعابه حتى استخلص الحق لصاحبه!

جاءه يوما زبون، يطلب توكيله للدفاع عنه فى قضية، وطلب عباس ٦٠٠ جنيه أتعابا، لكن الزبون استكثر المبلغ رغم أنه كان ميسور الحال، وبدأ يماطله ويستعطفه بدعوى أنه فى مصيبة كبرى . . وقال له الأسوانى ببساطة : يا سيدى اعتبر أتعابى جزءا من مصيبتك الكبرى!

أذكر أننى سألت عباس الأسوانى عن مغزى العبارة التى تتردد فى ساحة

القضاء «فلان قوّم محامى للدفاع عنه فى قضية»، وقال إنها تعنى قيام المحامى من الراحة إلى التعب ووجع القلب . . ولذلك استحق المقابل المادى الذى يتقاضاه المحامى مقابل الدفاع عن حقوق الموكلين له وصف «أتعاب»، خاصة أن «التعب» سرعان ما يتلاشى ويتبدد تلقائيا عندما ترتاح النقود فى جيب المحامى . . وقال ضاحكا : المحامى فى نظر العامة بياع كلام . . وفى نظر المتعلمين بياع حكمة وثقافة وقانون . . بينما الحقيقى أنه صوت العدالة وضمير المجتمع .

وربما لذلك كان يهيأ لى أن جلسات الأسوانى ومنتدياته وسهراته التى يجول فيها ويصول بأعذب الكلمات والسخريات فى قوة واقتدار، لا تعدو مجرد ملاعب تدريب للحفاظ على لياقته الصوتية وقدراته الفذة على هزيمة منافسيه من فحول المتكلمين والظرفاء، حيث الانتصار بعد ذلك ممكن فى ساحات القضاء لسحق خصومه من المحامين!

٢٦ يوليو ـ تمرد السلاح البحرى

كان الفريق سليمان عزت قائد القوات البحرية الأسبق شخصية إنسانية نادرة، حافلة بالمتناقضات ومثيرة للجدل، إذ كان صارمًا حازمًا فى عمله، فلم يكن يقبل الخطأ من رجاله حتى لو كان هينًا . ولذلك حاز عن جدارة لقب «جنابو شديد»، وديع رقيق مسالم، كذلك خارج عمله كما الأطفال الطيبين، وقد رأيته وهو يلاعبهم ويقترب من عقولهم ومشاعرهم البريئة إبان كان رئيسًا للنادى الأوليمبى بالإسكندرية، بينما كان قادرًا فى نفس الوقت على مصارعة شباب النادى والانتصار عليهم بلا استثناء فى لعبة «البلادفير» التى تعتمد على التحكم فى الأعصاب وقوة العضلات، أذكر من بينهم الفتى علاء صادق الذى أصبح من بعد ناقدًا رياضيًا شهيرًا يحمل لقب دكتور!

فى عز الشتاء وعواصف النوات البحرية الموسمية التى تهب على الإسكندرية كان يرتدى دومًا زيه العسكرى أو بدلة السهرة المدنية على اللحم، وسهرات الفريق سليمان عزت لم تنقطع قط مع ضباط السلاح البحرى سواء فى نادى اليخت أو فى منازلهم وربما فى النوادى الليلية التى يتم حجز مقاعدها بالكامل مسبقًا حتى لا يتسرب إلى الجمهور ما كان يدور داخلها من طرائف وأفانين، حين كان يحلو له العزف على طبول آلة «الدرامز» إذ كان عاشقًا للموسيقى، وربما من قبيل التباسط وتوثيق الصلات الشخصية والعسكرية مع رجاله الذين كان يعرفهم بالاسم من رتبة اللواء حتى رتبة النقيب، ودائمًا ما كان يصحب معه ياوره الخاص العقيد الديدى ومدير مخابرات البحرية العقيد أمين عفت الذى كان يعتبره مرآته

ويستمع إلى آرائه ويستجيب لأوامره وملاحظاته الأمنية وينفذها بدون قيد ولا شرط، والمدهش حقّاً أنه مهما امتدت السهرة إلى ما بعد منتصف الليل كان الفريق سليمان عزت أول من يدخل مبكراً مقر قيادة القوات البحرية من الضباط العظام، حيث تنطلق أصوات البروجى بسلام القائد وترتفع بنادق الحرس شاهرة السونكى ويرتفع العلم على الصارى إيذاناً بتشريفه فى تمام السابعة صباحاً!

وقد عرفت الفريق سليمان عزت لأول مرة شتاء عام ١٩٦٢ عبر الصديق محمود السعدنى الكاتب الساخر المعروف، وكان قد صحبنى لزيارته فى مقر القيادة البحرية بالإسكندرية، ويومها تبادلا الحديث حول أوضاع رياضة كرة القدم فى مصر وأثنى على انحياز السعدنى إلى نوادى الأقاليم وبينها النادى الأوليمبى فى مواجهة نوادى العاصمة الكبيرة مثل الأهلى والزمالك التى تستأثر بالجمهور والمال والاهتمام الرسمى والإعلامى، ثم فتح درج مكتبه فجأة وأخرج ميدالية أنيقة أهداها له بعد أن وجه إلينا الدعوة للغداء فى الثالثة ظهراً بنادى اليخت.

وبينما كان السعدنى يقود سيارته رحت أتفحص الميدالية، وإذا بها من الذهب الخالص ومدموغة بعيار «٢١»، وبحسبة بسيطة اكتشفت أنها تساوى حوالى ٢٠٠ جنيه وهو مبلغ كبير آنذاك، واكتشفت كذلك أنها هدية من جماهير النادى الأوليمبى إلى الفريق سليمان عزت تقديراً لجهوده فى رفع شأن النادى وتقدم فريقه الكروى فى مباريات الدورى، لكن السعدنى تشكك فى الأمر وإذا به يتوقف أمام محل صائغ يبيع الذهب والمجوهرات حيث طلبت من البائع التأكد إن كانت الميدالية من الذهب أم مطلية بقشرة من الذهب . . وعندما أكدت له أنها من الذهب الخالص وأنها تساوى أكثر من ٢٠٠ جنيه قال السعدنى ضاحكاً: «يا عم دى ميدالية وقف . . يعنى لا أستطيع الانتفاع بها ولا التباهى بحيازتها . . ويمكن اللى يشوفها معايا يفتكر أنى سرقتها»!

الحساب ١٨٥ جنيها

فى نادى اليخت فوجئنا بأن الدعوة موجهة أصلاً إلى كبير الخبراء العسكريين السوفييت ومجموعة من معاونيه الذين يقومون بتدريب ضباط البحرية المصرية

على تشغيل وحرب الغواصات، وكعادة السوفييت جرى تبادل الأنخاب كمظهر للحماسة والفخر والمودة واستعراض قوة التحمل. . كأس فى صحة العلاقات المصرية السوفيتية وآخر فى صحة حركات التحرر. . وثالث على شرف الأسطول المصرى ورابع على شرف الأسطول السوفيتي و. . و. . وبينما كان السوفييت يشربون خموراً حقيقية من «الفودكا». . كان الفريق سليمان عزت ـ بالاتفاق ـ مع «البارمان» يشرب كازوزة ماركة «اسباتس»، وكأنه يشرب الفودكا أيضًا دون علم الضيوف، وهكذا ظل يجاريهم في شرب الأنخاب وهم وقوف على الأقدام زهاء ثلاث ساعات. . وإذا بكبير الخبراء السوفييت ورجاله يشعرون تباعًا بالدوار وأن أقدامهم أصبحت عاجزة عن حملهم. . وعندئذ مال العقيد أمين عفت يهمس فى أذن سليمان عزت قائلاً: «سيادتك الحساب وصل إلى ١٨٥ جنيهًا ثمن الفودكا» وعندئذ أدرك على الفور أنه آن الأوان لنهاية اللعبة التى كان يمارسها مع السوفييت. . حيث تقدمهم لتناول الغداء فى السادسة مساء!

ومضت شهور، وبعدها توثقت علاقتى بالفريق سليمان عزت بعد اختيارى مديراً لمكتب مجلة روز اليوسف بالإسكندرية عام ١٩٦٤، حتى أتيحت أمامى الفرصة السانحة لإجراء حديث معه تناول سيرة حياته وأوضاع القوات البحرية، لكننى عندما شرعت فى إعادة صياغة الحديث كان مطلوبًا منى تحديداً ـ بناء على طلبه ـ إسقاط ضربة صحفية كنت أمنى نفسى بتحقيقها حول ما كان يتردد آنذاك من أقاويل وشائعات حول واقعة تمرده على ثورة يوليو عام ١٩٥٢!

والشاهد أنه كانت هناك مواقف متباينة حول المصير الذى كان ينتظر الملك فاروق الأول والأخير إثر اندلاع الثورة، فكان بعض أعضاء مجلس الثورة بزعامة جمال سالم يحض على اغتياله فوراً إيذانًا بنهاية الملكية فى مصر وإعلان الجمهورية على غرار الثورة الفرنسية التى نهضت فوق بحور من الدماء، بينما فريق آخر بزعامة جمال عبد الناصر الذى كان أستاذاً سابقًا للإستراتيجية بكلية أركان الحرب. . يرى استبقاء الملكية «تكتيكيًا» إلى حين تأمين الثورة والسيطرة على مقدرات الحكم فى مصر تدريجيًا، وهكذا تقرر الاكتفاء بعزل الملك وتعيين ابنه الأمير أحمد فؤاد خلفًا له تحت الوصاية وكان لا يزال طفلاً، والتعامل مع الأحزاب السياسية وتجنب استعدائها مرحليًا إلى حين استكشاف نواياها ومدى استعدادها

للتجاوب مع طموحات الثورة صوب التغيير والنهوض، خصوصًا وبعضها كانت لها قواعد شعبية لا يستهان بها وفى مقدمتها حزب الوفد بزعامة مصطفى النحاس باشا وجماعة الإخوان المسلمين بزعامة حسن الهضيبى. . وبعدها تكرر اختلاف أعضاء مجلس الثورة ـ كما هو معروف ـ حول خيارين للحكم، النظام الديكتاتورى الذى حاز أغلبية الأصوات. . بينما وقف جمال عبد الناصر وحده إلى جانب الديمقراطية على حد شهادة الرئيس أنور السادات!

على أن المشكلة التى واجهت الثورة تمثلت فى إقامة الملك فاروق الأول والأخير فى قصر رأس التين بالإسكندرية، بينما اندلعت شرارة الثورة وثبتت أقدامها فى القاهرة، الأمر الذى استغرق ثلاثة أيام كاملة فى الإعداد لعملية عزل الملك عسكريًا ودستوريًا وسلميًا يوم ٢٦ يوليو!

الولاء للملك

كان الملك فاروق على ثقة فى ولاء القوات البحرية للعرش، ولذلك راهن أو ساوم على انحيازها إلى جانبه تلقائيًا، إذ كانت تربطه أوثق العلاقات الشخصية بقيادتها ومعظم ضباطها فكان يحلو له الالتقاء بهم فى نادى اليخت الملكى المطل على البحر الأبيض لتناول العشاء والسهر ولعب البريدج، بل إنه اختار ارتداء الزى البحرى فحسب فى المناسبات الوطنية دون بقية أزياء الأسلحة البرية والجوية.

تأزم الموقف وكادت تفشل عملية عزل الملك، عندما فوجئ مجلس الثورة بالقائم مقام ـ العميد ـ سليمان عزت قائد السلاح البحرى فيما بعد، وقد استقل المدمرة طارق وأبحر بها بعيدًا عن شاطئ الإسكندرية تتبعه بعض من قطع الأسطول المصرى، وعندئذ أدرك جمال عبد الناصر قائد الثورة مدى خطورة المأزق المفاجئ الذى لم يعمل له حسابًا من قبل، حين أهمل تجنيد بعض ضباط السلاح البحرى للانضمام إلى تنظيم الضباط الأحرار بدعوى ولائهم للملك، وقصر عضوية التنظيم على ضباط معظم أسلحة القوات المسلحة.

كان الوقت يمر سريعًا والأعصاب مشدودة . . خشية أن تعرف الصحافة ووكالات الأنباء والسفارات ما يجرى فى عرض البحر المتوسط . . مما قد يوحى بتمرد السلاح البحرى . وعدم سيطرة الثورة على زمام الموقف وإغراء بريطانيا بالتالى على التدخل لإجهاضها، بينما السفير الأمريكى جيفرسون كافرى يمارس دور الوسيط بين مجلس قيادة الثورة والملك فاروق بحثًا عن مخرج للأزمة . . الملك يراهن على السلاح البحرى والثورة عازمة على عزل الملك ولو استدعى الأمر استخدام القوة، حتى اهتدى جمال عبد الناصر إلى حل قد ينجح فى سحب البساط من تحت أقدام الجناح المتشدد فى مجلس قيادة الثورة .

عبر جهاز اللاسلكى فى القيادة العامة للقوات البحرية أصدر جمال عبد الناصر قراره بالاتصال مع لاسلكى المدمرة طارق وإجراء حوار بين حسن إبراهيم عضو مجلس قيادة الثورة واللواء سليمان عزت ـ وكلاهما من أبناء الإسكندرية وتربطهما علاقة صداقة ومودة سابقة ـ لإقناعه بالانضمام إلى الثورة .

حسن إبراهيم يحاول الاستفسار عن موقف بعض ضباط السلاح البحرى ومغزاه وهل يمثل تمردًا على الشرعية الثورية الجديدة . . ويسأل : هل كان ذلك تحريضا من الملك؟ . . وسليمان عزت ينفى شبهة التحريض مؤكدًا على أنه وأفراد القوات البحرية سبق وأقسموا يمين الولاء للملك والوطن والدستور، وأنهم لا يزالون على ولائهم إلى حين التحقق من أن تغيير الحكم يتم دستوريًا . . ثم سأل حسن إبراهيم : من أنتم؟ . . ولماذا قمتم بحركتكم؟

عندئذ شرع حسن إبراهيم فى شرح مبررات قيام «حركة الجيش المباركة»، وأهدافها فى اجتثاث فساد الحكم الذى تاجر بأرواح شهداء القوات المسلحة عبر صفقات السلاح الفاسد الذى كان ضمن أسباب هزيمتها فى حرب فلسطين، وقال إن شرعيتنا مستمدة من جماهير الشعب التى التفت حول الحركة وأهدافها فى بناء قوات مسلحة أكثر قوة وتحديثًا وتحرير وادى النيل من الاستعمار البريطانى، والقضاء على الإقطاع، وتمصير الاقتصاد، وتحقيق العدالة الاجتماعية، و . . و . . .

اللواء سليمان عزت بعد أن استمع إلى حسن إبراهيم طويلاً وناقشه بدقة قال : الآن اقتنعت بحتميات حركتكم وخياراتها وأعلن بصفتى الشخصية ونيابة عمن

تحت قيادتى الولاء والانحياز إلى أهدافها بلا قيد ولا شرط مادامت لصالح الشعب ووفقًا للإجراءات الدستورية السليمة، لأننا نرفض أسلوب الانقلابات العسكرية لصالح فئة من الضباط أيًا ما كانت نواياهم طيبة . . ثم عاد يسأل: لكن لماذا لم تتصلوا بنا قبل قيام حركتكم؟

حسن إبراهيم: لدواعى السرية والأمن فحسب!

سليمان عزت فى حدة وغضب: السلاح البحرى ليس أقل وطنية من مختلف أفرع القوات المسلحة، ثم أضاف: اسمع يا حسن الوقت يجرى وعلينا أن نعود سريعًا والانضمام إلى صفوف حركة الجيش المباركة . . سلام عليكم و . .

لم تمض سوى أقل من الساعة حتى كانت المدمرة طارق فى طريق العودة سريعًا وبعض قطع الأسطول البحرى لأخذ مواقعها وإحكام الحصار البحرى حول قصر رأس التين، حيث تمت إجراءات تنازل الملك عن العرش بهدوء عندما أدرك أنه خسر الرهان على ولاء القوات البحرية إلى حد أن يده اليمنى اهتزت وهو يوقع على وثيقة التنازل عن العرش . . حيث طلب منه اللواء محمد نجيب وعلى ماهر رئيس الوزراء أن يعيد التوقيع مرة ثانية بشكل صحيح . . وبعدها جرت مراسم توديعه رسميًا حتى اليخت الملكى «المحروسة» الذى حمله وأسرته وكل ممتلكاته الشخصية وحتى مجوهراته متوجهًا إلى إيطاليا تنفيذًا لأوامر جمال عبد الناصر، إذ كان يرى فى تنازله عن العرش على نحو سلمى ودون إراقة دماء الهدف التكتيكى الذى يهون من أجله الغالى والرخيص كمقدمة لإنجاز الهدف الاستراتيجى الأعظم، وهو تطوير نجاح الحركة إلى ثورة واستمراريتها بشكل سلمى ودستورى حتى تحقق أهدافها الوطنية.

لم ينس عبد الناصر موقف سليمان عزت، ولا أصدر قرارا بعزله بدعوى ولائه السابق للملك فاروق كما توقع البعض، لكنه قرر ترقيته إلى رتبة اللواء ثم الفريق ثم مد فترة عمله قائدًا للقوات البحرية مدى الحياة للاستفادة من خبراته والتفاف الضباط والجنود حوله، حيث لعب أهم الأدوار العسكرية التاريخية فى إعادة بناء القوات البحرية وتأهيلها لخوض غمار الحروب البحرية التى انقطعت صلتها بها منذ معركة نوارين باليونان نهاية عصر محمد على باشا . . وعندما سأله أعضاء

مجلس الثورة عن مبررات قراره قال جمال عبد الناصر: يكفى أنه استجاب لنداء الواجب الوطنى وأنقذ الثورة من تمرد عسكرى خطير فى الوقت المناسب.. ثم ضحك وقال: يا جماعة ده «كابه» مملح.. وكان يعنى أن الغطاء العسكرى فوق رأسه أصبح مالحًا من طول عمله وخبراته البحرية!

شهادة أمير البحار

على أن أمير البحار الأسبق جلال علوبة يضيف الكثير والمهم من المعلومات حول موقف القائمقام سليمان عزت إثر اندلاع الثورة ما بين يوم ٢٣ حتى ٢٦ يوليو، ولعلها تشى بما حرص على تجنب البوح به، وخصوصًا أن علوبة كان قائد اليخوت الملكية عهدئذ، والياور الخاص للملك فاروق، وهو الذى تولى شخصيا قيادة اليخت الملكى المحروسة خلال رحلة إبحاره بالملك وعائلته من الإسكندرية إلى إيطاليا إثر توقيع وثيقة تنازله عن العرش.. يقول:

كان اليخت المحروسة راسيًا على الرصيف الخاص قبالة قصر رأس التين، ووجدت نفسى فجأة أحمل مسئولية خطيرة، وهى أننى أصبحت أقدم ضابط بالسراى الملكية، إذ كان الفريق عمر باشا فتحى كبير الياوران فى أجازة خارج مصر، كما لم أعثر على مكان اللواء النجومى باشا التالى له فى الأقدمية، ومن ثم قررت إصدار الأوامر على مسئوليتى، فقمت بالاتصال بقائد بحرية جلالة الملك، وطلبت منه بأن تقوم سفينة حربية بمهام المرور البحرى فيما بين منطقة الإسكندرية ومنطقة المنتزه؛ خوفًا من استغلال إسرائيل الفرصة للقيام بعمل تخريبى بالميناء، أو إنزال بعض الجواسيس لداخل البلاد، وعلى ذلك أصدر أوامره بإبحار المدمرة «إبراهيم» بقيادة القائمقام بحرى سليمان عزت بهذه المهمة، وقد أثار ذلك الكثير من التكهنات بأن المدمرة لم تخرج إلا ضمن خطة هروب الملك من البلاد.. وأضاف: والغريب أن سليمان عزت اتصل بى وسألنى ـ لا أدرى حتى الآن إن كان جادًا أو مازحًا ـ ما رأيك فى ضرب ثكنات مصطفى باشا بمدفعية المدمرة «إبراهيم»، وكانت عيار ٥,٤ بوصة، وعندئذ صرخت فيه قائلاً: «أنت مجنون؟.. لو أنك فعلت ذلك لدمرت حى مصطفى

باشا بأكمله. . و. . كان سليمان عزت ملكيًا أكثر من الملك، ومع ذلك فقد استحوذ على قلب المشير عبد الحكيم عامر وعينه قائدا للقوات البحرية وظل فى منصبه ١٥ عامًا متصلة حتى نكسة ١٩٦٧»!

ولعلنا من هنا نتساءل بدورنا عن السبب إذن فى تكريم جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر لسليمان عزت، إلا أن تكون هناك حلقة تاريخية مفقودة لا يعلمها جلال علوبة وغابت عنه خلال انشغاله بتجهيز اليخت المحروسة والأيام التى شغل خلالها بقيادتها إلى إيطاليا ثم العودة بها إلى الإسكندرية، إذ لا شك أن الدور الذى قام به سليمان عزت كان لصالح تأمين الثورة وانحيازه الطوعى لها وقناعته بخياراتها، وأن جمال عبد الناصر وسلوكه البرجماتى عنى آنذاك كعادته بتسخير المتناقضات لمصلحة الهدف الإستراتيجى، ونجح كما لم يتوقع أحد فى خروج الملك سلميًا مع الحفاظ على وحدة وتماسك القوات المسلحة!

المرأة التى أرضعت الزعيم الخالد

هذا الحوار ليس وليد جهد صحفى عابر، وإنما عبر معايشة أسرية متأنية وممتدة لأكثر من ثلاثين عامًا للسيدة وهيبة النشار حتى رحيلها، فهى كانت بمثابة الأم الروحية التى أرضعت جمال عبد الناصر صغيرًا، وتوفرت على رعايته فتى غض الإهاب بعد رحيل والدته، ثم واصلت دورها الروحى بعد زواج والده وهو شاب مكتمل النضج، حيث أقام مع أسرتها إبان دراسته القصيرة بكلية الحقوق والتحاقه بالكلية الحربية، وغادرها ضابطًا فى الجيش بعد ترقيته إلى رتبة ملازم أول، وفى كل تلك المراحل كان طبيعيًا أن يتراكم فى جعبتها مخزون هائل من الشهادات العفوية والذكريات النادرة التى روتها على مسامعى تباعًا كما لو أنها تقرأ فى كتاب مفتوح، ولعل أكثر ما يثير الدهشة والتأمل، كونها لم تشاهد عبد الناصر فى مختلف مراحل عمره ضاحكًا من أعماقه غير مرة واحدة وبالصدفة، وأنها كانت ترصد فيه الحكمة المبكرة وإرادة الاستقامة والنبوغ بما يفوق أولادها كما لو أنها الإرهاصات التى سبقت اندلاع الثورة ومؤهلات زعامته لها.

على أن السيدة وهيبة التى رحلت فى تسعينيات العمر عام ١٩٨١ كانت بمثابة جدتى، وإن شئنا الدقة والتأصيل «سلفة» جدتى لوالدتى السيدة مفيدة النشار، وهى كانت أمًا لأربعة أولاد تباينت انتماءاتهم السياسية قبل ثورة ٢٣ يوليو، ما بين حزب الوفد و«شباب محمد» المنشق عن الإخوان المسلمين وحزب مصر الفتاة، بالإضافة إلى بنت واحدة هى الدكتورة همت النشار أستاذة طب العيون آنذاك. وكانت اشتراكية بالفطرة والممارسة وليس عن طريق الكتب أو الانتماء السياسى،

ولعله من هنا تأثر جمال عبد الناصر بألوان الطيف السياسى والفكرى التى كانت تمور فى هذه الأسرة، وتضطرم بالحماس عبر الحوارات المتبادلة والاشتباك المباشر بهموم الوطن.

وقد نمت أواصر الصداقة بين أسرة سامى النشار والحاج عبد الناصر حسين عبر زمالة العمل فى مصلحة البريد، ولأن الأول كان مديرًا، من هنا كان حرصه على أن يظل صديقه إلى جواره فى كل تنقلاته الوظيفية من صعيد مصر إلى الإسكندرية حتى الخطاطبة، ومن هنا أيضًا نمت الصداقة بالتبعية بين زوجتيهما وأولادهما خصوصًا بين جمال عبد الناصر وكل من المستشار حسن النشار مدير عام شركة الجمهورية للتأمين بعدئذ، والدكتور على سامى النشار أستاذ الفلسفة الإسلامية فيما بعد!

كانت بداية ولوجى إلى ذاكرة وذكريات السيدة وهيبة النشار عن جمال عبد الناصر تحديدًا فى الأسبوع الذى تلا اندلاع ثورة يوليو عام ١٩٥٢، وكنت آنذاك فى الخامسة عشرة من عمرى طالبًا بالسنة الثانية الثانوية، حين وجدت آل النشار فى حالة من النشوة والفرح الغامر، وهم يتبادلون عددًا من الصحف والمجلات المصرية، ويدققون النظر فى الصور المنشورة لأعضاء مجلس الثورة، ثم يؤكدون أن جمال عبد الناصر الذى يرخى رأسه على كتفه وهو مستغرق فى التفكير أو منزويًا فى جانب صورة أخرى، إنما هو القائد الفعلى لحركة الضباط المباركة - وهو اسم الثورة وقتئذ - وليس اللواء محمد نجيب، ومن باب الفضول رحت - على شاكلتهم - أدقق النظر فى الصور، ووجدت أنهم وضعوا علامة (×) لتمييز جمال عبد الناصر عن زملائه، وتذكرت فى تلك اللحظات أننى رأيته خلال زياراته الخاطفة للسيدة وهيبة وأولادها وهو فى زيه العسكرى والمرة الوحيدة التى رأيته يرتدى زيًا مدنيًا كانت فى شتاء عام ١٩٤٦!!

مذبحة كوبرى عباس

كنت آنذاك تلميذًا فى مدرسة العقادين الابتدائية بمصر القديمة، حين فوجئنا بالمدرسين يصرحون لنا بالانصراف قبل موعد انتهاء الدراسة ويشددون على

ضرورة التوجه دون إبطاء إلى بيوتنا، فلما عبرت النيل بالمعدية من مصر القديمة إلى جزيرة الروضة، وجدت السكان يطلون من الشبابيك والبلكونات فى حالة من الذعر والترقب، والناس فى الشوارع فى حالة فرار لا يلوون على شيء، ولأن منزلنا يقع فى شارع الملك المظفر، كان لا مفر من المرور أولاً فى شارع المنيل، حين لمحتنى السيدة وهيبة النشار وكانت تجلس فى شرفة المنزل رقم ٢١ الذى تسكن طابقه الأول والوحيد، ونادتنى إليها واستجبت، ووجدتها تشخص ببصرها إلى الشارع ولسانها يلهج بدعاء لا أكاد أتبينه، ثم قالت: كويس إنك رجعت من المدرسة بدرى.. أصل فى مظاهرات فى الجامعة، والطلبة زاحفين على كوبرى عباس و.. ولم تكمل حديثها حتى رأينا أولادها حسن وعلى وسعد يتقاطرون الواحد تلو الآخر فى شارع المماليك البحرية الذى يصل إلى كوبرى عباس (كوبرى الجيزة الآن)!

كانوا يهرولون وقد قطعت قمصان بعضهم أو ضرجت بالدماء، وجلسوا فى الصالون يتبادلون الروايات حول مقاومتهم لضربات البوليس، ومحاولة طلبة كلية الهندسة إغلاق كوبرى عباس، وكان يتم فتحه بحركة ميكانيكية دائرية من منتصفه، حتى تتمكن المراكب الشراعية ذات الصوارى المرتفعة من عبور النيل فى الاتجاهين، ولولا ذلك ما كان بالإمكان إنقاذ جموع طلبة الجامعات من السقوط فى النيل، ثم لم تمض سوى نصف الساعة على ما أذكر حتى دخل الصالون بعض أولاد عمهم وهم: حمدى النشار الذى أصبح مديراً فيما بعد لجامعة أسيوط ثم وزيراً للمالية، وأبو بكر النشار الذى أسهم بدور كبير فى تأسيس المصانع الحربية، وبعدها دخل جمال عبد الناصر وكان يرتدى زيًا مدنيًا وقال: جئت مباشرة من كوبرى عباس بعد أن شهدت المعركة غير المتكافئة منذ بدايتها إلى نهايتها، وأدركت أنكم بالضرورة هنا لمناقشة الموقف مع ماما وهيبة.. و.. وكانت حاضرة للحوار منذ بدايته فلما أدركت وجودى وأننى لم أرجع إلى أسرتى قالت لى لابد أنهم يبحثون عنك الآن، فانصرفت!

والشاهد أن السيدة وهيبة النشار كانت ذات وجه بشوش تغلب على ملامحه الجد والطيبة، تتوسطه عينان كانتا تتوقدان بذكاء ولماحية الدمايطة، وهى كانت تنتمى إليهم بينما ظل عودها رشيقًا ممشوقًا حتى أُذن لها بالرحيل، وكانت قارئة

نهمة، وسياسية من الطراز الأول، وشاعرة، وحكاءة لا يشق لظرفها غبار، وقد ورث عنها أولادها الكبرياء المفرط إلى حد العناد، وربما من هنا كانت حيرة جمال عبد الناصر معهم، فلقد كان يبحث عن المخلصين لمعاونته لكنهم خذلوه أو خذلهم و . . تلك قصة أخرى.

قالت لى إن مشوار عبد الناصر مع الصبر واحتمال المكاره والأحزان كانت بدايته فى شهر أبريل عام ١٩٢٦، عندما انقطعت الرسائل التى كانت تصله من والدته بانتظام، لكنه ظل يواصل الكتابة لها دون أن يصل إلى علمه ما يفسر تجاهلها لرسائله، حتى جاءت إجازة الصيف وسافر إلى الخطاطبة، وهناك عرف بوفاتها منذ شهور، فكانت صدمته النفسية الأليمة، كأنما لم يدر فى خلده قط أن ترحل عن دنيانا إلى الأبد!

أحفر الأرض بحثا عن والدتى

وتروى السيدة وهيبة أن الحاج عبد الناصر حسين كان قد أبرق يستدعيها إلى الخطاطبة حتى تمارس دور الأم فى تهدئة خواطر ابنه جمال، وقالت إنها حاولت إقناعه مراراً بأن مصيرنا جميعًا الموت بعد الحياة، وأنها حكمة الله وإلا كان مصير الأنبياء والرسل الحياة الأبدية، فكان يوافقنى على مضض ويسكت، حتى رأيته فى الفضاء المجاور للمنزل يحفر الأرض بكفيه الصغيرتين تحت شجرة باسقة، واقتربت منه وسألته: عهدى بك أعقل أشقائك وأولادى. . ماذا تفعل يا ولدى؟ وأحنى رأسه إلى الأرض كاسفًا وأجهش بالبكاء، ولم يكن قد سكب دمعة واحدة منذ رحيل والدته وقال فى نبرة كسيرة: إننى أحفر الأرض بحثًا عن والدتى. . ألم تقولوا إنها دفنت فى الأرض، إذن سوف أناديها من ثقب الحفرة وسوف تسمعنى وتحدثنى. . لقد كانت تحبنى ولا ترفض لى طلبًا ومن يدرى فربما جرى دفنها وهى لا تزال تنبض بالحياة!

ثم تتابع السيدة وهيبة المشهد الحزين بمشهد آخر حين راقبته بعد أن وصل به اليأس من سماع صوت والدته، فكان يعاود عملية الحفر ثم يكرر نداءاته، وبعدها ينثر ما حفره من التراب فى الفضاء ويعود إلى غرفته مبتئسًا يستأنس بوحدته!

هل تتصور يا يوسف أننى لم أشاهد جمال عبد الناصر يومًا ضاحكًا إلا مرة واحدة . . هكذا بادرتنى دون أن أسألها وقالت : أذكر ذلك جيدًا عندما دخلت عليه غرفته التى خصصتها له فى بيتنا بالروضة إبان دراسته فى كلية الحقوق ثم الكلية الحربية وبداية التحاقه بالجيش ، وكنت قد سمعت ضحكته مجلجلة فلم أتمالك نفسى وقلت اللهم اجعله خيرًا ، فلما لاحظ دهشتى قدم إلىَّ مسوغات الضحك ، وكان كاريكاتيرًا منشورا فى مجلة روز اليوسف بريشة صاروخان يسخر فيه من رئيس الحكومة إسماعيل صدقى الذى ألغى الدستور وعطل الحياة النيابية !

من جملة مبادراتها التلقائية للحديث عن كل ما يشرف سيرة جمال عبد الناصر . . قالت : كنت بالنسبة إليه فى منزلة والدته ثم ازدادت الغلاوة المتبادلة بيننا بعد رحيلها ، على الرغم من ذلك كانت هيبته وما أوتى من حكمة ورزانة وطول البال تفرض على التعامل معه وهو شاب بطريقة خاصة جادة ومتزنة تفتقر إلى كلمات التدليل وعبارات الحنان التى كنت أبثها له وهو لا يزال طفلاً صغيرًا ثم فتى يافعًا ، وإلى حد أننى كنت أطلب منه إقناع أولادى بالاعتدال السياسى ، إذكان كل منهم ينتمى إلى حزب معين . فكان نصيبهم مناوأة الحزب الحاكم ثم ارتياد السجون والمعتقلات تباعًا ، وأذكر بعد حادث أربعة فبراير الشهير أن النحاس باشا كان فى زيارة إحدى قريباته فى حى الروضة ، ولم ينقذه من هجوم بعض أولادى عليه من خصوم الوفد سوى جمال عبد الناصر الذى تدارك فى آخر لحظة ما لم تكن تحمد عقباه !

على أننى منذ اشتغالى بالصحافة منتصف الخمسينيات ظلت السيدة وهيبة أكثر حرصًا فى حديثها إلىَّ عن جمال عبد الناصر ، لكننى لم أفقد الصبر والأمل ولا الحيلة لاستدراجها ، وأحيانًا كانت هى التى تبادر بالحديث عنه ، كلما قرأت بعد رحيله من يتطاول عليه جهلاً أو زورًا وبهتانًا ، وعندئذ تشتعل حماسًا للدفاع عنه شفاهة أو كتابة أو عبر النشر فى الصحف ، وربما هاتفت المتعدى أو الموتور وناقشته فيما ذهب إليه وأفحمته بالحجة والمنطق وبرهان شهادتها على عبد الناصر !

سألتها يومًا وفى حسبانى استفزاز ذاكرتها أو تنشيطها : هل صحيح أنك أرضعت جمال عبد الناصر ولذلك اعتذرت عن زواجه بابنتك الدكتورة همت النشار؟

قالت فى نبرة تحمل مزيجا من الانفعال والشجن: على الرغم من أنه أقام فى منزل الأسرة بالروضة فترات متقطعة، إلا أنه لم ير ابنتى همت إلا يوم زفافها، ثم إننى أحتج على الشق الثانى من السؤال «هو أنا يا واد يا يوسف كنت مرضعة»، الحقيقة أننى كنت أرضع جمال عبد الناصر وكأنه واحد من أبنائى ولذلك قصة تروى، فقد كنت متوحدة مع والدته وكأننا شقيقتان، ولأنها ـ يرحمها الله ـ كانت على دراية واسعة بعملية الشراء من الأسواق وحسن اختيار الجيد والمتقن من السلع ومهارتها فى فنون المفاضلة بينها وكذا الفصال حول الثمن المطلوب، من هنا كانت تنوب عنى فى شراء احتياجاتى من الملابس ولوازم البيت، وتترك جمال فى رعايتى، فكان طبيعيًا أن أتولى إرضاعه!

معنى ذلك أن والدة جمال عبد الناصر كانت «ست بيت مدبرة»؟

قالت: نعم كانت كذلك عشرة على عشرة وتحب لأولادها الستر من بعدها، إذ كانت تشعر فى قرارة نفسها بأن أجلها فى الحياة قصير، وكنت أتعجب عندما تكرر وصاياها برعايتى لهم بعد رحيلها، وبالنسبة إلى جمال كانت توجه معظم اهتماماتها إليه ومتابعة تصرفاته داخل البيت وخارجه ثم تحمد الله لأنه بلا مشاكل تذكر، وكانت تتمنى أن يعوضها عما فاتها من التعليم. وأذكر أنها توجهت إلى مدرسة النحاسين والتقت ناظرها وسألته فى شجاعة واعتزاز: لماذا لم يحصل ابنى جمال فى شهادة الدراسة بالسنة الثالثة الابتدائية على الدرجات النهائية، وقال لها الناظر: النبوغ مش بالدرجات.. وابنك نابغ وينتظره مستقبل باهر ألا يكفيك أنه محبوب من المدرسين والأول على المدرسة؟

كانت تعتقد أن التفوق الدراسى سلاح ابنها الوحيد فى اقتحام الحياة، والحصول على الوظيفة المتميزة دون اللجوء إلى الواسطة، وكانت تقول بعفوية إنه يستحيل سرقة أو ضياع العلم من صاحبه، وأذكر أنها كانت شديدة العناية بملابس أولادها، فكانت دومًا على الرغم من بساطتها وتواضعها نظيفة ومكوية وذات ذوق سليم، وفى كل نهاية موسم الصيف كانت تشترى خيوطًا من الصوف حتى أصنع لكل واحد منهم «بلوفر» والأول دائمًا كان من نصيب جمال!

لم يكن همها إذن جمع المال وإنما حسن توظيفه؟

قالت: كانت حكمتها وتدبيرها يوفران فائضًا من المال تشترى به ذهبًا، على الرغم من أن زوجها كان موظفًا بسيطًا ومرتبه محدودا والتزاماته العائلية ثقيلة، وأذكر أن الأساور الذهبية وصلت إلى كوعى ذراعيها قبل رحيلها، حتى أننى قلت لها إن الذهب يسخن عند الاقتراب من الموقد خلال عملية الطهى، وأخشى لذلك أن يتسبب فى ضرر لصحتك، فكانت تبتسم ولا تعير لنصيحتى التفاتًا.

وأين ذهب كل هذا الذهب؟

قالت: ظلت مصوغاتها الذهبية فى حوزتى، وعندما قرر الحاج عبد الناصر حسين الزواج صحبت جمال إلى البنك وأودعتها أمام عينيه حتى لا يشك فى أن والده سوف يأخذها إلى عروسه، وكلما وصل أحد الأبناء إلى سن الرشد كنت أصطحبه إلى البنك وأعطيه نصيبه الشرعى من تركة أمه الذهبية!

بالمناسبة كيف تقبل عبد الناصر خبر زواج والده؟

قالت: حزن حزنًا شديدًا، لأن أخرى احتلت مكان والدته، بل إنه جرؤ على مراجعة والده حتى ارتفع صوته لأول مرة، وذلك كان جديدًا على سمعى ومعرفتى به وهو المهذب الصبور الهادئ الطبع الذى يعرف الأصول ويخشى العيب، وعندما أقنعته بأن والده لم يخالف الشرع امتثل واعتذر له وقبّل يده ووافق على الزواج!

وعلى ما يبدو أن جمال عبد الناصر فارق حالة الحزن بعد زواجه على نحو شهادة السيدة وهيبة النشار واستبدلها بالابتسامة اللطيفة التى ظلت تكسو ملامحه، بل إنها سمعت من أولادها عن صوته الجميل حين كان يحلو له الغناء من تراث محمد عبد الوهاب فى العشرينيات والثلاثينيات، وأنهم سمعوا منه أغنية «جفنه علم الغزل» ثم تابعها بأغنية «النيل نجاشى»، وقالت: أعتقد أن الألم والشفافية والرحمة والحكمة والاستقامة و كانت هى أبرز صفاته على عهدى به، وراء إصراره على أن تظل الثورة بيضاء دون اللجوء إلى سفك الدماء، وإلى حد موافقته على خروج الملك فاروق من مصر بشكل رسمى وبروتوكولى لائق بحضارتنا.

سألتها: أعرف أن الدكتور على سامى النشار كان أول وآخر مستشار ثقافى لمجلس الثورة وقد استهل عبد الناصر الطبعة الأولى من كتاب فلسفة الثورة برسالته التى بعث بها إليه خلال حصار الفالوجا إبان حرب فلسطين عام ١٩٤٨.. فلماذا إذن كان قراره بعزله من منصبه؟

قالت: لم يعزله فى الحقيقة ولكنه طلب منه أن يعزل نفسه عبر تقديم استقالته من منصبه، والحكاية أن ابنى الدكتور «على» أماله الهوى وتزوج فتاة أوروبية، وعلى ما يبدو أن عبد الناصر رأى أن هذا الخيار غير سليم من حيث التوقيت والظروف وطبيعة الوظيفة، إذ كانت مصر مشتبكة آنذاك فى صراع سياسى وعسكرى مع الاحتلال البريطانى، الأمر الذى يدل على مواقف عبد الناصر المبدئية، فكان يرى عن صواب أن صلات الصداقة أو القرابة يجب أن تظل بمنأى عن قضايا الوطن وسياساته، وهو نفس موقفه من ابنى المستشار حسن النشار ـ الذى كان الناس يتوقعون أن يسند إليه منصبًا سياسيًا رفيعًا يستحقه عن جدارة عبر نضاله السياسى الطويل ضد الملكية وأحزاب الأقلية والإنجليز فضلاً عن صداقته الحميمة مع عبد الناصر، ومع ذلك ظل مستشاراً كما كان فى قلم قضايا الحكومة وبعدها اجتذبته شركة الجمهورية للتأمين وهو نفس موقف جمال عبد الناصر الذى رفض أن يحابى أيا من أشقائه أو أفراد أسرته، فيما ظلت قريته بنى مر آخر مكان فى مصر شملته فى عهده مشروعات التطوير والتنمية.

و.. يبقى من شهادات وذكريات السيدة وهيبة النشار الكثير، لكن تظل هناك واقعة تاريخية وأخرى نحسب أنهما فى حاجة إلى التنويه، الأولى عندما تلقت مكالمة من محمود الجيار السكرتير الخاص لجمال عبد الناصر يبلغها بأن الرئيس على أهبة الاستعداد لزيارتها بعد ساعة واحدة وإذا بشارع المنيل يعج بمظاهر الأمن الرسمية فوراً، وإذا بجمال عبد الناصر يدخل عليها وبصحبته الرئيس شكرى القوتلى رئيس سوريا الأسبق، ويقدمها إليه باعتبارها أمه الروحية ثم ينقل على مسامعها نواياهما المشتركة حول قرار الوحدة المصرية السورية ويطلب منها الدعاء بالتوفيق.. وأن يسمع منها قصيدة يحبها، وكان مطلعها:

إن النسور يحلقون قمما

والحشرات تحفر الدما

لأن الشرف العتيد نادر

كزرع اللوز فى أرض الصعيد

أما عن القصة التى تحتاج إلى التنويه، فهى: حين جاءها أحد إخوة عبد الناصر ولم يكن شقيقًا له، وطلب منها التوسط لديه حتى يقبل زواجه بفتاة من عائلة إقطاعية سابقة، وذهبت إليه تحاول معه، لكن عبد الناصر قال لها: مجيئك يا نينة فى حد ذاته شرف لى، ومن حق أخى أن يتزوج بالطبع بمن يشاء، لكن عليه أن يلزم حدوده ويتخلى عن منصبه الرسمى، وإلا كنت أول من يوافق ولو ضمنيا على تجاوز مبادئ الثورة التى وضعت نصب عينيها القضاء على المحسوبية والإقطاع!

كاتم أسرار عبد الناصر

في سبتمبر عام ٢٠٠٢ كان المستشار حسن النشار قد بلغ من العمر ٨٢ عامًا . . وهو صديق لعبد الناصر منذ الطفولة كما الشقيق أو التوءم، إذ كانا قد رضعا معًا من ثدي واحد . . وعاشا معًا في كنف أسرتين متحابتين، عبر عمل والديهما في مصلحة «البوسطة» (البريد) وتنقلهما معًا في ربوع دلتا مصر كما ذكرنا آنفا!

اسمه حسن وصفي النشار المستشار القانوني في قلم قضايا الحكومة ثم مدير شركة الجمهورية للتأمين سابقًا ـ وهو بمثابة خالي ـ وهكذا عندما فتح لي باب شقته الجديدة المتواضعة التي انتقل إليها، بادرني معاتبًا غاضبًا: أتوقع زيارتك دائمًا في ذكرى ثورة يوليو أو ميلاد جمال عبد الناصر أو رحيله لإجراء حوار معي في هذه المناسبات، فماذا يا ترى إذن سبب زيارتك اليوم؟ إلا أن يكون لغرض صحفي في نفس يعقوب و . . واكتشفت أنه فقد حاسة السمع تقريبًا على الرغم من السماعة التي لا تفارق أذنه اليسرى . . وأنه يعيش أقسى أيام حياته وحيدًا حزينًا . . لأن البيت رقم ٢١ بشارع المنيل الذي جمعه وعبد الناصر على مدى سنوات العمر الجميل زال عن الوجود مؤخرًا ليفسح مكانه لعمارة استثمارية كان يجري بناؤها على قدم وساق .

تردد حسن النشار كثيرًا عندما طالبته بحقي ـ من باب صلة الرحم ـ في الاطلاع كالعادة على كنزه الثمين الذي يضم مجموعة صور ورسائل جمال عبد الناصر إليه قبيل ثورة يوليو . . من الإسكندرية ومنقباد وطنطا ومن السودان وفلسطين، يبثه

فيها رؤاه وأفكاره وطموحاته ونقده المرير للأوضاع السياسية المقلوبة. . أو يطلب منه رعاية أشقائه والتدخل فى حل مشكلات عائلته، وبين محتويات الكنز صور نادرة لعبد الناصر فى شبابه الثائر. . ورسائل أخرى من أشقائه وأعمامه ومن والده الحاج عبد الناصر حسين، لكنه امتنع لأول مرة. . وقال «أنت عارف ليه، وأدركت أنه يعاقبنى على الخطأ الذى ارتكبه زميلى الصحفى الذى سبق وقدمته إليه سواء فى حقه أو فى حق عبد الناصر!

على أننى حين نجحت فى تطييب خاطره إيذانًا باستقراء ذاكرته عن عبد الناصر، رجانى أن أكتب له عن الزاوية الصحفية المطلوب أن يتحدث عنها حتى يستجمع شتات ذاكرته وذكرياته مع عبد الناصر بعد أن بلغ من العمر عتيًا وفقدانه السمع تدريجيًا، وكتبت أسأله عن علاقة عبد الناصر بالأحزاب والجمعيات والهيئات السياسية قبل ثورة يوليو، ولماذا كفر بها جميعًا. . وقرر فى النهاية أن يتم التغيير والخلاص عبر القوات المسلحة. . ثم وضعت السؤال مكتوبًا أمامه وتركت له حبال التفكير ممتدة من دون أن أقاطعه. . وبين حين وآخر يلح علىَّ حادث أو واقعة تحتاج إلى مزيد من الضوء أو الظلال أو التفسير. . كنت أسجلها على ورقة صغيرة أضعها تحت بصره و. . وفتحت جهاز التسجيل.

قال: «فى كتابه فلسفة الثورة نشر جمال عبد الناصر ثلاثة خطابات كان قد أرسلها من بعيد على عنوانى بالقاهرة. أحد تلك الخطابات باسم شقيقى الدكتور على سامى النشار الذى أصبح فيما بعد أستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة الإسكندرية بتاريخ ٢ سبتمبر ١٩٣٥، كتب قائلاً: أخى على، خاطبت والدك يوم ٣٠ أغسطس فى التليفون. . وقد سألته عنك فأخبرنى بأنك موجود بالمدرسة. . لذلك عدلت عن أن أكتب إليك ما كنت سأكلمك فيه تليفونيًا. . قال الله تعالى: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ** ﴾ [الأنفال: ٦٠]، فأين تلك القوة التى نستعد بها لهم؟

إن الموقف اليوم دقيق. ومصر فى موقف أدق، ونحن نكاد نودع الحياة ونصافح الموت، فإن بناء اليأس عديم الأركان، فأين من يهدم هذا البناء؟

إن فى مصر رجالاً ذوى كرامة ولا يريدون أن يموتوا كالأنعام، أين الوطنية التى كانت سنة ١٩١٩ تشتعل نارًا فى الصدور؟ بل أين ذلك الذى يذود بلسانه

وخطرات قلبه عن حياض هذا الوطن العزيز المقدس مضحيًا بالحياة والعمر فى سبيل الاستقلال»؟

ثم يستطرد عبد الناصر فى رسالته قائلاً:

«قال مصطفى كامل لو نقل قلبى من اليسار إلى اليمين، أو تحركت الأهرامات من مكانها المكين، أو تغير مجرى النيل فلن أتغير عن المبدأ.. كل ذلك مقدمة طويلة وأعظم، فقد تكلمنا مرات عدة فى عمل يوقظ الأمة من غفوتها ويضرب على الأوتار الحساسة فى القلوب ويستثير ما كمن من القوى فى الصدور.. ولكن كل ذلك لم يدخل فى حيز العمل الآن، وعلى ذلك فأنا منتظرك فى منزلى يوم ٤ من سبتمبر سنة ١٩٣٥ الساعة الرابعة مساء لنتحدث فى الموضوع، وأملى أن تحضر فى الموعد المحدد»!

ثم يستكمل حسن النشار حديث الذكريات والأمل المنشود و. قال: أستشهد كذلك بحس عبد الناصر الثورى المبكر، وإدراكه لعمق المأساة التى كانت تعيشها مصر فى عهد الملكية والاحتلال والحزبية والإقطاع، بخطابين أرسلهما إلىَّ: الأول فى يوليو عام ١٩٣٨ من معسكر منقباد و.. كان فى العشرين من عمره.. يعلن فى سطور الخطاب الأول أنه لا يزال على خلقه القويم وأفكاره الثورية.. وأنه شديد الحنق على موقف كبار ملاك الأراضى الزراعية الذين تشغلهم مصالحهم المالية فى اللجنة التنفيذية لحزب الوفد أكثر مما يشغلهم تحسين أوضاع الفلاح المسكين المغلوب على أمره كما رآه فى منقباد، أو يسخر من فئة الضباط الذين تربوا وتعلموا فى المدارس الأجنبية، وغيرهم من فلول الأتراك الذين يتشبهون بالسلطان عبد الحميد. الخطاب الثالث الذى لمح له فى كتابه فلسفة الثورة كان من السودان.. وفيه أبدى جمال عبد الناصر استياءه الشديد من موقف مجموعة من الضباط الممالئين للإنجليز وسلالة الأتراك. وكيف أنهم شاردون بنزواتهم وملذاتهم بعيدًا عن المشكلات الوطنية التى تؤرق مصر والسودان فى أعقاب حادث ٤ فبراير عام ١٩٤٢ وروى فى خطابه حكاية فتاة يهودية لعوب كان هؤلاء الضباط يترددون على منزل والدها الذى يملك صيدلية فى الخرطوم لمغازلتها ولعب الورق وشرب الخمر.. مؤكدًا على ضرورة تغيير الأوضاع السياسية فى مصر وحتميات الثورة!

مكرم عبيد والمرأة المصرية

هكذا انفتحت شهية حسن النشار للحديث عن عبد الناصر . . وقال إنه انخرط فى العمل الوطنى مبكرًا، وكان عضواً عاملاً فى مختلف التنظيمات الطلابية بالإسكندرية والقاهرة حتى أصبح زعيمًا للجنة العليا لطلبة المدارس الثانوية . . وكان يتردد على مختلف الأحزاب من أقصى اليمين ماراً بالإخوان المسلمين إلى أقصى اليسار الوطنى ممثلاً فى حركة التحرر الوطنى الماركسية . . لكنه كان أكثر قربًا بأفكاره من الوفد حزب الأغلبية ووريث ثورة ١٩١٩ على الرغم من تأثره بالزعيم مصطفى كامل وإيمانه بمصداقية شعار الحزب الوطنى «لا مفاوضة إلا بعد الجلاء»، خصوصًا بعد فشل مختلف مراحل المفاوضات مع الإنجليز فى إنجاز مطلب الجلاء واستقلال وادى النيل، وسمعناه آنذاك يردد لأول مرة الشعار الذى عاد إلى إعلانه بعد نكسة يونيو ١٩٦٧ : «ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة»، ولذلك قرر فى نهاية المطاف أن يكون حياديًا ومستقلاً عن جميع الأحزاب وخلافاتها وأن يبحث عن آلية أخرى للتغيير بشكل حاسم!

معركة مع اليهود

سألته: متى ولماذا فقد ثقته بالأحزاب؟

قال : أذكر فى يوم ١٣ نوفمبر الذى يوافق عيد الجهاد الوطنى الذى يحتفل به حزب الوفد، حيث يلقى زعيمه الخالد المرحوم مصطفى النحاس باشا خطابًا للأمة . . ذهبت أنا وجمال إلى السرادق المقام ببيت الأمة واستمعنا إلى مكرم عبيد باشا قبل إلقاء النحاس باشا كلمته، ولا أنسى عبارته التى اختص بها المرأة المصرية : «أنت أيتها المرأة إن لم تغضبى وتثورى ضد المستعمر فلا يحق لك أن تنجبى» وثارت ثائرة الشباب، ثم بعد أن خطب النحاس خرج الشباب وجميع طوائف الشعب من السرادق فى مظاهرة وطنية عارمة، وتصدى لها البوليس، وأطلق الرصاص على المتظاهرين، وأصيب جمال عبد الناصر بطلقة سطحية فى رأسه وجرح . ودخلت معه أنا وبعض زملائنا إلى مبنى جريدة الجهاد، وفى الجريدة أجريت بعض الإسعافات الأولية لجمال حيث تم وضع رباط طبى فوق

جبهته وحول رأسه، وحملناه إلى منزله فى حارة خميس العدس رقم ٣ بالخرنفش فى حى الجمالية .

أذكر كذلك أننا وصلنا إلى منزل جمال عبد الناصر الساعة الثانية عشرة ليلاً وشاهدنا بعض العمال الذين يعملون فى رتق أكياس الخيش المستعملة، وسمعناهم ونحن سائرون باتجاه المنزل يقولون باستخفاف: «عيال فاضية للمشاكل والخناق» وتأثرت جدًا، وبعد دخول جمال عبد الناصر المنزل عدت لأوضح لهم أننا طلبة وأن زميلى المصاب كان يدافع عن استقلال الوطن ضد الاحتلال وأصيب فى مظاهرة برصاصة إنجليزية ثم سألتهم: لماذا تقولون هذا عنا . . فما كان منهم إلا أن تطاولوا علىّ لأننى بمفردى بل وضربونى كذلك، وبعدها عرفت أنهم «يهود» من المقيمين بهذا الحى، وفى اليوم التالى اتفقت أنا وجمال وزملاؤنا على الانتقام من هؤلاء اليهود، وفعلاً أعطيناهم علقة ساخنة لدرجة أنهم صعدوا إلى أسطح منازلهم هم ونساؤهم وبدأوا يقذفوننا بالحجارة .

ويضيف حسن النشار: أذكر وهو فى الإسكندرية قبل انتقاله للقاهرة أن جمال عبد الناصر ذهب إلى مقر مصر الفتاة وأعجب بتوجهات الحزب، وأذكر عندما انتقل معنا فى مدرسة النهضة الثانوية بالظاهر أنه كان يضع شارة مصر الفتاة على ذراعه وكانت عبارة عن ٣ أهرامات من النحاس، وأذكر كذلك أن زميلا آخر اسمه أنور حنفى . . وكان تلميذًا بمدرسة مصر الثانوية وعرفنى عليه، وكان عضواً أيضًا فى مصر الفتاة وكانا يترددان سويا على مقرها آنذاك فى ميدان العتبة، وعبر حوارنا حول القضية الوطنية أذكر أن جمال عبد الناصر وأنور حنفى ذهبا معًا بعد خروجنا من المدرسة إلى مقر مصر الفتاة والتقيا مع عدد من قيادات الحزب من بينهم عبد الحميد المشهرى ومحمد صبيح وأعلنا استقالتيهما من مصر الفتاة وخلعا شارتى الحزب وقذفا بهما فى وجهيهما احتجاجًا على مواقف الحزب السياسية المتقلبة .

ويعتصر حسن النشار جبهته بكفيه وهو يحاول أن يستجمع شتات ذكرياته حتى عاد يقول: كنا فى السنة الرابعة الثانوية وقتها بعد إصابة جمال يوم ١٣ نوفمبر ١٩٣٤، وفى اليوم التالى أخذه والده وسافر به إلى عمه الذى كان يعمل وقتها فى

تفتيش القرشية . . وظل هناك لأن الدراسة تعطلت فى المدارس والجامعات حتى صدر تصريح عودة الدستور وجاءت وزارة توفيق نسيم وأعيد فتح المدارس فبدأ جمال ينتظم فى الدراسة، لكننى رفضت العودة للمدرسة لأننا رفعنا شعار «الدستور وحده لا يكفى» حتى عقدنا اجتماعًا فى مدرسة فؤاد الأول الثانوية فى العباسية لقيادات كل المدارس وخرجنا فى مظاهرة، وهاجمتنا الشرطة وأصبت وتم نقلى إلى قصر العينى، وللأسف أن حزب الوفد رفض الدفاع عنا بعد اعتقالنا، حتى ترافع عنا محمود رشيد وزهير صبرى، لأننا كنا فى نظر قيادته خارجين عن قراره بمنع التظاهر على الرغم من أننى كنت وفديًا، بينما اختار عبد الناصر أن يظل مستقلاً عن جميع الأحزاب بعد أن كفر بها!

وقد جرى الإفراج عنا بكفالة وبدأنا الانتظام فى الدراسة والاستعداد لامتحان البكالوريا . . ، بينما نجح جمال عبد الناصر والتحق بكلية الحقوق بعد أن فشل فى الالتحاق بالكلية الحربية فى البداية وظللت أنا لأعيد امتحان البكالوريا .

قلب نظام الحكم

ويروى المستشار حسن النشار عن جمال عبد الناصر واقعة تاريخية هامة ومجهولة يكشف الستار عنها لأول مرة . . قال: «عندما يئسنا من الأحزاب قررنا الانضمام إلى تنظيم وطنى لقلب نظام الحكم بالقوة، كان يحمل اسم «جبهة مصر» وكان ذلك فى أعقاب حادث ٤ فبراير ١٩٤٢، وكان التنظيم يجتمع بشكل سرى فى منزل الدكتور محمد سالم وكيل وزارة الحربية المساعد بالمعادى وهو ابن شقيق الدكتور عبد الرحمن عزام أول أمين عام للجامعة العربية، وكان متزوجًا بسيدة ألمانية، وعندما أعجب عبد الناصر بفكرة التنظيم وآمن بأهدافه وآلياته ووسائله لاستخلاص حقوقنا الوطنية عبر الكفاح المسلح بدأ يجند عدداً من زملائه الضباط وحضورهم اجتماعات المعادى من بينهم خالد محيى الدين ومحمود لبيب . . لكنه خشى من افتضاح سرية التنظيم . . ولذلك كان يعقد جلسات للتنظيم قاصرة على الضباط فى منزل كان قد استأجره استعداداً للزواج على مقربة من شارع أحمد سعيد . . بينما اختار المدنيون جمعية الشبان المسلمين بشارع

رمسيس مكانًا للقاءات وتوزيع الأدوار . . و . . حتى فوجئت برئيس الجمعية المرحوم صالح باشا حرب يهمس فى أذنى قائلاً بأنه اشتم من لقاءاته مع بعض الباشوات ورجال القصر الملكى أن هناك رقابة أمنية على نشاطات التنظيم .

وقد صدقت ظنون عبد الناصر وبعد نظره، إثر تحذير صالح باشا حرب، حيث فوجئت بالقبض علىّ والمستشار أحمد الغتورى ومحمد يوسف الليثى الصحفى بالأهرام والأمير حامد المليجى حيث استمر اعتقالى تحت رقم ٧٣٤، واستجوابى عامًا ونصفًا بواسطة حلمى خاطر وكيل النائب العام، أكملت خلالها امتحان ليسانس الحقوق . . حتى تقرر الإفراج عنى لظروف صحية بعد نقلى إلى مستشفى الحميات، فى الوقت الذى اعتكف جمال عبد الناصر عن العمل السياسى وتفرغ مؤقتًا للزواج عام ١٩٤٤ درءاً للشبهات التى ثارت حوله وزملائه الضباط!

بعد الإفراج زارنى الأميرالاى أمين خليل رئيس القلم السياسى بمجلس الوزراء، وقال لى : إن بعض الشبان الذين كانوا يجتمعون معنا بالمعادى كانوا على اتصال بالقلم السياسى وهم الذين أفشوا سر التنظيم . . وقال لى كذلك إن وراء هذا التنظيم قيادة سرية عليا تضم على ماهر باشا وصالح حرب باشا ومصطفى الشوربجى نقيب المحامين فيما بعد، وأن القلم السياسى فشل فى ضبط السلاح الذى أعده التنظيم لقلب نظام الحكم . . لكنه تأكد من ذلك بعد انضمام عدد من ضباط الجيش إلى التنظيم عبر مراقبة نشاطات ضابط سجون كان يجتمع معنا فى المعادى وتربطه صلة قرابة بوكيل النيابة الذى تولى التحقيق معه . وكان قد أطلق لحيته وبدأ فى تجنيد المساجين وتدريبهم على حمل السلاح .

الغريب فى لقائى برئيس القلم السياسى كانت نصيحته لى بالانضمام مرة ثانية إلى حزب الوفد من باب التمويه، ثم أفضى بمعلوماته حول وساطة صالح حرب بشأنى لدى مكرم عبيد للعمل محاميًا بمكتبه . . لكننى عندما عرضت الأمر على جمال عبد الناصر رفض واتصل بأحمد أبو الفتح صاحب ورئيس تحرير جريدة المصرى وطلب منه تعيينى . . غير أن التطورات السياسية المتلاحقة حالت دون ذلك .

على أن عبد الناصر أدرك منذ انكشاف أمر التنظيم السرى أن التعاون مع

السياسيين والمدنيين محفوف بالمخاطر، ولذلك قرر تشكيل تنظيم الضباط الأحرار، وأن يتم التغيير عبر القوات المسلحة فحسب.

هيئة التحرير

لم يمهلنى حسن النشار حتى أسأله عن وقائع لا تزال غامضة فى سيرة حياة جمال عبد الناصر فقد راح يروى ذكرياته عنها بالتفصيل كما لو أنه يقرأ من مذكرات مكتوبة. . حيث انبرى يكشف الستار لأول مرة كذلك عن سر آخر. . قال:

كان ذلك عام ١٩٥٤، حين استدعانى جمال عبد الناصر وعبد العزيز الشوربجى وكلفنا مع بعض أصدقائه القدامى بتشكيل حزب سياسى ديمقراطى يمثل توجهات الثورة ويستمد أفكاره الأساسية من مبادئ الثورة وبرامج الأحزاب الوطنية الشريفة فحسب. . و. . .

عقدنا العديد من الاجتماعات مع مجلس قيادة الثورة حضرها جمال عبد الناصر وعبد اللطيف البغدادى وحسن إبراهيم وصلاح سالم وأنور السادات، وكانت لقاءاتنا سرية، وفى أماكن معينة بعيدة عن فضول الصحفيين وأجهزة المخابرات الأجنبية، وكان تشجيع عبد الناصر لمعرفته السابقة بنا وثقتنا به حافزاً لنا على مواصلة المهمة، خاصة أنه أفضى لنا بنواياه المبيتة لحل هيئة التحرير التى انتهى دورها أو قصرت فى القيام بمهامها على حد تأكيده. . لكننا فوجئنا بعبد الناصر بعد شهور يطلب من المجموعة زيارة هيئة التحرير فى عابدين لاستطلاع أوضاعها والتعرف على قيادتها والتقينا بهم. . طعيمة والطحاوى ووحيد رمضان وحسن عزت وعبد الرحمن عبد العال. . ثم عدنا إلى عبد الناصر وصارحناه بأن هيئة التحرير عاجزة عن القيام وحدها بعبء العمل الجماهيرى وضرورة حلها تمهيداً لعودة الحياة الديمقراطية، لأن بقاءها إلى جانب الحزب الجديد غير جائز سياسيًا. . وطالبنا بعودة الجيش إلى ثكناته.

لسنا ديكتاتوريين

أنور السادات وكان شاهدًا للقاء انبرى يقول بانفعال شديد: إن البرتغال محكومة عسكريًا منذ عشرين عامًا فما هو وجه الغرابة بشأن حكم مصر عسكريًا لمدة عشرين عامًا قادمة، وهنا انبرى له عبد العزيز الشوربجى قائلاً: أنت كمان عاوز مصر قاعدة عشرين سنة جاية بلا دستور يحكم البلاد. . نحن وزملائى نرفض هذا الكلام. . إذا كان هذا رأى مجلس قيادة الثورة فلكم دينكم ولنا دين آخر.

هنا تدخل جمال عبد الناصر قائلاً: لسنا بهذه الصورة يا أنور. . لسنا ديكتاتوريين. . نحن مازلنا نبحث عن الطريق والوسيلة الآمنة لحكم مصر وتحقيق كامل أهداف الثورة. . ثم طلب منا جمال الهدوء والجلوس بعد أن أوشكنا على الانصراف ثم سألنا: يا جماعة ليه المثقفين واقفين منا موقف العزلة أو المتفرجين. . نحن لم نقم بالثورة طلبًا للسلطة أو الجاه أو النفوذ. . لقد كان همنا وهدفنا منذ بدأنا تنظيم الضباط الأحرار أن نحرر مصر لا من الاستعمار فحسب. . ولكن تحرير الشعب من الخوف والظلم والعجز والإحباط حتى ينطلق ويتقدم ويستعيد سابق حرياته وأمجاده وحضارته ويصنع بنفسه المستقبل الأفضل. . إن لدينا هنا فى مخازن مجلس الثورة عشرات الجوالات التى تضم رسائل العمال والفلاحين البسطاء الذين يطالبوننا بالاستمرار فى الحكم. . ورفع المظالم الاجتماعية والأحكام القضائية الجائرة ضدهم ويطالبون بالإنصاف والمساواة. . ماذا نفعل؟ هل المطلوب منا أن نتراجع ونترك البلد للأحزاب والإقطاع وأذناب الاستعمار بعد أن خلصنا الشعب من خطاياهم وشرورهم؟ أم نواصل مسيرة الثورة حتى تحقق أهدافها! ثم نادى عبد الناصر أمين شاكر مدير مكتبه وطلب منه أن يصاحبنا إلى المخازن حتى نطلع على هذه الرسائل. . ونتأكد من صدق أقواله. .

كتبت إليه أسأله عن علاقته الشخصية مع جمال عبد الناصر، وانتعشت ذاكرته وبدا نشطًا فى إبداء ملاحظاته.

قال: ظل جمال عبد الناصر منذ كان فتيًا وحتى رحيله شامخًا يعتز

بصعيديته. . لا يقبل الضيم ويرفض الهوان. . ويعتز بمنبته وانتمائه إلى الفقراء. . والدتى السيدة وهيبة النشار كان يطارحها الشعر ويهديها القصص والروايات وكتب السيرة. . كانت وهى التى تعهدته صغيرًا تلجأ إليه فى حل مشاكل أبنائها. . وكنا أصدقاءه نستطيب عشرته ونستمع إلى قوله الفصل حين نختلف على قضية أو حول مشكلة ما. . كان جادًا جدًا وحكيمًا وسابقًا لسنه.

أمضى جمال عبد الناصر فترات متقطعة فى بيتنا على مدى أكثر من سبع سنوات. . كانت له غرفة نوم خاصة صنعها نجار مازال على قيد الحياة، ومازال يعمل بيده حتى الآن فى محله رقم ٢٢ شارع المنيل هو الأسطى أحمد حبيب، وتقاضى فى المقابل ٢٠ جنيهًا. . وقد طلبت منه بعد زواجه أن يتنازل عنها لمن يشاء. . فاختار الممرضة التى كانت تتولى الإشراف على علاجه خلال مرض ألم به!

لم أسمع منه فى حياتى ذمًا أو طعنًا أو نميمة فى أحد من الناس مهما أساء إليه، كان يضع نفسه فى مكان وظروف كل من أخطأ فى حقه. . وكان يعتبر معظم زعامات الأحزاب السياسية وطنيين. . ولكنهم بدرجات متفاوتة من الرؤى والنضال السياسى عاجزون عن الاضطلاع بمهام التغيير.

سألته: كيف تذكر شخصية جمال عبد الناصر واهتماماته وهواياته؟

لم يكن له هواية سوى مشاهدة السينما وكانت شخصيته قوية ويرفض المهاترات ولا ينغمس فى لهو الشباب وكان جادًا صارمًا حازمًا فى تصرفاته وسلوكياته لدرجة أن والدتى وأسرتى كانت تتعامل معه ونحن طلبة وكأنه رجل كبير لرجاحة عقله. ولم يكن عبد الناصر يدخن السجائر وبدأ التدخين وهو ضابط فى السودان، وكان يهوى لعبة التنس ويعشق القراءة والثقافة ونحن طلبة وكان يستعير كتبًا من مكتبة المدرسة والمكتبات العامة ويشترى من مصروفه الكتب الجديدة ويتحاور معنا حولها.

ما قصة التحاق عبد الناصر بكلية الحقوق، ثم دخوله الكلية الحربية؟

فى البداية وبعد حصول جمال عبد الناصر على البكالوريا تقدم للالتحاق

بالكلية الحربية ورفض طلبه؛ لأن دخولها كان «بالواسطة» وأن يزكى الطلب أحد كبار الباشوات أو المسئولين، ولم يجد جمال أمامه إلا الالتحاق بكلية الحقوق التى كانت مقصد الطلبة الوطنيين الحالمين بدور سياسى لتحرير مصر وكان يطلق عليها وقتها كلية الزعماء، وانتظم جمال فى كلية الحقوق من شهر أكتوبر وحتى شهر يناير وعندما أعلن عن طلب دفعة جديدة للكلية الحربية وكانت الحرب وقتها مندلعة فى الحبشة . . وكنت آنذاك منغمسًا فى العمل السياسى مع حزب الوفد بينما كان جمال يتردد معى على مكتب النقراشى باشا الذى استأجره للقاءاته مع الشباب وكان يطلق عليهم وقتها «النقراشيون» بعد خلافه مع النحاس . . وأذكر أن سكرتير النقراشى وقتها كان محمد كامل الدماطى، حيث طلبت منه التوسط لإلحاق جمال فى الكلية الحربية كما تحدثت بشأنه إلى عبد العزيز الغر أحد قيادات الشباب الوفدى، وفعلاً تمكنا من الاتصال باللواء حافظ صدقى نائب الوفد فى البرلمان عن الوايلى وقتها ـ وذهبنا إليه فى منزله بالعباسية وعرضنا عليه قصة جمال وطالبناه بسرعة التصرف خصوصًا أن كشف الهيئة كان فى اليوم التالى . . ووعدنا بأنه سيحدث حمدى باشا سيف النصر ليلاً فى أثناء اجتماع الهيئة السعدية . . وفعلاً ذهبنا وانتظرنا ـ أنا وعبد العزيز الغر ـ حتى نهاية الاجتماع وخرج إلينا اللواء حافظ وقال يا عبد العزيز أحضر معك جمال غدًا صباحًا لنتوجه معه إلى كشف الهيئة بعد أن نتناول الإفطار معًا ونشرب الشاى، وذهبت وأبلغت جمال وكانت الكلية الحربية وقتها مكان المستشفى العسكرى أمام ضريح عبد الناصر حاليًا . . وفعلاً أراد الله أن يلتحق جمال بالكلية الحربية . وقد عرفت فيما بعد أن حافظ صدقى كان قد تحدث إلى إبراهيم خيرى رئيس لجنة كشف الهيئة وتوسط لقبول جمال فى الكلية الحربية .

سألته: كيف استمرت علاقتك مع جمال بعد دخوله الكلية الحربية وافتراق طريقكما الدراسى والسياسى؟

لم تنقطع العلاقة وظل يزورنا فى منزل الأسرة كل أسبوع ويقضى معنا يوم الإجازة . . إذ كان يعتبر أسرتى أسرته خصوصًا أن والده كان قد انتقل من القاهرة حيث ظل جمال فى الكلية الحربية ١٨ شهرًا وتخرج بعدها .

سألته: بعد التخرّج كيف استمرت العلاقة بينكما؟

قال : استمرت علاقة الصداقة ولم نفترق قط وأهدانى أول صورة نادرة له بعد تخرجه بالبدلة العسكرية لكن للأسف أخذها زميلك الصحفى الذى أجرى معى حديثًا عن عبد الناصر . وأنا غير راض تمامًا عما فعله لأنه حرف كثيرًا من أقوالى وأساء لعبد الناصر وهو يتصور أنه ينصفه!!

كيف تواصلت العلاقة بينكما بعد التحاقه بالجيش المصرى فى السودان؟

كان يرسل إلىَّ خطابات منتظمة لاتزال فى حوزتى وأذكر أنه كان مهتمًا جدًا وقتها بمسألة زواجه . . بالإضافة إلى رعايته لإخوته الأشقاء ومساعدة والده . . وفعلاً بدأ يطلب من والدتى أن ترشح له إحدى معارفها لعلمه بتقاليد أسرتنا المحافظة وأسلوب والدتى الدمياطية فى تدبير شئونها . . وبالفعل بدأت والدتى ترشح له العديد من بنات الأسر الكريمة . . لكن لم يصادف الحظ اختيار إحداهن، حتى رشح له عمه خليل ابنة أحد التجار من أصدقائه وتزوجها وهى السيدة الفاضلة تحية كاظم ـ رحمها الله .

كيف كان زواج عبد الناصر وحفل عرسه؟

زواج عادى جدًا إذ كانت ظروفه المادية صعبة، وأذكر أن غرفة النوم التى تزوج بها صنعها أيضًا الأسطى أحمد حبيب النجار وتكلفت ٣٠ جنيهًا فقط، وشقة الزوجية كانت فى نهاية حى الظاهر بالقرب من الطريق إلى العباسية وتضم غرفتين فقط، وأذكر كذلك أنه قبل زواجه ومجيئه من السودان وكنت قد تزوجت قبله، أنه أرسل لزوجتى ـ رحمها الله ـ مروحة من ريش النعام ما زلنا نحتفظ بها ونسناس قمت بإهدائه إلى الضابط موفق الحموى، وبعد زواج عبد الناصر تذكر موقفًا إنسانيًا لزوجتى وكعادته كان وفيًا فأطلق اسمها على كريمته الكبرى «هدى».

هل كنت تتابع نشاطات جمال عبد الناصر السياسية بعد حرب ١٩٤٨ وتشكيله لتنظيم الضباط الأحرار؟

قال : جمال كان حكيمًا وحريصًا وحازمًا يقدر لكل شيء موضعه . . ولم يحدث مرة أن ألمح لى بعمله التنظيمى السرى فى الجيش، وكنا عندما نتقابل معًا

ويحضر خالد محيي الدين أو أحد زملائه كنت أنصرف وأتركهم لشأنهم، لكن عندما أجريت انتخابات نادى الضباط وفشل مرشح الملك ونجح محمد نجيب شعرت أن جمال وراء هذا العمل الكبير الذى يبشر بالأمل فى إنقاذ مصر!

هل كنت تعلم بموعد قيام ثورة ٢٣ يوليو كصديق وأخ فى الرضاعة لجمال عبد الناصر ورفيق درب؟

أبدًا وكما قلت كان جمال منضبطًا جدًا، لكن الغريب أنه جاءنى مساء يوم ٢٢ يوليو ١٩٥٢ ومعه عبد الحكيم عامر فى سيارة جمال القديمة ونادى علىَّ من الشارع رافضًا الدخول وقال لى اذهب إلى منزل أنور السادات . . وكان يسكن بالقرب من منزلنا فى المنيل - وأبلغه أننى حضرت إلى منزله ولم أجده وأن عليه الاتصال بنا ضرورى للأهمية وأبلغ الضابط موفق الحموى أن يتصل أيضًا!

ولم أسأله طبعًا عن السبب، وذهبت إلى مدام جلاديس والدة السيدة جيهان رءوف حرم السادات وكانوا جيراننا وسألتها عن أنور السادات لأن أصدقاءه الضباط يسألون عنه وقالت: أنور فى سينما الروضة هو وجيهان وسأبلغه بمجرد عودته، لكن ما لفت نظرى أن عبد الناصر قال لى عبارة «الاتصال بنا» ولم يقل «الاتصال بى» ولا أين؟

كيف علمت بنبأ قيام الثورة؟ ومتى؟

فى صباح اليوم التالى عرفت نبأ قيام ثورة ٢٣ يوليو من الإذاعة والبيان الذى ألقاه أنور السادات وفى اليوم الثالث للثورة ذهبت إلى شقة جمال عبد الناصر فى كوبرى القبة وتناولت معه الغداء ونزلنا مشيًا على الأقدام حتى مقر قيادة الجيش و . . لم أكن فى حاجة بالطبع إلى من يؤكد لى أن جمال عبد الناصر هو القائد الفعلى للثورة!

بعد أن أصبح جمال رئيسًا وزعيمًا عربيًا هل تغيرت علاقة الصداقة بينكما؟

أبدًا . . فقط الظروف والمسئوليات الجسيمة كانت تحول دون انتظام اللقاء بيننا وأذكر أنه قال لى: يا حسن لو واجهتك أى مشكلة اذهب فورًا إلى أى مسئول وأبلغه على لسانى أن يحلها.

أذكر كذلك فى مساء أحد الأيام عام ١٩٦٣ اتصل بى مصطفى عبد الناصر شقيقه من الإسكندرية وقال لى: يا عم حسن الرئيس جمال بجوارى ونفسه يرى السيدة الكريمة الوالدة ـ يقصد والدتى والدكتورة همت شقيقتى ـ وقلت له: يا مصطفى كيف نأتى وليس لدينا سيارة، وأرسل الرئيس سيارته وذهبت العائلة وأصرت زوجة أخى الإنجليزية على الذهاب معنا وهى التى بسببها استغنى الرئيس عبد الناصر عن عمل شقيقى الدكتور على سامى النشار أستاذ الفلسفة وأول مستشار ثقافى لمجلس قيادة الثورة.

وكان قد مضى زهاء الساعتين حين أدركت أننى أرهقت حسن النشار الذى كان يعانى وطأة العمر والمرض، وحملت أوراقى وجهاز التسجيل إيذانًا بالرحيل فكان سؤالى الأخير عن رأى جمال عبد الناصر فى أعضاء مجلس الثورة؟

وقال: كان يحترم فى خالد محيى الدين عزمه وصلابته وعزوفه عن الكلام فى السوفُسطائيات.. وفى صلاح سالم ديناميكيته.. وفى جمال سالم شطحاته، وفى حسن إبراهيم هدوءه وعقليته العلمية.. وكان يصف عبد اللطيف البغدادى بالرأس الناشفة، وفى أنور السادات دهاءه ومرونته السياسية، أما عبد الحكيم عامر فكان حبه له بلا حدود.. ولذلك تغاضى عن كل أخطائه وقال لى يومًا: إننا فى مجلس الثورة على الرغم من اختلاف الطباع والفكر إلا أننا نكمل بعضنا البعض، وفى آخر أيامه كان على قناعة بتعيين عبد اللطيف البغدادى نائبًا له وقد صرح لى بذلك فى آخر لقاءاتنا باستراحته فى المعمورة.. لكن الظروف حالت دون ذلك.

وأنت شخصيًا: هل اضطهدك عبد الناصر؟

قال: أنا راض بقسمتى ونصيبى، وقد تحملت الكثير من العنت والاضطهاد فى عملى بقلم قضايا الحكومة وشركة الجمهورية للتأمين، وعلى الرغم من ذلك لم ألجأ إليه لأننى كنت مثل بقية أفراد عائلته الذين كان يرفض امتيازهم عن بقية الشعب لصلات القرابة أو الصداقة ورسائله ورسائل أسرته لدىّ. شاهد على ذلك!

ملحوظة مهمة: اطلعت على مخزون المستشار حسن النشار الحافل بالنادر من صور ورسائل جمال عبد الناصر وفيها ما فيها من أسرار ورؤى ومواقف وأحداث وثيقة الصلة بسيرة حياته الخاصة والعامة، وللأسف أن هذه الثروة التاريخية المعرفية تعرضت عدة مرات للسرقة عبر دارسين يعدون رسائل أكاديمية وغيرهم من الصحفيين والمسئولين، وهو كان قد وعدنى فى وصيته التى خلفها وراءه أن يهديها إلىَّ، لكنه آثر عندما أدرك دنو أجله أن يهديها إلى المركز الخاص بعبد الناصر وثورة يوليو الذى أنشأته الدكتورة هدى عبد الناصر، ومن عجب أنها الوحيدة التى رثته فى صفحة الوفيات بالأهرام، حيث كان قد طلب من أسرته الامتناع عن رثائه أو قبول العزاء فى رحيله، وكان قانعًا بأنه أدى دوره الوطنى بقدر ما أسعفته الظروف. . إذ كان يكفيه فخرًا أنه كان رفيق درب جمال عبد الناصر ونضاله وشاهدا على سيرة حياته العطرة!

استدعاء حلاق وطبيب مجلس قيادة الثورة

لاتزال الأيام حبلى بالكثير من الشهادات حول جذور ومكونات الشخصية «الكاريزمية» للزعيم الخالد جمال عبد الناصر، وعندما يجلس المؤرخ أو الباحث أو الصحفى لاستقراء سامى شرف مدير مكتبه على سبيل المثال أو محمود الجيار سكرتيره الخاص أو محمد أحمد سكرتيره العام . أو حتى أحد رجال الحرس أو سائقه الخاص، فمن المؤكد أن يكتشف فى ذاكرتهم وذكرياتهم عشرات الحكايات والوقائع والملاحظات التى تستحق الاهتمام والتسجيل وسبر الأغوار واستخلاص العبر والدروس المستفادة، وإلى أى مدى كان دورها فى تشكيل الصورة والحياة التى عاشها هذا الرجل العظيم وتفسير مواقفه وقراراته التاريخية!

من حسن حظى أن جمعتنى صلات القربى ومصادفات الحياة بالدكتور على سامى النشار أستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة الإسكندرية فى الخرطوم عام ١٩٦٦ بعد انقطاع التواصل بيننا زهاء ربع قرن راح خلالها ينهل من المعارف والثقافات فى مكتبات أوربا والحصول على الشهادات العلمية الرفيعة تباعًا ووضع المؤلفات والبحوث الأكاديمية والتدريس فى الجامعات وبينها جامعات المغرب والجامعة الإسلامية بأم درمان والإشراف على المركز الإسلامى فى إسبانيا «الأندلس» سابقًا. ولذلك كان لقاؤنا نادرًا كلما جاء لزيارة والدته السيدة وهيبة النشار فى منزلها المجاور لمنزلنا بحى الروضة.

ولأن الدكتور على سامى النشار كان مفكرًا وفيلسوفًا وواسع الاطلاع ويجيد

العديد من اللغات الأجنبية وتربطه صلات وثيقة بالجامعات العالمية والمحافل العلمية، من هنا كان اختيار جمال عبد الناصر له كأول وآخر مستشار ثقافى لمجلس الثورة، حتى ضحى بالمنصب وفاز بحبيبته الإنجليزية.

وتشاء تصاريف الحياة أن ألتقى به فجأة شتاء عام ١٩٦٦ بعد غياب طويل منذ إعفائه من منصبه فى الخرطوم، والحكاية أننى كنت على موعد للحوار مع الدكتور التيجانى الماحى عضو مجلس السيادة السودانى السابق، وكان إلى ذلك أستاذا فى طب المخ والأعصاب، وكانت له طريقة مبتكرة فى علاج المجانين والمضطربين عصبيًا، فكان يقضى الساعات فى عيادته يستمع إليهم فى صبر حتى يزرع فيهم الثقة بالنفس، وخلالها يحدد جرعات الدواء التى يحتاجها المريض، ثم يزيد أو ينقص الجرعات تدريجيًا، وبعدها يصحبهم إلى قرى «نور القرآن» فى ضواحى الخرطوم للإقامة مع إحدى الطرق الصوفية، وعبر التلاوة الجماعية للقرآن والانخراط فى حلقات الذكر، كانت حالتهم الصحية تفضى إلى الشفاء أو انتظام تفكيرهم غالبًا!

وكان الدكتور التيجانى الماحى قد شغل منصب المدير الإقليمى لهيئة الصحة العالمية بالإسكندرية، وعبر صداقته مع الدكتور على سامى النشار كان طريقه سالكًا إلى صداقة عبد الناصر، فكان يحلو له الحوار معه كلما ذهب إلى الإسكندرية، وعندما وقع العدوان الثلاثى على مصر، ارتدى ملابس الميدان وحمل السلاح مع غيره من الفدائيين فى بورسعيد!

على أننى حين دخلت فيللا الدكتور الماحى بحى «بحرى» شاهدت ما أثار دهشتى، إذ كان الرجل يشرف على عملية حفر الحديقة لأعماق سحيقة و.. سألته: لماذا؟ وقال حتى أطمر فيها بعض ما فى حوزتى من كنوز المخطوطات والخرائط التاريخية، وقد فسر لى ما تعجبت له.. كونها الطريقة التى كان الفراعنة يدفنون بها موتاهم ومتعلقاتهم حتى يحافظوا عليها من التحلل والاندثار، ومن ثم لم يكن بوسعى إلا أن أعاونه فى مهمته حتى أهلنا التراب فوق بعض ما أذكره من ثروته الوثائقية الثمينة، وبينها ٥٠٠ خريطة كبيرة يرجع تاريخ بعضها إلى عام ١٥٠٠ ميلادى، مصحف مكتوب بخط جوهر الصقلى لا يقل ثمنه عن ربع مليون

دولار، مجموعة من أوراق البردى الفرعونية، مجموعة نادرة من الخطابات التاريخية التى كتبها بخط يده فرديناند ديلسبس صاحب مشروع قناة السويس، زهاء ٣٠٠٠ طابع بريد تذكارى بينها الطابع الوحيد الذى يحمل صورة همرشولد الأمين العام الأسبق للأمم المتحدة و. . وغير ذلك من المخطوطات وكتب الفلسفة والطب النادرة، وكان الدكتور الماحى قد أهدى ملكة بريطانيا خلال زيارتها للسودان خريطة نادرة من جلد الغزال الرقيق لبريطانيا إبان القرن الثانى عشر.

فلما دخلنا إلى صالون الفيللا حتى نبدأ الحوار. . إذا بالدكتور على سامى النشار يدخل علينا بدون موعد سابق، ورحنا نتبادل ثلاثتنا حديث الفكر والفلسفة والذكريات، من ثم اغتنمت هذه الفرصة النادرة حتى أصل ما انقطع من صلات القربى والحوار مع الدكتور النشار.

وهكذا فى شرفة فندق «الجراند أوتيل» بالخرطوم المطل على النيل الأزرق، كان يحلو لى كلما أتيحت لى زيارة السودان دعوة الدكتور النشار وزوجته الإنجليزية على فنجان شاى، إبان فترة تدريسه فى الجامعة الإسلامية بأم درمان أوائل الستينيات، وأحيانًا نتناول الغداء أو العشاء بدعوة من زوج شقيقتى الأستاذ الشيخ حسن بليل وزير التجارة ومحافظ بنك السودان آنذاك بمنزله فى حى «امتداد العمارات» بالخرطوم، وتلك كانت فرصة لتبادل الحوار فى شئون وشجون الساعة السياسية والفكرية والثقافية. . وبين ثنايا الحوار كنت حريصًا على استقراء ذاكرته وذكرياته عن صداقته وفترة عمله مع عبد الناصر، وعلى الرغم من أنه كان شديد الكتمان للأسرار والمفارقات التى عاش وقائعها خلال تلك الفترة بدعوى أن أوان الحديث عنها وكشفها لا يزال مؤجلاً وأن شواغل الوطن فى حاضره ومستقبله الأولى بالالتفات والحوار حولها. . إلا أننى نجحت إلى حد ما فى جذبه إلى البوح بالنادر القليل من مخزون ذكرياته. . وبينها حكايتان لهما دلالات بالغة الأهمية على استقامة موقف عبد الناصر الوطنى والأخلاقى الذى لم يعرف المهادنة أو التجاوز فى حق الوطن وقدرته الفائقة على ضبط أعصابه عندما تكون هناك ضرورة للمناورة والالتفاف إيذانًا بمهاجمة الخصوم أو إقناعهم بخطأ موقفهم!

جمال سالم يحسمْ المشكلة

قال لى الدكتور النشار إن زعامات (جماعة دينية نغض الطرف عن ذكرها) جاءت بأزيائها الخاصة ولحاها الكثيفة للالتقاء مع جمال عبد الناصر فى مبنى مجلس قيادة الثورة بالجزيرة وكان لايزال يشغل منصب وزير الداخلية وقتئذ، واستدعانى لحضور الاجتماع، ودارت المناقشات هادئة حول الثورة وتوجُهاتها وأساليبها وأهدافها لتغيير الواقع الموروث وتحقيق العدالة وتكافؤ الفرص بين أبناء الشعب، فإذا بزعامات تلك (الجماعة) تعرج فى حديثها إلى التنديد بالظلم والمظالم التى وقعت على أبنائها خلال فترات بعيدة وحديثة من التاريخ المصرى، وأنها تطمح إلى الإنصاف والعدالة فى عهد الثورة، وعندئذ التزم عبد الناصر الصمت وأشار إلىَّ بطرفة عينه أن ألتزم الصمت كذلك على الرغم من أن الحديث استفز مشاعرى الوطنية، إذ كانت مطالبهم تندرج تحت محاذير الفتنة الطائفية وقسمة الوحدة الوطنية التى عاشت عليها مصر وظلت أساسًا لأمنها وضمانة لاستقرارها وسلاحها الماضى فى دحر أعدائها . . .

وقال لى الدكتور النشار إن عبد الناصر ظل هادئًا لا تبدو على ملامحه سوى أمارات الود والترحيب، ويبدو أن زعامات (الجماعة) اطمأنت إلى استجابته لمطالبهم . . حيث بادروا إلى تقديمها فى مذكرة مكتوبة سلفًا، وراح يقرأ سطورها بنفس الهدوء وعادته فى ضبط الأعصاب عند الشدائد والملمات . . ثم رفع رأسه وقال : تعلمون يا إخوانى أن الشئون الدينية من اختصاص أخى وزميلى فى مجلس قيادة الثورة قائد الجناح جمال سالم . . سوف أرسل إليه مذكرة (الجماعة) الآن لدراستها قبل مناقشتها فى أول اجتماع لمجلس قيادة الثورة، وعليكم الآن التوجه إلى لقائه فى الغرفة المجاورة لشرح مطالبكم، ثم طلب من حارسه الخاص أن يسلم المذكرة إلى جمال سالم . . بل ورفع سماعة التليفون يستأذنه فى لقاء زعامات الجماعة.

صافح جمال عبد الناصر ضيوفه مودعًا . . ثم انفجر غاضبًا وقال : تصور أن المذكرة تطالب بامتيازات خاصة (. . .) فى وقت لا تزال الثورة مهددة بالعدوان والاحتلال الجاثم فى منطقة القناة . . ماذا عساى أن أفعل معهم؟ بادرت قائلاً : أحسب أنهم لا يستحقون الحوار، وإنما الطرد والاعتقال . . قال عبد الناصر : دعنى أفكر فى معالجة الموقف وتصحيح جرمهم الوطنى بأسلوب هادئ . . .

لم تمض سوى دقائق حتى التقى الوفد مع جمال سالم فى مكتبه، وبعدها وصلنا الخبر المثير الذى استوعب غضب عبد الناصر وجعله يضحك من أعماقه.

كان جمال سالم قد قرأ مذكرة الجماعة باهتمام بالغ عدة مرات.. وبدلاً من أن يدير نقاشًا حولها، طلب حلاق مجلس الثورة وهو عسكرى تحت التجنيد، فلما حضر إلى مكتبه أمره بحلاقة لحى أعضاء الوفد فورًا ودون إبطاء.. ولأنهم يعرفون ما يروى عن جموح جمال سالم وتهوره انصاعوا جميعًا للأمر الصادر إلى الحلاق.. وخرجوا من مبنى قيادة الثورة يجرون وراءهم ذيول الخيبة والفشل وبيد كل منهم مظروف بداخله شعيرات ذقونهم.. فلا الثورة أعلنت الخبر ولا قيادة الجماعة الدينية بالطبع، وهكذا وئدت الفتنة فى مهدها أو كما يقول المثل الشعبى «وكفى الجميع على الخبر ماجور!».

الكلب لولو

حكاية أخرى لا تقل إثارة عن عبد الناصر رواها الدكتور على سامى النشار فى جلساتنا بالخرطوم، وكان قد نمى إلى علمه تفاصيل قصة نزوات أحد قيادات مجلس الثورة مع صحفية شابة كان يزورها من حين لآخر فى مسكنها بحى الزيتون، وأن هذه الزيارات كانت تمتد أحيانًا فترة طويلة من الوقت إلى حد تخلفه أو تأخيره أحيانًا عن ارتباطاته الرسمية واجتماعات مجلس قيادة الثورة!

ماذا يفعل؟

كان عضو مجلس الثورة إياه كعادته قد توجه للقاء محبوبته.. وهناك أمام الفيللا التى تسكنها لمح عددًا من جنود البوليس الحربى كان عبد الناصر قد طلب إرسالهم لأداء واجب التحية له عند خروجه من سيارته ودخوله الفيللا. وعندئذ سوف يدرك أن حركته تحت الرقابة وربما يفكر تلقائيًا فى الإقلاع عن الاستمرار فى نزواته خصوصًا أنه متزوج ولديه أولاد!

لكن عضو مجلس الثورة عندما لمح جنود البوليس الحربى عن بعد، طلب من سائقه التراجع بالسيارة ودخول شارع جانبى، ثم مشى خطوات بملابسه المدنية

حتى استدار إلى أرض فضاء خلف الفيللا . . وعبر سورها المنخفض وكان من الأسلاك الشائكة، لكنه بعدما أفلح فى الإفلات من رقابة البصاصين وقضى أوقاته السعيدة مع محبوبته وهم بعبور سور الفيللا فى طريق العودة، اشتبك بنطلونه بالأسلاك الشائكة حتى تمزق وأدمى ساقه!

كان مجلس قيادة الثورة مجتمعًا بانتظار وصول عضو مجلس الثورة الغائب . . فما إن رآه جمال عبد الناصر على هذه الحالة حتى سأله عن سبب تمزق بنطلونه وتلك الدماء التى سالت عليه، ارتبك وهو يحاول أن يشرح الأمر وكأنه حادث بسيط لا يستدعى الاهتمام، قال إنه كان فى زيارة صديق . . فإذا بكلب الحراسة فى حديقة الفيللا التى يسكنها يهجم عليه ويمزق بنطلونه ويخدش ساقه .

عندئذ أمر جمال عبد الناصر باستدعاء طبيب مجلس قيادة الثورة فورًا . . وقال له إن (. . .) عضه كلب منذ نصف ساعة ونخشى أن يكون كلبًا مسعورًا . . وعليك إذن حقنه فورًا بالمصل المضاد لمرض الكلب .

عبثًا حاول عضو مجلس الثورة الاعتذار عن حقنه بالمصل الواقى، بدعوى أن الكلب الذى عضه أليف ومن فصيلة «اللولو» . . لكن عبد الناصر أصر على أن يقوم الطبيب بحقنه فورًا خشية ما لا تحمد عقباه خصوصًا أن (. . .) وصف الكلب فى البداية بأنه كلب حراسة . . وسلامته بالتالى فوق أى اعتبار!

وقال الدكتور النشار : ومن عجب أن جمال عبد الناصر كان حريصًا على حضور عملية حقن عضو مجلس الثورة بالمصل الواقى من مرض الكلب كل صباح على مدى ٢١ يومًا، على الرغم من أنه كان يعلم الحقيقة، و . .

تشاء الأقدار وتصاريفها العجيبة أن تدخل شرفة فندق «جراند أوتيل» فى تلك اللحظة (ع . ع) الصحفية بطلة القصة التى تلقى من أجلها عضو مجلس الثورة ٢١ حقنة وهى بصحبة وزير الصحة السودانى الأسبق، وكانت قد تجاوزت الخمسين من العمر وترهلت وذبل جمالها وغيرت مسار حياتها من العمل الصحفى فى شئون السودان إلى مندوبة إعلانات، وجاءت إلى الخرطوم تستثمر صلاتها ومصادرها السياسية والاجتماعية السابقة بحثًا عن الرزق وتحصيل العمولات!

السادات فى سينما الروضة

رأيت الرئيس أنور السادات ـ يرحمه الله ـ عندما كان يحلو له الوقوف أحيانا ساعات العصارى والمغربية مع أصدقائه من شباب حى الروضة أمام محل ماضى أواخر الأربعينيات، وهو أول حلوانى يصنع «الآيس كريم» فى مصر، وأحيانًا كان يتردد على بقالة صديقه الخواجة «كوستا» اليونانى الجنسية المصرى المولد بميدان الروضة، لكن بعد زواجه بالآنسة جيهان صفوت رءوف أجمل فتيات الحى آنذاك، بدأنا نعرف عن السادات الكثير من الحقائق والحكايات، منها أنه ضابط مفصول من الخدمة العسكرية بسبب مواقفه السياسية واتهامه فى اغتيال أمين عثمان. . وتعاونه مع «المحور» بزعامة ألمانيا فى مواجهة «الحلفاء» بزعامة بريطانيا العظمى، وأنه تقدم إلى خطبة الآنسة جيهان بعدما رفضت أسرتها مصطفى كامل مراد ـ رئيس حزب الأحرار بعدئذ ـ عندما تقدم إلى خطبتها وهو مازال طالبًا بالكلية الحربية.

وعلى ما يبدو أن السادات كان قد شاهد جيهان لأول مرة عندما كانت تتردد على محل «ماضى» الحلوانى لشراء الآيس كريم أو عبر صديقه حسن عزت ـ فى رواية أخرى ـ وكانت لا تزال تلميذة فى المدرسة الأسقفية بالروضة وكنا نسميها المدرسة الإنجليزية، ونادرًا ما كانت تتخلى عن ارتداء مريلة المدرسة الخضراء سوى فى الإجازة الصيفية، حيث كان يحلو لها النزهة ـ كعادة أهل الحى ـ على كورنيش النيل صيفًا فى المساء بصحبة شقيقيها على ومجدى اللذين اكتسبا لقبى جونى وبونى، ربما لملامحهما الأوربية إذ كانت والدتهما إنجليزية من مواليد جزيرة

مالطة، وربما لصداقة على ومجدى بالضباط الإنجليز الذين كانوا يقيمون آنذاك فى عدد من البواخر النيلية وبعض فيللات شارع الإخشيد تجنبًا لغارات الطائرات الألمانية التى دأبت على إسقاط قنابلها وغازاتها السامة على ثكنات الجيش البريطانى فى القاهرة والإسكندرية!

وعلى الرغم من أن السادات كان متزوجًا ولديه بنتان، وعلى الرغم من أنه كان مفصولاً من الجيش ولا عمل له، إلا أن جيهان أصرت على الزواج به رغم أنف والديها، وربما هربًا من سطوة شقيقيها وكانا من أبطال الملاكمة. . وكم خاضا معارك الدفاع عنها كلما تجاسر أحد شباب الأحياء المجاورة على معاكستها، ومن هنا ظل السادات شخصية غير مرغوبة فى البداية من أسرتها، بل ورددت مجالس النميمة والشائعات فى حى الروضة وقتئذ، أن الأم كانت لا تسمح له بالمبيت إلا أرضًا على مرتبة فى صالة المنزل، ولأنه كان بلا مال لشراء ملابس جديدة خلال فترة الخطبة. . كثيراً ما لجأ السادات إلى غريمه الميسور الحال مصطفى كامل مراد. وكان يسكن شارع قلعة الروضة لاقتراض بعض من ملابسه قبل التوجه إلى لقائها فى الطابق الثانى من نفس المنزل!

على أن السادات فيما يبدو تمكن من تدبير شئونه المالية فجأة، وتزوج جيهان حيث انتقلا إلى شقة كاملة الأثاث والكماليات بحى المنيل، وقد فسر لى الصديق الكاتب الصحفى سعد زغلول فؤاد ـ فيما بعد ـ أسباب ثراء السادات المفاجئ من وجهة نظره ـ عندما التقيته منتصف السبعينيات فى بغداد وكان قد انقلب على صديقه السادات أو انقلب السادات عليه وقرر اللجوء السياسى إلى العراق. .

كان سعد زغلول فؤاد صحفيًا لامعًا ووطنيًا مغامراً فهو قد فرض نفسه على التاريخ السياسى المصرى المعاصر عبر أدواره المشهودة فى اختطاف الضباط والجنود الإنجليز واغتيالهم بمشاركة صديقه الموسيقار مدحت عاصم ـ يرحمه الله ـ وكان المتهم الأول فى حادث قنبلة سينما مترو بالقاهرة. . وأحد أبطال المقاومة الشعبية فى قناة السويس قبيل اندلاع ثورة ٢٣ يوليو، وشارك فى تهريب السلاح من مصر إلى ثوار الجزائر عبر الأراضى الليبية، وهو المسئول عن تدبير وتنفيذ عملية المقاومة الفلسطينية ضد الإسرائيليين فى ميونخ!

قال لى سعد إن السادات كان أيضًا وطنيًا مغامرًا مثلى ـ لكن تصرفاته ظلت دائمًا يلفها الغموض وتحيطها الشكوك. فهو لا يفصح لأحد عن خططه ونواياه، وعلى الرغم من مسئوليته المباشرة عن كثير من الأحداث السياسية الدامية مثل محاولة اغتيال مصطفى النحاس باشا أو اغتيال أمين عثمان.. إلا أنه كان حريصًا على الإفلات من التهمة فى الوقت المناسب مثل سحب الشعرة من العجين!

الحرس الحديدى

وذكر لى سعد أنه كان فى منطقة قناة السويس أواخر الأربعينيات يقود فصيلاً من المقاومة الشعبية ضد القوات البريطانية ويتابع الأحداث بصفته مراسلاً عسكريًا لصحيفة «الجمهور المصرى» عندما سمع خبر عودة أنور السادات إلى الخدمة العسكرية، وعندئذ قرر العودة فورًا إلى القاهرة لاستطلاع الأمر، وقال إننى عرفت خبر انضمامه إلى الحرس الحديدى وهو تنظيم سرى كان يعمل لحساب الملك فاروق ويمارس اغتيال خصومه السياسيين، وأن يوسف رشاد طبيب الملك الخاص وزوجته الحسناء ناهد رشاد يشرفان على أعمال التنظيم وتجنيد الشباب فى صفوفه، وعرفت أنهما استدرجا السادات عبر سهراتهما الصاخبة ووعداه بإعادته إلى الخدمة العسكرية.. وعندئذ أدركت أن السادات ربما طاوعته نفسه بخيانة زملائه وانضم إلى أعداء الشعب.. ولذلك حملت مسدسى وتوجهت إلى منزله فى المنيل وقررت اغتياله.. ضغطت الجرس.. فتح الباب.. ودخلت مصوبًا مسدسى إلى رأس السادات ووجهت إليه سلسلة من عبارات الاتهام بالخيانة.. فإذا به يضحك قائلاً: ابعد المسدس يا مجنون واسمع الحكاية قبل أن تقتلنى.. ووجدت أن من حقه أن يدافع عن نفسه ويفسر موقفه.. وجلست أستمع إليه.

وقال سعد زغلول فؤاد إن السادات لم ينكر انضمامه إلى الحرس الحديدى بل أكد الخبر، وقال إنه أبدى للدكتور يوسف رشاد وزوجته استعداده الكامل للتعاون، فقط حتى يتعرف على عناصر التنظيم والخطة الموضوعة لاغتيال رموز الحركة الوطنية المناوئة للملك.. ويعود فى المقابل إلى الخدمة العسكرية فى سلاح

الإشارة، وعندئذ يستطيع دعم المقاومة الشعبية ضد الإنجليز بالمعلومات وبالسلاح والذخيرة التى تحتاجها من مخازن القوات المسلحة!

على أنه رغم مضى أكثر من نصف قرن على تلك الواقعة إلا أن أحدًا من شهودها أو من أصدقاء السادات وأعضاء تنظيم الضباط الأحرار أو أعضاء مجلس ثورة ٢٣ يوليو لم يحسم الحقيقة حول مبادرة السادات ومبرراته للانضمام إلى الحرس الحديدى، وما إذا كان جمال عبد الناصر يعلم هذه الحقيقة، ومع ذلك وافق على ضمه إلى الضباط الأحرار على الرغم من اعتراضات معظم أعضاء التنظيم. . إلا أن يكون فى حسبانه توظيف السادات فى التجسس على نشاط الحرس الحديدى واتقاء شروره عبر اللعب على أوتار طموحاته التى تهفو إلى السلطة والمجد!

لكن خصوم السادات يرجحون حرصه على الإمساك بالعصا من منتصفها. . قدم فى تنظيم الحرس الحديدى والقدم الأخرى فى تنظيم الضباط الأحرار، وهكذا عندما وصلته رسالة عبد الناصر يبلغه فيها بموعد قيام الثورة، ووصل إلى القاهرة قادمًا من العريش بانتظار ساعة الصفر، لكنه بدلاً من أن يتصل بعبد الناصر حتى يتلقى الأوامر بدوره فى عملية قلب نظام الحكم والاستيلاء على السلطة، قرر أن يتلكأ أو يتحوط للأمر عامدًا متعمدًا وصحب قرينته السيدة جيهان السادات إلى سينما الروضة الصيفية. . وتشاء مصادفات القدر أننى كنت شاهدًا وشقيقتى الأديبة الراحلة عايدة الشريف على هذه الواقعة.

كانت سينما الروضة فى شارع المنيل وكعادتها تعرض ثلاثة أفلام، فيلمين أجنبيين والثالث عربيًا، وتذكرة البلكون بعشرة قروش والصالة بسبعة قروش و«الترسو» ـ أى الدرجة الثالثة ـ بخمسة قروش. . وقد وصل السادات وحرمه بعد بداية عرض الفيلم الأجنبى الأول وجلسا فى منتصف الصف الثالث من مقاعد البلكون. . بينما كان جلوسى وشقيقتى فى الطرف الشمالى من الصف الأمامى.

فجأة سمعنا همهمة خلفنا. . تحولت بعد ذلك إلى صخب ومشاجرة، والتفتنا نتبين الأمر فى الظلام. . وعرفنا الحكاية، إذ كان أحد الزبائن وهو شاب فى الخامسة والعشرين من عمره يرتدى قميصًا وبنطلونًا قد وصل متأخرًا. . وفى طريقه

للوصول إلى مقعد خال فى الصف الذى يجلس فيه السادات وزوجته، كان على الزبائن أن يفسحوا له طريقًا للمرور عبر التراجع بأجسامهم إلى الخلف. . لكن عندما وصل الشاب إلى مكان السادات زعق فيه قائلاً: ما تحاسب يا أخينا. . أنت أعمى ولا إيه؟! وعلى الرغم من مبادرة الشاب إلى الاعتذار ومروره ثم جلوسه على مقعده، إلا أن السادات عاد يوبخه بصوت مرتفع: قلة أدب. . معندكش ذوق بصحيح. . يعنى تدوس على رجلين الهانم وبعدين تقول متأسف، وثارت ثائرة الشاب وراح يرد على إهانة السادات ويشتبك معه بالسباب!

تدخلت إدارة السينما كعادتها لفض الاشتباك. . وخرج السادات والشاب من الصف لتسوية الخلاف فى غرفة الإدارة. . لكن السادات كما عرفنا فيما بعد خلال فترة الاستراحة أصر على سحب الشاب إلى نقطة شرطة الروضة وتحرير محضر بالحادث، ثم عاد مرة ثانية إلى سينما الروضة وجلس إلى جوار السيدة جيهان يتابعان العرض الذى استمر إلى ما بعد الواحدة صباحًا، وكان حسن النشار صديق عبد الناصر قد سبق وأكد فى حوارى معه بشكل عابر واقعة ذهاب السادات وحرمه إلى سينما الروضة ليلة الثورة فى ٢٢ يوليو ١٩٥٢ على حد شهادة السيدة جلاديس والدة السيدة جيهان!

على أى حال وخلال وجود السادات فى سينما الروضة كانت القوات الموالية لتنظيم الضباط الأحرار بقيادة يوسف صديق قد تحركت فى طريقها إلى القيادة العامة للقوات المسلحة فى حدائق القبة قبيل ساعة الصفر التى تحددت لاندلاع الثورة أو ما كان يسمى آنذاك بحركة الجيش المباركة. حيث دارت معركة قصيرة تم الاستيلاء بعدها على المبنى، وعندئذ وصل السادات متأخرًا عندما أدرك نجاح الثورة. . حيث اقتصر دوره على مجرد إعادة إلقاء البيان الأول لمجلس قيادة الثورة فى الإذاعة الذى سبق وألقاه المذيع جلال معوض، وبعدها لم يهتم السادات بمتابعة إجراءات محضر الشرطة ولا الانتقام من الشاب الذى تبادل معه الشتائم فى سينما الروضة. . إذ كان الأمر كله لا يعدو مجرد إجراء احترازى لإثبات براءته من تهمة المشاركة فى الثورة. . طبعًا فى حالة الإحباط والفشل لا قدر الله!

جنتلمان الصحافــة المصريــة

كانت السيدة فاطمة اليوسف تدير مجلة روز اليوسف كأى ربة بيت شاطرة، فهى قد اعتمدت أسلوبًا فريدًا فى الإدارة أطلقنا عليه وصف «الباب المفتوح»، فإن كانت لدى هاو لمهنة الصحافة الرغبة فى الانتماء إلى أسرة التحرير، فما عليه سوى أن يتردد على الدار دون استئذان، وأن يقدم نفسه إلى سكرتير أو مدير التحرير ويقترح عليه ما يخطر على باله من التحقيقات أو يأتى بها جاهزة أو يعرض عليه أخبارًا مثيرة أو غير مسبوقة، فإن حازت القبول وجدت طريقها إلى النشر تلقائيًا، وبعدها من حقه أن يجلس أمام المكتب الذى يروقه ويستخدم تليفونات المؤسسة كأى كاتب أو محرر محترف، إلى حين نجاحه فى كسب ثقة السيدة روز اليوسف، وعندئذ قد تتعطف عليه ببعض سندويتشات الفول والطعمية التى كانت تطلبها من مطعم مجاور للمجلة و تفاجئ بها المحررين تحت التمرين أحيانًا على سبيل الرضا أو التشجيع!

إلى ذلك كانت مجلة روز اليوسف منبرًا لكل التيارات السياسية الوطنية والمذاهب الأدبية والاجتماعية، وعلى الرغم من هذا الاختلاف أو التناقض بينهما فى النهج والتوجهات والمقاصد، إلا أن المعجزة التى تحققت فى عهد السيدة فاطمة اليوسف واعتمدها إحسان عبد القدوس بعد رحيلها، تكمن فى التوفيق والانسجام الهارمونى بين هذه التعددية الفكرية عبر سيمفونية «مدرسة الهواء الطلق» على حد وصف الكاتب الكبير كامل زهيرى.

وللسيدة فاطمة اليوسف يرجع الفضل فى اكتشاف موهبة الكاتب الكبير أحمد بهاء الدين عندما دأب إبان اشتغاله بالقانون على أن يبعث إليها بمقالاته وخواطره، فكانت وهى صاحبة الدار لا تتخطى سلطة ابنها إحسان رئيس التحرير وتعرضها عليه مشفوعة بالثناء والإعجاب، فكان ينشرها كاملة حتى تعرف إلى بهاء وألح عليه التفرغ للكتابة فى المجلة، وعندما أكد ذاته الإبداعية والفكرية وبدأ يحقق لنفسه قدراً من المصداقية والشهرة تباعًا، قررت السيدة فاطمة اليوسف أن تصدر مجلة جديدة تحت اسم «صباح الخير» اختارت بهاء رئيسًا لتحريرها، وكانت فى قمة سعادتها وهو يدخل حلبة المنافسة الصحفية نداً لابنها إحسان عبد القدوس ومجلة روز اليوسف!

بل إن السيدة فاطمة اليوسف لم تبال كثيراً ـ وربما كانت تخطط لذلك ـ عندما أراد إحسان عبد القدوس ـ من قبل ـ أن يهجر «روز اليوسف» فى بداياته الصحفية والعمل فى دار الهلال مع إميل وجورجى زيدان وشجعته على هذه الخطوة، ثم تكررت هجرة إحسان لمجلة روز اليوسف عندما اختلف مع والدته، واحتضنه محمد التابعى وعمل معه فى مجلة «آخر ساعة» التى كان يرأس تحريرها آنذاك، فلما تأكدت من نضجه واكتسابه الخبرة الصحفية الكافية، عرضت عليه منصب رئيس تحرير المجلة وفقًا للمعايير الصحفية الموضوعية دون محاباة أو مجاملة وكأنها لا تعرفه!

وبينما كانت الصحافة المصرية ترمز للسياسة البريطانية فى شخصية «جون بول» الذى يضع على رأسه قبعة عالية بألوان العلم البريطانى ويتدلى «البايب» من فمه، كانت مجلة «الكشكول» ترمز للإنسان المصرى بشخصية جحا، لكن السيدة فاطمة اليوسف هداها تفكيرها إلى التميز بشخصية «المصرى أفندى»، الذى تشع ملامحه بالطيبة والإخلاص، ويعبر بعباراته الساخرة عن الروح الوطنية، وهو يضع فوق رأسه طربوشًا وعلى عينيه نظارة طبية وتتدلى من يده مسبحة، وكان أول من رسمه وحدد ملامحه فنان الكاريكاتير صاروخان.

وقد بدأت السيدة روز اليوسف حياتها العملية ممثلة مسرحية فى وقت مبكر وكانت جميلة وصغيرة فى السن وقتئذ، ويعزى للفنان عزيز عيد تبنيه لموهبتها

وتعهده بتدريبها على التمثيل فى فرقته التى كانت تضم نجيب الريحانى وبشارة واكيم، ومن الطريف عندما عرض عزيز عيد على الفنان جورج أبيض أن تمثل أمامه دور الزوجة فى رواية «الشعلة» وكانت إلى جانب صغر سنها ضئيلة الجسم، عندئذ احتج قائلاً: «هايدى زيتونة أمامى ما بتشبعنى» وبعدها انتقلت فاطمة اليوسف للعمل مع يوسف وهبى.

من الطريف أن أول أدوارها على المسرح وكانت لا تزال فى سن المراهقة دور الجدة فى مسرحية «عواطف الأبناء»، أما أخلد أدوارها المسرحية بعدئذ فكانت بطولة أوبريت «العشرة الطيبة» التى لحنها سيد درويش. حتى كان قرارها اعتزال المسرح قائلة «إن الفنان يجب أن يترك المسرح قبل أن يتركه» وهى لم تعد بعد ذلك إلى المسرح إلا إسهامًا فى عمل طوعى لإغاثة منكوبى حريق قرية «محلة زيادة» حيث قدمت مع رفاقها القدامى مسرحية «غادة الكاميليا».

كان الفن بصفة عامة ومهنة التمثيل بصفة خاصة سقط متاع المهن المحترمة فى المجتمع، إلى حد أن القضاء لم يكن يعتد بشهادة المطرب أو الممثل أو العازف، حتى وقع ابن الباشا يوسف وهبى فى هوى فن التمثيل ودرس أصوله فى الخارج وكون لنفسه جمعية مسرحية عرفت آنذاك باسم فرقة «رمسيس»، ومن يومها بدأ الفن يكتسب احترام المجتمع تدريجيًا إلى الحد الذى أنعم الملك فاروق الأول برتبة الباكوية على يوسف وهبى، وبعدها نال الممثل سليمان نجيب نفس التقدير، بينما نالت السيدة أم كلثوم وسام الكمال وكان أرفع أوسمة المملكة المصرية التى لم يحظ بحمله سوى زوجات الملوك والرؤساء الأجانب وعدد قليل لا يتجاوز أصابع اليد من أميرات أسرة محمد على وحرم الزعيم سعد زغلول السيدة صفية زغلول التى لقبها الشعب بأم المصريين!

والشاهد أن السيدة روز اليوسف ذات الأصول الطرابلسية كانت فى طليعة الجنس اللطيف من المصريات اللاتى اشتغلن بفن التمثيل، إذ كانت ندرتهن فى هذا الميدان تفرض على الممثلين أداء الأدوار النسائية أو إسنادها إلى الممثلات الشوام وكانت أشهرهن إستر شطاح وإميليا ديانا، بينما كان لجمال روز اليوسف وسحرها وأناقتها وثقافتها الفرنسية دور كبير فى شهرتها إلى جانب موهبتها

الفذة، وقد وقع فى أسرها وسحرها عدد كبير من نجوم المجتمع وأثريائه ومبدعيه، وتزوجت تباعًا بالممثل محمد عبد القدوس والد إحسان والمخرج المسرحى زكى طليمات والد آمال ـ أمد الله فى عمرها ـ والكاتب قاسم أمين ابن قاسم أمين المعروف بنصير المرأة»!

وربما كان من أسباب تدهور أحوال المسرح أن السينما المصرية اجتذبت كل الأضواء، وربما كانت خشيتها أن يتقدم بها العمر سببًا وراء قرارها اعتزال المسرح، وأن طموحاتها فى الاحتفاظ ببريق الشهرة كان سببًا آخر فى اشتغالها بالصحافة حتى تظل علاقتها حميمة بالمجتمع، وهى قد باعت كل ما تملك من المجوهرات ومن حطام الدنيا واستدانت من طوب الأرض حتى تحقق ذاتها فى الصحافة، ونجحت بشق الأنفس فى إصدار مجلة روز اليوسف التى بدأت اهتماماتها الصحفية بشئون الفن وأخبار الفنانين، ومع توالى الأيام والسنين أصبحت من أهم المجلات السياسية فى الوطن العربى، وخلال هذا المشوار الطويل اكتسبت خبرتها وحاستها الصحفية التى تشم الأخبار عن بعد وتميز بين المادة الصحفية الجيدة من الرديئة وحجمها ومكانها المناسب على صفحات المجلة، فضلا عن قدرتها الفائقة على اكتشاف المواهب الصحفية الذهبية حتى ولو كانت تعلوها طبقة من الصدأ أو العنكبوت، وكيف تجلوها أو تنتشلها من وهدة الضياع والنسيان وتعيد صياغتها، وكيف ترعاها وتشجعها وتمهد أمامها الطريق، وتستثمر إمكاناتها وتوظفها كما يجب!

فى مقال ممتع نشرته الأهرام على حلقتين فى يناير ٢٠٠٥، روى الشاعر الكبير أحمد عبد المعطى حجازى تجربته الصحفية فى «روز اليوسف»، مؤكدا على ما ذهبنا إليه حول تقاليد وقيم العمل التى كانت إبان عهدها الزاهر، فهو بعد أن راق له العمل مصححا عن طريق المصادفة فى «روز اليوسف»، كانت موهبته طريقه لكتابة المقالات بعدئذ فى مجلة «صباح الخير».. لا عبر الوساطة، وإنما عبر زملائه الذين أقنعوا أحمد بهاء الدين.. ثم يكمل القصة قائلا:

وبدوره أقنع إحسان عبد القدوس بأن ينقلنى من التصحيح إلى التحرير وهكذا أصبحت من كتاب «صباح الخير» ولم يمض على التحاقى بها بضعة أشهر ولم

أكن قد تجاوزت الحادية والعشرين من عمرى وقد تضاعف بذلك مرتبى فأصبح اثنى عشر جنيها وهو المبلغ ذاته الذى كان يتقاضاه إحسان عبد القدوس من «روز اليوسف» حين التحق بالعمل فيها فى أوائل الأربعينيات!

لم تكن لى صلة سابقة بواحد من هؤلاء لا قرابة، ولا صداقة، ولا زمالة، لكنى حصلت على مكانى بيسر وسلاسة كأنه ميراث شخصى، أو كأنه قد أعد لى أنا بالذات وسجل باسمى، فلم ينازعنى فيه أحد، بل دلنى الكل عليه، وقادونى إليه، وسبقونى لإثبات حقى فيه.

هذا الإدراك البديهى للكفاءة، وهذا الاعتراف بالحق وهذه السرعة فى الاستجابة، وهذه القدرة على الاهتمام بالجوهر وتخطى الشكليات هى التقاليد التى كانت تميز العمل فى دار «روز اليوسف» وتميز العاملين بها.

ثم يستطرد أحمد عبد المعطى حجازى فى شهادته قائلا:

ولقد أتيح لى أن أتعلم فى هذه المدرسة وأن أعيش هذه الحياة. نعم فلم نكن نذهب إلى روز اليوسف لنؤدى واجبا ونرحل، بل كنا نذهب إلى روز اليوسف لنعيش. كنا نذهب إليها لنفكر ونتحاور ونتخاصم ونتصالح وننشد أشعارنا الجديدة ونغنى أغانينا ونقرأ ما يكتبه زملاؤنا ونضع برنامج يومنا الجديد فى أى مطعم سنتناول طعام الغداء وفى أى فندق سنسهر هذا المساء!

وأنا ممتن للظروف التى يسرت لى العمل فى روز اليوسف و«روز اليوسف» صاحبة الدار لا تزال تلم بالدار وتتفقد العاملين فيها وتمضى زاهية شامخة متوجة بشعرها الفضى وتاريخها الجليل.

وأنا الآن أتمثلها من جديد، وأعرفها كما لم أعرفها من قبل. أتصورها طفلة فى العاشرة وحيدة، فقيرة، لم تكمل تعليمها أو لم تدخل مدرسة من الأصل، وهى فى هذه الوحشة وهذا العوز تغامر فى طريق تعرف أوله وتجهل بعد ذلك كل شىء فيه، لكنها تواصل السير حتى تجد نفسها فى مدينة الحلم فى القاهرة، وعندئذ تكف عن سراها وتبدأ معراجها إلى خشبة المسرح فتبلغ الذروة وهى تلعب دور البطولة فى «غادة الكاميليا» لإسكندر ديماس الابن، ثم تترك المسرح المغلق لتعتلى

خشبة المسرح المفتوح أو مسرح الهواء الطلق، كما يحب الكاتب الذواقة كامل زهيرى أن يقول عن مجلة روز اليوسف التى أصبح ركنا من أركانها.

هل خرجت هذه الطفلة من لبنان لتتبنى أجيالا من الكتاب والفنانين المصريين كنت واحدا منهم؟!

ولقد رحلت روز اليوسف السيدة والأم بعد عام واحد من انضمامى لأسرة «روز اليوسف» لكنها خلفت لنا أخا أكبر هو إحسان الذى لم يكن قد تجاوز الثامنة والثلاثين من عمره، لكنه كان على نضارته ووسامته وفيض نشاطه مهموما تنوء كتفاه بما يحمل من أثقال مرئية وأثقال غير مرئية. يدخل مكتبه فى العاشرة أو نحوها ويخلع سترته ليبدأ العمل فلا يضع القلم إلا لحاجة تضطره لمغادرة مكتبه ثم يعود ليواصل الكتابة سحابة يومه وشطرا من الأمسية والليل، ثم يعود إلى بيته فى أغلب الأحيان، بينما نواصل نحن الذين لم نكن قد تزوجنا بعد حياتنا فى مكان من تلك الأماكن الساهرة التى كانت القاهرة لا تزال عامرة بها فى خمسينيات القرن الماضى وستينياته.

لم تكن هذه السهرات لهوا خالصا وإنما كانت لهوا مثقفا أو ثقافة لاهية. كانت امتدادا لنشاطنا فى «روز اليوسف» إذ كنا نلتقى فى بيت سيد مكاوى القديم يتقدمنا صلاح جاهين الذى كان يحمل أوراقه وأقلامه ليواصل العمل فى رسومه وقصائده، على حين يغنى سيد مكاوى ونرد عليه. أو كنا نجتمع أيام الآحاد فى منزل الدكتور لويس عوض، أو نلتئم حول الشاعر كامل الشناوى فى كازينو الجلاء على النيل أو فى الهيلتون أو سميراميس. وعلى مائدة كامل الشناوى رأيت أول مرة محمد عبد الوهاب، وتعرفت على عبد الحليم حافظ وكمال الطويل، وبليغ حمدى وسعيد أبو بكر وصباح، ونجاة الصغيرة وعبد السلام النابلسى.

كل ما حصلته خلال الأعوام الخمسين الماضية بدأ من روز اليوسف، وها أنا أستعيده فى الذكرى الخامسة والثمانين لميلاد إحسان عبد القدوس، وأشعر بالامتنان العميق والأسى العميق!!

الباب المفتوح

وأنا شخصيًا التحقت بروز اليوسف «مدرسة الهواء الطلق» عبر سياسة «الباب المفتوح» عام ١٩٥٧م بمجرد لقائى وإبداء رغبتى فى العمل للفنان عبد الغنى أبو العينين مدير التحرير، وأدين لإحسان عبد القدوس بالفضل فى نقلى من كشف المحررين «بالقطعة» إلى كشف المحررين «المعينين» بعد توالى نشر تحقيقاتى، حيث كلفنى كعادته مع غيرى من المحررين بالعمل فى مختلف أقسام التحرير، إلى حين اختيار القسم والتخصص الذى يوافق استعدادى، ولذلك كان المجال متسعًا والخبرة تتنوع تباعًا عبر الكتابة فى الفن والتحقيقات والأخبار والرياضة والمجتمع والثقافة وحتى فى قسم المرأة، إذ كانت السيدة روز اليوسف وإحسان يعتقدان أن الصحفى الناجح مثل الممثل الشامل الذى يستطيع أن يؤدى الدور الذى يسند إليه باقتدار بنفس درجة تقمص غيره من الأدوار، وهكذا استقر بى المقام فى النهاية محررًا ثم رئيسًا لقسم الشئون العربية والعسكرية.

ولا أذيع الآن سرًا أن محرر ورئيس قسم الرياضة الزميل صلاح المنهراوى كانت السيدة روز اليوسف قد التقته مصادفة عندما كان يتولى تدريبها على المشى وعلاجها الطبيعى إثر إصابتها بكسر فى ساقها، حين لاحظت عبر حديثها معه مدى درايته بأنواع الرياضات ومعرفته بالنوادى والرياضيين، وأنه إلى جانب ذلك ملاكم دولى سابق.

سر آخر عرفناه فى سهرة عيد ميلاد إحسان عبد القدوس الذى يوافق عيد رأس السنة الميلادية عام ١٩٦٤ حيث كانت أسرة روز اليوسف مكتملة وعلى سجيتها مرحًا وفرحًا، حين طلب إحسان من زميلنا المتحفظ الوقور فتحى أمين أن يغنى، واكتشفنا أن صوته جميل واكتشفنا كذلك أن السيدة روز اليوسف كانت قد استمعت إلى غنائه فى سالف العصر والأوان، وعرفت عنه صلاته وعلاقاته الواسعة بأهل الموسيقى والمغنى، فكان اشتغاله فى روز اليوسف محررًا فنيًا فى البداية، حتى تزوج بفتاة ألمانية تعلم من أجلها اللغة الألمانية، فكانت طريقه إلى الاشتغال بالترجمة عن الألمانية والتخصص فى الشئون العلمية.

يومًا ما كانت السيدة فاطمة اليوسف مدعوة إلى حفل زواج، ومع الجوقة التى

تصاحب «العالمة» التى أحيت الحفل، لفت نظرها شاب خجول بارع فى العزف على العود وتقليد أغانى المطرب الشهير محمد عبد الوهاب، واقتربت منه وحاورته، وعرفت أنه طالب فى السنة النهائية بكلية الطب واسمه مصطفى محمود، ويهوى القراءة والأدب والفلسفة والكتابة، فكان طريقه سالكًا منذ تلك الليلة إلى الكتابة فى روز اليوسف بتوقيع الدكتور مصطفى محمود بعد تخرجه من كلية الطب!

قضية العدد رقم ١٣٤

لم تكن السيدة فاطمة اليوسف ضليعة فحسب فى شئون الصحافة وأسرارها، كانت كذلك محررة فى قسم الأخبار وخبيرة مرموقة فى شئون المطابع والإدارة والحسابات، فكانت تشترى بنفسها الأحبار والورق وحروف الصف الرصاص وقطع غيار المطبعة «البلانتة»، وقد عاصرت دار روز اليوسف فى مبناها القديم بشارع محمد سعيد عندما كان طاقم العاملين من الموظفين والعمال والمحررين زهاء مائة شخص فقط وتصدر مجلتى روز اليوسف وصباح الخير والكتاب الذهبى، وكان رئيس أقسام الحسابات والإعلانات والتوزيع والمستخدمين والصراف موظف واحد هو المرحوم إبراهيم خليل، وإلى جانب هذا وذاك من الخبرات والتخصصات كانت فاطمة اليوسف على دراية واسعة ومتعمقة فى الشئون السياسية والقانونية، ووطنية شجاعة قوية الإرادة لا تقبل الهزيمة أبدًا، وكم تعرضت المجلة لهجمات البوليس على مطابعها ومصادرة أعدادها قبل توزيعها فى السوق، وكم وقفت بنفسها للمساءلة أمام النيابة وداخل قفص الاتهام أمام القضاء، وكم من المرات سحبت الحكومة رخصة المجلة فكانت تستأجر رخص غيرها من المجلات. . وبينها مجلة «صدى الحق» و«الرقيب» و«الشرق الأدنى» حتى تستمر فى مواصلة رسالتها على نفس منوال روز اليوسف ونهجها وموقفها المنحاز دومًا إلى كل ما هو حق وعدل وجميل!

كانت السيدة فاطمة اليوسف كثيرًا ما تروى ذكريات الصعاب التى واجهتها، وكيف تغلبت عليها بالإرادة والإصرار والدأب، ولا تنسى أن أول مأزق تعرضت

له المجلة يوم ٣ يونيو ١٩٢٨، عندما وجه رئيس الوزراء محمد محمود صاحب «القبضة الحديدية» ضباط القلم السياسى واقتحموا المطبعة وأطاحوا بأكثر من ٢٠ ألف نسخة من المجلة فى الشارع، كانت على وشك خروجها إلى القراء، وكانت الحجة التى استند إليها قرار مصادرة العدد رقم ١٣٤ رسم كاريكاتير يصور محمد محمود باشا وهو يركل الدستور بقدمه بينما جون بول رمز الاستعمار البريطانى يدخن غليونه فى غير اكتراث، لكن تبين أن السراى الملكية تحالفت مع الحكومة كذلك على مصادرة العدد ١٣٤؛ لأنه كان يتضمن مقالاً يعيد إلى الذاكرة قصة هجوم الأمير سيف الدين على صهره الأمير فؤاد ملك مصر فيما بعد، حيث أطلق عليه رصاصة استقرت فى عنقه وبعدها بح صوته طوال عمره.

كانت المجلة وفدية عندئذ، وعندما ذهبت إلى النحاس باشا تطلب مساعدته اكتفى باختياره بعض المحامين الوفديين للدفاع عنها.. ومن العجيب أن تحكم المحكمة بتعويض ٣٠٠ جنيه مقابل الأعداد المصادرة بدعوى أن ثمن النسخة قرش صاغ واحد، دون أن تضع فى حسابها دخل الإعلانات أو التعويض الأدبى!

وعندما انتقدت المجلة بشدة موقف زعيم الأمة مصطفى النحاس باشا فى أعقاب حادث فبراير الشهير، بعدما فرضه الإنجليز على الملك بالقوة رئيسا للوزراء، عندئذ عمم حزب الوفد بيانا يدعو الشعب إلى مقاطعتها، واستجابت الأمة المصرية للنداء عن بكرة أبيها حتى أوشكت فاطمة اليوسف على الإفلاس!

وكما أرست السيدة روز اليوسف تقاليد سياسة الباب المفتوح، كان إسهام عباس محمود العقاد فى اهتمامات المجلة بالأدب والشعر والسياسة كسبا ثقافيا للمجلة خصوصًا بعد انقلابه على حزب الوفد واختلافه مع النحاس باشا، كذلك أسهم الدبلوماسى المرموق محمود عزمى بدور كبير فى العناية بالسياسة الدولية والنشاط الدبلوماسى، كما كان فضل محمد التابعى مقدرا على صعيد المزاوجة بين صحافة الرأى وصحافة الخبر، وكذا التنوع فى الموضوعات وتقديم وجبة شهية إلى مختلف الأذواق والطبقات والاهتمام بشواغل الجنس اللطيف فضلا عن الصياغة الأنيقة المبتكرة واختيار العناوين المثيرة!

على أن السيدة فاطمة اليوسف كأم غيرها كربة عمل، إذ كانت شديدة الحرص

على صحة ابنها إحسان ومعنوياته والحفاظ على مكانته وإفساح المجال لنبوغه والدفاع عنه فى الملمات، وكان إحسان الذى فتح صفحات روز اليوسف لليسار قد وافق على مبادرة عرضها عليه الكاتب والناقد محمود أمين العالم لتقييم إنتاجه الأدبى، ويبدو أن العالم كان قاسيًا فى أحكامه على أدب إحسان، ومن هنا كانت تلك القسوة مثارًا لإعجاب ودهشة الجميع، خصوصًا أن إحسان أفسح لمقال العالم مساحة كبيرة من المجلة، لكن ما إن قرأت السيدة روز اليوسف المقال حتى خرجت من منزلها على عجل وتوجهت إلى المجلة وراحت تبكى كأى أم تقليدية لأن إحسان قد مسه النقد الصارخ من كاتب يعمل تحت رئاسته، حتى طيب إحسان خاطرها وتوعد محمود أمين العالم بالرد وتفنيد ما ذهب إليه.

من ذكرياتى السعيدة فترة عملى بروز اليوسف، متعة الجلوس مع الحاج حسن مدير المطبعة وهو يستعيد ذكريات الماضى الجميل، ولأنه عاصر مشروع المجلة وهو لايزال فتى غض الإهاب، وشهد كيف دبرت فاطمة اليوسف مدخراتها التى لم تتجاوز ١٢ جنيهًا كلفة إصدار ٣٠٠٠ نسخة من العدد الأول.

وأذكر أن الحاج حسن الذى كنا نسميه «المخضرم» كانت له نظرة ثاقبة لا تخيب فى المحررين، فلما سألته عن محمد التابعى قال لى إنه كان يتابع مسيرته فى إعجاب شديد، إذ كان متلهفًا دائمًا على متابعة مقالاته من مرحلة صف حروفها حتى ما قبل خروج المجلة من المطبعة، وكثيرًا ما كانت تخطر له فكرة أو عبارة أو كلمة، ويرجونى وقف الطبع حتى يجرى التعديلات التى يراها..

ويصف الحاج حسن سلوك وأخلاق وكرم وشياكة محمد التابعى بأنه كان «جنتلمان الصحافة المصرية»، إذ فضلاً عن عنايته الفائقة بعمله وتنمية مصادره، كان فى منتهى الرقة فى تعامله مع الجميع حتى عمال المطبعة، ثم يشهد له بأن خطه حسن وأنيق ومستقيم ومفهوم بينما كان خط البعض من كبار الكتاب والمحررين أشبه بنكش الفراخ، ثم قال: لكن مع طول العشرة باتت لدينا الخبرة فى فك شفرة نكش الفراخ!

صلاح جاهين يمشى بالقبقاب

لم تنقطع صلاته بنا ولا صلاتنا به. . حتى بعد أن غادرنا إلى مؤسسة أخبار اليوم ثم مؤسسة الأهرام. . نحن الذين عشنا عالمه الجميل، وتتلمذنا فى مدرسته الصحفية المبهرة، وكلما تذكرنا أحلى سنوات العمر كان اسم إحسان عبد القدوس دائمًا موصولاً بها، ولو عادت بنا دورة الحياة من جديد، لما كان لأى منا خيار آخر غير العمل إلى جانبه وتحت رئاسته. . لعلنا نستعيد زمان الحبور الإنسانى الغامر والعطاء الخلاق المتجدد فى عالمه السحرى الذى ولى ولن يعود!

يكفينا عند الفخر والاعتزاز أننا عشنا عصره، وكتبنا إلى جوار كتاباته، واختصنا برؤاه ونصائحه وتوجيهاته ونقده، واختارنا بعناية كما الجواهرجى الخبير حتى يرصع بأقلامنا وأفكارنا «مجلة روز اليوسف» ورعى كلا منا بقدر طاقته وموهبته فى بداياتنا الغضة حتى أينع غرسه وحان قطف ثماره اليانعة، وأنه ظل يضفى على إبداعاتنا وأسمائنا فيضًا من وهج تألقه وشهرته!

كان بعد أن صرفته المقادير عن قيادة «روز اليوسف» يستدعينا إن غبنا عنه، كى يطمئن علينا، أو يبعث إلينا بإعجابه ونقده لما نكتبه عبر مديرة مكتبه السيدة نرمين القويسنى، أو يشير علينا بموضوعات وقضايا أو مشكلات تحتاج التنويه وسبر الأغوار، وكلما التقيناه بدعوة منه أو بشكل عابر، غالبًا ما يحتفى بنا ويقدمنا إلى ضيوفه بفخر واعتزاز كما لو أننا أبناؤه أو أنداده.

فلما داهمه المرض وعاد من علاجه فى أمريكا، كانت لنا معه سويعات جميلة نقضيها معه نهار الجمعة من كل أسبوع فى مزرعته المجاورة للهرم، فكانت الفرصة

مواتية حتى آستقرئ ذكرياته وذاكرته عن وقائع وأحداث وشخصيات بعينها كانت لها أدوارها وبصماتها فى تاريخ مصر المعاصر!

وأذكر أننى سألت الأستاذ إحسان عن ملابسات اجتماع الرئيس جمال عبد الناصر برؤساء تحرير الصحف، وهل كان يعنى كامل الشناوى تحديدا عندما أبدى ملاحظته على تردد بعضهم على كافيتريات الفنادق الخمس نجوم وخوضهم الحديث فى أسرار الدولة، وقال إن جمال عبد الناصر لم يحدد رئيس تحرير معينا بالاسم فأنا على سبيل المثال غالبا ما كنت ـ وغيرى من رؤساء التحرير ـ نتردد على الكافيتريا ومطاعم وملاهى الفنادق بحكم وضعنا الاجتماعى والصحفي. . وكثيرا ما كانت سهراتنا تمتد إلى ما بعد منتصف الليل. . لكن كامل الشناوى كان الوحيد بيننا الذى يسهر مساء كل يوم وبانتظام مع أصدقائه وتلاميذه ومريديه فى الكافيتريات. . وكانت جلساته المفتوحة لا تخلو من المداعبات والمشاكسات والمقالب. . لكن ملاحظة عبد الناصر على ما يبدو لم تكن تحمل نقدا لتصرفاته وحرياته الشخصية. . وإنما أغلب الظن لأن العابرين من جلسائه كانوا يتعرضون لبعض شئون الدولة وانتقاد المسئولين ولا حيلة لكامل الشناوى فى ذلك وهو المعروف بحرصه الشديد على الاحتفاظ بثقة الثورة من طول معاناته للدس والوقيعة بينه وبين قادتها. . ويبدو أن كتبة التقارير لم يألوا جهدا فى نقل ما كان يدور فى سهرات كامل الشناوى بغباء أو عن سوء قصد!

لم يكن إحسان عبد القدوس كاتبًا صحفيًا، ولا روائيًا متفردًا فحسب، وإنما كان أيضًا رائدًا لمدرسة صحفية نموذجية فى الديمقراطية والتعددية السياسية والفكرية والثقافية، تتسع لليمين الوطنى والوسط والليبراليين وغلاة اليساريين الوطنيين، ولم يشهد أى منهم أنه قصف قلمًا لأحد أو أجهض فكرة أو كان يخشى ما لا تحمد عقباه من جراء معارضة السلطة. . ومن هنا غالبًا ما كانت تتعرض روز اليوسف للمصادرة ويتعرض إحسان للاعتقال أو محاولة الاغتيال!

الأسلحة الفاسدة:

وقد عرفت إحسان عبد القدوس قارئًا منذ الأربعينيات عندما فجر قضية

الأسلحة الفاسدة التى ارتدت إلى صدور أبطالنا فى حرب فلسطين عام ١٩٤٨ . وعرى موقف الملك فى شجاعة . . وكشف عن مصادر تلك الأسلحة والمسئولين الذين تورطوا فى عمولاتها، فكانت سطور مقالاته النارية الساخرة منهاج جيلنا فى الوطنية والاستنارة والثورة على السائد والمألوف وكل ألوان الخلافات الحزبية العبثية وفساد السراى الملكية والاحتلال والإقطاع، بل إن كتاباته واختياراته لأخبار مجتمع أولاد الذوات والطبقة الحاكمة قدرها المؤرخون والنقاد كونها تمهيداً لثورة ٢٣ يوليو وإرهاصًا باندلاعها الوشيك وتهيئة الرأى العام للقبول بها والانحياز لها!

عرفت إحسان كذلك عبر العديد من رواياته التى تحولت إلى أفلام سينمائية، بداية من فيلم «نساء بلا رجال» الذى أخرجه يوسف شاهين عام ١٩٥٣، ثم فيلم «الله معنا» عام ١٩٥٤ من إخراج أحمد بدرخان. وفى عام ١٩٥٦ كان بداية تألقه ومجده فى الإبداع السينمائى عن قصة فيلم «الوسادة الخالية» من إخراج أحمد ضياء الدين، وبطولة عبد الحليم حافظ ولبنى عبد العزيز.

وقد انتسبت إلى مدرسته الصحفية عن بعد منذ نعومة أظفارى فى بلاط صاحبة الجلالة، وقد صادف أننى تعرفت إلى الأستاذ إحسان والتقيته مراراً عبر أستاذى الكاتب الشاعر كامل الشناوى الذى لازمته على مدى العشر السنوات الأخيرة من حياته كظله، حتى استجمعت شجاعتى وزادى المتواضع من الخبرة الصحفية ومحصلة ثقافاتى تأهبًا للمغامرة المرتقبة فى العمل مع إحسان عبد القدوس، واكتشفت أنه أبسط مما تصورت، وأن الولوج إلى قلبه وفكره ورعايته يبدأ بالأمانة والدقة والفكرة غير المسبوقة والصياغة المشوقة وتوخى الأهداف النبيلة!

كنت أتردد آنذاك على روز اليوسف لزيارة أصدقائى من الكتاب والمحررين وبينهم الأساتذة: رجاء النقاش وصلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطى حجازى وفنان الكاريكاتير العملاق صلاح جاهين، والطريف أن أتلقى درسًا قاسيًا من رئيس تحرير المجلة التى كنت أعمل بها وقتئذ بسبب تلك الزيارات، بدعوى اتهامه بنقلى لعدوى الفوضى والتسيب والتحرر الذى كانت عليه روز اليوسف ونجومها إلى مجلته، وأذكر أن ذلك الرئيس تحرير قال لى: كيف تستبيح لنفسك صداقة صلاح جاهين . . هل ترى فى تصرفاته الشخصية البوهيمية ما يؤهله حتى يبدع فنًا، بينما يمشى فى طرقات روز اليوسف المنزوعة البلاط بالقبقاب ـ وكان يعنى مبناها القديم بشارع محمد سعيد ـ كما أنه يشرب من «قلة فخار» يضعها

على شباك غرفته، ولا يتحرج عن خلع قميصه فى عز الشتاء والصيف أمام زملائه كاشفًا عن كرشه المترهل وهو يغنى ويرقص!

والحقيقة أن رئيس التحرير هذا كان يغار من شهرة إحسان، وبينما كان يسعى حثيثًا للتقرب من أعضاء مجلس قيادة الثورة، كان إحسان عازفًا عن طرق أبوابهم، فهو قد عرفهم جميعًا بلا استثناء قبل الثورة، وبينما كان الأستاذ حسنين هيكل أقرب الكتاب من جمال عبد الناصر والمعبر عن سياساته والمفسر لمواقفه كان إحسان يعتبر هيكل واحدًا من الذين تتلمذوا فى مدرسة روز اليوسف وغيره كثر من أمثال: محمد التابعى والعقاد ومحمود عزمى وكامل الشناوى ومصطفى أمين وسليم اللوزى ومحمود أمين العالم ومحمد عودة وحتى أنور السادات، ولذلك لم يكن يغار من أحد ولا كان يسعى لمنصب أو سلطان، إذا كان يرى نفسه خارج المنافسة، وأذكر عندما صدر قانون تنظيم الصحافة وأصبحت تابعة للاتحاد الاشتراكى، أنه لم يرفع سماعة تليفونه ليسأل المسئولين غاضبًا أو معاتبًا لماذا.. وكيف؟ وذلك أنه كان قد دعا من قبل إلى تمليك روز اليوسف للعاملين فيها من المحررين والموظفين والعمال.. لكنه الوحيد من بين أصحاب الصحف الذى طالب بالتعويض لنفسه وشقيقته السيدة آمال طليمات عبر المرحوم الكاتب الصحفى ممدوح رضا الذى لعب دور الوسيط بين إحسان ومجلس قيادة الثورة.

رحيل الفنان عبد العزيز خليل

على أن رئيس التحرير الذى كنت أعمل معه، وكان يشدد علينا فى التوقيع على كشف الحضور والانصراف والوقوف له «زنهار» كلما دخل علينا صالة التحرير والالتزام بارتداء البدلة والكرافتة فى عز الحر، لم يكن بوسعه أن يفرق بين المادة الصحفية الذهب من الصفيح، وأذكر أننى أجريت حوارًا مع الممثل المسرحى والسينمائى العملاق عبد العزيز خليل ثم لم تمض أيام حتى انتقل إلى رحمة الله، فلما طالبت بنشر حوارى معه، فوجئت برئيس التحرير إياه يشعل سيجاره ويفكر طويلاً ثم قال: أنا شايف نأجل نشر الحوار حتى ذكرى الأربعين على رحيله، ثم تساءل قائلا: مش كده أوقع؟ وعندئذ أدركت فقط كم أضيع من عمرى وعطائى

فى هذه المجلة بلا طائل، ومن هنا قررت انتظار الفرصة المواتية للرحيل إلى روز اليوسف الأقرب إلى رؤايى وطموحاتى الصحفية.

وكنت قد تعرفت آنذاك إلى فتاة جميلة فى ريعان الشباب، عندما جاءت إلى المجلة تعرض رغبتها للمشاركة فى تحرير الصفحة الطبية، وكانت طبيبة أسنان وتعمل فى قسم الدعاية والمبيعات فى إحدى شركات الأدوية الكبرى، لكننى أفهمتها أن هناك غيرها يحرر الصفحة الطبية، وأن عليها أن تعرض رغبتها على رئيس التحرير، وقد استجابت لنصيحتى وفشلت فى إقناعه وخرجت من مكتبه تسخر من تعاليه وجهله! غير أنها لم تتوقف بعد ذلك عن زيارتى، وبين حين وآخر تأتى بخبر عن اكتشاف دواء جديد لعلاج مرض ما، وكنت أسمع لها ولا أستطيع مساعدتها فى نشر ما لديها من أخبار، حتى تطوعت بتقديمها إلى صديقى فتحى أمين محرر بريد القراء والعلوم فى روز اليوسف الذى رحب بها وعنى بنشر ما تقدمه من أخبار وموضوعات صحفية طبية وعلمية تباعًا!

يومًا جاءت المجلة تشكرنى ومعها هدية غريبة الشأن، كرتونة تضم عشرة أرانب صغيرة تشبه الفئران، كانت شركة الأدوية التى تعمل بها تستخدمها ـ على ما يبدو ـ فى تجاربها العلمية.. ولم أكن حاضراً وفضلت انتظارى، ويبدو أنها خشيت اختناق الأرانب من طول احتباسها داخل الكرتونة، وفتحت لها الغطاء حتى تتنفس، فإذا بها تقفز فجأة وتثير الهرج والمرج فى أرجاء المجلة.. وبعضها تسلل إلى غرفة رئيس التحرير الذى أصيب بالذعر ونادى على الفراشين ووبخهم بأعلى صوته بدعوى أن الفئران تعشش فى الدار، وعندما اكتشف الحقيقة حلف بأغلظ الأيمان على فصلى من المجلة وأن ما حدث ملعوب دبرته مع هذه الفتاة للاستهزاء به والسخرية منه، فكان توقيت الرحيل إلى روز اليوسف!

وعلى الرغم من حداثة عهدى بالعمل فى روز اليوسف، إلا أنه أتيح لى السهر والمؤانسة منذ الأسبوع الأول مع كل نجومها كما لو أننى زميل أو صديق قديم، وأكثر الذين انتظمت فى صحبتهم كان الفنان حسن فؤاد الذى كان يجول بنا فى شوارع وسط البلد مع أول ضوء للفجر حتى يكشف لنا ما لا نلتفت إليه بالنهار من طرز وملامح العمارة الشرقية والأوربية فى مبانيها العتيقة، ولا أنسى الفنان

عبد الغنى أبو العينين* حين كان يحلو له ركوب الحنطور على كورنيش النيل أو كورنيش الإسكندرية ويعلو صوته الجميل بأغنيات سيد درويش، وجولاتنا وصولاتنا مع محمود السعدنى فى أجوائه الشعبية، وكيف شهدت ولادة العديد من اسكتشات الكاريكاتير وكذا العديد من الأشعار الغنائية عبر ملازمتى للفنان صلاح جاهين، وأذكر عندئذ أنه كان قد اتخذ من زميلنا حلمى هلالى المحرر الفنى «فاسوخة» يتفاءل بها فى طرد النحس، وكثيراً ما كان له موقع وسط رسوماته، ولعل أشهرها تلك اللوحة الكبيرة التى رسمها لمقهى النشاط الذى كان يرتاده الكسالى وأرباب المعاشات والصعاليك بينما «ونش البلدية» يرفع حلمى هلالى من مقعده وهو يغط فى نوم عميق!

أذكر ذات سهرة صيفية بديعة فى التراس العلوى لفندق سميراميس القديم مع صديقة يوغسلافية شابة كانت تدرس الأدب العربى بجامعة القاهرة، وبينما كنت أرقص معها «التانجو» ـ حسب رغبتها ـ على أنغام فرقة «بيل بويز»، وجدت أمامى الأستاذ إحسان عبد القدوس وهو يراقص امرأة رائعة الجمال، وابتسم لى . . إذا به يطلب منى أن أراقصها ثم راح يراقص صديقتى أيضًا، ثم جلسنا جميعًا على مائدته وطلب لنا العشاء، وعرفت أن هذه المرأة أميرة مغربية شديدة الإعجاب بكتابات وروايات إحسان عبد القدوس، وأنها تزور مصر من أجله تباعًا لتعرض عليه إنتاجها الأدبى!

ثم أذكر فيما أذكر أن الأديب يوسف السباعى أمر بفتح نافذة بحرية فى غرفة مكتبه بالدور الخامس بعد أن أصبح رئيسًا لمجلس إدارة روز اليوسف، وكان ظننا أن هذه النافذة ترطب من أجواء الغرفة الحارة خصوصًا وكان جهاز التكييف غير معروف فى المؤسسة وقتئذ، لكن صلاح جاهين أطلق سببًا آخر وهو أن يوسف السباعى كان يراقب من هذه النافذة الجديدة بعضًا من وظائفه العديدة، وبينها رئاسة نادى القصة فى شارع قصر العينى، ورئاسة المؤتمر الآسيوى الأفريقى بالمنيل . . إلخ . . إلخ .

إصابة عمل!

ميز الشاعر والكاتب الصحفى الظريف كامل الشناوى المحرر فى مجلة روز اليوسف عن غيره من المحررين فى الصحف المصرية عندما خلع عليه وصفه الساخر «أقرع ونزهى» وذلك أن موارد روز اليوسف كانت آنذاك شديدة التواضع، وهذا التواضع كان السمة العامة فى مبناها القديم المتهالك بشارع محمد سعيد وفى طباعة المجلة عبر طريقة الصف اليدوى للحروف واختيار الورق الرخيص واعتماد الرسوم الكاريكاتورية بدلاً من الصور من باب الفن والتوفير معًا، إضافة إلى ضآلة أجور الكتاب والصحفيين، ولذلك لم يكن أى منهم يقتنى سيارة حتى أوائل الستينيات سوى فتحى غانم وصلاح عبد الصبور ونبيل أباظة.. بينما كان رسام الكاريكاتير العملاق رجائى ونيس يأتى إلى روز اليوسف فوق دراجة قديمة!

لكن هذا التواضع ظل مقصورا على الشكل دون الجوهر، إذ كان أبرز ما يميز روز اليوسف موقفها الواضح والشجاع إزاء القضايا التى تمس مصالح الجماهير على كل صعيد، وثرائها بالكتاب والمحررين والفنانين الذين يمثلون ضمير الأمة من اليساريين الوطنيين والليبراليين والقوميين والمستقلين، وربما لذلك لم تخل قوائم المعتقلين السياسيين من بعض أسمائهم سواء فى عهود الاستعمار والملكية أو فى أوج ازدهار ثورة ٢٣ يوليو..

فى المناسبات العامة والجولات الميدانية التى تجتذب الصحفيين إلى متابعتها

والكتابة عنها كان من السهل معرفة محرر روز اليوسف من ملابسه البسيطة أو من مشاغباته الصحفية وأسئلته الشجاعة للمصادر وإحاطته المعرفية المسبقة لمهمته الصحفية، ولذلك غالبًا ما كان ينفرد بالتغطية الصحفية غير المسبوقة للأحداث وسبر أغوارها بلا تحفظ على غير السائد والمألوف من المجاملات أو دواعى التحفظ والإثارة!

هذه الكبرياء وتلك النزاهة والثقة بالنفس لم تأت من فراغ وإنما كانت الثقافة والدراسة والإعداد الجيد والعشق اللانهائى للمهنة واحترام مبادئها والالتزام بالثوابت الوطنية والقومية إطارها وأبرز دعائمها، فى الوقت الذى كان زملاؤهم فى دور الصحف الكبرى يرتعون فى الامتيازات والأجور وبدلات السفر أضعافًا مضاعفة، وكثير من الزملاء فى روز اليوسف ممن وقعوا تحت طائلة الإغراءات المالية العاتية وانتقلوا للعمل فى المؤسسات الصحفية الكبرى وأبرزهم رسام الكاريكاتير الشهير أحمد حجازى، سرعان ما عادوا إليها عندما أدركوا أنهم باتوا مهددين بالموات الأدبى كما السمك عندما يفارق الماء!

أذكر بالمناسبة أن الرئيس جمال عبد الناصر أبدى ملاحظتين فى خطبة حول نقد روز اليوسف المرير لتجربة التحول الاشتراكى، وقال إنه يخشى أن يؤدى تكرار هذا النقد إلى اعتقاد الشعب بفشل الاشتراكية، وبينما كان بوسع عبد الناصر لو أراد أن يوجه ملاحظاته إلى إحسان عبد القدوس رئيس التحرير حتى تخفف روز اليوسف من نقدها، لكنه لم يفعل، ربما لإدراكه أنها ظلت دومًا مجلة نقدية معارضة ويجب أن تتاح لها مساحة للمعارضة حتى فى ظل الاشتراكية، وإلا فقدت بريقها وأبرز ما يميزها عن غيرها من الصحف والمجلات المصرية، وذلك أن روز اليوسف لم تكن تعتمد لا على الطباعة الحديثة ولا الصور الملونة، ولا على الإمكانات المادية الضخمة ـ كما أسلفنا، وإنما كانت فى نهجها وأسلوبها تعتمد على الصراحة والمكاشفة والرأى الحر والصدق والارتباط بقضايا السواد الأعظم من الشعب، وعلى الكلمة المكتوبة برشاقة وحرفية عالية، وعلى الكاريكاتير الساخر، وخفة الظل.

الفوضى المنظمة

والحقيقة أن مدرسة روز اليوسف على عهدى بها منذ منتصف الخمسينيات كانت نموذجًا للفوضى المنظمة، فوضى فى أنماط المحررين والرسامين وطبائعهم وصخبهم وضجيجهم وهم يعملون أو يتحاورون أو يتناولون طعامهم جماعة ويتبادلون حديث الأمل المنشود أو الغرام المشبوب!

وحين يحتفلون بمناسبة اجتماعية أو انتصار صحفى فكأنهم عائلة واحدة فلا يكاد الزائر العابر يميز الرؤساء من المرءوسين ولا بين الكتاب والمحررين وبين الموظفين وعمال البوفيه، حتى نظام تقسيم العمل وتوزيع الاختصاصات لم يكن سائدًا ولا منضبطًا كما هو الحال فى غيرها من الصحف.. فكان يحلو للمحرر السياسى أحيانًا أن يكتب فى الفن أو المجتمع والعكس صحيح.. لكن يظل معيار النشر مقصورا على السبق والتميز حتى ترددت فى أوساط الصحفيين مقولة فى الستينيات تشير إلى أن روز اليوسف معمل تفريخ وتوريد سكرتيرى ومديرى التحرير، ممن تتوافر فيهم الدراية والخبرة فى مختلف المجالات الصحفية!

على أن هذا الصخب وتلك الفوضى التى كانت تموج بها صالة التحرير، سرعان ما تتلاشى تلقائيًا بمجرد دخول إحسان عبد القدوس إلى مكتبه وشروعه فى كتابة مقاله الأسبوعى أو فصل من رواياته التى كانت ترفع توزيع المجلة إلى الضعف وأكثر، فهو كان منظمًا جدًا وهادئًا للغاية وأنيقًا بلا تزيد، يبكر فى الحضور قبل المحررين وبعد انتهاء سيدة من الطبقة الشعبية تدعى أم حنفى من عملية مسح سلالم وممرات الدار وقد ظلت هذه السيدة تؤدى مهمتها على مدى ٣٥ عامًا متصلة حتى وفاتها عام ١٩٦٣ .

و.. أذكر أن أم حنفى كانت قد اقتحمت سرادق العزاء إثر وفاة السيدة فاطمة اليوسف عام ١٩٥٨ وهى تبكى وتولول، وعندما حاول البعض منعها من دخول السرادق خصوصًا وكانت ترتدى جلابية متواضعة وطرحة سوداء وشبشبا قديما، عندئذ خرج إحسان عبد القدوس إليها وارتمت على صدره تبكى، وأخذ بيدها وأجلسها بين المعزين فلما لاحظ دهشتهم قال: دى زميلتنا السيدة أم حنفى الموظفة فى روز اليوسف!

وحين كنت أدخل على إحسان عبد القدوس فى عزلته الإبداعية، لم يكن القلم يفارق أصابعه قط وهو يخط مقاله أو فصلا من رواية وربما يخط به سطوراً تحت فقرات من مقال أو خبر أو تحقيق، وتلك كانت عادته أيضا وهو يحاور ضيوفه أو يراجع البروفات، ولم أدخل عليه يومًا إلا وجدته منحنيًا على مكتبه يمارس الكتابة أو هواية رسم الخطوط، وفى يوم الجمعة موعد كتابة مقاله الأسبوعى تعلن مديرة مكتبه نرمين القويسنى قراراً بمنع التجول فى الممر الذى يفضى إلى غرفته، وتمنع اتصال القراء والمصادر الذين يطلبونه عبر التليفون، وفى المرات النادرة التى استدعت الظروف اقتحامى خلوته للضرورة القصوى كان يحدث الآتى:

أطرق باب مكتبه، أدير مقبض الباب، أدخل، أتقدم على مهل حتى أقف قبالة مكتبه، صباح الخير يا ريس، لكنه لا يجيب.. أكرر التحية بين دقيقة وأخرى بصوت هامس بينما إحسان مستغرق تمامًا فى الكتابة لا يراجع ما يكتبه ولا يشطب جملة ولا حرفًا، وهكذا أكرر عليه التحية حتى ينتهى من الكتابة، وعندئذ يبدأ فى رفع رأسه للتفكير أو الراحة ويجدنى أمامه وتعود إليه كامل حواسه، وكان يمد يده إلى فنجان القهوة الوحيد الذى يرتشفه فى الشتاء ويكتشف أنه فقد سخونته أو زجاجة «الاسباتس» فى الصيف ويكتشف أنها اكتسبت سخونة الجو!

على شاكلته كان فتحى غانم والفنان جمال كامل والشاعر صلاح عبد الصبور وهم مستغرقون فى العمل، فكان عم سيد مدير البوفيه يحمل إليهم المشروبات ولا يشعرون بوجوده إلا عندما يسمعون صوت المشروب وهو يضعه على مكاتبهم وعندئذ يقولون شكراً أو مرسيه، وبينما كان ناجى رسام الكاريكاتير لا يتوقف عن الشراب والطعام من البوفيه ليلاً ونهاراً، كان الدكتور مصطفى محمود يطلب لنفسه مشروبًا واحداً على مدى أيام الشهر كله، أما الأديب صبرى موسى فدائمًا فى حالة اختلاف مع البوفيه بسبب زيادة السكر أو نقصانه فى الشاى أو القهوة، لكن حجازى رسام الكاريكاتير كان أكرم الجميع فى إكرامياته لعمال البوفيه، وأغرب مشروب تلقاه البوفيه كان واحد نعناع باللبن طلبته السيدة ليلى عسيران حرم رئيس وزراء لبنان!

عوف يتجسس على التابعى

من الغرائب الإنسانية التى أدهشتنى بعد انتمائى إلى روز اليوسف كان عم عبد الرحمن كبير «تليفونست» الدار والذى كنا نناديه «عوف»، فعندما طلبت منه لأول مرة خطًا لإجراء مكالمة تليفونية وجدته يعرفنى بالاسم وعلل ذلك بأنه كثيرًا ما سمع صوتى عندما كنت أطلب الناقد رجاء النقاش والشاعر أحمد عبد المعطى حجازى من الخارج، إذ كان يكفيه سماع صوت أى إنسان مرة واحدة حتى يميز صاحبه ويحكم على شخصيته بعدئذ!

وعوف ـ يرحمه الله ـ كان أيضًا من الذين عاصروا تأسيس روز اليوسف مع إبراهيم خليل المدير العام والحاج حسن مدير المطبعة، وهو كان مفرطًا فى بدانته، وكانت ذاكرته تحفظ ثلاثة أرباع أرقام دليل تليفونات القاهرة. وقد كتب عنه مصطفى وعلى أمين وإحسان عبد القدوس وكامل الشناوى ومحمد التابعى، وكنا نشك كثيراً فى استراقه السمع على مكالماتنا، وإلا كيف يستدعينا أحيانًا كثيرة من المقاهى والمنتديات وبيوت أصدقائنا على الرغم من أننا لم نبلغه بوجودنا فى هذه الأمكنة حتى قطع إحسان عبد القدوس الشك باليقين وكتب قصته، وفضح تجسسه على محمد التابعى عندما سمعه يتحدث إلى شابة تتوسل إليه أن يتزوجها ويستر عرضها.. وعندئذ لم يتمالك عوف نفسه ودخل فى المكالمة وقال: حرام عليك يا أستاذ!

أذكر أن إحسان عبد القدوس كان يوصى المحررين دائمًا خلال اجتماعه الأسبوعى بهم، توخى الكتابة بحرفية فنية وأسلوب أدبى، وفى شتى الموضوعات حتى السياسية. وكان لا يقبل النقد الصارخ للأعمال الفنية ولا تجريح الفنانين، فكان يقول إن الفنان الجيد الملتزم لا يقل شأنًا عن السياسى والمفكر وأصحاب الرسالات، وربما ورث هذا النهج عن والدته السيدة فاطمة اليوسف، وكم تألم لألمها عندما كانت تتعرض للهجمات الموتورة إبان عملها بالمسرح أو الصحافة خصوصًا قصائد الشاعر البائس عبد الحميد الديب الهجائية!

لذلك كانت روز اليوسف مقصداً لكل الفنانين كما لو أنها بيتهم، وأذكر بالمناسبة أن أحد الزملاء كتب تعليقًا على فيلم قامت ببطولته الفنانة تحية كاريوكا، لكنه تجاوز محظورات إحسان عبد القدوس وتناول حياتها الشخصية بالنقد

والتجريح، حين وصفها بزير الرجال على غرار زير النساء، بدعوى أنها متعددة الزيجات!

فى اليوم التالى لصدور روز اليوسف فوجئنا بتحية كاريوكا تدخل علينا صالة التحرير وهى تلوح بفردة حذائها وتسب وتلعن وهى تبحث عن المحرر الذى كتب عنها للانتقام منه، وبألفاظ وعبارات ما أنزل الله بها من سلطان، وانبرى لها زميلنا عبد الله إمام يطيب خاطرها ويطلب لها فنجان قهوة ويشعل لها سيجارة، ثم قال لها: سوف نفتح محضرا وعليك يا مدام تحية أن تقولى ما شاء لك، وبعدها سوف نضع المحضر أمام الأستاذ إحسان عبد القدوس للتصرف!

ومن دفاعها الحار عن حياتها الشخصية وأنها تفضل الزواج فى الحلال على العلاقات المحرمة، تحول المحضر إلى حوار شائق معها شارك فيه كل الزملاء حول أحوال السينما، وعن ذكرياتها المثيرة فى عوالم الفن، بينما نشط رسامو الكاريكاتير فى تجسيد حركاتها وسكناتها، حتى هدأت أعصابها وباتت الظروف ملائمة لاستدعاء المحرر المتهم بالإساءة لها وتم الصلح بينهما، وفازت المجلة بتحقيق رائع اكتملت له عناصر النجاح شكلاً وموضوعًا!

ويشاء القدر أن أتعرض شخصيا لتجربة مشابهة، وكنت ورسام الكاريكاتير رجائى ونيس نعد معًا سلسلة من اللقاءات لأهل الفن عام ١٩٦٢ فى بيوتهم، هو يسجل ملامح الشخصية ورأيه فيها بريشته، وأنا على غراره بالكتابة، فلما كانت زيارتنا للمطربة فايزة أحمد، ونشرنا مقابلتنا معها بكل دقة وأمانة، إذا بها تقتحم روز اليوسف فى غضب وتتوعدنى بالثبور وعظائم الأمور، ومن عجب أن ينهض عبد الله إمام بنفس الدور الذى قام به مع تحية كاريوكا، فما إن شربت زجاجة الكوكاكولا حتى قذفت بها إلى سقف صالة التحرير وتناثر الزجاج فى كل مكان، وعندئذ طلب منها عبد الله إمام أن تكتب ما تراه غير صحيح فى حديثنا و يسىء لها، ومن حقها أن تنشره المجلة كما هو عملاً بالتقاليد الصحفية، وإذا بها تتهمنا بأننا عملاء لغريمتها المطربة صباح، وأن الفتاة التى كانت حاضرة لقاءنا معها هى ابنتها، وأنها أحضرتها خصيصًا من سوريا حتى تجد لها زوجًا مصريًا، وأنها تتلقى دروسًا خصوصية استعدادًا لامتحان الشهادة الإعدادية، وسوف تكمل تعليمها

الثانوى ثم الجامعى على غرار المطربة فايدة كامل حتى تنال ليسانس الحقوق و. . نشرنا لها ما كتبته وكان أكثر إثارة من حوارنا معها!

وكان زميلنا جلال فهيم محرر باب «أين يذهب الناس» أشهر محرر مجتمع فى الصحافة المصرية حتى أواخر الستينيات، فكان يوافى المجلة بالطريف والمثير والخفى فى سهرات المحظوظين وأدق علاقاتهم العاطفية، وأذكر أن مجلة روز اليوسف كانت ماثلة للطبع وعلى وشك الصدور صباح اليوم التالى لأعياد رأس السنة، وكان من رابع المستحيلات بالطبع أن تتاح له فرصة تغطية وقائع السهرات إيذانا ببزوغ فجر الفاتح من يناير ١٩٦٥ .

ماذا يفعل؟

عندئذ أجرى اتصالات تليفونية واسعة بمصادره لعلها تفيده فى التنبؤ بما سوف يحدث ليلة رأس السنة، حتى استطاع بالفعل أن يقدم بانوراما شاملة ودقيقة للسهرات وأماكنها، بل إنه توقع أسماء الحاضرين وبرامج الرقص والغناء والفرفشة فى أغلب هذه السهرات، ومن عجب أن تصدق توقعاته بنسبة ٩٥٪، أما نسبة الـ ٥٪ الباقية فكانت تكذب معلوماته عن مكان السهرة التى أقامها الثرى الأمثل حسام البدراوى فى قصره بالهرم، حيث انقطع التيار الكهربائى فجأة مما اضطره إلى نقل السهرة إلى منزل أحد أصدقائه بمصر الجديدة.

إلى ذلك كان جلال فهيم من المقامرين المحترفين العتاة، وكم من المرات حاول معه ضباط الآداب معرفة أوكار القمار لكنه أبى، ويوما جاء مجلة روز اليوسف فى سيارة جديدة على الزيرو، وكان قد كسبها على مائدة القمار، والغريب فى أطواره أنه خسرها كذلك بعد أسبوع واحد على نفس مائدة القمار.

ومن عجب أن جلال فهيم كان واسع الصلات بمعظم شخصيات المجتمع البارزين وأثريائه، وأذكر حين ذهبنا لتهنئته بالزواج فى عش الهناء والسرور بالمعادى، إذ به يعترف بأن معظم المفروشات جاءته هدايا من معارفه ومن مجهولين كان قد أسدى لهم خدمات جليلة لوجه الله.

وفضلا عن كتابه الشهير «كنت مقامرًا» فقد كانت أهم خبطاته الصحفية حين

اشتغل لمدة شهر سائقًا للتاكسى، وتعرف من خلال تجربته على الكثير والمهم والخطير من خبايا القاهرة، ولعل من مفارقات الزمن أن يتحول جلال فهيم فجأة إلى درويش يغيب فترات عن الوعى، وهو يمسك فى يده بمروحة من البلاستيك يطارد بها الجن والشياطين تارة، ويلتقى بأحبابه ومريديه تارة أخرى كل مساء فى كافتيريا فندق النيل هيلتون وقضاء مصالح الناس بعد أن هجر الصحافة والدنيا وما فيها!

والشاهد أن تدبير المقالب المتبادلة كان سمة لطرائف العمل دون أن يتخلف عنها ما يعكر صفو العلاقات الحميمة بين الزملاء، ولا يزال زملائى القدامى فى روز اليوسف يذكرون المقلب الذى دبرته للصديق الشاعر الكبير أحمد عبد المعطى حجازى، حينما حدثته عبر التليفون بصفتى سكرتير سمو الأمير فيصل دعيج، وأنه يرغب شخصيًا فى الحديث إليه، ثم رجوته بصفتى الأمير فيصل دعيج وبلهجة خليجية قح أن يقبل دعوتى وتشريفى فى جناحى رقم ٤٠١ بفندق الهيلتون للاحتفال بصدور ديوانه الجديد «مدينة بلا قلب» وهناك فى المكان والموعد المحدد طرق حجازى باب الجناح وفوجئ بأن شاغله خواجة، قيل ـ والله أعلم ـ أنه يوجين بلاك مدير البنك الدولى للإنشاء والتعمير.

ولعل أطرف ذكرياتى عن زمان روز اليوسف الجميل، عندما دخلت على إحسان عبد القدوس مكتبه وكان فى ضيافته أستاذنا الشاعر كامل الشناوى، وكان زملائى قد كلفونى بالوساطة لدى إحسان حتى يقبل صرف إعانة من خزانة المؤسسة إسهاما فى تكاليف ولادة إحدى الزميلات فى مستشفى خاص، وكانت متزوجة بزميل لها من روز اليوسف. . لكن إحسان اعتذر وقال إنه يخشى إسهام المجلة فى فاتورة الولادة حتى لا يصبح الأمر سابقة يمكن تكرارها وهو ما لا تستطيع موارد المؤسسة المحدودة احتماله!

عندئذ تدخل كامل الشناوى فى النقاش وقال لإحسان: مادام الزوجان زميلين سبق وتعارفا وشب حريق الحب بينهما فى روز اليوسف، اعتبر الولادة إذن إصابة عمل تستحق الإعانة أو التعويض. . وضحك إحسان من أعماقه واقتنع بمنطق كامل الشناوى ودفع فاتورة الولادة بالمستشفى كاملة!

الصليب الأسود يهرب من الدير

عام ١٩٥٦ . . الجو شتاء . . المكان فندق مينا هاوس . . والشرفة تعج بالسواح!

شاب أجنبى ذو لحية كثيفة حمراء . . يشرب البيرة زجاجة تلو الزجاجة فى نهم وعصبية . . وعيناه تنظران إلى لا شيء!

تلفت حوله فجأة . . فوجدنى أرقبه وأصدقائى من بعيد . . حيانا برأسه فرددنا عليه التحية . . وقف على قدميه وأخذ يترنح فى مشيته حتى وصل إلى مائدتنا . . ثم قدم لنا نفسه بالإنجليزية . . اسمى فون بريخت . . صحفى من ميونخ . . هل يضايقكم سماع قصتى؟!

جلس ثم تكلم فى عبارات بطيئة ومتقطعة حتى عرفت قصته!

لقد حضر إلى مصر . . وفى ذهنه أن يوافى مجلته بتحقيق صحفى مثير عن راهب حبشى يعيش وحيداً داخل مغارة فى الصحراء الغربية بعد هروبه من دير البراموس منذ ٢٠ عاماً لكنه فشل . . فقد رفض الراهب أن يفشى سر هروبه من الدير . . وكل ما قاله «أمهلنى خمس سنوات حتى أكمل ربع قرن وبعدها ربما قلت الحقيقة»!!

فبراير عام ١٩٦٢ والجو شتاء . . المكان شرفة فندق مينا هاوس . . والمكان يعج بالسواح!

مضت ست سنوات على لقائى بالصحفى الألمانى . . واليوم أجلس أنا وزميلى

الرسام رجائى والشاعر صلاح عبد الصبور الكاتب بروز اليوسف وقتئذ فى انتظار السيارة التى تقلنا إلى الراهب الحبشى!

الطريق الصحراوى إلى الإسكندرية طويل، والمنظر من الجانبين متكرر عهدئذ وممل.. وسائق السيارة يخرج رأسه من حين لآخر حتى لا يغلبه النعاس.. صلاح يتأمل صامتًا فى لا شىء، ورجائى يغط فى نوم مسموع.. وعلى ركبتيه كتاب مقفل.. وأنا شبه وحيد.. وعندما تكون وحيدًا فليس أمامك إلا أن تفكر.. وسحبت الكتاب بهدوء.. إنه يتحدث عن المكان الذى سنقصده.. عن وادى النطرون أو وادى الرهبنة حيث يعيش الراهب الحبشى، أخذت أقلب صفحات الكتاب وعينى تجرى على الكلمات.. تقول إن القدماء المصريين أطلقوا على الوادى اسم «برية شيهيت».. أى ميزان القلوب، وذلك لاشتهار الوادى بعبادة الإله أوزوريس قاضى الآخرة الذى يجلس أمام ميزان يزن به قلوب الناس وأعمالهم!

وعندما دخلت المسيحية إلى مصر.. واضطهد الرومان معتنقيها.. فر كثير منهم إلى الوادى تحت قيادة القديس «فرنتيون».. واشتهر بعد ذلك باسم «وادى الأسقيف» أى وادى النساك أو الرهبنة!

ويحكى الكتاب عن القديس آمون أحد مؤسسى الرهبنة الذى ولد من أسرة مصرية ثرية، ولما بلغ الثانية والعشرين من عمره، أجبره أهله على الزواج.. فنزل على رغبتهم، غير أنه أقنع زوجته الشابة بأفضلية «حياة التبتل»، واتفقا على أن يعيشا كأخوين بعد أن اختليا فى وادى الرهبنة، وتبع القديس آمون أناس كثيرون.. حتى بلغ عددهم فى القرن الرابع الميلادى نحو خمسة آلاف راهب ومن شتى بلاد العالم.. من إيطاليا واليونان والغال وأرمينيا والعراق وإيران وأثيوبيا.. جاءوا جميعًا ليتلقوا مبادئ الرهبنة فى الوادى والترويج لها بعد ذلك فى بلادهم وفى العالم كله!

وظهر إلى الوجود أول دير فى التاريخ، نتيجة للظروف العصيبة التى مر بها الرهبان الأوائل الذين كانوا يتعبدون فى البرية!

لقد تعرضوا لحملات متكررة.. من الرومان والبربر ولصوص الصحراء الذين

كانوا يغيرون على صوامعهم، يقتلونهم و يسرقون قوتهم وملابسهم، واهتدى الرهبان إلى فكرة بناء أسوار وحصون دفاعية حول كل مجموعة من الصوامع تتوسطها كنيسة للعبادة، حيث أخذت تتطور في عماراتها حتى اتخذت طرز وأشكال الأديرة الحالية، وقد بلغ عددها في القرن الرابع ٥٠ ديراً. . تناقصت على مر الزمن. . حتى أصبحت الآن أربعة فقط في وادى النطرون. . دير البراموس والأنبا بشوى وأبو مقار والسوريان!

أبونا عند المسيح

ساعة ونصف، وبعدها وصلنا إلى «الرست هاوس». . نزلنا من السيارة لنجد في انتظارنا سيارة «جيب» من الطراز الروسي. . كانت قد أعدتها لنا مؤسسة تعمير الصحارى لتشاركنا الرحلة ـ كما قدرنا ـ إلى وادى الرهبنة أولاً وبعدها زيارة مشروع استصلاح وزراعة صحراء وادى النطرون!

انحرفت السيارة نحو الغرب. . بعد خمسة كيلو مترات ـ على ما أذكر ـ كنا قد فقدنا كل أثر للمصانع والمزارع والناس في وادى النطرون حتى أصبحنا في الصحراء الخلاء. . في قلب وادى الرهبنة!

الصمت يلف الوادى بهدوء غامض. . والشمس تحجبها الغيوم. . فلا تعكس للأشياء ظلالها على الأرض، والرياح عاتية تصفع من يعترضها بالحصى والرمال!

موت وموات. . لا حركة ولا حياة اللهم إلا قلة من الرعاة يسوقون أمامهم قطعان الأغنام الهزيلة بحثًا عن الماء والعشب!

الجو موحش، والسيارة ترتفع لتنخفض من جديد، والسائق ـ واسمه بكر ـ لا يتوقف عن استعمال «فيتيس «الغرز». . كلما تشبثت العجلات بالرمال الناعمة و. . انتابتنى موجة من الحيرة والتعجب لهؤلاء الرجال الذين طلقوا المجتمع، وأطلقوا اللحى ليقضوا بقية أيام العمر متبتلين. . تلسعهم كرابيج الصبر والتقشف في هذا الوادى الموحش الحزين!

مرة واحدة. . ظهرت فى الأفق أبراج الأديرة الواحد وراء الآخر، والتفت السائق إلينا يسألنا. . على فين العزم إن شاء الله؟

كان من رأيى أن نذهب أولاً إلى دير البراموس الذى فر منه الراهب الحبشى، لكن رجائى كان متلهفًا على زيارة الراهب أولاً. . ولم تطل مناقشتنا. . وانحاز صلاح عبد الصبور لرجائى!

اجتزنا منطقة الأديرة. . ثم توغلنا داخل الصحراء ومن خلال الزجاج الأمامى للسيارة. . بدا لنا على البعد صليب أسود كان يتحرك فى اتجاه السيارة كالرادار!

لم يمهلنا السائق لنسأله. . ابتسم قائلاً: ده أبونا عبد المسيح. . أصله أول ما يشم ريحة الناس من بعيد. . يخرج من مغارته ويستقبلهم بالشكل ده كما لو أنه صليب أسود وهو باسط ذراعيه فى الهواء ويحتضنهم عن بعد!

ملامح الراهب تتضح شيئًا فشيئًا كلما ضاقت المسافة بيننا، واستدارت السيارة لتقف بجانبه. . فأسرع يفتح لنا الباب. . ثم ينحنى فى تواضع ونحن نغادرها!

رجائى يقبل يد الراهب فى خشوع، والسائق يحتضنه فى اشتياق شديد. . وعندما جاء دورى لمصافحته، أحسست بخشونة يديه وقوتها، وبعينيه الصغيرتين تلمعان فى عينى ببريق عجيب، وبدأ يتقدمنا فى حيوية. . قامته منتصبة كالسيف، وخطواته ثابتة كالجنود. . وعند فوهة الكهف الذى يسكنه دعانا للجلوس. . افترشنا الأرض نستريح من متاعب الطريق. .

كان يجلس القرفصاء فى صمت وقد أحاطته مهابة القديسين. . بصمات الزمن والحياة الجافة مطبوعة على وجهه بشكل واضح. . بشرته سمراء، ولحيته طويلة فى غير تهذيب، يرتدى جلبابًا أسود على اللحم يبرز عظام جسمه النحيل، وعلى رأسه طاقية من الصوف الأبيض، وفى قدميه نعلان من جلد الماعز و. . . نحن جلوس من أمامه وكأن على رءوسنا الطير!

كاذب.. كاذب

فجأة وقف الراهب على قدميه. . ثم دخل المغارة فابتلعه الظلام. . وعاد بعد دقائق يحمل سلة من سعف النخيل. . وضعها أمامنا وهو يتمتم. . اتفضلوا. . الموجود. . اتفضلوا. . كلوا. . !

كانت نبرات صوته رفيعة وخفيضة كأنها تأتي من مكان سحيق. . الكلمات مطوطة، والجمل متقطعة بدون رابط. . وربما نسى الكلام لبعده عن الناس وقلة حديثه معهم!

نظرت إلى داخل السلة فوجدتها مملوءة بالعجوة. . والحشرات تسرح فيها بشكل مقزز. . وبدأ الجميع يأكلون العجوة دون أن يلاحظوا شيئًا. . بينما تصنعت المضغ حتى لا أجرح شعور الراهب. . لكنه فهم الحيلة وأشار بيده إلى فمي وهو يقول بلهجة حاسمة: أنت لا تأكل. . كاذب. . كاذب، بهت للمفاجأة. . وأسرعت أضع العجوة في فمي وليكن ما يكون. . لكنه أمسك يدى وعاد يقول بنفس اللهجة. . لا تأكل. . لا تأكل. . نظر إلى الحشرات وهى تسرح في العجوة. . قام مرة أخرى واختفى داخل المغارة. . بينما السائق يبتسم وهو يتباهى بمعرفته بطبائع الراهب. . أصل أبونا عبد المسيح راجل مبروك قوى ومكشوف عنه الحجاب، تصدقوا إنه يقدر يعرف أصل وفصل الشخص من أول ما يشوفه، ده عنده معجزات ياما وكله بركة!

سكت السائق عن الكلام عندما ظهر الراهب يحمل علبة من الصفيح بها فول سوداني نيئ مقشور. . كبش منها حفنة وضعها في يدى ثم أشار إلى معدته. . الفول كويس للبطن. . اتفضل. . اتفضل لا تخف. . كويس للبطن. .

صلاح عبد الصبور يسمع ويرى ولا يعلق، وهكذا ظل حاله طوال الرحلة. . يرى ويسمع ويتأمل بينما رجائى يتفرس في وجه الراهب وحركاته في اهتمام شديد كعادته، ثم يختلس لحظات تحول نظراته عنه، ليرسم له بعض الاسكتشات على ورقة سميكة وضعها على الأرض، بينما بدت لى مهمتى شاقة للغاية. . وتذكرت الصحفى الألمانى ووعد أبونا عبد المسيح حتى يفضى له بقصته وسره بعد

خمس سنوات . . وخشيت أن يكون مصيرى كمصيره، فتجرأت وقلت له وأنا أتحسس بداية الحديث :

ـ أنت مرتاح فى عيشتك بالبرية يا بونا عبد المسيح؟

رفع رأسه إلى أعلى وقال :

ـ نعم . . نعم . . الحمد للرب الذى فى السماوات . .

ـ أنت بقالك كثير هنا؟

أخذ يعد أصابع يديه عدة مرات . . حتى أكمل رقم ٢٥ . . ثم مد يده بسرعة وسحب النوتة التى أكتب فيها . . ونظر إليها قليلاً ثم أعطاها إلىَّ دون أن يتكلم، ثم زحف على الرمال حتى اقترب من رجائى وأخذ يتأمل رسومه لفترة طويلة . . وعاد بعد ذلك إلى مكانه وهز رأسه عدة مرات وهو يبتسم . . ثم بادرنا بالسؤال :

ـ تكتبون عنى . . ترسمونى . . هذا صحيح؟

فلما أجبته بنعم . . اتسعت ابتسامته وضرب كفًا بكف وقال :

ـ ها . . ها . . أنت صادق الآن . . أنت صادق . . لا تكذب بعد ذلك .

وأسرعت أقول :

ـ إن شاء الله يا بونا إن شاء الله . .

مضى زهاء نصف الساعة حتى بدأ الراهب يأنس إلينا، زال عنه الشك الذى كان يلازمه، وأصبحت كلماته أكثر وضوحًا وعباراته أكثر ارتباطًا . . وانتهزت الفرصة وحكيت له قصة الصحفى الألمانى . . وعندئذ وضع رأسه بين يديه وهو يحاول أن يتذكر . . ثم أمسك لحيته يداعبها وقال :

ـ نعم أتذكره . . مسكين . . الآن فهمت . . أنتم جئتم لهذا السبب إذن . . نعم . . نعم سأتكلم لا مانع الآن . . لا مانع!

وبدأ يتكلم ويتكلم . . فى سعادة عن أيام طفولته وشبابه . . وفى حدة عن أيامه داخل الدير . . وفى حياء وتواضع عن حياته داخل المغارة، وذكر كل شىء بالتفصيل . . وكأن أحداث ربع قرن مضى قد وقعت بالأمس!

يضرب أولاد الرعاة

إنه لا يذكر فى أى سنة تفتحت عيناه على الحياة. . فالعامل الزمنى ليس له قيمة فى حياته. . كل ما يذكره أنه بدأ يعى ما يجرى حوله. . المروج الخضراء. . قمم الهضاب التى تسقط فوقها أمطار النيل الأزرق. . وعرف أن وطنه هو الحبشة. . وأن بلدته اسمها «يبان» وأنها تتبع مقاطعة «حماسين» الواقعة بين أسمرة ومصوع. .

وتذكر أسرته. . لقد نشأ وسط العز والثراء والقوة والكبرياء. . والده الطيب «نازيجيه» أى رجل الله كان شيخ قبيلته «بيهيل»، وأعمامه الخمسة وأولاد أعمامه الذين يعدون بالعشرات، والثروة تعد بالآلاف من الأبقار والأغنام، وهو قد أمسك بمقاليد السلطة منذ الصغر. . يأمر فيطاع، ويطلب فيجاب، يضرب أولاد الرعاة، فلا يسأله أحد ماذا يفعل، ويذهب إلى كتاب القرية. . فلا يخالط أولاد الفقراء. . ويتأخر فى عمل الواجبات، فلا يسمع لومًا أو تقريعًا. . واستمرت حياته على هذا المنوال. . لهو واستمتاع ونزق ولا مسئولية على الإطلاق. .

كان لعبد المسيح عم اسمه «سولومون» تقدم به العمر، لكنه لم ينجب أولادًا. . أحب عبد المسيح كما يحبه أبوه وأكثر. . ووكله فى إدارة أمواله. . ثم تنازل له عنها بعد ذلك. .

وكبر الطفل وأصبح شابًا ملء السمع والبصر. . مفتول العضلات. . تجرى الأموال بين يديه بدون حساب، يختال على حصانه الأبيض فتهتز له قلوب الفتيات. . باختصار خاض تجربة الشباب بكل ما فيها من اندفاع ونزوات و. . فجأة. . تغير مجرى حياة عبد المسيح تمامًا وانقلبت رأسًا على عقب!

التقى بقس جاء إلى قريته على حمار يذكر الناس بالرب الذى فى السماوات، يتوعد الغافلين عن عبادته بسوء العقاب، ويهدى العصاة والمذنبين ويفتح أمامهم طريقًا جديدًا إلى الرحمة. . واستمع إليه طويلاً. . حتى أدرك أنه شخصيًا يسلك طريقًا لا يوصل إلى الله، وبدأت الغشاوة تنزاح من أمامه، واستشعر للإيمان حلاوة. . وأن باب الله على قيد خطوات، وانكب على الإنجيل يتفهمه، وعلى المزامير يرتلها. . ثم عرف الطريق إلى الكنيسة. . يقف أمام مذبحها الساعات

الطوال يبكى من خشية الله، وأصبح شغوفًا بقراءة كتب اللاهوت إلى حد الذهاب إلى أديس أبابا البعيدة ليشترى منها العشرات.. وقرأ كتب القديسين، وسير آباء الكنيسة الأوائل.. وكان الكتاب الأخير عن وادى النساك أو وادى الرهبنة.. وأخذ يقرأه عدة مرات، ومع كل صفحة كان يتخيل هؤلاء النساك الذين فروا بدينهم إلى الصوامع.. يصومون ويتعبدون فى البرية وأرواحهم معلقة بالسماء.. وكيف ألهمهم الله المعجزات.. القديس مكاريوس الذى ينزل المطر.. والقديس موسى الأسود اللص الزانى الذى ترهب فى الوادى وتبعه الألوف، ومكسيموس ودوماديوس ابنا الإمبراطور لونديوس اللذان تركا الملك والسلطة والثراء للرهبنة متنكرين.. والوادى المقدس العزيز الذى باركته السيدة العذراء فى رحلتها المقدسة إلى مصر، ومن يومها لم تنقطع فيه الصلاة والدموع والتراتيل..

هكذا أصبح عبد المسيح يعيش فى بلدته وبين قبيلته جسدًا بلا روح.. لقد طارت روحه إلى وادى الرهبنة.. وأحس أن الله يناديه، أعلن لقبيلته عن قراره.. سوف أترهب سوف أترهب.. سوف أذهب إلى مصر.. إلى وادى النساك.. حاولوا أن يثنوه.. وحاولوا أن يمنعوه.. لكن هيهات.. لقد صمم على الرحيل ووهب نفسه لله!

ألقى نظرة على بلدته الحبيبة ومرتع صباه وشبابه.. ومع أول خيط للفجر.. كان يحمل عصاه على كتفه ووجهته مصر.. إلى وادى الرهبنة..

لم يكن معه من حطام الدنيا مال ولا متاع ولا خبز.. لم يكن معه سوى الإيمان.. وهداه الإيمان أن يتبع مجرى النيل.. وظل يسير على قدميه ويسير، قد يدعوه الرعاة إلى كسرة خبز.. وقد يخرج وراءه الصبية يهزءون به و.. و.. لكنه واصل رحلته.. وعلى الحدود السودانية الحبشية.. سألوه: أين جواز سفرك.. فرفع يديه بالإنجيل.. كانت حالته أصدق من أى جواز سفر.. فتحوا له الأبواب على الرحب والسعة.. واستمر يتبع النيل فى مجراه، وقدر له أن ينام بين الوحوش والطيور فكلها مخلوقات الله، والرجل مسالم لا يبغى سوءًا بأحد.. ويأتى عليه الليل لتستمر رحلته فى الظلام وهو لا يعرف كم من الأيام

مرت به . . وكم من الوجوه صافحها . . وهزل جسمه ووهنت صحته . . أصبح جلداً على عظم . . الشيء الوحيد الذى لم يتغير هو إيمانه وتصميمه على بلوغ وادى الرهبنة، حتى دخل الخرطوم وقادته قدماه إلى الكنيسة القبطية . . وعرفوا قصته دون أن يرويها بوعيه . . كان قد فقد وعيه من طول الرحلة ومشقة الطريق وأهواله . . وحين استرد وعيه وعافيته . . راح يواصل رحلته من جديد بحذاء النيل من الجنوب إلى الشمال، وتثور المشكلة مجدداً على الحدود المصرية . . ويسألونه من أى جنسية أنت؟! من أى وطن؟! ويرد عليهم . . ليست لى جنسية ولا وطن فكلنا أبناء الله . . ووطنى الدنيا كلها مادام يذكر فيها اسم الله . . وتفتح له الأبواب . . وكأن لكلماته سحر سليمان . !

فى الدير المحرق

يصل عبد المسيح إلى أسيوط . . وفى الدير المحرق يستقبلونه بالترحاب كنسمة من نسمات القديسين، يقدمون له الطعام الفاخر فيرفض تناوله، ويعرضون عليه الثياب الحرير فيتمسك بردائه البالى . . ثم فجأة قرر أن يغادر الدير فيما يشبه الاحتجاج على حياة الراحة والرغد التى آلت إليها حياة الرهبان، لينتقل من مدينة إلى قرية . . وفى كل مساء يأوى إلى كنيسة أو يضع رأسه تحت شجرة . . وكلما أحس ببرودة الجو . . فهم بفطرته أن وادى الرهبنة قد اقترب . . فيجد فى سيره، دليله مجرى النيل وبوصلته الإيمان واليقين!

فى القاهرة . . كانت شهرته قد سبقته، واستقبلوه على أبواب المدينة الكبيرة بالترحاب والإجلال . . اصطحبوه إلى البطريركية حيث قابل الأنبا يؤنس الذى منحه بركته، وأثنى على إيمانه وصبره ورسمه راهباً كما أراد، ولم يحتمل ضجيج المدينة والناس أكثر من ذلك، إنه يريد العزلة . . ويتوق للرهبنة فى دير السيدة العذراء . . فى دير البراموس . . ويحمل عصاه ويرتحل، وعلى قدميه يسير إلى جوار فرع رشيد، وتحتويه محافظة البحيرة ويسأل الناس عن وادى الرهبنة فلا يعرفونه . . ثم يرشدونه إلى مركز رئاسة دير الأنبا بيشوى فى كفر داود، وهناك يلمحون فيه تلقائياً سمات الرهبنة . . فيدلونه على الطريق . . خيل إليه أن الطريق

إلى وادى الرهبنة على شكل مثلث، سيقطع منه عند الذهاب إلى الخطاطبة ضلعين، فلماذا لا يسير ضلعًا واحدًا فقط إلى وادى الرهبنة، لكنه لم يقدر وعورة الطريق.

ولأنه كان قد أسلم حياته لله.. سار فى هذا الطريق إلى أن تعب، فجلس على ركبتيه ورفع رأسه إلى الله يصلى ويصلى.. حتى حل الليل والظلام.. فرأى من بعيد نوراً حسبه نور الأديرة فتبعها.. حتى وصلها فى الصباح فوجد نفسه فى وادى النطرون، واستقبله الأهالى استقبالاً رائعًا.. فعلى قدومه توقفت عاصفة رملية شديدة استمرت خمسة أيام، وكانت قدماه قد تشققتا وجسمه قد ذبل وأصبح هيكلاً تدب فيه الروح.. حملوه إلى وادى الرهبنة.. فانحنى يقبل الأرض ودموعه تبلل الرمال و.. دخل دير البراموس فى أيام الصوم الكبير سنة ١٩٣٤.. وكان عمره فى ذلك الوقت ٢٥ عامًا!

يسكت الراهب الحبشى طويلاً عندما يصل إلى ذكر الدير، وتمر لحظات كأنها ساعات لم نسمع خلالها سوى الصمت.. وبدأ الجو يميل إلى البرودة.. وقدماى من طول الجلسة «تنملتا» وكان علىَّ أن أقطع حبل الصمت فسألته:

ـ أيوه يا بونا عبد المسيح.. وعملت إيه فى الدير؟

يتوقد ذهنه مرة أخرى.. ثم يقول:

ـ نعم.. لقد وعدتك.. سأقول كل شىء.. و.. حتى عرفت سر هروبه من الدير إلى البرية..

لقد دخل الدير وفى ذهنه صور مثالية شتى للرهبنة فى وادى النساك.. الزهد.. التقشف.. والتبتل.. والعزلة.. وكلما أفاق من نومه كانت الصور الجميلة تتبدد من ذهنه على أرض الواقع!

شاهد مبانى الدير فوجدها شامخة جميلة.. الصوامع التى سمع عنها أصبحت حجرات «قلايات»، والتقشف انقلب إلى رفاهية فى نظره.. يأكلون اللحوم، ويلبسون الثياب الرقيقة، ويتقاضون مرتبات، والعزلة والزهد أصبحت ومعان كثيرة بدون معنى.. فمازال الرهبان يتحدثون عن حياتهم الدنيوية السابقة ويحنون إليها،

يتكلمون عن الحياة أكثر مما يتكلمون عن الموت، والدير يستعمل الكهرباء، ويستأجر بعض العمال لخدمة الرهبان . . وخابت آماله في الدير وفي الحياة التي كان ينشدها داخله . . وبدأ يعتزل الرهبان، ويقسو على نفسه ويرفض مشاركتهم الحديث . . وتفرغ لمعاونة العمال في القيام بكل أعمال الدير كالغسيل والكنس والخبيز وإعداد الطعام ودق الأجراس للصلاة حتى لا يجعل للشيطان سبيلاً إلى نفسه .

لم يحتمل عبد المسيح زملاءه الرهبان وثار عليهم ثورة عنيفة . . على تفكيرهم في المرأة . . وخروجهم لزيارة أهلهم وعملهم بالكنائس، وعلى تحويلهم الدير إلى استراحة توقف عليها الأراضي الزراعية بالمئات . . والانصراف عن تقاليد الرهبنة التي نشأت أساسًا على التصوف والانقطاع للدراسة والتعمق في فهم فلسفة الدين المسيحي!

وعرفت قلوب الرهبان الكراهية والحقد على الراهب الحبشي الذي جاء يذكرهم بعهد مضى منذ سنين بعيدة . . لم يوافقه على رأيه أحد، وشعر أنه لن يستطيع تغيير شيء من نظام الدير وتفكير رهبانه . . ماذا يفعل؟ . . صمم على مغادرة الدير ليعيش حياة الرهبنة كما يفهمها وليكن ما يكون . . وأعلن رغبته للرهبان، وخافوا أن يخرج ليكشف أمرهم ويذيعه على الناس . . حبسوه . . نعم حبسوه ـ هكذا قال ـ في إحدى الصوامع واتهموه بالجنون، لكنه لم يفقد الوسيلة، انتهز غفلة الرهبان وصعد إلى برج الدير، ومعه الحبل الذي يرفعون به الماء من البئر، ودلى نفسه من هذا الارتفاع الشاهق، أحس أنه أصبح طليقًا يستطيع أن يتنفس . . وتوغل في وادي الرهبنة حتى وصل إلى إحدى المغارات التي كان يتعبد فيها الرهبان الأوائل ورفع منها الحجارة والرمال التي كانت تسدها، وعاش فيها كما كان الرهبان الأوائل يعيشون . . وحيداً معتمداً على نفسه . . لا يشغله عن الله شاغل . .

البوح بعد ربع قرن

كانت القصة قد قاربت نهايتها عندما سألته :

ـ ولماذا تكتمت على أسباب هروبك من الدير حتى الآن؟

وعاد يداعب لحيته وهو يقول :

ـ أنا أقسمت بالمسيح . . بالامتناع عن البوح إلا بعد ربع قرن على فرارى من دير البراموس . . فربما تكون حالة الأديرة قد تغيرت كما وعدنى الأنبا يوساب حتى يعود الرهبان إلى منابع الرهبنة الحقة ويمتنعون عن التسول فى الكنائس!

وهل تغيرت الحالة الآن؟

ـ أنا لا أعرف . . منذ ثلاث سنوات، وفى شهر أكتوبر زرت الأديرة الأربعة فى الوادى كما زرت الأديرة فى الصعيد، فوجدت الحال على ما هى عليه . . فذهبت إلى البطريركية وحكيت لهم ما شاهدته وناديت بتغيير حالة الأديرة والرهبان!

وماذا فعلت البطريركية؟

ـ سمعت من أحد الآباء الذين زارونى . . أن قداسة البابا كيرلس السادس أمر بعودة الرهبان إلى الأديرة وهددهم بالتجريد من الرتبة الكهنوتية إذا لم يعودوا . . وسمعت أن قداسته أمز الرهبان بالتقشف، وأن الأراضى الزراعية الموقوفة على كل دير قد أنقصت و . . !

كانت الساعة قد بلغت الرابعة مساءً . . حتى حان ميعاد صلاة الراهب، فاستأذننا ودخل إلى المغارة يصلى بعيداً عن عيوننا . . وانتهزت الفرصة وبدأت أسأل السائق حول معلوماته عن الراهب أبونا عبد المسيح باعتباره من سكان وادى النطرون . . فقال لى إن معجزات كثيرة يذكرها البدو الذين يعيشون فى المنطقة . . كشفاء المرض ومعرفته بنوايا الناس وأخلاقهم من الوهلة الأولى، وأنه يطعم الجائع فى الصحراء مما لديه من خبز وطعام، ومن عاداته معرفته الفطرية بالأيام والشهور والسنين وأعياد المسيحيين رغم طول إقامته بالمغارة، وعندما تدق أجراس دير البراموس . . يخرج من كهفه ليلقى نظرة ذات مغزى على الدير . . ويديه مرفوعتان إلى السماء، ثم قراءته للإنجيل فى الخلاء عندما ينتصف القمر فى السماء . ثم روى عنه قصة طريفة فقد تعود الراهب قضاء سحابة يومه فى مغارة مجاورة لمغارته . . اعتاد أن يقضى فيها أوقات فراغه فى ممارسة بعض الصناعات اليدوية، وأنه يبيع أو يقايض البدو بالأشياء التى يصنعها . . ويأخذ منهم فى المقابل حاجته من الخبز والطعام والحطب والماء!

ورغم أن السائق قال لنا إن الراهب لا يسمح لأحد بالاقتراب من المغارة الثانية، فقد رجوته أن يخترع أى طريقة حتى ندخلها!

خرج الراهب من المغارة وهو يمسح وجهه بكفيه ويجلس القرفصاء مرة أخرى حتى بادره بكر قائلاً:

ـ صحيح يا بونا عبد المسيح بتروح تاخد أكل من دير البراموس؟

وذعر الراهب.. وظهرت على وجهه أمارات الغيظ لأول مرة وهو يقول:

ـ ليس صحيحا.. ليس صحيحا.. من قال هذا؟

ـ الرهبان بتوع الدير!

ونهض الراهب وأمسك بيد السائق ودخل معه المغارة الثانية، وأسرعنا ندخل وراءه!

المغارة من الداخل مظلمة.. والضوء من الخارج يتسلل داخلها بصعوبة.. وعلى الضوء الخافت استطعت أن أتبين معالمها.. السقف منخفض وعلى الجدران صلبان مرسومة وكلام غير مفهوم، والراهب يكشف غطاء بعض القدور.. واحدة بها ماء، والأخرى بها عجوة، وثالثة بها خبز متعفن، ورابعة بها طعام من شعير، وبجانب القدور حصيرة عليها بطانية خشنة وإنجيل ذو غلاف من الجلد.. ومجموعة من كتب المزامير.. ونحن نتنفس بصعوبة داخل المغارة الضيقة.. وصوت الراهب يتردد مؤكداً صدق روايته: ليس عندى طعام كما ترى كطعام الرهبان فى الدير..

قلت له: ومن أين يأتيك الطعام إذن؟

ولم يرد على سؤالى.. وتقدمنا إلى الخارج، ثم سار بنا فى الجبل حتى وصلنا إلى مغارة أوسع بها مقاطف وحبال صنعها الراهب بيديه من الخوص والليف.. حتى نتأكد من صدقه وأنه يأكل من كده ومن عرق جبينه!

صافحنا الراهب بعد أن تمنينا له إقامة سعيدة وعمراً مديداً وعبادة بتولة، وركبنا السيارة، وأغلقنا خلفنا الأبواب.. بينما انحنى بقامته بنفس التواضع حتى بدأت

السيارة تتحرك . . ونظرنا خلفنا . . فوجدناه على الصورة التى شاهدناه بها عند حضورنا . . يداه ممدودتان فى الهواء بحذاء كتفيه على شكل صليب . . يتحرك كالرادار فى اتجاه السيارة . . وكأنه يحتضن العالم كله . . معلنًا حبه للناس جميعًا وتذكرنا أننا جائعون وبدأنا نلتهم ما لدينا من السندويتشات فى نهم!

* * *

فى دير البراموس

وصلنا إلى دير البراموس الذى فر منه الراهب والشمس تتوارى الهوينى خلف كثبان الرمال الممتدة، بينما أجسامنا تنتفض من شدة البرد. ونحن وقوف أمام باب الدير . .

الباب سميك تلفه شرائط من الحديد . . يعلو السور بارتفاع ٣٠ مترًا ويرتفع منه على الجانبين برجان شاهقان لرؤية القادمين والدفاع عن الدير ضد الغزاة و . . هكذا حاله منذ قرون . . وأمام الباب زير يشرب منه المارة فى الصحراء، وصحن كبير من البازلت به كسرات من الخبز، ومن أحد الأبراج يتدلى حبل طويل ينتهى من أعلى بجرس كبير . . جذب السائق الحبل فترددت دقات رتيبة، سمعنا بعدها صوتًا يأتى من فوق كأنه يأتى من السماء: من بالباب؟! ورد عليه السائق: افتح يا بونا . . ضيوف . .

مرت خمس دقائق فتح بعدها الباب وخرج منه الراهب «الفاتولى» المكلف بحراسة الباب وبعد أن صافحنا دعانا للدخول، ثم استدار الراهب وقفل الباب بقوة . . ووضع عصا مدببة بها بروز فى المزلاج ليحكم إغلاقه!

المنظر من الداخل . . فناء واسع تحيطه من كل جانب مجموعة من «القلايات» وهى حجرات معيشة الرهبان . . بينما الأضواء الخافتة تتراقص من نوافذها . . وسمعنا همهمة الرهبان وهم يتناولون العشاء!

تقدمنا الراهب وكان شابًا إلى غرفة الاستقبال المضاءة بالكهرباء . . وجلسنا على المقاعد الوثيرة فى استرخاء . . طرقات على الباب ثم دخل راهب نحيف طويل القامة عرفنا بنفسه . . الأب شنودة «ربيتة الدير» . . وتعنى رب البيت!

الأب شنودة شاب فى ثلاثينيات العمر، يرتدى جلبابًا من الصوف الأسود عليه بالطو أنيق وفى قدميه «بلغة» صفراء.. لحيته سوداء منسقة وشاربه أنيق، يلبس نظارة «برسول» خفيفة السواد، ومن فمه يتدلى بايب مشتعل بالدخان!

نظر الراهب إلى السائق ثم بادره قائلاً فى حدة:

ـ بقى يا سى بكر رايح تخبص علىَّ عند حمدى أباظة وتقول له إنى بأتفق مع السواقين بتوع مشروع وادى النطرون عشان أصطاد الغزلان.. إنت عارف يا بكر إنى أقدر أنفخك وأطيرك من قدامى.. إنت مش قدى يا بكر!

وبدأت مناقشة لم نكن نتوقعها بين ربيتة الدير والسائق.. الراهب يؤكد أنه وشى به.. والسائق ينفى..

وعرفنا القصة فيما بعد..

لقد تعود الأب شنودة أن يخرج فى رحلات بالصحراء لصيد الغزال الذى يتوالد بالوادى.. ولأنه لا يملك سيارة للقيام بالصيد، من ثم، كان يتفق مع السائقين بمشروع وادى النطرون على أن يصطحبوه بسياراتهم فى رحلاته.. وفى إحدى المرات شاهدهم بكر سائق سيارتنا.. فأبلغ مدير المشروع المهندس حمدى أباظة الذى أجرى معهم تحقيقًا ذكر فيه اسم الراهب..

وتدخلنا فى المناقشة.. وهدأنا الجو بعد أن اعتذر السائق، ومن جانبه بادر رجائى وقدمنا إلى رئيس الدير حتى لا يتمادى فى تهديده ووعيده، وعلى ما يبدو أنه عندما عرف أننا صحفيون لذلك تراجع وقال للسائق: اوعى يا بكر تكون زعلت.. أنا قصدى أضحك معاك بس، إنت ابننا يا بكر..

فلما حكينا له قصة لقائنا وحديثنا مع الراهب الحبشى.. ثم طلبت منه تفسيراً لهروبه من دير البراموس.. قال إنه حديث عهد بالدير وإنه قدم إلى هنا منذ سبع سنوات فقط.. ولم يكن معاصراً بالتالى لأيام الأب عبد المسيح بالدير..

ـ ألم تسمع شيئًا عن سبب هروبه؟

ـ سمعت أنه كان يريد أن يقسو على نفسه أكثر من القسوة التى يعيشها الرهبان

داخل الدير . . أراد أن يتوحد فى الصحراء على طريقة الرهبان الأوائل فخاف عليه زملاؤه فى الدير أن يصيبه مكروه فحجزوه ليبقى معهم، لكنه انتهز انشغالهم وتسلق الأسوار وهرب . .

ـ هل يحضر الأب عبد المسيح إلى الدير؟

ـ نعم . . يحضر من حين لآخر ليأخذ الماء والطعام!

. . . .

ـ ماذا يأكل الرهبان؟

ـ كل شيء . . الخبز واللحم والخضروات والفاكهة . .

ـ هل يتقاضون مرتبات؟

ـ نعم ١٧٥ قرشًا فى الشهر لشراء ما يحتاجونه خارج التعيين الذى يصرف لهم .

ـ كم يكلفك دخان البايب؟

ـ مش كثير .

ـ هل يسمح للراهب بزيارة أهله؟

ـ إذا رغب فى ذلك . . على ألا يبقى معهم كثيرًا حتى لا ينشغل قلبه بالدنيا . .

ـ ما هى مخصصات الدير؟

ـ ٢٠٠ فدان . .

ـ كم يبلغ عدد رهبان الدير؟

ـ ٣٠ راهبا .

ـ هل تسمعون الراديو؟

ـ فى الأعياد فقط لسماع القداس .

ودخل راهب آخر . . جلس يستمع لحديثنا . . عرفنا أنه طالب فى الكلية الإكليريكية بالإضافة إلى عمله كراهب فى الدير . .

قلت له :

ـ هل كانت الرهبنة معروفة أيام السيد المسيح؟

قال :

ـ السيد المسيح أشار إليها بقوله «ليس الجميع يقبلون هذا الكلام» والقديس يوحنا المعمدان قال «يوجد خصيان خصوا أنفسهم من أجل ملكوت الله» والقديس بولس قال «أريد الجميع مثلى بلا هم، ومن لا يطيق الفردية فليتزوج، ومن يتزوج يفعل حسنًا. . ومن لا يتزوج يفعل أحسن» وفى ذلك إيحاء بمذهب الرهبنة. .

ثم عدت أسأل ربيتة الدير الأب شنودة إن كان هروب الأب عبد المسيح من الدير حالة نادرة؟

وقال : لا بالطبع.

عدت أسأله : هل تذكر واقعة بعينها؟

قال :

ـ نعم أذكر واقعة هروب الأب بولس أرسانيوس الذى فر من الدير فماتت روحه وأغراه الشيطان بالحياة الدنيوية وكفر بالحياة الآخرة التى ارتضاها مختاراً زاهدًا. . وأذكر أنه بعد سنوات عاد فى سيارته ومعه زوجته لزيارة الدير ولم نعرف شخصيته إلا ونحن نودعه.

على أنه فى طريق العودة كان المجال متسعًا أمام بكر للحديث عن ربيتة الدير فى غيبته، وعندما سألناه عن سر تهديد الأب شنودة له بسوء العاقبة، قال لأننى كنت شاهدًا على هوايته فى صيد الغزلان رغم استياء زملائه الرهبان الذين سمعتهم يصفون هوايته بأنها من الأعمال الدنيوية المكروهة التى تبطل الرهبنة، وقال إن هذا الراهب يملك بندقية صيد بل ولديه سيارة «جيب» كان يستخدمها فى ممارسته للصيد، وعندما علمت أسرته بذلك أخفاها منذ فترة بعيدة فى إحدى المغارات المجاورة للدير كونها تشينه وتشين أسرته، بل وأبدى بكر استعداده

ليصحبنا إلى المغارة حتى نتحقق من ذلك . . لكن الليل وبرد الصحراء القارس وإلحاح صلاح عبد الصبور على الرحيل حال دون أن نتحقق من ذلك!

وبينما كنا نودع وادى النساك أو وادى الرهبنة . . سألنا صلاح عبد الصبور عن السر وراء صمته وعزوفه عن الحديث منذ بدأت الرحلة، وقال: ألحت على خاطرى عبارة السيد المسيح عليه السلام عن مشقة الرهبنة «ليس الجميع يقبلون هذا الكلام»!

شرارة غرام السندريلا بالعندليب

في عام ١٩٩١ نشرت مجلة «الناقد» العربية التي تصدر في لندن حواراً مع الشاعر السوري الكبير محمد الماغوط، نسبت إليه قوله إنه لم ير في مصر من المبدعين سوى سعاد حسني، الأمر الذي هاج له الوسط الثقافي في مصر وماج، حيث انبرى البعض يهاجمون الماغوط كما لو أنه كفر بالله أو شكك في صحيح البخاري، وشهر الصديق الروائي الكبير جمال الغيطاني قلمه كمبضع الجراح وراح يشرح ما رآه ظاهرة ثقافية مرضية، وكتب يقول: «حساسية بعض المثقفين العرب تجاه الثقافة المصرية ليست أمراً مفاجئاً أو جديداً، بعضهم كان يعبر خفية، آخرون تعلو أصواتهم بين الحين والحين بهجوم أقرب إلى السباب يتجاوز أحياناً الحب والدوافع المتعددة، بدءاً من الكراهية إلى النظرة القطرية الضيقة إلى البحث عن الشهرة، فما إن يعلن شاعر ما أنه جاء إلى مصر ولم يجد فيها ثقافة، إلا وسرعان ما ترد عليه الأقلام المصرية غاضبة ويتردد اسمه، محققاً بذلك نوعاً من الشهرة الوهمية، وربما ينتمي إلى هذا النوع تصريحات الشاعر السوري لمجلة «الناقد» حيث قال إنه جاء إلى مصر ولم يجد فيها ثقافة وإنما وجد سعاد حسني»!

ومرت شهور حتى حل الماغوط ضيفاً على مصر لحضور الاحتفال الذي أقيم في دار الأوبرا بمناسبة تسليم جوائز «البابطين» للشعر، فإذا به يلاحظ صدوداً على غير عادة المثقفين المصريين بضيوفهم، فما بال الأمر بمبدع عربي وعملاق مثله، حتى أدرك أن المقولة الكاذبة التي نسبت إليه قد انطلت عليهم على الرغم من أنه كذبها في حينها، ومن ثم وقف بشجاعة وواجه الجميع بالحقيقة قائلاً: «أنا مظلوم

أيها الأصدقاء، لأن هذا الكلام لا يمكن أن يصدر بداهة عنى، وإنما عن جاهل أو جاحد أو مجنون. . وأنا لا أنتمى إلى أى منهم، ولسبب بسيط يستحيل إنكاره، وهو أنه لا قبل لأحد أن ينكر فضل الشموس المصرية التى أضاءت للعقل العربى طريقه إلى الثقافة والمعرفة والإبداع من أمثال أحمد شوقى وطه حسين والعقاد ونجيب محفوظ وزكى نجيب محمود»!

وهكذا أزال الماغوط اللبس والتحريف الذى شاب حديثه، فكان طريقه سالكًا إلى قلوب المثقفين المصريين وعشاق شعره، حيث انفتحت له بيوتهم ومنتدياتهم بالحب والمودة والحفاوة والتكريم و. . صافى يا لبن. . صافى يا حليب!

يومها سألت الماغوط: ترى لماذا دس المحرر الذى أجرى معك الحوار اسم سعاد حسنى بالتحديد؟ وقال إن اسم سعاد حسنى جاء من حيث الصياغة والمضمون فى غير موضعه، وحقيقة الأمر أننى شديد الإعجاب بفن سعاد حسنى وتلقائيتها السهلة الممتنعة فى الأداء، ولذلك قلت إنها قمة مصرية مبدعة، لكننى لم أقل إنها القمة أو المبدعة الوحيدة، وكان يحدونى فى هذا الوصف مجرد التعبير الحميم عن العواطف الجياشة التى يكنها جمهور السينما المصرية فى الوطن العربى لسعاد حسنى وهى تعانى آلام المرض ومرارات العزلة لمجرد أن فيلمًا واحدًا لها لم يحقق النجاح الذى لازم كل أفلامها السابقة. . فهل ترانى أخطأت؟!

تذكرت هذه الواقعة وطفرت الدموع من عينى بعدما قرأت خبر لقاء الكاتب الصحفى عزت السعدنى مصادفة بسعاد حسنى فى لندن وقد تأهبت للعودة إلى مصر؛ لأنه لم يعد لديها ما يكفيها من المال لاستكمال علاجها من آلام العمود الفقرى، ثم حمدت الله لمبادرة الدكتور كمال الجنزورى رئيس الوزراء لعلاجها على نفقة الدولة آنذاك.

والشاهد أن معرفتى بالفنانة سعاد حسنى بدأت مع خطوتها الأولى نحو العمل فى السينما أواخر الخمسينيات، عبر كاتبنا الشاعر الفنان عبد الرحمن الخميسى الذى كنت ألازمه عهدئذ كظله، وكان قد صحبه إليها الفنان الكوميدى الراحل إبراهيم سعفان الذى كانت تربطه صداقة بزوج أمها، ومن النظرة الأولى أدرك «القديس» وهو لقب الخميسى، أن تلك الفتاة الباسمة المشغولة بترتيب أثاث البيت وغسيل الملابس على الحوض إنما ضالته المنشودة التى يبحث عنها!

كان القديس قد وقع فى مشكلة وهو يتحشد إلى تجسيد قصته «حسن ونعيمة» فى فيلم سينمائى، حين اعتذرت فاتن حمامة وعبد الحليم حافظ عن بطولة الفيلم، وطلبا قراءة السيناريو والحوار أولاً، الأمر الذى اعتبره إهانة لا تغتفر وهو صاحب إبداعات متميزة نثرًا وشعرًا، وهو الذى صنع العشرات من مشاهير الفن والأدب والصحافة، وتلك كانت مشكلته كذلك عبر واقعة مشابهة مع عادل إمام حكاها لى حول مقتبل حياته الفنية، حين خير «القديس» بين أن يدفع ما يستحقه عن دوره من المال دون مساومة أو يقدم إليه أولاً «ورقًا» مقبولاً . . أى السيناريو الذى يروقه والدور الذى يتناسب مع إمكانياته!

مغامرة جسورة

على أى حال فاجأنا القديس بمغامرته الجسور عندما قرر إسناد بطولة الفيلم إلى سعاد حسنى ومحرم فؤاد، وأشهد أن سعاد حسنى كانت عند حسن ظنه، حيث اكتشف فيها خامة، مذهلة وطيعة فاقت كل توقعاته منذ اليوم الأول الذى وقفت فيه أمام الكاميرا، إذ كانت تحفظ دورها جيدًا بمجرد تلقينها حوار المشاهد، وقلما كانت تضطر إلى إعادة التصوير إلا وتبدع فى أدائها أكثر؛ على الرغم من أنها لم تكن قد استكملت بعد دروس اللغة العربية والإلقاء على يد الفنان إبراهيم سعفان!

لم تكن موهبة سعاد حسنى الطاغية مفاجأة للقديس فحسب، وإنما ـ لمخرج الفيلم هنرى بركات وللجمهور والوسط الفنى والنقاد أيضًا منذ اليوم الأول لعرض فيلم حسن ونعيمة، وعندئذ أطلق عليها شاعرنا الكبير الراحل كامل الشناوى لقب «القنبلة الفنية الموقوتة»، وبعدها شقت طريقها سريعًا وباقتدار إلى القمة عبر عشرات الأفلام المتلاحقة التى حققت لها رواجًا وشهرة غير مسبوقة، وإلى حد تعاقد المنتج طاكفور على احتكارها، لكنها على الرغم من بريق شهرتها وجاذبيتها وحضورها الغامر، ظلت سعاد حسنى كما هى لم تتغير، تجسيدًا لفتاة الطبقة المتوسطة فى بساطتها وعفويتها وشقاوتها وفى تحقيقها لذاتها، وإلى حد كان يثير عجبى وتساؤلاتى عن غياب إدراكها لما أحرزته من مكانة مرموقة وكأنها لم تفعل شيئًا يستحق كل هذا الحب والتقدير الذى يكنه لها الجمهور والنقاد حتى حازت على لقب سندريلا الشاشة المصرية!

على أنه لم تمض سوى سنوات من مشوارها الفنى حتى نكبت سعاد حسنى بوفاة شقيقتها الصغرى صباح فى حادث سيارة، وكانت رقيقة وفائقة الجمال، وكانت فتاة عذبة وكل شيء فى حياة سعاد حسنى. . وتلك كانت أول صدمة تخلف فى قلبها ومشاعرها أخاديد من الخوف على ضياع ما تعتز به.

على أن سعاد حسنى بلغت مرحلة نضوجها الثقافى والفنى والنفسى، بعدما توثقت صداقتها مع شاعرنا الفنان الراحل صلاح جاهين، فهو الذى نذر موهبته الرائعة فى التأليف لتتكامل مع موهبتها العملاقة فى التمثيل، وكانت بواكير إبداعهما المشترك فيلم «خلى بالك من زوزو» أمام حسين فهمى، والمسلسل التليفزيونى الشهير «هو وهى» أمام أحمد زكى، ولكن تشاء الأقدار أن يرحل صلاح جاهين ويتركها نهبًا للأحزان والإحباط والأمراض النفسية التى جلبت لها تباعًا أمراضها العضوية، حتى استسلمت للعزلة والقعود والاكتئاب لمجرد سقوط فيلم لها بين عشرات الأفلام الناجحة. . بل والخالدة و. . القصة بعد ذلك باتت معروفة للجميع بكل تفاصيلها المأساوية!

من الأقوال المأثورة لأستاذنا الظريف كامل الشناوى «عبد الحليم حافظ يكذب أحيانًا عندما يتكلم ويصدق دائمًا عندما يغنى»، وإذا كان الشعر الصادق صوت صاحبه، فقد كان غناء عبد الحليم دومًا تعبيرًا عن تقلبات أحواله العاطفية والوجدانية، ما بين الوصال الجميل والغزل الصريح، والهجر والخصام والأشواق الملتهبة، ولعله من هنا كان تباين أدائه فى الحفلات الغنائية من حيث درجة التألق والانتشاء ورغبته فى الإعادة أو الارتجال، وعلى عهدى به إنه كان يبلغ ذروة العطاء والفرح حين يدرك أن محبوبته سعاد حسنى تطالعه بوجهها الصبوح وسط جمهور المستمعين.

عبد الحليم يغنى

أذكر شتاء عام ١٩٦١ أن الفنانة سعاد حسنى دعتنى وبعض الزملاء المقربين فى مجلة روز اليوسف إلى شقتها بالزمالك بمناسبة حفل عيد ميلادها، وكان من بين المدعوين عبد الحليم حافظ وشقيقتها المطربة نجاة وإحسان عبد القدوس وعبد الرحمن الخميسى والشاعر صلاح عبد الصبور والموسيقار بليغ حمدى،

ثم اكتمل العقد الفريد للسهرة بوصول كامل الشناوى مصطحبًا معه سليم اللوزى رئيس تحرير مجلة الحوادث اللبنانية وسعيد فريحة رئيس تحرير صحيفة الأنوار، ومضى الوقت بهيجًا بين الطعام والشراب والشعر والدعابة وأمنيات السعادة لسعاد حسنى، حتى طلبت من عبد الحليم وليس من نجاة أن يغنى، ودون أن يدرى تعلقت عيناه وجدًا بسعاد، بل إنه كان يشيح بوجهه عنها عامدًا، لكن سرعان ما ترتد عيناه إليها، وعندئذ كان من الصعب استبعاد بيت الشعر القائل «الصب تفضحه عيونه»، وإنما كانت حيرتنا لأن سعاد ظلت كعادتها لا تؤثر ببشاشتها أحدًا، فلم نعرف إن كان الإرسال العاطفى من جانب عبد الحليم قد صادف استقبالها آنذاك لشرارات الحب من جانبه!

العدو من الزمالك حتى ميدان التحرير

كان عبد الحليم قد غنى خمس أغنيات من دون أن تصاحبه فرقة موسيقية أو حتى عازف على العود، ولأنه ظل يستجيب لسعاد كلما طلبت إعادة بعض «الكوبليهات»، من هنا كان لا مفر من نهاية الحفل فى الثالثة صباحًا، حين وقف كامل الشناوى يستأذن فى الانصراف؛ لأن سليم اللوزى وسعيد فريحة على موعد مع الطائرة التى تغادر القاهرة فى الساعة الخامسة صباحًا إلى بيروت، وفى أعقابهم انصرف بقية الضيوف تباعًا، وإذا بسعاد حسنى تستبقى مجموعة أصدقاء روز اليوسف همسًا، وبعد حين طلبت أن نصاحبها لإكمال السهرة فى كافيتريا الهيلتون، وخرجنا من العمارة التى تسكنها بالزمالك إلى الشارع نبحث عن تاكسى أو أكثر، إذ كنا ستة أشخاص. . سعاد وعدلى فهيم ومحمود ذهنى وجمال حمدى وزوجته نرمين القويسنى وأنا، وفجأة صاحت سعاد: «ولا تاكسى ولا دياولو. . ورايا جرى على الهيلتون»، ودون أن تنتظر منا جوابًا. . خلعت حذاءها وأمسكته فى يدها. . وهات يا جرى، فلم نجد سوى الاستسلام للأمر الواقع و. . وركضنا خلفها نلهث من الزمالك حتى ميدان التحرير.

فى كافيتريا الهيلتون جلسنا حول سعاد فى دهشة، طلبت لنفسها ولنا طواجن الفول المدمس والعجة وزبادى ومخللات وخبزا ساخنا وقالت ياالله يا حبايبى

ناكل مع بعض عيش وملح، فلما انتهينا من الإفطار عادت تقول: فيكم من يكتم السر؟

وتسابقنا فى التأكيد على أن سرها فى بير! ثم عادت تقول: أنا فرحانة يا جماعة قوى.. اللهم اجعله خيرًا! وانتظرنا بوحها بالسر أو حتى تفسير أسباب فرحتها قوى.. لكن على ما يبدو أنها وجدت نفسها الأولى بكتمانه فى بئرها وليس فى بئرنا ولذلك تراجعت عن الإفضاء به!

على أن دهشتنا لم تتوقف عند هذا الحد، إذ عادت تخلع حذاءها مرة ثانية أمام الهيلتون إيذانًا بالعودة إلى الزمالك عدوا، وهنا منعها عدلى فهيم فى لطف وقال: الشمس طلعت والناس رايحة لشغلها.. حايقولوا إيه لما يشوفوا سعاد حسنى حافية وبتجرى وإحنا وراها.. يمكن يفتكرونا حرامية ولا عاوزين نخطف شنطتك، وفى حزم شدها من يدها إلى تاكسى وركب معها إلى الزمالك، ثم مضى زهاء عشرين عامًا حتى كتب عدلى فهيم القصة بتفاصيلها فى روز اليوسف.. وعندئذ فقط عرفنا ما لم نعرفه فى حينه.. وكيف بكت سعاد حسنى فى التاكسى.. وبوحها له فى شقتها بحبها لعبد الحليم وأن شرارة التواصل العاطفى بينهما اندلعت خلال غنائه لها.. إذ كانت تثق بعدلى وتطمئن له، فقد كان أكبر منا سنًا وأكثر نضجًا!

أذكر أننا فى روز اليوسف كنا نتابع عن كثب من غرفة نرمين القويسنى مديرة مكتب إحسان عبد القدوس ـ زيارات سعاد حسنى لرئيس التحرير، تعقبها زيارة عبد الحليم حافظ، وكنا نظن فى البداية إنها مجرد زيارات صحفية كعادة معظم الفنانين عهدئذ، إما للسلام والتحية أو لاستشارة إحسان فى اختيار أعمالهم الفنية وربما الإدلاء له بخبر، خصوصًا أن باب خواطر فنية الذى يكتبه إحسان عبد القدوس، كان يعج بالاستشارات والأخبار والملاحظات الفنية!

لكن ظننا سرعان ما تحول إلى حقيقة، خصوصًا أن زيارات عبد الحليم وسعاد حسنى تكررت بعد ذلك سواء منفردين أو مجتمعين بإحسان عبد القدوس، وأدركنا بفضولنا الصحفى أنه يلعب دورًا توفيقيًا حتى يستمر الحب متأججًا بينهما، وهكذا نجح فى إقناع الطرفين بقبول عرض للمشاركة فى بعثة إذاعة صوت العرب الفنية لإحياء عدة حفلات غنائية فى المغرب والجزائر، وخلالها سوف تتاح لهما الفرصة

لاختبار مدى حاجة كل منهما للآخر، وهل تستطيع سعاد أن تضحى بالمجد والشهرة كشرط عبد الحليم للزواج بها، أم يقتنع عبد الحليم باستمرار مشوارها الفنى الذى كان يطاوله مجداً وشهرة.

من المغرب إلى باريس

فى المغرب العربى حققت بعثة صوت العرب برئاسة أمين بسيونى ووجدى الحكيم نجاحًا منقطع النظير، إذ كانت تضم إلى جانب عبد الحليم عدداً من ألمع نجوم الطرب والفكاهة أذكر منهم محمد عبد المطلب وشكوكو، وفى الجزائر ـ على سبيل المثال ـ خرجت الجماهير فى منتصف الليل إلى قصر الجمهورية تطالب الرئيس أحمد بن بيلا ببذل جهوده حتى يوافق عبد الحليم على الغناء لها على الرغم من أنه كان قد هجع إلى مضجعه متعبًا بعد تقديم وصلته الغنائية على المسرح، فكان لها ما أرادت، لكن الأمر لم يخل من غرابة. إذ كانت الهتافات لعبد الحليم مقرونة باسم سعاد حسنى، لكأن الجمهور الجزائرى خطب كل منهما إلى الآخر، أو تمنى عليهما ذلك.

الدكتور ياسين عبد الغفار

على أى حال قبل الاثنين بهذا الخيار الجماهيرى الذى صادف أهله بالقبول والرضا، وبينما عادت بعثة صوت العرب إلى القاهرة، استقل عبد الحليم وسعاد الطائرة فى طريقهما إلى باريس لانتقاء ملابس الزواج ومفروشات عش الهناء والتبات والنبات، وفى باريس التى طافا بمسارحها وملاهيها ومطاعمها كانت الدنيا لا تكاد تسعهما من الفرح والمسرات والأمل المنشود و. . وفجأة داهمت آلام المرض عبد الحليم ومن ثم قفل وسعاد راجعين إلى القاهرة.

وفى عيادة الدكتور ياسين عبد الغفار أستاذ أمراض الكبد واجه عبد الحليم بالحقيقة المؤلمة. . وأنه سوف يجنى على نفسه وعلى سعاد إذا أصر على الوفاء لها بعهد الزواج، وعندما كاشفها بالحقيقة كانت الصدمة الكبرى التى لم تستفق بعدها قط، وإن ظل التواصل بينهما ممدوداً فى العلن أحيانًا وفى الخفاء دائمًا!

أذكر أن عبد الحليم كان شديد الغضب والانزعاج، عندما وجد قصة حبه وزواجه الوشيك بسعاد حسنى قد سبقت وصوله من باريس إلى القاهرة، وأصبحت حديث الصحافة ونميمة أصدقائه، واتهم كامل الشناوى ومفيد فوزى وآمال فهمى بإشاعة الخبر، لكنى نفيت له ذلك وواجهته بما حدث منه فى احتفال سعاد حسنى بعيد ميلادها، وبزياراتهما تباعًا لإحسان عبد القدوس فى روز اليوسف حتى استسلم للحقيقة وهدأت خواطره خصوصًا وكان قد أقلع بعقله وليس بعاطفته عن فكرة الزواج من أصله!

البحث عن أوهام الحب

وعلى ما يبدو أن عبد الحليم طاش صوابه العاطفى، عندما أخفق المرض زواجه الوشيك بسعاد حسنى، فراح يبحث عن الحب أو أوهام الحب فى غيرها وهكذا أيضًا كان حال سعاد حسنى، ولعلى أذيع خبرًا لأول مرة، عندما أفضى لى عبد الحليم فى ساعة صفاء بقصة حب مستحيلة جمعته وإحدى معجباته أشبه بقصص الأفلام المصرية، إذ كانت تتصل به دومًا عبر التليفون دون أن يراها، ولا قبلت أبدًا بأن يراها، وكل ما يعرفه عنها كونها طالبة فى قسم الاجتماع بكلية الآداب جامعة القاهرة، وأن لصوتها جرسًا جميلاً كان دائمًا يشبهه بتلامس قطع الكريستال الثمين، وهى كانت تعرف عنه كل شىء، وتتابع حركاته وسكناته، وتحفظ أغانيه وترددها بصوتها الجميل على مسامعه، وكثيرًا ما تنتقد بعض كلمات أو تعبيرات فى أغنياته أو تبدى ملاحظات على ألحانها، وأنه جن جنونه بها، فكانت تعليماته لأهل بيته إيقاظه من أحلى نومه إذا طلبت أن تحدثه عبر التليفون، وقال إنها حادة الذكاء وخفيفة الظل وواسعة الثقافة، وكثيرًا ما كان يستشيرها فى أخص خصوصياته . .

وتشاء مصادفات الحياة أن أتعرف إلى هذه الفتاة بعد ذلك بسنوات وكانت قد تخرجت فى الجامعة وشغلت وظيفة بوزارة الشئون الاجتماعية وتلك قصة أخرى لا داعى لذكرها، المهم أنها أفضت لى بطرف من علاقاتها الهاتفية العجيبة مع عبد الحليم، وأنه يصف صوتها بجرس الكريستال حتى تأكدت من صدقها

وأنها لا سواها معجبة التليفون المجهولة العنوان، وكانت سمراء جميلة نحيلة العود وأشبه بملامح الممثلة أودرى هيبورن، وقد قصت شعرها «ألا جارسون»، وكما وصفها بدقة كانت ذكية وخفيفة الظل ومثقفة، وعندما سألتها لماذا ترفض لقاءه؟ قالت فى كبرياء: إنها تكره الاقتراب من المشاهير وترفض الاستسلام لغرورهم، ثم إنها أحبت صوت عبد الحليم فحسب وكأنها ملهمته التى يغنى لها وحدها وهذا يسعدها جدًا وكفى، لكنها لم تكن على استعداد لأن يحبها أو تحبه، فتلك تجربة أشبه بالرهان، وهى غير مستعدة لأن تخسر شيئًا، وعندما واجهتها بمعرفتى بالقصة أبدت دهشتها الشديدة لكنها لم تبد انزعاجًا ولا تبرمًا، ثم طلبت فقط ألا أخبره بلقائى وحديثى إليها حتى تظل طيفًا جميلاً فى خياله، ولم أعدها بشىء وقلت له كل شىء، لكنى أبيت ـ على الرغم من إلحاحه الشديد ـ أن أبوح باسمها أو عنوانها، ثم حدث بينهما اللقاء عبر أسلاك التليفون، وصارحته لأول مرة بأنها غارقة فى الحب وعلى وشك الزواج بفتى أحلامها، وظلت هكذا على موقفها حتى قبيل رحلة علاجه الأخيرة المضنية فى لندن، وعندئذ فقط لم يطاوعها قلبها وقامت بزيارته وجلست إليه ساعات، وسعد بها أيما سعادة وقبلت بعلاقة الصداقة معه بعد عودته.. لكنه خدعها ورحل، لكأن القدر كان يخفى مفاجأته حتى تتحقق فى موعدها، حيث رحل عبد الحليم عن دنيانا بعد رحلة العلاج المضنية فى عاصمة الضباب قبل أن تلحق به سعاد بعد سنوات فى لندن!

والشاهد أن عبد الحليم حافظ كان بنسبة ٩٠٪ المستهدف بالحب من الفتيات والنساء، وغالبًا ما كان يهرب منهن بشتى الحيل والأساليب، ولعل انتحار أو محاولة انتحار بعضهن حزنًا على رحيله ما يؤكد هذه الحقيقة الدامية، إذ كن دائمًا يشعرن كأنه فتى أحلامهن، وكنا نلتقى أغلب أمسيات الأسبوع أوائل الستينيات إما فى شقته بعمارة السعوديين بالعجوزة أو فى كافيتريا «داى أند نيت» بفندق سميراميس القديم، أو فى صحبة كامل الشناوى أينما ذهب كعادته للسهر والمؤانسة، وذات مساء كنا فى شقته، حين توجهت إلى المطبخ أطلب إعداد كوب من الشاى، حين رأيت فنانة جميلة وزوجة لملحن معروف، وقد انسلت من الصالون تقتفى أثر عبد الحليم فى الردهة التى تفضى إلى غرفة نومه، وإذا بها تتعلق به وتحتضنه وتنهال عليه

بالقبلات، وقفلت راجعًا إلى الصالون مذعوراً وكأننى لم أر شيئًا، وعاد عبد الحليم ينظر إلىَّ وأنا أحاول تجنب نظراته، وبعد أيام التقينا وحدنا وسألنى قائلاً: شفتنى؟ وقلت فى استعباط: طبعًا. . ما أنت واقف قدامى أهوه!، وعاد يسألنى: شفتنى طبعًا ما تكدبش. . بس أنا والله العظيم مظلوم، وقلت له حتى أريحه من وطأة إحساسه بالذنب: نعم شفتك. . وأشهد أنك كنت الضحية!

ذات مساء آخر كنا وحدنا فى كافيتريا «داى أند نيت»» قبل اكتمال السهرة، ومن بعيد رأينا فتاة جميلة المحيا والقوام، عيونها واسعة كعيون البقر، تنسدل على وجهها خصلات من الشعر الكستنائى الكثيف، وكانت تدخن وتشرب البيرة بشراهة، فلما لمحت عبد الحليم بدأت تلوح له بيدها وترسل إليه قبلاتها فى الهواء أمام الزبائن، وسألنى عنها وقلت إن اسمها ليلى وهى صديقة زميلنا عدلى فهيم وأظنها أديبة ناشئة أو فنانة نص نص، وسألنى عن عدلى فهيم وقلت له إنه مريض، وعندئذ قرر أن يهرب من ليلى ويتحاشى الفضيحة وقال: ياالله نزور عدلى ونهرب من المصيبة دى، وخرجنا من الكافيتريا وركبنا سيارته وكانت كابورليه حمراء طراز «ثندربيرد» ولا تسع غيرنا!

فلما هم بإدارة الموتور فوجئنا بليلى تقفز إلى السيارة وتجلس وسطنا، ولم يكن ثمة مفر سوى أن يتجنب الفضيحة وأن يسرع بأقصى سرعة فى طريقنا إلى منزل عدلى بشارع الهرم، وهناك حيث كان يسكن فى دور أرضى يفضى إلى الشارع، قال لليلى: خبطى على الباب. ولما يفتح ادخلى والباقى علينا!

واستقبلها عدلى هاشًا باشًا سعيدًا بزيارتها المفاجئة وسؤالها عن صحته، ثم أغلق الباب خلفها، وبعد ربع ساعة دق عبد الحليم الباب دقًا عنيفًا، وجاءنا صوت عدلى من الداخل مذعوراً: مين؟ وصاح عبد الحليم فى حزم: بوليس الآداب!، ومضى الوقت طويلاً حتى فتح عدلى الباب وهو فى حالة يرثى لها، فلما رآنا قال: حرام عليكم أنا قلبى وقف وكدت أموت من الفضيحة، والأكثر طرافة أن ليلى كانت قد حبكت الدور واختبأت تحت سرير عدلى، بعدها قال عبد الحليم: أنا خارج مع يوسف قيمة نصف ساعة نجيب أكل وفاكهة لزوم السهرة، وهكذا أفلت من ليلى وهجومها العاطفى الصارخ!

القططيون العرب

كثيراً ما يخدعنا المظهر فلا يعنينا ـ بعد ذلك ـ سبر الأغوار بحثًا عن الحقيقة فى الجوهر والمخبر . . وصديقى الأثير محمد عبد العزيز المخرج المسرحى ـ يرحمه الله ـ كان واحداً من هؤلاء البشر الذين ظلمتهم ملامحهم الصارمة وربما افتقاره إلى أساليب العلاقات العامة . . فكان نصيبه من الدنيا قبض الريح والحسرة والألم النبيل .

وأنا شخصيًا لم أعرف نظيراً لمحمد عبد العزيز فى ضروب إخلاصه ورقته وعذوبته وإنكاره لذاته وتفانيه عندما يهب لنجدة صديق فى مشكلة أو محنة، وهذه الشفافية المفرطة كلما تحدث مع الأطفال وكيف يفهم لغتهم ويكتب لهم، بل وكنا ندهش لعطفه الجياش على القطط والكلاب المشردة . . يحنو عليها ويرعاها باهتمام بالغ كما لو أنها أولاده وبناته!

ربطنى بمحمد عبد العزيز صداقة عمرها ٤٠ عامًا . . وكنا نرتشف على عادتنا قهوة الصباح فى منزله أو منزلى المتجاورين بحى الروضة . . وخلالها نتبادل شحذ الهمم وشحنات الرجاء والأمل قبل أن نشرع فى مواجهة ملمات الحياة التى تنتظرنا فى نهارنا . . ثم نجتمع فى المساء غالبًا . . نحصد ثمار سعينا وكدنا ونقيم ما حققناه من إنجازات بسيطة ثم ننسى ما قد يصادفنا من معوقات ومآزق وعنت وسط صحبة الأصدقاء وحواراتهم ومسراتهم!

كان من بين أصدقاء جلسات المساء الموحية الكاتب الصحفى اللامع أحمد بهجت والدكتور ألبير باسيلى طبيب الأسنان ـ يرحمه الله ـ الذى كان لا يطيق الجد ولا ثقلاء الظل . . والمخرج السينمائى الراحل عبد القادر التلمسانى الذى أبدع

عشرات الأفلام التسجيلية التراثية والحضارية. . ومختار السويفى الباحث المنقب فى أضابير التاريخ عن كل ما هو مثير وغريب وطريف. . والدكتور بهى العيسوى عالم الجيولوجيا الشهير مكتشف العديد من المعادن والخامات وصاحب لقب فارس الصحراء وعصام موسى مأمور الضرائب الذى قرر فى لحظة جنون إشعال الحريق فى ملفات العملاء الفقراء احتجاجًا على المبالغة فى تقدير دخولهم وأرباحهم. . ثم زميلى صبرى موسى الصحفى والروائى والكاتب بمجلة صباح الخير. . والسيدة رجاء خليل الخبيرة بالبنك المركزى ودورها فى تقنين الأنشطة الاجتماعية للرفقة الجميلة حتى يظل التواصل بيننا مستمراً ومزدهراً!

اهتمام وولع محمد عبد العزيز بالقطط انعكس تدريجيًا بشكل تلقائى على أجواء جلسات الشلة وحواراتها، وكنا حين نلتقى فى منزله يستغرقه الحديث حول ملاحظاته على مسلك قطته «مبروكة». . وكانت من النوع البلدى الوديع على الرغم من أنها صورة مصغرة لشكل النمر ولون فروته. . ومن فرط عشقه لمبروكة وعنايته بها فى المأوى والمأكل والتدليل والمداعبة. . كانت زوجته تغار منها أحيانًا. . حتى وصل به الأمر إلى إطلاق العنان لسخطه واحتجاجه. . وقال «اللى يكره مبروكة عدو لى ولا مكان فى منزلى لأعدائها»!

كان يدعو مبروكة للجلوس معنا. . وكان يحملها بيديه ويضعها على حجورنا واحدًا تلو الآخر حتى يتم التعارف بيننا والألفة معها. . حتى أحبتنا وأحببناها فكانت تتمسح بنا وتحك رأسها فى سيقاننا ويستطيب لها اختيار أحدنا للجلوس إلى جانبه بالتناوب. . وعندئذ ندرك أن صاحب النصيب موعود بالخير أو أنه أتى أفعالاً سابقة على مجلسنا تشى بالخير والمروءة!

كان محمد عبد العزيز يحتفظ بكراسة «فلوسكاب» يسجل فيها سيرة حياة مبروكة يومًا بيوم. . وفوجئنا به يؤلف رواية طويلة عنها وجدت طريقها للنشر فى مجلة الإذاعة والتليفزيون عام ١٩٦٥ على مدى ثلاثة أشهر تحت عنوان «مبروكة قصة قطة» كانت مثار دهشة النقاد والأدباء وحفاوة القراء وخصوصًا الأطفال. .

فى هذه الرواية حكى كيف التقط مبروكة وهى لا تزال تحبو أوائل الخمسينيات من تحت سيارة واقفة فى الشارع وهى تتلوى من البرد والجوع. . ورعاها فى منزله وأحسن ضيافتها حتى شبت عن الطوق. . وبدأ يراقب تصرفاتها وحركاتها وهى

تستمع إلى الراديو . . والأغاني والموسيقى التى تطرب لها . . وأصوات الباعة الجائلين التى تتصاعد من شارع قلعة الروضة . . فتقفز إلى البلكونة لتشاهد أصحابها . . وهكذا من خلال تجربته مع مبروكة ومعايشتها أدرك الكثير من مفردات لغة القطط وعاداتها وشئونها وشجونها . .

مبروكة وعدوان يونيو ١٩٦٧

بعدها تصادف أن أحد أصدقائه ألح عليه فى اقتناء مبروكة عندما كان محمد عبد العزيز على وشك السفر للعمل فى الخارج، فلما تأكد أنه على غراره وأصدقائه ممن يحبون القطط والإخلاص فى رعايته وافق على مضض، حيث انتقل هذا الصديق للعمل فى بورسعيد ومعه مبروكة حتى وقع عدوان الخامس من يونيو ١٩٦٧ ثم عاد إلى القاهرة ليعيد مبروكة إلى صاحبها . . لكن محمد عبد العزيز كان حريصًا أن يسمع من صديقه ويسجل على لسانه كيف واجهت بورسعيد الحرب وانعكاساتها المرعبة على مبروكة . . وكيف عاشتها وسط قصف الطيران والانفجارات وأصوات المدافع والصواريخ . . ثم ويلات رحلة عودة صديقه وعائلته ومبروكة للقاهرة هربًا من أجواء الحرب بعد أن تقرر إخلاء المدينة من سكانها . . وكيف عالج محمد عبد العزيز أوجاع مبروكة النفسية حتى أعاد إليها الطمأنينة والهدوء . . وكيف أهلها بعد ذلك للخطوبة والزواج، حيث سمح لها بالخروج من باب منزله لأول مرة لاختيار فتى أحلامها بين ثلاثة من القطط الذكور التى تحلقت بها وخطبت ودها على سلالم العمارة التى يسكنها . . فكانت أول حالة وضع تمر بها مبروكة حيث أنجبت ذكرين وقطتين تحمل سمات الوالد الأسود المجهول الهوية والوالدة التى تشبه النمرة!

هكذا فى أسلوب رقيق مثير للدهشة والجاذبية . . حكى محمد عبد العزيز وقائع أمومة مبروكة . . ومراحل إقناعها وقبولها بتوزيع صغارها على أصدقائه . . و . . و . . حتى باتت حكايات أولاد وبنات مبروكة محور سؤال محمد عبد العزيز لنا، كما لو أنه ولى أمرهم، بل وأصبح نسل مبروكة الكريم شاغلاً من شواغل جلساتنا الأسبوعية المسائية . . واكتشفنا أن مبروكة بدأت تتمسح بنا أكثر من ذى قبل . . وفسر لنا محمد عبد العزيز الأمر بأنها تشم فى أجسامنا ريحة

أولادها وبناتها، ومن هنا تراكمت خبراتنا بتربية القطط وأساليب علاجها وطرق رعايتها، بل إن أحمد بهجت شرع يقتنى كتبًا تاريخية وحديثة عن القطط يعيد تلخيصها وقراءتها علينا. . وإلى حد أننا فكرنا من باب الطرافة أن نطلق على شلتنا وصف «القططيون العرب» على غرار المقاولون العرب أو حركة القوميين العرب بزعم افتتاح فروع للجمعية تضم إليها هواة تربية القطط فى البلاد العربية.

شوقى عبد الحكيم يقتل قطًا

يومًا حضر جلستنا الأسبوعية وكانت فى منزل محمد عبد العزيز ـ الكاتب الصحفى شوقى عبد الحكيم ـ يرحمه الله ـ وراح يقص علينا حكاية اكتشاف الفلاحين فى قريته بالفيوم مقبرة فرعونية، وأنهم يعرضون للبيع أقنعة وتماثيل صغيرة محنطة بأثمان زهيدة. . والذين يعرفون شوقى يدركون بوهيميته وسرحانه الدائم. . واهتماماته الأدبية بجمع الأساطير والفنون والآداب الشعبية، ولذلك لم نصدق الأمر فى البداية كون الإتجار فى الآثار يجرمه القانون، لكننا سمعنا بعد ذلك أنه اصطحب الناقد الكبير الدكتور لويس عوض إلى قريته حيث اشترى كمية من هذه الآثار وأودعها عزبته الريفية التى كان يزرع فى أرضها أنواع الأعناب ويصنع منها نبيذه الخاص!

كانت زوجة لويس عوض الفرنسية الجنسية أيضًا من هواة تربية القطط بالعشرات فى منزلهما بجاردن سيتى. . ولذلك فكر فى شراء المزرعة حتى يتوافر له الهدوء المطلوب للقراءة والكتابة.

خلال إحدى إجازات زوجته الصيفية مع أسرتها فى فرنسا قرر الدكتور لويس عوض التخلص من بعض هذا الكم الهائل من القطط، فكان يعبئ حقيبة كبيرة بما يتيسر من القطط ثم يحملها فى تاكسى إلى ساحة برج الجزيرة حيث يترك لها العنان كما لو أنه يحررها من الأسر أو السجن، وبعدها حكى لى الكاتب الصحفى كامل زهيرى أن زوجة لويس قطعت فجأة إجازتها. . ولم يكن قد تخلص بعد من معظم القطط. فما إن رأت القطط بواب العمارة وهو يدخل الشقة حاملاً حقائبها حتى أصابها الذعر وبدأت تقفز هنا وهناك خشية القبض عليها إيذانًا بترحيلها فى إحدى

هذه الحقائب، خصوصًا أن الحقيبة التى كان يستخدمها لويس فى تهريب القطط مشابهة فى الشكل والحجم لحقائب زوجته. . وعبثًا حاول لويس إقناعها بأن القطط هربت من البيت فى غيابه. . لكنها هددته بالفراق إن لم يعترف على المكان الذى هرب إليه القطط حتى اعترف. . وراحت تبحث عنها لمدة أسبوعين كاملين فى الجزيرة والزمالك حتى استسلمت لليأس والأحزان، لكنها قررت الانتقام حيث حملت معها قططها إلى عزبة لويس تقتحم عليه عزلته وهدوءه فما إن وقعت عيونها على الأقنعة والتماثيل والطيور الفرعونية المحنطة التى جلبها من الفيوم. . حتى أصابها الجنون وشرعت تموء بصوت مزعج وغير مسبوق وتزاحمت على باب الفيللا تحاول الفرار والهروب كما لو أصابتها لعنة فرعونية!

نفس ما حدث لقطط زوجة الدكتور لويس عوض تكرر عندما دخلت القطة مبروكة ذات مساء إلى صالون منزل محمد عبد العزيز. . مواء كالصراخ وقفزا إلى أعلى حتى كادت تطاول النجفة ثم قفزًا فوق رءوسنا كالصاروخ وخربشة فى السجادة والأثاث كما لو أنها تنبش فى التراب بحثًا عن شىء ما!

حاول محمد عبد العزيز أن يهدئ من روعها دون جدوى. . فلم يجد مفرًا من أن يفتح لها باب الصالون ويسمح لها بالخروج. . لكن لأن ما حدث لمبروكة كان غير طبيعى وغير مسبوق. . ولأن جميع الحاضرين يحبون مبروكة وتحبهم. بينما شوقى عبد الحكيم الوحيد الذى لم تتعرف إليه من قبل ولا يقتنى أيًا من أولادها وبناتها. . عندئذ وجه إليه محمد عبد العزيز سؤالاً مباشرًا: هل تحب القطط؟. . وأجاب شوقى بالنفى: ثم عاد يسأله عن ثمة واقعة يذكرها حول سبب كراهيته للقطط؟ وحاول شوقى أن يتذكر حتى روى أنه فى مقتبل شبابه حبس قطة فى مخزن الحبوب بمنزل الأسرة فى الفيوم لتأديبها على فعلتها الشنعاء حين تجاوزت حدودها وأكلت دجاجة محمرة كانت والدته قد أعدتها لطعام الأسرة ومن ثم راح يضربها بعصا كبيرة. . وكانت تفر من أمامه وتقفز هربًا هنا وهناك حتى تعبت واستسلمت لمصيرها المحتوم. . بعد أن كادت تنشب أظفارها فى عنقه حتى تمكن من قتلها!

عندئذ قال محمد عبد العزيز: لقد استشعرت مبروكة بحواسها أنك قاتل للقطط وهى قد عبرت بطريقتها عن احتجاجها على فعلتك وكراهيتها لك، ومن يومها

كان حرص محمد عبد العزيز على منع مبروكة من دخول الصالون كلما زاره شوقى عبد الحكيم؛ خشية أن تثأر من فعلته كما حاولت القطة المسكينة وفشلت!

استحكام العداء مع زكى طليمات

والحقيقة أن المخرج المسرحى محمد عبد العزيز ظل نموذجًا إنسانيًا فريدًا فى الإلحاح. تجسيدًا للمثل القائل «لا يضيع حق وراءه مطالب»، لكنه ضيع معظم سنوات عطائه فى انتزاع حقوقه المشروعة المتواضعة صابرًا مثابرًا لا تلين له قناة حتى ينتصر للحق وإنصاف نفسه أو أى من المظلومين، ويذكر زملاؤه أنه خاض معارك غير متكافئة عندما كان طالبًا فى معهد الفنون المسرحية فى مواجهة عميده الراحل زكى طليمات بدعوى محاباته لبعض زميلاته وزملائه متجاوزًا معايير الكفاءة والموهبة والتحصيل، مما اضطر العميد أن يعلن الحرب عليه خلال دراسته وبعد تخرجه فى المعهد؛ انتقامًا منه وثأرًا لسمعته، فلم يكن بوسع محمد عبد العزيز إلا أن يبادله السيئة بما هو أسوأ!

وبينما شق زملاؤه وزميلاته طريقهم سريعًا فى يسر إلى العمل والإبداع والشهرة تعثرت خطى محمد عبد العزيز كثيرًا فى عوالم التمثيل والإخراج المسرحى، وهكذا ظل قابعًا سنوات طويلة خلف الكواليس مشرفًا على تركيب المناظر والديكورات وضبط إيقاع دخول الممثلين إلى خشبة المسرح القومى.

الإلحاح وحده كان وسيلته إلى الولوج متأخرًا من وراء الكواليس إلى خشبة المسرح ممثلاً ومخرجًا مقتدرًا إثر سفره فى بعثة دراسية إلى فرنسا، وهكذا سافر إلى باريس وعاد منها وقد نال الدبلوم بدرجة جيد فى فن إدارة المسرح على الرغم من أنه لم يتعلم من اللغة الفرنسية سوى القليل المتواضع الذى ييسر له ركوب المترو وشراء الطعام والسجائر وما إلى ذلك من ضرورات الحياة فى باريس!

لم تتجاوز المسرحيات التى تولى إخراجها أكثر من عدد أصابع الكف الواحدة أو الكفين، حتى عطاؤه فى التمثيل كان يسيرًا على خشبة المسرح وفى الإذاعة والتليفزيون على الرغم من أنه ممثل «كاركتر» بارع، بل إن معظم إبداعاته كانت محصلة لإلحاحه ولا تخضع لقانون العرض والطلب. وذلك أنه كان يفتقر إلى

الذكاء الاجتماعى المتعارف عليه لتقسيم الأرزاق فى الوسط الفنى عبر الزلفى والنفاق وفقًا لمعادلة «شيلنى وأشيلك!».

عزبة بنايوتى

كانت لمحمد عبد العزيز صداقات عدد شعر رأسه خارج الوسط الفنى، لكنى لم أعرف له من الأصدقاء المخلصين فى الوسط الفنى سوى الممثل الراحل عبد المنعم إبراهيم الذى طالما تصدى ببشاشته وخفة ظله وشهرته للدفاع عن محمد عبد العزيز، وقضاء مصالحه المعطلة فى دواوين الحكومة وجدولة ديونه لدى البنوك، وكذا الممثل الكوميدى الراحل عبد السلام محمد الذى كان يركب من أجله صعاب وأهوال المواصلات العامة حتى يلتقى به فى التوقيت والساعة المحددة يوميًا بمقهى «الأنجلو» بشارع شريف للمناجاة والسمر وتبادل الرأى حول مشكلاتهما وهمومهما المشتركة، والفنانة نادية السبع - يرحمها الله - والمخرج المسرحى السكندرى حسين جمعة.. بينما كان المخرج السينمائى عبد القادر التلمسانى البلسم الشافى لأوجاع محمد عبد العزيز النفسية، والأكثر إيمانًا بموهبته الفنية والأدبية، وهو الذى أسند له دور البطولة مع الفنان عبد المنعم إبراهيم فى فيلم للأطفال بعنوان «قصة شجرة».

أنتج التلمسانى هذا الفيلم على نفقته وشقيقه المصور العبقرى حسن التلمسانى عن قصة كتبها محمد عبد العزيز، فهو كان من ألمع الذين كتبوا قصص الأطفال، حيث تطوع شيخ المخرجين أحمد كامل مرسى - يرحمه الله - بمهمة المونتاج.. لكن المشكلة بعد ذلك كانت فى تسويق الفيلم وعرضه فى دور السينما.

محمد عبد العزيز انبرى إلى المهمة وحده، التقى بوزراء المالية والتعليم والشئون الاجتماعية ورئيس المجلس الأعلى للشباب والرياضة ورئيس التليفزيون.. وبكل المسئولين عن تربية ورعاية الطفل وكذا المحافظين، وعرض عليهم الفكرة وترك لهم نسخًا من الفيلم، وبالطبع لم يهتم أحد فى البداية.. لكن مع توالى زياراته لمكاتبهم وأسلوبه الناجح فى الإلحاح تمكن من تسويق عشرات النسخ، ومن حصيلة أجره أمكنه سداد ديونه لدى البنوك واشترى أول

سيارة «هوندا» «علّى الزيرو» أهداها لابنه عمر عبد العزيز الطالب بكلية الطب الذى أصبح الآن واحداً من أعلام أساتذة طب النساء والولادة.

يوماً توسطت له لدى الصديق الكاتب الساخر محمود السعدنى عندما كان والشاعر الفنان عبد الرحمن الخميسى يملكان مسرحاً خاصاً حتى وافق على أن يخرج مسرحيته «عزبة بنايوتى» لكنه فوجئ بالسعدنى بعد فترة من الوقت يطلب استرداد المسرحية بدعوى مراجعتها وتعديل بعض مشاهدها ثم إذا به يسند مهمة إخراجها إلى الفنان سعد أردش.. وعندئذ انبرى محمد عبد العزيز شاهراً سيف الإلحاح لاستخلاص حقوقه.. فكان يجلس يومياً صامتاً فى مقاعد المتفرجين طوال أيام البروفات المسرحية، حتى عندما تهيأت للعرض ظل يجلس كل مساء فى الصفوف الأولى للمسرح صامتاً. فى الوقت الذى كنت أحاول تهدئة ثورته وإثناءه عن الصدام بالسعدنى.

الممثل الراحل محمد رضا بطل المسرحية وعباس الأسوانى المحامى نصحا السعدنى فى النهاية بضرورة دفع أتعاب محمد عبد العزيز وتعويضه عن الأضرار الأدبية التى لحقت به خصوصاً وكان قد قطع شوطاً بعيداً فى إعداد المسرحية للبروفات، كما أنه أعلن فى الصحف خبر إسناد إخراج المسرحية إليه، ورفض السعدنى فى البداية.. لكن مع استمرار إلحاح محمد عبد العزيز على حضور جميع عروض المسرحية رضخ فى النهاية خشية ما لا تحمد عقباه!

حبظلم بظاظا

أذكر فى عام ١٩٦٦ أن الأديب فاروق خورشيد تقدم إلى فرقة المسرح القومى بمسرحية تاريخية من تأليفه مستقاة من التراث الشعبى بعنوان «حبظلم بظاظا» كان قد نشرها من قبل على حلقات فى إحدى المجلات وراقت محمد عبد العزيز، ولم يكن لذلك فى حاجة لأن يمارس إلحاحه على صديقه حتى يختاره لإخراج المسرحية وبطولتها و.. قد كان..

كان دور حبظلم بظاظا يقتضى منه ارتداء عباءة ثقيلة مزركشة وعمامة كبيرة وزنها لا يقل عن خمسة كيلوجرامات بينما رفض أن يضع له الماكيير لحية مستعارة

وفضل أن يترك لذقنه العنان حتى طالت لحيته زهاء ربع متر . . لكن المسرحية لم يتم عرضها سوى عشرة أيام فقط نظرًا لضآلة عدد المشاهدين . . والشاهد أنه لم يكن لمحمد عبد العزيز ذنب فى ذلك . . فالمسرحية كانت وفق معايير النقد الفنى أكثر من ممتازة من ناحية النص والتمثيل والإخراج والديكور . . لكن المشكلة كانت فى تربص إدارة المسرح القومى بمحمد عبد العزيز عندما رفضت إعداد حملة إعلانات للمسرحية بحجة أن «البند لا يسمح».

عندئذ خرج محمد عبد العزيز بملابسه وعمامته التاريخية ولحيته الطبيعية إلى ميدان العتبة وشارع الأزبكية يقدم نفسه إلى الناس صائحًا بصوت مرتفع «أنا حبظلم بظاظا» ثم يشرح لهم قضيته، بل إنه ذهب بهيئته المسرحية المثيرة إلى وزارة الثقافة ودور الصحف يعرض شكواه و . . حتى استجابت إدارة المسرح القومى ووافقت على مد فترة عرض المسرحية بعد عمل الدعاية اللازمة لها و . . يا دار ما دخلك شر!

حدث فى قرية نكلا العنب

فى شتاء عام ١٩٧٥، دعانى محمد عبد العزيز وصديقنا المشترك رسام الكاريكاتير الشهير أحمد حجازى، والمستشرق اليابانى نوتاهارا لزيارة قريته «كفر عوانة» بمحافظة البحيرة، وهناك اكتشفت أنها أجمل قرية فى مصر كلها . . تتدلى فى الترع وجداول الماء . أغصان أشجار «الزيزفون» الدائمة الخضرة . . وتظللها غابات من أشجار الجميز الضخمة التى توشك على الانقراض فى الريف المصرى . . ولا أدرى لماذا أدركت آنذاك أن دخيلة محمد عبد العزيز الدافئ الحاشية الرقيق المشاعر صورة طبق الأصل من قريته ونتاج تلقائى لبيئته الجميلة على الرغم من أن ملامحه تشى بالصلف والتجهم!

فى قرية مجاورة اسمها «نكلا العنب» دعانا للعشاء والسهر صديقه الحاج عبد القوى سمك وكان من الأعيان ويمتلك العشرات من أبراج الحمام الشاهقة كالعمارات، وهو كان ينتمى إلى الرعيل الأول الذى أسس حزب مصر الفتاة، حيث امتد بنا الوقت سريعًا حول المدفأة ونحن نشرب الشاى وندخن «البورى» ونتبادل مع الفلاحين أطراف الحديث العذب، وكانت الساعة قد تجاوزت الثانية

صباحًا عندما خرج الجميع لوداعنا حتى آخر الزمامات الزراعية للقرية وبداية الزمامات المجاورة لقرية «الضهرية» مسقط رأس الصديق والأديب الكبير يوسف القعيد ثم قفل الحاج عبد القوى سمك ورجاله راجعين كما تقضى عادة الضيافة فى الريف المصرى، على أن نوتاهارا، أبدى رغبته فى العودة مشيًا على قدميه إلى قرية «كفر عوانة» ويبدو أن الكلاب الريفية الضالة شعرت بالألفة والونسة ولذلك بدأت تتجمع حول موكبنا تباعًا بالعشرات!

لكن جحافل الكلاب الضالة عندما شعرت بأننا أصبحنا وحدنا قررت أن تنفرد بنا وشرعت فجأة فى النباح الجماعى من خلفنا على نحو أثار فى قلوبنا الرعب خشية أن تقرر الهجوم علينا وافتراسنا.. ماذا نفعل؟.. عندئذ قال لنا محمد عبد العزيز بسرعة وفى حسم: اسمعوا كلامى ونفذوا ما أقول فورا.. سوف نستدير فجأة إلى الخلف ونترك لأقدامنا العنان والجرى بأقصى سرعة فى مواجهة الكلاب.. ولا نجاة لنا إلا إذا وجدنا مكانًا ملائمًا نختبئ فيه!

انصعنا جميعًا للأمر فوراً كما لو أننا جنود فى معركة.. واستدرنا إلى الخلف وواجهنا الكلاب وفاجأناها بالجرى فى عكس الاتجاه بكل ما أوتينا من قوة حتى أصابتها المفاجأة بالذعر والهلع وتشتت شملها على جانبى الطريق وتوقفت عن النباح.. حتى استعادت شجاعتها وتحشدها للنباح من جديد، لكن بعد أن قطعنا مسافة كبيرة تفصلنا عنها.. وعندما لحقت بنا كنا قد وجدنا بابًا مفتوحًا يفضى إلى حوش خارجى لأحد البيوت الريفية.. أوصدناه خلفنا وتمترسنا وراءه.. والطريف أن سكان هذا المنزل استيقظوا من نومهم مذعورين كما لو أن لصوصًا يتربصون بهم وعندما أدركوا محنتنا استضافونا حتى الصباح.. وكانت ليلة ليلاء لا تنسى، وتلك ولا شك واحدة من فيض خبرات محمد عبد العزيز بطبائع الكلاب أيضًا، إذ كان يقول: القط مخلص للمكان، بينما الكلب مخلص لصاحبه ويتبعه أينما ذهب وارتحل!

مسكين محمد عبد العزيز فقد تعرض للشلل النصفى الذى أقعده عن الحركة والعمل ولم يعد قادراً على الكلام حتى ودع الحياة غير آسف عليها.. وذلك عندما فشل وربما لأول مرة وآخر مرة فى ممارسة إلحاحه فى حل مشكلة اجتماعية خاصة.. وصدق من قال: «لا تكن صلبًا فتكسر»!

ملهمة سيد درويش تعيش فى مقابر الإمام

نسمات الليل الندية تصافح الوجوه برفق وهو يداعب أوتار العود. . ثم ينطلق إلى العزف مع صوته الجميل وهو يردد أغنية سيد درويش المنسية «صح النوم ما تقوم يا حبيبى. . غير ريقك على الحليب». . وفجأة قطع صاحبنا غناءه. . وقال لى «تعرف الشيخ سيد لحن الأغنية دى لمين؟ للمطربة القديمة حياة صبرى. . ملهمته اللى حبها من كل قلبه وأهداها أجمل ألحانه. . كان من عادتها أنها تصحى الشيخ سيد من النوم على «شوب حليب»، وصمت صديقى وجارى فى حى الروضة الملحن عبد العظيم عبد الحق ثم قال وهو يتنهد: «هيه. . ربنا يصبرها. . زى ما صبرت سيد درويش على بلاوى الناس وهموم الدنيا».

قلت له فى لهفة: «هى المطربة حياة صبرى لسة عايشة؟».

قال فى تردد وكأنه يستدرك خطأ وقع فيه: «فيك مين يكتم السر؟».

قلت: فى بير. . بس قوللى. . هيه لسه عايشة بصحيح؟. . أصل كل اللى كتبوا عنها أكدوا رحيلها بعد وفاة سيد درويش.

قال: الكلام اللى حاقوله لك ماحدش يعرفه غيرى وثلاثة من اللى عرفوا حياة صبرى أيام مجدها. . الشاعر كامل الشناوى والفنانة نجمة إبراهيم والممثل عبد العزيز خليل. . وعشان كده أرجوك ماتقولش لحد إنى قلت لك إنها عايشة. . عارف فين؟

سألته فى لهفة: فين؟

قال: فى مقابر الإمام.. وعايشة فى مدفن ابنها الشهيد الطيار جميل وتقدر تعرف مكانها إذا زرت مسجد الدندراوى فى الإمام وسألت هناك عنها الشيخ محمد مؤذن الجامع.. متسألهوش فين الست حياة صبرى لأنه ما يعرفش الاسم ده ولا يعرف أنها كانت مطربة قد الدنيا.. قوله بس أنا عاوز أزور الست أم جميل؟

* * *

كان الطريق إلى صحراء الإمام عهدئذ طويلا مقفرا لا أثر فيه للحياة.. إذ كانت المقابر على الجانبين تذكرنا فى كل لحظة بالمصير المحتوم.. الموت!

أنا والزميل «مأمون» الرسام بمجلة روز اليوسف نسير فى صمت.. وعيوننا على نهاية الطريق.. وعلى بعد شاهدنا قطارا يتلوى كالثعبان، وأسرعنا الخطى حتى وصلنا إلى شريط السكة الحديد.. وهناك.. رأينا مئذنة عالية.. لم نقاوم لهفتنا.. جرينا فى همة ونشاط على الرغم من الحر والتعب.

على باب مسجد الدندراوى شاهدناه يقف بقامته المديدة..

- من فضلك.. فين الشيخ محمد؟

- استريحوا الأول.. أنا الشيخ محمد.. خيراً إن شاء الله..

- عاوزين نقابل الست أم جميل.

- طيب لما نصلى العصر..

وأذن الشيخ محمد لصلاة العصر وتوضأت أنا ومأمون.. وصلينا العصر وراء الشيخ محمد..

عقب الصلاة.. سار الرجل أمامنا وسط المقابر ثم توقف أمام مدفن مغلق على بابه لوحة رخامية مكتوب عليها: «مدفن الشهيد الصاغ محمد جميل إبراهيم، المتوفى سنة ١٩٥٤» دفع الباب بيده.. ثم سلم علينا مودعا!

التقت عيناى بعينى مأمون فى قلق.. من أين نبدأ؟

المقبرة من الداخل مستطيلة. مرتفعة عن الأرض.. تحفها الزهور والورود..

ـ يا ست أم جميل . . يا ست أم جميل . .

استدرنا حول المقبرة . . وكانت هناك . .

سيدة بدينة قامتها مديدة فى ملابس سوداء . . فى يدها «رشاشة» تروى بها الزهور والورود . . وعلى لسانها كلمات خافتة : «الله يرحمك يا بنى . . أراضيك الجنة يا جميل» . .

وقفنا أمامها بلا حراك . .

فجأة رفعت المرأة عينيها . . ولمعت فيهما الدهشة . . بدون تردد . . مددت لها يدى مصافحًا . .

ـ إزيك يا ست أم جميل . . شدى حيلك أمال . . كلنا لها . .

ـ الشدة بالله يا بنى . .

وضعت الرشاشة على الأرض، ومسحت يدها المبللة فى طرف ثوبها . وقالت : ياه ده باين عليكم تعبانين قوى . . اتفضلوا معايا فى الحوش الثانى . .

خطوات المرأة قوية وثابتة، ووجهها عليه مسحة قديمة من الجمال . . تتحرك فى حيوية ابنة العشرين . .

ـ دى أودتى اللى بنام فيها . . أنا عايشة هنا على طول من يوم ما دفنا المرحوم ابنى . . الحرامية لامؤاخذة سرقوا العفش وماسابوش غير الحصيرة دى . .

كان المشوار الطويل قد أنهكنا تمامًا . . جلسنا على الحصيرة دون دعوة منها . .

ـ أعملكم قهوة؟

لم تنتظر جوابًا . . سحبت علبة من الصفيح بها عدة القهوة وبدأت فى إعدادها . . كنت أتحسس طريقى إلى بداية الموضوع . .

ـ ربنا يعوضك خير فى المرحوم . . لكن أنتى عايشة هنا إزاى يا ست أم جميل؟

ـ أهوه زى ماأنت شايف . . معاش ابنى ٦٨ جنيهًا . . مراته بتاخد ٦٠ جنيهًا . .

وبتسيبلى ٨ جنيه يدوبك بادفعهم إيجار للشقة المقفولة فى شبرا . . والباقى باستلفه من ناس حبايبنا . . كانوا حبايب المرحوم قوى .

سألتها : المرحوم مين . . الشيخ سيد درويش؟

وكأنى ألقيت قنبلة . . توقفت المرأة عن الكلام . . ونظرت إلى مأمون نظرة ثاقبة :

● حضرتك بتعمل إيه؟

ـ أبداً أنا بخطط فى الورقة . . وهزت رأسها دلالة على عدم اقتناعها

● بتخطط ولا بترسمنى ثم قالت : إحنا ماتعرفناش على الأساتذة؟

ـ الأستاذ مأمون طالب فى الفنون الجميلة . . وبيعمل معرض عن المرحوم سيد درويش . .

● طيب وحضرتك؟

ـ أنا . . أنا طالب فى كلية الحقوق . . وبأكتب كتاب عن المرحوم سيد درويش . . وجيت هنا عشان آخد بعض المعلومات منك . .

● ومين اللى دلك على مكانى؟!

قلت : كنت قاعد فى نقابة الممثلين وسمعت واحد بيقول إنك عايشة جنب مقبرة ابنك فى الإمام . . فضلت أسأل وأتقصى . . لغاية ماجيت لحضرتك هنا . .

كان عقلى يدور باحثًا عن سؤال جديد . .

لكنها سبقتنى وقالت :

ـ شوف يابنى أنت وهو . . أنا طول عمرى دوغرى ماحبش شغل البوليتيكا . . بصراحة كده أنتم صحفيين . . وأنا بعدما مات ابنى حلفت أن أقطع صلتى بالناس كلها . . اعتبرونى حاقدة على كل الناس . . كل الناس .

سألتها : وإيه بقى سبب حقدك يا ست أم جميل؟

ـ تصور مافيش حد عزانى ولاسأل عنى بعد موت ابنى . . ماحدش قال لى

شدى حيلك ياأم جميل . . ماحدش قال لى إنتى عايشة إزاى . . يبقى لى حق أحقد عليهم ولا أنا غلطانة؟!

* مافيش حد خالص سأل عنك حتى من أصدقائك فى الوسط الفنى؟

ـ مافيش غير نجمة إبراهيم وجوزها هما اللى شالوا حملى فى أول الفجيعة . . وأنا شايلة جميلهم على رأسى . .

* وأم كلثوم؟!!

ـ أم كلثوم كانت صديقتى الروح بالروح . . كنت مطربة زى زيها . . وكنت باخد ٦٥ جنيه دهب فى الحفلة زيها تمام . . ولما رحنا العراق دعتنا السفارة المصرية وإتصورنا مع بعض . . والمجلات كتبت عننا إحنا الاتنين . . وبعدين لما مات ابنى والناس راحوا قالوا لها حياة صبرى حالتها بؤس . . عملت طناش . . أنا . . أنا تنقطع إيدى ولا آخد فلوس منها!

* طيب وعبد الوهاب؟

ـ عبد الوهاب . . اسم الله ياسى عبد الوهاب . . أنا غنيت قدام عبد الوهاب فى أوبريت «شهرزاد» وكان صوته لسه خرع . . دلوقتى عبد الوهاب نسى العشرة والزمالة وكل اللى فات . .

* والنقابة؟

ـ نقابة إيه يا أستاذ . . هما بيدفعوا غير للفنانين المستريحين . . واللى عايزة تصلح عربيتها . . واللى عايزة تغير فرش شقتها!

قلت لها فى تخابث : هو المرحوم كان ابن سيد درويش؟!

هنا ارتفع صوتها فى غضب :

ـ أنا ماتجوزتش الشيخ سيد درويش . أنا كنت تلميذته وملهمته وبس . وبعد مامات إتجوزت واحد تانى وكان عمدة وخلفت منه المرحوم ابنى جميل!

* وأنا بجمع معلومات الكتاب عرفت أن الشيخ سيد كان بيحبك جداً مع أنه كان متجوز . . ليه ماتجوزتوش بعض؟

ـ الشيخ سيد إتجوز مرتين الأولى من أم محمد البحر . . وبعدين إتجوز أم حسن، وكانت ست طيبة بصحيح . . وأنا علاقتى بالشيخ سيد كانت علاقة تلميذة وملهمة وبس!

ثم صاحت فجأة:

ـ اسمع يا جدع إنت . . أنت سحبتنى فى الكلام ونازل كتابة . . أنا قلت لك إنى قطعت اللى يربطنى بالدنيا كلها . . حضرتك تيجى تزورنى يوم التلات المغرب فى شقتى بشبرا . . ووعد منى أديلك الأسطوانات اللى سجلت فيها أغنياتى وأوبريتاتى وكل المجلات اللى كتبت عنى لغاية عشرين سنة فاتت!

* * *

شارع البراموس بشبرا . . الأعلام والزينات معلقة فى كل مكان . . عشرات الميكروفونات تختلط أصواتها بالقرآن الكريم والتواشيح والغناء . .

اليوم مولد النبى . .

عند المنزل رقم(٤) . . سألت رجلاً يجلس بجوار صندوق كازوزة: الست أم جميل ساكنة فى البيت ده؟

ـ آه . . ساكنة هنا . . بس مش موجودة دلوقتى . . يمكن تيجى من القرافة . . ويمكن لأ . .

جلسنا بجواره على دكة خشبية وأخذنا نتجاذب معه أطراف الحديث . . مرت دقائق امتدت إلى ساعتين حتى فقدنا الأمل فى حضورها . .

فجأة . . لمحتها قادمة فى خطواتها الثابتة: لا مؤاخذة يا جماعة أنا اتأخرت عليكم . . أصل النهاردة مولد النبى . . كان من عادتى زمان أدبح خروف فى اليوم المفترج ده . . لكن بقالى سنين بأفرق فول نابت وعيش بس على الغلابة .

دخلت شقتها ونحن وراءها . . أضاءت الصالة . . كل شىء يتشح بالسواد . . الستائر سوداء . . زجاج النوافذ مدهون بالزهر . . المرايا والصور مغطاة بالقماش الأسود . . وهى جالسة أمامنا فى ردائها الأسود . . فكرت فى الهروب .

ـ لا مؤاخذة يا جماعة. . افتكرت إن المجلات والجرائد والصور اللى كتبت عنى قطعتهم من زمان علشان أقطع صلتى بالفن والناس!

* والأسطوانات؟

ـ كان عندى حوالى ٢٠٠ أسطوانة نادرة. . وبعدين جماعة استلفوهم ورجعوهم مكسورين.

* كان فيهم أسطوانات لك؟

ـ أمال يا بنى. . زى والله تستاهل يا قلبى. . غنتها بصوتى على وش. . وبصوت الشيخ سيد على الوش الثانى. . و. . على قد الليل ما يطول. . وآدى ست زى الفل، وصح النوم ماتقوم يا حبيبى غير ريقك على الحليب. . وغيره وغيره!

* الأغانى دى لحنها لك الشيخ سيد إمتى؟

ـ بعد ماتعرفت إليه. .

* إزاى؟

ـ أنا أصلى هربت من أهلى وعمرى ١٤ سنة لما غويت الفن واشتغلت مع فرقة عكاشة. . وبعدين مع فرقة طلعت حرب على تياترو الجنينة. . وغنيت فى أوبريت هدى وعبد الرحمن الناصر. . ولما شافنى الشيخ سيد وحبنى. . قصدى حب صوتى احتضنى وبقيت تلميذته. .

* الشيخ سيد كان بيلحن أغانيه إزاى؟

ـ سيد درويش كانت تيجى له فكرة موضوع اللحن. . ياخد بديع خيرى ويروحوا فى حتة بعيدة. . يروحوا يتفرجوا على السقايين والشيالين والبياعين. . وبعدين يرجع على وش الصبح. . يقعد قدامى يمسك العود. . ويفضل يلحن الأغنية وكل شوية ياخد رأيى فى اللحن. ده طبعا غير العديد من الأوبريتات العظيمة اللى لحنها!

* إيه كانت عادات الشيخ سيد؟

ـ كان عصبى قوى لما يحفظ المطربين الأدوار . . كان عقله سارح دايمًا . . وكريم جدًا . . ياخد عربون الأوبريت ١٠٠ جنيه . . ويسهر أصحابه معاه ويصرف عليهم كل المبلغ فى ليلة واحدة . . الله يرحمه كان وجيه زى القمر وشهم ويكره الوحدة زى العمى!

* صحيح كان بيتعاطى المخدرات؟

ـ شوف لما أقولك . . هو كان راجل دوغرى . . صحيح كان ساعات بيشم كوكايين . . لكن مش عشان المسخرة . . عشان يقدر يسهر بس لما يكون عنده شغل . . ولما قرف من الكوكايين . . طلقه بالثلاثة وكان دايمًا يغنى منولوج . . «شم الكوكايين خلانى مسكين»!

* بيقولوا إنه مات من المخدرات؟

ـ سمعت كل اللى قالوه وهما بيظلموه بالكلام ده . . أنا عارفة إزاى مات الشيخ سيد . . كان فيه عيلة من حبايبه المتريشين له فى إسكندرية اسمها عيلة الجريتلى . . وبعدين واحد من العيلة دى عشق مطربة فالصو درجة ثالثة . . جابها للشيخ سيد . . والنبى تمرنها على الطرب . . سمعها واتكسف يقوله لأ . . وبعدين البنت راحت قالت لعشيقها إن الشيخ سيد بيغازلها . . خدته الغيرة . . راح بسلامته عازم الشيخ سيد على العشاء . . حط له مورفين فى كاس الويسكى . . وكان قبل ما يروح له شام بالصدفة تذكرة كوكايين . . أتارى الكوكايين مع المورفين مع الكحول يعملوا تسمم . . جه الشيخ نام على السرير وقال سمونى . . قتلونى . . قلت له نجيب دكتور يا شيخ سيد . . قال لا دكتور ولا غيره «عليه العوض ومنه العوض، وراح يغنى «أنا هويت وانتهيت وليه بقى ظلم العزول»!

مدت يدها تمسح الدموع التى تسربت من عينيها . .

ـ مات شباب .

* اسمك الحقيقى حياة صبرى؟

ـ لا . الاسم ده من اختراع الشيخ سيد . . لأنه كان بيعتبرنى حياته وسلوته

* لحن لك أوبريتات؟

ـ أمال . . أوبريت «شهوة زاد» وبعدين سموه «شهرزاد» . . وعبد الوهاب غنى قدامى فى الأوبريت ده . . لكن صوته ماكانش بتاع مسرح . . وبعدين عمل لى كمان أوبريت «البروكة»

* وإيه رأيك فى صوت أم كلثوم؟

ـ أم كلثوم شاطرة وصوتها جميل مفيش كده وخدمتها الظروف والحظ كان فى صفها . . بس أنا ميعجبنيش فيها المنديل المدلدل فى إيدها . . أنا كنت أمسك منديل برضه لكن مطبق . . علشان ممكن أعطس ولا أمسح العرق . . مش عياقة!

* غنيتى بعد موت الشيخ سيد؟

ـ أيوه . . كونت فرقة زرت بها الشام والعراق . . واشتغلت على كازينو البسفور، وكازينو روض الفرج . . وكنت بأمثل وأغنى أوبريتات الشيخ سيد وأدواره . .

* إمتى اعتزلت الغناء؟

ـ لما كبر ابنى وبقى عمره عشر سنين . . هجرت المغنى . . لكن كنت بأروح النقابة أقابل زملائى . . وابنى مات من غير مايعرف إنى كنت مطربة . .

* بتسمعى الراديو؟

ـ الراديو لسه فى الدولاب . . ونادرا لما أطلعه عشان أسمع القرآن . . هو بقى ليه نفس فى حاجة ولا فى مغنى . . اللى بيغنوا اليومين دول شوية قطط بينونووا . . ، كمان كل أغانيهم عن الحب . . هو مافيش حاجة غير الحب . . شوف الشيخ سيد لحن للشيالين والسقايين . . وكل الطوائف وللوطن . . كان الله يرحمه عايش مع الناس وبيغنى لهم . . علشان كده حيفضل عايش!

كان مأمون ينظر إليها دون أن يتكلم . . وفجأة قالت لى :

ـ أنت برضه جرتنى فى الكلام . . أنا على كل حال مش حامضى على الكلام اللى حاتكتبه!!

قلت وأنا أودع اللّحن الحزين: إيه أمنيتك يا ست حياة؟

ـ أزور النبى وأموت هناك..

أشياء كثيرة عرفتها عنها عبر صديقى الممثل القدير عبد العزيز خليل.. قال لى إن اسمها الحقيقى عائشة عبد العال.. وهى من مواليد الإسكندرية.. تزوجها الشيخ سيد درويش بعقد عرفى فى أواخر أيامه بعد أن انتشرت قصة حبه العنيفة لها وكنت شاهدا على العقد.. وبعد موته تزوجت بعمدة ولم يستمر زواجهما طويلاً.. وأنجبت منه ابنها الطيار محمد جميل. وبعد استشهاده. عاشت فى ظلال الحزن و.. النسيان!..

زوبة الكلوباتية

«هيه» والله زمان يا رقص.. كانت الواحدة فينا تاقنة شغلها كويس وعارفة هى بتعمل إيه.. ترقص ساعة.. ساعتين.. ماتتعبش ولا تكل أبدا.. رجليها زى الديدبان.. ووسطها زى الملبن.. ومخها فى جسمها.. وجسمها ماشى مع المزيكة.. وأول ما ترقص تبتدى «بالدخلة» وهيه هادية.. وبعدين تخش على «الفصل».. وآخر الناس ما تتسلطن تختم رقصتها «بالزمبلك»!

«أمال يا بنى.. كانت كل حاجة زمان بالأصول.. مش السكلانس بتاع الأيام دى.. بتاع اللى اسمها «نجوى فؤاد» وشوية الراقصات «الخرزان المتخشبين»!!

هل تتذكرون «زوبة الكلوباتية»؟! أشهر وأجمل راقصة أنجبها شارع محمد على فى الثلاثينيات وظلت متألقة حتى أوائل الخمسينيات وأول من وضعت الشمعدان على رأسها وهى ترقص.. بل وكان لها تمثال يباع فى كل مكان.. قبل تمثال «شكوكو» مع نداء شهير «زوبة بالقزايز»؟!

أبناء هذا الجيل لا يعرفونها بالطبع.. ولكن ما هى قصة «زوبة الكلوباتية»؟ وأين؟ وكيف تعيش الآن؟

* * *

منتصف النهار فى القاهرة عام ١٩٦٠.. الهواء البارد يلفح الوجوه ويجمد الأطراف.. أشعة الشمس تحاول التسلل بصعوبة من حصار الغيوم..!

أنا وزميلى فى «رُوز اليوسف» الرسام مأمون فى ميدان العتبة، ووجهتنا شارع محمد على للبحث عن زوبة الكلوباتية!!

كان الشاعر الفنان عبد الرحمن الخميسى قد أفضى لى بأنها لا تزال على قيد الحياة، وهو الذى عاش أجواء شارع محمد على فى الأربعينيات.. وساهم فى بعض أنشطته الفنية أول عهده بالقاهرة فى الأربعينيات!

شارع محمد على هادئ حزين، ينعى أيام عز وأضواء ذهبت ولن تعود!!

المبانى غطت وجهها بالأتربة، والمشربيات تطل منها فى تحد كأنها تخرج لسانها للزمن.. للتطور، والبواكى قائمة على الجانبين كأقواس نصر لجيش مهزوم!

ملامح أخرى باقية تذكرك بالعصر الذهبى الذى عاشه الشارع.. لافتات باهتة الألوان ذابلة الخطوط.. ربما كان أصحابها اليوم فى خبر كان.. «أنوسة العالمة»، «حسنية كهربة»، «سمارة» بنت بديعة الوحيدة، «شخليلة» الرقاصة، المطرب سيد بعرور، فرقة الأفراح لإحياء الليالى الملاح، مؤسسة حسب الله لعموم الموسيقى و..

محلات متفرقة هنا وهناك تبرز منها فى يأس آلات موسيقية قديمة كأنها تطلب إحسانا!!

لم نسمع طوال سيرنا نغما واحدا يفتح النفس اللهم سوى ضجيج الترام، وأبواق السيارات..

كانت عيوننا تفتش عن رجل عجوز.. وفنان عاصر أمجاد زوبة الكلوباتية..

فى عرض الطريق وجدنا رجلاً فى السبعين من عمره يلبس طربوشا كالحا تخرج منه شعيرات فى لون الثلج. كان الرجل منحنيا على آلة نحاسية ضخمة يحاول دعكها بالماء والتراب لإزالة الصدإ الذى انتشر على سطحها..

التقت نظراتنا وفى نفس واحدة قلنا.. هذا هو الرجل المطلوب..

* السلام عليكم ياريس..

- سلام ورحمة الله وبركاته..

لم يرفع الرجل رأسه فى بادئ الأمر . . وعندما كررنا عليه التحية . . نظر إلى أعلى ثم هب واقفا . . رأيت فى بريق عينيه الخافت مزيجًا من الدهشة والفرحة والشك!

ـ أى خدمة يا بهوات . . محسوبكم على ترومبيطة . . فرح طبعًا إن شاء الله . .

* لا والله، إحنا عاوزين نعرف بيت الست زوبة الكلوباتية .

فجأة تبددت الفرحة من عينيه، وأخذ يعصر جبهته بيديه المبتلتين وهو يحاول أن يتذكر .

ـ زوبة . . زوبة الكلوباتية . . لكن يابهوات دى بطلت شغل من زمان، مافيه رقّاصات غيرها كثير .

* أصل إحنا صحفيين وعاوزينها مخصوص . .

ـ بقى مش فرح يعنى!!طيب ماعكوش سيجارة على كده . .

أعطيناه سيجارة وضعها خلف أذنه دون أن يشعلها، ثم قال وهو يشير بيديه :

ـ شوف يا سيدى . . امشى كده دوغرى فى شارع محمد على . . لغاية ماتقابلك الكتبخانة، بعدين عدى ميدان باب الخلق . . حتلاقى فيه شادر بتاع فاكهة . . جنبيه خبط لزق العمارة بتاعتها . .

لم ينس الرجل وهو يودعنا أن يقول : والنبى تتوصوا بيها وتسلمولى عليها . . حاكم دى كانت صاحبة أفضال على الجميع . .

تركنا «على ترومبيطة» وتابعنا سيرنا، وأمام عمارة نصف عمر مكونة من خمسة أدوار وتحمل رقم ١٠٦ كان علينا أن نسأل البواب النوبى :

* الست زوبة ساكنة فى أى دور؟

ـ آه الست أم نيللى . . الدور الثانى على اليمين .

دخلنا العمارة وفوجئنا بالظلام الدامس . وبدأنا نصعد السلالم ونحن نتحسس طريقنا مستعينين «بالدرابزين» . . طرقت الباب . . وانتظرنا . .

الباب يفتح . . وأجراس تجلجل . . ورأس فتاة فى الخامسة عشرة من عمرها يخرج من فتحة الباب . . ! نظرت الفتاة إلى الأوراق التى فى يدى ثم استدارت برأسها داخل الشقة وصاحت :

ـ بتاع النور يا ستى . .

مأمون يضحك فى الظلام . . صوت امرأة يلعلع من الداخل : اتفضل يا أستاذ . . حماتك تحبك . . مأمون يدفعنى من الخلف وهو يقول خش يا بتاع النور . .

ثلاث خطوات وكنا داخل الصالة . . الصالة ضيقة ، فى وسطها طبلية عليها صينية من النحاس المشغول فوقها فسيخ وبصل أخضر وعيش ، حول الصينية يجلس رجل فى الأربعين يلبس بيجامة كستور ، بجانبه امرأة عجوز فى الثمانين وأخرى فى الخمسين وصبية صغيرة . .

ترك الجميع الأكل . . وتسمرت عيونهم علينا فى تساؤل حتى بادرتنا السيدة التى فى الخمسين بالكلام حينما لاحظت ارتباكنا :

ـ ياتلتميت مرحبة . . قدموا كلوا لكم لقمة معانا . .

* سبقناكم . . متشكرين . .

ـ طيب اتفضلوا استريحوا من السلم ، وعلى الكنبة الوحيدة جلسنا ونحن نلهث . كانت عيونهم مازالت تحدق إلينا . . وكان علينا أن نبدد شكوكهم . .

* لفينا كتير نسأل على عنوان الست زوبة الكلوباتية . . لغاية ماقابلنا واحد اسمه على ترومبيطة هوه اللى وصف لنا البيت . .

تكلمت نفس السيدة وهى تضع بين أسنانها الذهبية بصلة كبيرة :

ـ هو لسة عايش ابن القديمة لغاية دلوقت . . هئ هئ هئ . . الست زوبة راحت تصلى الجمعة فى السيدة زينب . . هئ هئ هئ . . لكن ماقلتوش أنتم عاوزينها ليه؟

طريقتها فى الضحك وتلعيبها لحواجبها وهى تتكلم . . أكدت إحساسى بأن هذه السيدة هى زوبة الكلوباتية ، وكفنانة تطرب لكلمات الإعجاب قلت لها :

* أصل إحنا صحفيين، وجايين مخصوص نكتب عنها . .

ـ حاتكتبوا عنها تقولوا إيه؟

* حانكتب أنها كانت راقصة عظيمة . .

ـ كانت . . حلوة قوى كانت دى . . وهوه اتخلق فى بر مصر رقاصة زيها . . دة لغاية دلوقت بييجى لها زباين، وكل ما أمشى فى سكة الناس تقول زوبة الكلوباتية أهية . .

ثم استدركت تقول:

«بسم الله الرحمن الرحيم»، وقعتنى فى الكلام يادى الشاب . . أهوه أنا ياسيدى زوبة الكلوباتية . .

وبسرعة . . وجدت مأمون يضع لوحة الرسم على قدميه وبدأ يرسمها . . لكننا فوجئنا بها تقول:

ـ متتعبوش نفسكم . . أنا خلاص على وش حج وربنا تاب علىّ من حكاية الرقص دى . .

* تاب عليك . . هوه مين قال إن الرقص حرام؟

ـ معلوم حرام . . الناس بتقول إن دى حاجات بتغضب ربنا . .

* سيبك من الناس . . أنت لما كنت رقاصة كنت حاسة إنك بتعملى حاجة بطالة؟

ـ أبدا يا أستاذ . . ده حتى أنا اتعلمت الرقص عشان كنت غاوية الفن وبس!

* وإمتى بقيتى رقاصة ياست زوبة؟

ـ هئ هئ هئ . . شوف يا خويا الشاب عاوز ياخدنى فى دوكة!

تدخلت الست العجوز فى الحديث: جرى إيه يا جدع إنت . . عاوز تلف دماغها ولا إيه؟!

ضحك زوج زوبة وقال :

ـ أصل ده جورنالجى يامه وشغلته كده . .

وقالت زوبة لزوجها : يعنى أنت رأيك أتكلم ياسى عبده؟

ـ مفيهاش مانع طبعا . . أهه برضه الناس عاوزة تعرف الأبهة اللى كنت فيها!

ـ طيب يا أستاذ . . مش بس لما نخلص أكل عشان نتكلم على رواقة؟!

* * *

المكان الذى جلسنا فيه لم يكن به أثر لأمجاد سابقة ولا لثروة غابرة . . اللهم سوى «بوريه» قديم مشغول بالأويمة ممتلئ بعلب الملبس التى جمعتها من الأفراح، وعلى الجدران عشرات الصور لزوبة مع فرقتها، تتصدرها صورة فى إطار مذهب فخم التقطت لها وهى ترقص أمام السلطانة ملك وعلى رأسها الشمعدان . . وأشياء أخرى طريفة . . عدة تماثيل صغيرة لزوبة مصنوعة من الجبس . . وعشرات الأجراس والجلاجل الصغيرة معلقة على باب الشقة تحدث أصواتا منغمة عند فتحه و . .

ـ اللى واخد عقلك يتهنابه . . اتفضل الشاى يا أستاذ .

* ياستى من يد مانعدمهاش .

أشعلت لها سيجارة . . سحبت منها نفسا عميقا وقالت : كنت حضرتك بتسألنى إزاى غويتى الرقص؟

أفقت من تأملاتى على صوتها وهى تقول :

ـ شوف صلى على النبى . . بقى يا سيدى أنا اتولدت قدام المحافظة فى درب سعادة . . من صغرى وأنا حلوة زى القمر . . صحيح مايشكرش فى نفسه إلا إبليس . . لكن الناس كلها شهدت بكده . . بيضة زى لهطة القشطة، وعينيا مفنجلة وشعرى نازل للركب وعودى زى الغزال . .

نظرت إلىّ لترى تأثير كلامها فى نفسى . . ثم تابعت تقول : كان الشبان

يتهبلوا لما أبص من الشباك، وبعدين جه واحد كلوباتى خطبنى من أبويا، واتجوزته من غير ما أشوفه وأنا عمرى ١٣ سنة. . وبعد مادخلت على جوزى وإتستت فى بيت العدل، بصيت يا خويا لاقيته يسهر كل ليلة فى فرح عشان يولع الكلوبات وييجى على وش الصبح ومعاه الرقاصة بتاعة الفرح وداخل بيها البيت وهو سكران. . أنا أشوف الرقاصة أروح فاقعة بالصوت، الناس تتلم يروح بسلامته مطلع قسيمة الزواج ولا عقد عرفى من جيبه ويقول أنا متجوزها على سنة الله ورسوله ما حدش له عندى حاجة!

على كدة أتجوز كثير وأنتى على ذمته؟-

ـ بتاع أربعة خمسة، يتجوز النهاردة ويطلق بكرة. . وبعدين سألته أنت إيه اللى عاجبك فى جواز الرقاصات. . قاللى أنا محبش الست الخام، أنا عاوز واحدة ترقص وتغنى عشان تبسطنى ده الجواز انبساط، بقى هوه يخرج من هنا أروح واخدة ملايتى وعلى بيت الست «خديجة الونش» العالمة عشان تعلمنى الرقص والمغنى، ولما ييجى جوزى من الشغل أرقص له وأغنيله. . فى الأول اتبسط ومبقاش يجيب رقاصات آخر الليل. . لكن لما عرف أنى بتعلم عند واحدة عالمة طلقنى.

* وعملتى إيه بعد كده؟

ـ أبدا وحياتك. . تانى يوم الست «خديجة الونش» قالت لى ولايكون عندك فكر، خدتنى وياها فى فرح فى السبتية، وعملتنى على طول أسطى. . وعشان كنت صغيرة قعدتنى فى وسط الفرقة وتحتيه ثلاث مخدات.

* يعنى إيه أسطى؟

ـ ماهوه فيه فرق بين الشغالة والأسطى. . الشغالة كمالة عدد فى الفرقة، لكن الأسطى هية أهم وأجمل واحدة فى الفرقة.

* وعلمتك إيه فى اليوم ده؟

ـ أنا رحت الفرح عشان أغنى. . لكن أول ماسمعت نقرة الطبلة بتاعة الرقص

جسمى اتكهرب ومبقتش على بعضى، رحت نازلة أرقص بالفستان، الناس يومها اتهبلوا وقالوا دى جسمها زى التعبان.

* وخدتى أجرة كام؟

ـ ٦٠ قرش ده غير النقطة اللى بقت تتحدف عليه ييجى بتاع ٦ جنيه، لدرجة أن فريدة الإنجليزية العالمة قالت لى يا بنتى أنت لقطة، وعرضت عليه اشتغل مع فرقتها بجنيه فى الليلة وأقسم معاها النقطة..

* كنت بتغنى وترقصى فى وقت واحد؟

ـ ماهو زمان كانت الرقاصة لازم يكون صوتها حلو، وتعرف تغنى وتقول مونولوجات وتزف العروسة كمان..

* وإيه الأغانى اللى كنت بتغنيها؟

ـ زى غنوة.. «أعلمك ضرب النبلة.. أول ماترمى ترمينى»، وزى «ياباشا كلك شربات وبغاشة»، وزى.. «يا جميل يابو خاتم ومنشة.. قلبى مايل لك بس أنا كشة..»

* وفيه أغانى اتلحنت لك مخصوص؟

ـ أيوه بعدما اتجوزت المطرب محمد الصغير، أصحابه الملحنين الكبار زى الخلعى أفندى وأحمد صبرة والكحلاوى إدونى أغانى كتير محبة..

* وإتجوزتى الصغير إزاى؟

ـ كان بيموت فى دباديبى، وكل ما أروح فرح ألاقيه جاى ورايا.. القصد شبطنا فى بعض.!

مد زوج زوبة علبة السجائر وقال: اتفضل.

وسألته: والأستاذ اسمه إيه؟

ـ عبد المنعم الإبيارى..

* وحضرتك بتشتغل إيه؟

ـ أنا موسيقار . . بأضرب بيانو وكمنجة وأكورديون . .

* واتجوزت الست زوبة إمتى؟

ـ من ٢٠ سنة تقريبًا . .

* إزاى؟

وقالت زوبة : أنا أقولك ياسيدى . . كان عبده متجوز الرقاصة آمال حسين وكانت تعباه . . صعب عليا رحت متجوزاه عشان أنسيه همومه!!

* يعنى جوازكم كان عن حب؟

ـ حب . . أنا عمرى ماعرفت حاجة بالاسم ده، أنا اللى كان يعجبنى فى الراجل قوته ومجدعته وطيبة قلبه وبس، ياما سمعت كلمة بحبك من بشوات وبهوات وأعمل أنى مش سامعة، لدرجة أن عمدة منيا الفولى وعمدة بنى مزار قالولى بنحبك وعاوزين نتجوزك ونكتبلك أطيان . . برضه ولا أنا هنا . .

* ليه؟

ـ أقولك ليه . . بقى الواحدة منا بيشوفها الراجل من دول وهية بترقص تحلوّ فى عينيه وبعدين يتجوزها . . لكن بعد كده يعايرها بشغلتها القديمة . . وساعات يطلقها، تخرج من بيته خسرانة الجلد والسقط . . لكن أنا اتجوزت عبده لأنه ابن كارى وفاهم شغلى كويس . .

* مش فاهم؟

ـ أهوه أنا بقالى معاه بتاع عشرين سنة، عمره ماغار عليا لما أكلم حد ولا لما أجالس حد . .

* تجالسى إزاى؟

ـ دى حاجات بقى راحت لحالها . .

* بس عاوز أعرف؟

ـ زى ما أنت عارف طبعا الواحدة مننا لما كانت تشتغل فى صالة بيكون لها عشاق

عاوزين يشوفوها ويقعدوا معاها . . ويفتحوا لها قزازة ويسكى ولا شمبانيا . . وكل واحد وذوقه ومقدرته . . أهيه دى تبقى المجالسة . .

* وكان لك معجبين بيبعتوا لك هدايا؟

ـ طيب ومن نبى النبى نبى . . كانت الهدايا يومى تخش بيتى طفف ، إيشى فراخ رومى وإيشى زبدة ورز . . مش كده وبس أنا جالى عربية حنطور هدية من الحاج إبراهيم بتاع الباطلية وجالى كمان عربية ياى بفرس وعليها سجادة عجمى من قدرى بيه عشان تركب فيها الفرقة والبيانو النفخ .

* نرجع بقى للرقص ياست زوبة؟

ـ اتفضل . . هئ هئ هئ . . هوه أنا حيشاك . .

* إيه حكاية رقص الشمعدان؟

ـ بقى ياسيدى لما ذاع صيتى ، طلبونى فى الصالات زى صالة عماد الدين وماجيستك وروضّ الفرج ، ومرة كنت بشتغل فى صالة عز الدين شفت حسين فؤاد ، والراجل ده كان يلبس زى النسوان والوحيد اللى كان فى الوقت ده يرقص بالشمعدان . . ماجاليش نوم الليلة دى . . قلت أنا لازم أرقص بالشمعدان ، رحت فى الصبحية على النحاسين عملت واحد كبير من خمسة أدوار ، وتانى أسبوع رقصت بيه فى حفلة كان عاملها قاسم بك وجدى «الريجسير» بتاع السينما . . الجرايد ليلتها صورتنى وكتبت عنى كتير .

* ورقصة الشمعدان أصعب من غيرها؟

ـ أمال . . دى تهد الحيل . . وزنه أكتر من عشرة كيلو . . لكن أنا كنت عفية قوى!

* عفية إزاى؟

ـ يعنى كنت أشقى فى الرقص قوى وأتفنن فيه ، عمرى ماقلدت واحدة رقاصة . . دى كانت عيبة كبيرة قوى زمان ، وكانت الناس تبقى قلبها بيدق وأنا بعمل رقصة «الفشخة» و«القلبة» «وشمعة البحر» من غير الشمعدان ما يتقلقل أو الشمع ينطفى . .

* وكنت بتعملى إيه كمان؟

ـ كنت برقص وعلى راسى الشيشة مولعة والمبسم فى بقى وباخد نفس. وكمان كنت برقص بصينية الشربات على راسى وأفوت على المعازيم وكل واحد ياخد كوبيته، وكنت بحط عصايا على كتفى مدلدل منها كلوبين منورين وأرقص بيهم فى الزفة قدام العريس والعروسة.

وهنا علق زوجها على حديثها وقال: ماهوه ده ياأستاذ اللى مسميينه «فلكور».. يقصد «الفولكلور».. الست حرمنا نسيت تقول لحضرتك إنها أول رقاصة دخلت موسيقى «الجلز» مع فرق الرقص الشرقى..

وقاطعته زوبة قائلة: أيوه اكتب ياأستاذ كمان إنى أول واحدة دخلت البيانو النفخ والطبلة الكبيرة فى «الأركست».. تقصد «الأوركسترا».

* وكنت بتخدى كثير فى الحفلة؟

ـ والله مش كله.. إذا رقصت بالشمعدان أخذ ٣٠ جنيها لأن مش كل الناس تعرف مقامه، لكن إذا رقصت عادى آخذ ٢٠ جنيها.. ده غير النقطة والبدرة..

* وإيه هيه البدرة؟

ـ زمان.. كانت الحالة رايجة والفلوس كتير، وكانت أم العريس تبدر إنصاص جنيهات ذهب على العريس والعروسة وهما فى الكوشة، وكمان كانت الرجالة تلزق الجنيهات الورق على صدرى وعلى بطنى وأنا برقص..

* على كدة حوشتى من الرقص كتير؟

ـ ياما.. من الرقص وغيره، ده أنا طلعت فى أفلام كتير زى فيلم الخمسة جنيه وفتاة السيرك.. وكمان طلعت فى فيلم ألمانى عن الرقص الشرقى وخدوا معايا تحية كاريوكا.. ولو كنت وعيت لنفسى كان بقى كل الصف اليمين من شارع محمد ملكى.. لكن كله ضاع على الناس والفشخرة.. مبقاش حيلتى غير العمارة دى شركة ويا الحاجة نبيهة..

* ياستى بيقولوا الصيت ولا الغنى؟

ـ إن كان على الصيت أنا مفيش رقاصة فى بر مصر خدت صيت قدى فى زمانها، إن طلعوا قماش سموه قماش زوبة ومناديل زوبة وفناجين زوبة وعملوا

لى تماثيل بقوا يبيعوها ويقولوا زوبة بالقزايز، ولما قعدت فى بورسعيد سنتين طلعوا عليه غنوة . . «مين بيشوف زوبة . . مين بيحب زوبة . . زوبة تحب كل الناس . . »

* أنت اسمك الحقيقى زوبة؟

ـ لا ده اسم العياقة . . أنا اسمى الحقيقى زينب حسين مصطفى .

* باين عليكى كنت عايقة قوى يا ست زوبة؟

ـ أمال . . ده أنا كنت قبل مأروح الفرح أفوت على البلانة تحمينى وتكيسنى وتساوى ليه حواجبى وتسرح لى شعرى، وبعدين ألبس فستان بيلعلط بالترتر ومقور من فوق . . أخش على الفرح يقولوا دى أحلى من العروسة . .

* وكنت بتلبسى إيه ساعة الرقص؟

ـ كل رقصة ولها توبها . . لما أرقص بالشمعدان ألبس بنطلون «سروال» وألبس على صدرى «الكركة» وبطنى مكشوفة، ولما أرقص فى الأرياف رقصة فلاحى ألبس «خرج النجفّ» كريب جورجيت بكمام واسعة وألبس فى ودنى حلق مخرطة، وفى رقبتى «البنطنطيف» . .

* وبدلة الرقص كانت بتكلفك كام؟

ـ اللى كنت بعملها بـ ١٥ جنيه زمان بتتعمل للرقاصة دلوقت بـ١٥٠ جنيه .

* الناس زمان كانوا بيحبوا إيه فى الرقاصة؟

ـ البلدى يحبوا الرقاصة السمينة اللى كلها زبد وبهريز، لكن الجماعة الإسبور كانوا يحبوا الرقاصة اللى عودها سمبتيك بس رجليها مليانة . .

* ومين أحسن رقاصة كانت بتعجبك زمان؟

ـ لما كنت صغيرة . . كانت تعجبنى الست بمبة كشر، والست بهية المحلاوى . . ودى كانت حاجة ترقص بالبرقع والملايا، لكن لما وعيت عجبتنى قوى نبوية شخلع بتاعة بورسعيد .

* مين كانت أشهر عالمة زمان؟

ـ كتير . . عندك الست زبيدة، وأنوسة أم نبوية مصطفى، وأمينة الصيرفية، والست رتيبة مرات إبراهيم عفيفى رقاق أم كلثوم . .

* ممكن تدينى فكرة عن أفراح زمان؟

ـ الأفراح البلدى تبتدى من الساعة ٧ لغاية الصبح، والأفراح الهاى لايف تبتدى الساعة ١٠ لغاية نص الليل ووجه بحرى يفضل الفرح ثلاثة أيام . . ولما كنا نروح الصعيد كنت آخذ معايا فتوات عشان ميخطفوش الرقاصات .

* مفيش فصل تفتكريه من أيام الشغل؟

ـ أيوه . . زمان كانت الأفراح الرجالة يقعدوا لوحدهم والستات لوحدهم، وهنا فرقة . . وهنا فرقة، ومرة جانى واحد كبارة وكان تاجر كبير فى الجمالية وقال لى أنا عاوز الفرقة اللى حتشتغل عند الستات يكونوا كلهم ستات، جمعت فرقة كلها من الستات ولكن ملقيتش واحدة عوادة . . خدت رشاد أفندى وهو مدرس موسيقى، وغنى للستات وانبسطوا منه قام بسلامته قالع النظارة ،راح يبصص شمال ويمين، ويوميها صاحب الفرح عرف، ولولا ربنا ستر كانت بقت حوسة!!

قلت لها: أنا سمعت أن الأستاذ عبد الرحمن الخميسى قام بنفس الدور بصفته عازف عود ضرير .

قالت: الفصولات اللى من النوع ده كانت كتير قوى على أيامنا!

وعندما سألتها عن الأيام الذهبية لشارع محمد على وضعت يدها على خدها . . ومصمصت شفتيها وقالت :

ـ كانت أيام حلوة . . والفلوس زى الرز، ماكناش نبطل ضحك وهرهقة . . وكنت تمشى فى الشارع كأنك فى مولد . . ظيطة ومغنى ورقص، وساعة المغربية تلاقى العربيات بتحمل العوالم والرقاصات أشكال وألوان . . ولما جت الحرب وكترت الإنجليز الشارع بقى وحش قوى . . وبقى فيه أرتيستات فالصو كثير كانوا واخدين الرقص ستارة . . وكنت أمشى فى الشارع وأقول (اللى بدركم إيده خضرا) ومرة رحت لواحد مخدماتى اسمه عقيل عشان عاوزة واحدة خدامة . . قال لى . . ياست زوبة وهوه بقى فى خدامات اليومين دول . . كلهم خدتهم بديعة مصابنى .

* وليه الفنانين هجروا شارع محمد على؟

ـ حاجات غطت على حاجات . . السيما طلعت، والناس بقت تعمل أفراحها فى اللوكاندات . . وظهرت رقاصات جداد وكمان عشان هدوا البيوت القديمة فى شارع محمد على وكل واحد راح لحاله . .

* كان لك تلاميذ فى الرقص؟

ـ كل اللى علمتهم قليلات الأصل . . مفيش غير البنات الخواجات زى ليزولين وكيتى . .

* وإيه رأيك فى راقصات دلوقت؟

ـ اكتب يا أستاذ على لسانى . . اللى بيعملوه رقاصات اليومين دول لا هوه رقص شرقى ولا دياولو، ده اسمه هرجلة وأمور جنان . . فى شرع مين يا إخواتى إن الرقص الشرقى يتقلب لزار ومسخرة وتعرية!

* مش أنت برضه كنت بتعرى جسمك لما ترقصى؟

ـ أيوه . . لكن تعرية عن تعرية تفترق . . أنا كنت أعرى جسمى صحيح بس بطريقة طبيعية لما ألف وأنا برقص . . لكن دلوقت شغلة الرقاصة أنها تستعرض جسمها على الناس وبس!

* وأنت بتشوفى الرقص دلوقت؟

ـ أيوه . .

* وإيه رأيك فى اللى شوفتيهم؟

ـ نجوى فؤاد مجنونة، نعمت مختار رياضية، نعيمة عاكف بترقص بعقل، زينات علوى كويسة بس بتقلد . . لكن ستهم تحية كاريوكا لسه ماشية بالأصول . .

* وإنت كنت بترقصى إزاى؟

ـ شوف يا سيدى . . المزيكة تشتغل يبقى جسمى بيتحرك لوحده مع الرتم . . وبعدين تضرب المزيكة تواشيح أو أغنية أو موال . . أخش أنا فى الرقص . .

وبعدين أحس أن الناس شبعت أخش على الزمبلك وأختم الرقصة . . المهم أن الناس كانت تفهم الرقاصة عاوزة تقول إيه بجسمها . . وكان لازم كمان الرقاصة تعرف تشتغل بالصاجات . .

* إزاى؟

ـ الرقاصة اللى فاهمة الرقص الشرقى كويس . . تعرف تلعب بالصاجات بإيدها زى الميه . . أنا كنت أعمل ٥٠ حركة بالصاجات . . وطلب منها مأمون أن يراها وهى تحرك الصاجات . . وقامت إلى البوريه . . وأخرجت من أحد الأدراج زوجين من الصاجات النحاس . . وأمسكت بهما بين أصابعها وراحت تسمعنا بعض الأنغام . . قلت لها : ياريت نشوفك كمان وأنت بترقصى؟

ـ ياعيب الشوم . . يا الله حسن الختام . . تف من بقك ياأستاذ . . إلهى مايحكم عليك بالكار يابنتى . . دى نيللى دخلتها المدرسة عشان تطلع دكتورة قد الدنيا . .

* وبنتك عمرها كام سنة؟

ـ عشر سنين . . خلفتها آخرة الزمن على كبير . . وبعدها قطعت الخلف . .

* وآخر مرة رقصتى فيها إمتى؟

ـ من عشر سنين فى الخرنفش عند السيسى بك المأمور .

* وليه تركتى الرقص؟

ـ أصلى مرة رحت السيما رجعت لاقيت الشقة مكسورة والحرامية كانوا عاوزين يسرقوا صيغتى . . نفسى انسدت عن الدنيا . .

* يعنى تعرفى ترقصى لسه؟

ـ والنبى الود ودى أرقص فى التليفزيون لجل أورى الناس الرقص اللى على أصله . . لكن أرجع وأقول . . أنا على وش حج . .

كانت أسئلتى قد انتهت . . عندما طلب مأمون بعض صورها القديمة . . وقادنا

زوجها ليطلعنا على الصور المعلقة على الحوائط . . وعندما لاحظت أن فى الشقة حجرتين للنوم سألته عن السبب فقال :

ـ أصلى أنا لفيت أوربا مع فرق مزيكة ، وشفت النظام هناك كده . . أودة للست وأودة للراجل ، عشان يبقوا مشتاقين إلى بعض .

وخرجنا من شقة زوبة وهى تودعنا على السلم قائلة :

ـ اتوصى بالكتابة يا أستاذ . . ابقى اكتب حكاية التليفزيون دى!

وسرنا فى الشارع . . ونحن نقول . . يموت الزمار وصباعه بيلعب!!

دمياط يابان مصر

على كثرة السفر والترحال فى مهام صحفية بين ربوع الوطن العربى بحثًا عن الخبرة وجريًا وراء الأحداث، لم أجد نظيرًا ولا منافسًا لجريدة «أخبار دمياط» كتجربة ناجحة وصامدة فى ميدان الصحافة الإقليمية. اللهم سوى مجلة «كردفان» الشهرية التى يصدرها فى غرب السودان الصحفى العجوز الدءوب «الفاتح النور».

ذلك أن دمياط ظلت حقبًا من الزمان أعرق مدن مصر «المتمدينة» وأهمها شأنًا بعد القاهرة، وما زالت دمياط إلى يومنا هذا تحمل من الخصائص والسمات المتفردة الكثير والكثير الذى تباهى به المدن الكبرى قاطبة كالقاهرة والإسكندرية أو المنيا على الرغم من تقدمها العمرانى وكثافة السكان، ووسائل النقل والاتصالات. وما زالت دمياط مجتمعًا مترابط الوشائج، شديد الحرص على تقاليده وعاداته، ومدرسة للمهارات الحرفية، وقلعة للعصامية، وعنوانًا لكل ما هو ذوق وجميل ومتين ولذيذ ونظيف!

وهكذا «كردفان» عاصمة «الأبيض» التى يدللونها فى السودان بعروس الرمال، مجتمع شديد الترابط، متميز الخصائص، يحفظ للفروسية تقاليدها الشامخة، ويملك لسانًا فصيحًا لشعر العرب، وتعد مركزًا مهمًا لتجارة الجمال والأبقار والصمغ العربى و. . من هنا ـ فى تقديرى ـ يعود بعض الفضل والنجاح الصحفى وأسباب الاستمرارية الذى تحقق لأخبار دمياط وكردفان على مدى يزيد على

نصف قرن من الزّمان . . إلى معطيات تلك المجتمعات الزاخرة بالتنوع والأصالة، فجاءت التجربتان تعبيراً عن واقع حى وبيئة ناضجة ومصالح وعلاقات متشابكة اجتماعية واقتصادية وثقافية، ناهيك عن الخلفية الحضارية المتميزة، الأمر الذى يشكل فى النهاية أهم المقومات الأساسية لازدهار الصحافة الإقليمية، حيث تتوافر المادة الصحفية وتتعدد أوجه المعالجة الميدانية وتتسع قاعدة الانتشار والتوزيع.

الأمر كذلك إزاء الإذاعات المحلية . . ولو أن دمياط شرعت فى إنشاء إذاعة محلية رسمية أو بالتمويل الشعبى، فلا شك أنها سوف تلعب دورها الإيجابى المطلوب فى بعث نهضة عظيمة ورواج اقتصادى هائل فى دمياط إلى جانب تنشيط حركة الصناعة والتجارة وتنمية الأعمال الحرفية والحفاظ على الخصائص الحضارية والتراث الشعبى الذى يميز الشخصية الدمياطية.

لقد شهدت الكثير من مدن الدلتا والصعيد عديداً من تجارب الصحافة الإقليمية منذ أواخر القرن التاسع عشر، إلا أنها باءت جميعًا بالفشل، وطويت صفحاتها بعد شهور أو أعوام، ربما لأن هذه التجارب حاولت أن تقلد الصحف والمجلات التى تصدر فى القاهرة، فلم تقدم جديداً يؤهلها للمنافسة والصمود، وغاب عن رواد تلك التجارب أن المطلوب فى الصحافة الإقليمية الناضجة أن تغرق إلى أذنيها فى البيئة المحلية واللامركزية!

على أن دمياط كانت أسبق من غيرها إلى حلبة الصحافة الإقليمية، عبر اعتمادها التعبير عن البيئة ومشاكلها، وأخبار المسافرين والقادمين والمهاجرين والأفراح والمواليد والوفيات، وكان من أسباب نجاحها كذلك اعتمادها على الاشتراكات التى تضمن لها الدخل والأرباح والاستمرار فى الصدور. وأذكر أن جدتى لوالدتى وكانت دمياطية قح أنها ظلت تحتفظ بأعداد من جريدة «القنبلة» التى كان يصدرها فى دمياط الشيخ السلامونى، وقد علمت فيما بعد من بعض «الدمايطة» الثقات أن دوى «القنبلة» تبدد سريعًا ولم تصمد طويلاً أمام الإحن والمحن فأغلقت أبوابها وطويت صفحاتها . . ليرثها فى مهنة المتاعب عدد من التجارب الصحفية منها جريدة «دمياط» التى آثر الأستاذ زكريا الحزاوى أحد مؤسسيها تركها بعد وفاة شريكه وأصدر منفرداً جريدة «أخبار دمياط».

والله زمان يا رأس البر

وعندما يرتاد الصحفى رأس البر، تسترخى أعصابه المشدودة ويجد من الهدوء والمباهج فى المصيف الجميل البسيط ما ينسيه متاعب المهنة بكل التزاماتها وتوتراتها . . ولعله من هنا كانت سعادتى وحماسى أيضًا عندما طلب منى الصديق الشاعر الدمياطى طاهر أبو فاشا أن أكتب بعض خواطرى عن دمياط لأخبار دمياط عام ١٩٦٢ . . وكأنه دون أن يدرى أتاح لى فرصة إشباع رغبة ذاتية وشوق عارم فى التعبير عن إعجابى الشديد وودى الحميم لشعب دمياط العريق .

والحقيقة أننى عرفت «الدمايطة» شعبًا يجيد فن الحياة، وكيف يحسن التعامل مع الناس، مع الآلة والخامة، مع الطبيعة ومتغيرات الحياة . . لأنهم شعب يعرف جيدًا كيف يتعامل مع نفسه أولاً .

وقد يبدو للوافد العابر أن الدمايطة يغلب على طباعهم المرونة واللين أو الوسطية فى المعاملات، وذلك صحيح، لكنهم عند الشدائد والملمات أسود لا تنقصهم الشجاعة والحيلة حتى ينتصروا على خصومهم وذلك ما يشهد به المؤرخ ابن الأثير للدمايطة بالتدبير العبقرى على الصعيد الشعبى والعسكرى والاقتصادى مما أدى إلى صمود المدينة أمام الغزو الصليبى مرتين، والتنسيق مع أهل المنصورة إيذانا بأسر لويس التاسع وفشل الحملة الصليبية الخامسة على مصر!

وقد بدأت علاقتى مع «الدمايطة» وتأثرى بخصائصهم وسلوكهم الفريد منذ وعيى بالحياة، أرتدى «العنترى» وهو «الصديرى» الداخلى الواقى من البرد فى الشتاء، وأتذوق «القرصة» المحوجة والبط بالمارتة والسمك الصيادية والجبن المعتبر وحلوى الهريسة والمشبك و . . .

ذلك أن والدتى - يرحمها الله - كانت «دمياطية» أبًا عن جد، وقد علمت فيما بعد أن عددًا من رجالات العائلة الصعايدة والقاهريين كانوا قد سبقوا والدى إلى الزواج بدمياطيات فسعدت حياتهم، وهنأ بالهم، وكان الستر والتدبير والنجاح حليفهم . وعلى الرغم من أن والدتى تزوجت فى سن مبكرة على عادة أهل زمان، إلا أنها ظلت حتى آخر يوم من حياتها «دمياطية» أصيلة فى لهجتها ونبراتها وسلوكها الذى طبعت به الأسرة وشئونها .

هندسة وترتيب الأثاث، تكنولوجيا طهى الطعام، خزين السنة الذى يمتلئ به «الطقيسى» أو «الصندلة» أو «الكرار» على مدار العام من سمن وأرز وجبن وعسل وتوابل وحتى الصابون والكبريت والوقود، ولأن شراء الخزين دائمًا بالجملة، من هنا كان توفير أرباح الشراء بالقطاعى فضلاً عن توفير الوقت فى شرائه من السوق، زد على ذلك موهبة المرأة الدمياطية فى فن الإدارة والصرف وتدبير شئون البيت وتنظيم أوقات العمل ومذاكرة الأولاد واستقبال الضيوف ثم الاصطياف فى رأس البر قبل أن تهب نسمات القاهرة اللافحة.

على أننى وإخوتى كثيرًا ما كنا نتبرم لتعصب والدتى لدمياط، ومباهاتها فى كل مناسبة وبدون مناسبة بشطارة الدمايطة ونبوغهم فى كل دروب الحياة.. حتى قيض الله لى زيارة دمياط لأول مرة فى الخمسينيات.. ومنذ ذلك التاريخ وأنا شديد التعصب لدمياط و«الدمايطة» وتقاليدهم وفنونهم!

كان أول ما شد انتباهى فى هذه الزيارة «جزمجى» يستظل من حرارة شمس الظهيرة فى ميدان «كباس المياه» وهو يعمل بكلتا يديه فى «شد» خيوط نعل حذاء، وإلى جواره غداؤه من الخبز والجبن، وبين حين وآخر يخطف لقيمة مغموسة بالجبن ويقذفها فى فمه تباعا وهو مستمر فى عمله بجد ونشاط دون أن يلتفت حتى بعينيه إلى حركة الناس والسيارات التى يعج بها الشارع.

فى نفس الزيارة استأجرت مركبًا شراعيًا من «الجربى» حتى شارع النيل واتفقت مع صاحبه على المقابل وكان خمسة قروش فقط، وإذا بالمراكبى العجوز يبذل وابنته مجهودًا كبيرًا فى قيادة المركب وتسلية الزبون بحكايات غاية فى الجد والطرافة عن حركة الريح وأسماء «النوات» وشهرة عزبة «الشيخ ضرغام» فى صناعة الفسيخ. وهكذا عندما وصلت إلى شارع النيل كان المراكبى العجوز قد ملك علىَّ كل حواس الدهشة والانبهار والاستمتاع، وكان قد حدد بخدمته الممتازة وتسليته المبهجة المبلغ الذى يستحقه، واقتنعت طواعية بما يستحقه ودفعت إليه وإلى ابنته عشرة قروش!

أم كلثوم فى عزبة البرج

على أننى أدمنت عشق دمياط والحرص على قضاء فصل الصيف برأس البر، وأذكر أننى عبرت النيل ذات صباح أوائل الخمسينيات إلى عزبة «البرج» وكانت جموع الأهالى ومعظمهم من الأطفال والنساء والعواجيز فى انتظار عودة مراكب الصيد حتى بدأت تتوافد الواحدة تلو الأخرى. . وإذا بالصيادين يقذفون إلى هذه الجموع ببعض ما تنوء به المراكب من صيد السردين الوفير زكاة عنها، وحبًا فى مشاركة الآخرين لهم فيما جاد به الله عليهم من فضل وعطاء.

ومن طريف الذكريات أن السيدة أم كلثوم وهى كانت من عشاق التصييف فى عشتها برأس البر حتى أوائل الخمسينيات، كثيرًا ما كان يحلو لها التبكير بالحضور إلى عزبة «البرج» لمشاهدة عودة مراكب الصيد، فكان أصحابها يحتفون بها عبر المزيد من عطاء صيدهم من السردين وهم يلقون به إلى الفقراء الذين ينتظرون عودتهم ويدعون لهم بالبركة والرزق الوفير والنجاة من غدر البحر!

وأقول الحق إننى طعمت شهد الفول المدمس من يدى الحاج محمد التابعى الشهير - يرحمه الله - وكأنه فزدق مطهى، وأدركت سر الاختلاف بين فول القاهرة وفول دمياط، هو فى دمياط صنعة و«نفس» وحضارة، وهو فى القاهرة «أى حاجة» فضلا عن كونه مسكنا لجوع السواد الأعظم من الشعب بالنظر لارتفاع أسعار غيره من المأكولات. وتلك كانت شهادة الرئيس جمال عبد الناصر عندما زار دمياط إبان كان صديقه حمدى عاشور محافظًا لها، فهو بعد أن تناول مختلف ألوان الطعام الذى يشتهر به «الدمايطة»، طلب أن يتذوق الفول المدمس الدمياطى، فانتقل إليه بمقر إقامته آنذاك فى «عشة» المحافظ برأس البر، الحاج محمد التابعى ومعه قدرة الفول ولوازم «الدقة» التى كان يشتهر بها، فلم يتناول عبد الناصر طعامًا بعدها سواه طوال إقامته فى دمياط!

ويروى أن قاضيين من بور سعيد كانا فى زيارة لدمياط خلال شهر رمضان، ومن ثم اشترى كل منهما سلطانية وتوجها إلى محل التابعى لشراء الفول المدمس، وبينما الحاج محمد التابعى منشغلا فى غرف الفول ووضعه فى الوعاءين، إذا بأحد القضاة يقول له: «والنبى يا حاج محمد بلاش تحط الدقة»، وهنا طوح الحاج

محمد التابعى بسلطانيته فى الهواء وقال: الفول المدمس على قفا مين يشيل. . إحنا هنا بنتميز عن غيرنا بالدقة!

أدركت كذلك أن كل طعام أو صناعة أو خدمة ما فى دمياط «معلمة» أى تجربة وخدمة وفن وحضارة. . حتى شحاتين دمياط وجدتهم متحضرين وأصحاب صنعة وذوق وأبناء نكتة. . وكانوا رغم ما بهم من عجز أو عاهات ذوى كبرياء وذوى شخصية. . يقضى معهم أصحاب المحلات والمعارض والورش أوقاتًا ممتعة فى أحاديث خاطفة أو مزاح لطيف ينتهى دائمًا بالدعاء لهم بالصحة وطول العمر والفلاح، وبعدها ينالون نصيبهم من الهبات العينية أو مما يبيعون أو قدر من المال!

وأقول. . والله زمان يا رأس البر. . وعمار يا رأس البر إلى أبد الآبدين على الرغم من كل شىء. . على الرغم من تغير الحال والأحوال، وعلى الرغم من الفترات الاستثنائية التى عاشتها دمياط إبان سنوات النكسة، وعلى الرغم من تآكل الشاطئ الجميل تباعًا وزّحف غابات الأسمنت واختفاء العشش البسيطة المصنوعة من الخشب البغدادلى وبوص «الأكياب»!

أذكر أننى قلت لنفسى فى زيارتى الأولى لرأس البر بل هى الجنة الدمياطية، فقد كانت رأس البر وما زالت والحمد لله امتداداً للمزاج الدمياطى المبدع الرزين، العشش والفيللات المتباعدة، دونما حفاوة بالديكور والتزويق، «البحبحة» فى الغرف والفراندات وارتفاع الأسقف وبساطة الأثاث؛ كى يتاح للهواء الصافى النظيف أكبر فراغ ممكن حتى يرطب أجسام المصيفين. و«البحبحة» عكس التقتير و«التزنيق» فى غير محله، وتلك صفة لصيقة وأصيلة فى الشخصية الدمياطية، فالمصيف فى نظر الدمياطى مجال لمكافأة النفس وفرصة لتجديد النشاط بعد عام من الكد والعطاء، ومكافأة للزوجة على تعبها وإخلاصها فى تربية الأولاد وإدارة شئون البيت، ومكافأة للأولاد على المذاكرة والنجاح!

وقد تذكرت رأس البر فى إعجاب وإعزاز مضاعف عندما كنت فى زيارة لأمريكا عام ١٩٩١، حيث دعتنى الطبيبة النفسية الدكتورة أليسون حرم صديقى فكرى أندراوس الكيميائى ورئيس رابطة المهنيين العرب وتنتمى إلى عائلة

أمريكية أرستقراطية وثرية ـ لقضاء أيام فى مصيف ولاية «كنيتكت» المطلة على المحيط الأطلسى، وهناك اكتشفت أنه واحد من أرقى المصايف الأمريكية، على الرغم من أن المصيف خال من مبانى الطوب والأسمنت، إذ كان يضم أكشاكًا خشبية لإقامة المصطافين لا تختلف كثيراً فى بساطتها عن عشش رأس البر.. تحسرت على المليارات التى أهدرت فى الساحل الشمالى بمصر على رغم أن أصحاب الفيللات والشاليهات الفاخرة لا يرتادونها سوى أيام فقط خلال موسم الصيف فحسب!

كذلك أدركت فى رأس البر سر المثل الذى يؤمن به الدمياطى «إذا لزم الزيت أهل البيت يحرم على الجامع»، ذلك أن الدمياطى فى المصيف يبحبح على الأسرة فى هذه المناسبة، فى المسكن والمأكل والحلوى والفواكه وكل دروب التسلية الحلال على البحر وشارع النيل ونزهة القوارب فى الجربى.

ويتهم الدمياطيون أهل بورسعيد بمسئوليتهم عن وصفهم ظلمًا بالبخل، عبر الترويج للعديد من الحكايات التى ما أنزل الله بها من سلطان، ومنها أن الدمياطى غالبًا ما يسأل ضيفه: «تتعشى ولا تنام خفيف؟» وعندما يشعر أن ضيفه يفكر فى المبيت لديه، عندئذ يحرجه بسؤال آخر: «يا ترى تحب تنام عندنا ولا تاخد راحتك فى اللوكاندة أحسن؟».

على أن الدمايطة يردون للبورسعيدية الصاع صاعين، ويتهمونهم بالفشخرة الكاذبة، بل والتحرر أيضًا، وبينها نكتة تقول: «واحد بورسعيدى بيقول لواحد صاحبه من غير مؤاخذة يا أبو العربى.. إمبارح شوفت واحد عمال يبوس ويحضن بنتك فى جنينة البلدية، فرد عليه صاحبه: يا راجل حرام عليك دول يا دوبك ثلاث شجرات.. قوام عملت منهم جنينة!».

والدمياطى الذى خبرته ليس بخيلاً كما يشاع عنه، لكنه شخصية اجتماعية واقتصادية متوازنة، فى سهره وراحته، فى عمله وكده، فى رعايته لنفسه وأسرته، ويومه وغده، والقرش الذى لا يضيف جديداً إلى رصيده الاجتماعى والاقتصادى أو كسبا للصداقة و المعرفة يعتبر صرفه حرامًا وسفهًا وتبذيرًا.

إذا جاء ضيف

كنت مدعوا لدى أحد الأصدقاء على وليمة من الأسماك فى منزله بالقاهرة، وكعادتى المفضلة نزعت السمك البورى من الأشواك والجلد المشوى، ثم فرطته مخليا فوق الأرز الأحمر ورحت أتناوله فى شهية، وكان يجلس إلى جوارى صديقى الدمياطى الأصيل عباس الطرابيلى رئيس تحرير جريدة الوفد، حيث أبدى نقده أو ملاحظته الذكية على طريقتى فى أكل الأسماك، وقال: لو أنك تناولت الأرز منفردا والأسماك كذلك، إذن لكسبت مذاقين وضاعفت من لذة الطعام!

وكان صديقى الشاعر الدمياطى الظريف المرحوم طاهر أبو فاشا قد دعانى لتناول الغداء فى عشته برأس البر عام ١٩٦٦، وقال لى: جوع نفسك كويس يا أبو حجاج لأنى وصيت على صيد خمسة كيلو سمك بورى معتبر من «الضاهرة» حاكم المنطقة دى فى بحيرة المنزلة السمك فيها دايمًا صايم ومبطرخ، وكان الشاعر فيصل ابن طاهر أبو فاشا قد جاء يصحبنى للعزومة، وفى طريقنا التقيت بصديق عزيز غاب عنى زهاء ثلاثين عامًا وهات يا أحضان وتبادل الذكريات، فلما أدرك أننى على عجل وعرف أننى على موعد مع طاهر أبو فاشا، قال: ياه.. الراجل ده نفسى أشوفه بجد، أصلى أنا معجب بكل ما قرأت وسمعت من أشعاره فى الإذاعة.. ثم سألنى: يا ترى ممكن آجى معاك.. وكدت أعتذر، لكن فيصل بادر إلى دعوته على الرحب والسعة.

فلما دعينا إلى الطعام، فوجئت كما فوجئ صاحب الدعوة بهذا الصديق وقد انهمك بشراهة فى التهام السمك البورى المشوى المخصوص الواحدة تلو الأخرى،، فلما انصرف إلى حال سبيله، فوجئت بطاهر أبو فاشا يفصح عن رأيه فى قصيدة ساخرة أذكر من مطلعها بيتا واحدا:

إذا جاء ضيف جاء للمضيف ضيفان فيأتى على أكل الضيوف الضيافن

وقفل اليهودى راجعًا

والدمايطة الرجال لا يستقبلون الغرباء فى بيوتهم كونهم محافظين فى الغالب اللهم سوى الأقارب والأصدقاء فى المواسم والأعياد، خصوصًا أن المقاهى ـ على

حد تقديرهم ـ تقوم بوظيفة صالونات البيوت، وهى إلى ذلك ملتقى أرباب الحرف والأعمال لتدبير شئونهم وعقد الصفقات والترويح عن النفس.

وفى دمياط ينصحونك إن أردت استثمار أموالك، فلديك أكثر من مجال، فى الحلوى كالهريسة والمشبك تستغرق دورة رأس المال يومًا واحدًا ينتهى بجني الأرباح، وفى صناعة الجبن أسبوعًا، أما دورة رأس المال فى الموبيليا بداية من شراء الأخشاب والتصنيع والتسويق فلا أقل من ثلاثة شهور!

ونادرًا ما تجد عاطلاً فى دمياط، الجميع يعملون ويعرفون قيمة الوقت، ولا يعرفون الكسل واللكاعة أو الثرثرة، ودائمًا تتغير أحوالهم المعيشية والاقتصادية من حسن إلى أحسن، وإلا كان ذلك فألاً بالفقر، أو بقاء الحال على ما هو عليه، ويندر أن يلتقى دمياطى بآخر إلا ويبادره بالسؤال «المزاج عال؟»، وربما من هنا كان وصف جمال عبد الناصر لدمياط «يابان مصر»، وقديمًا يروى أن يهوديًا جاء لاستثمار أمواله فى دمياط، ولما التقى طفلاً على مشارفها سأله: معى قرش وأرغب فى أن أشترى به طعامًا لنفسى، وطعامًا لحمارى، وأسلى نفسى، ماذا أفعل؟ وأجابه الطفل: اشترى بطيخة.. قلبها لطعامك وقشرتها لحمارك ولبها لتسليتك و.. ركب اليهودى حماره وقفل راجعًا، فقد أدرك أن لا مستقبل له فى دمياط!

ولم تعرف دمياط فى تاريخها كله ظاهرة الخمارات والبارات، فالدمايطة متدينون، ولا يزالون على عهدهم فى بناء مسجد جديد كل عام، حتى الأجانب واليهود الذين كانوا يعشقون التصييف فى الماضى برأس البر لم يكن أيهم يجرؤ حتى على شرب البيرة علانية!

أذكر أننى رأيت عددًا من أثرياء الدمايطة الذين أقبلوا فى الستينيات على شراء سيارات النصر ١١٠٠ و١٣٠٠ ما زالوا يحتفظون بها سليمة حتى الآن، الأمر الذى أصبح فيه كل صاحب سيارة مرسيدس أو شيفروليه موضع نقد من الجيل الدمياطى القديم.. فكيف جرؤ صاحبها على تجميد أمواله فى حتة حديدة معرضة للحوادث، ولماذا ودمياط تزداد اختناقًا بالسابلة والناس، وهل ضمن صاحبها تقلبات الزمان والسوق و.. «اخشوشنوا فإن النعمة لا تدوم».

والحقيقة أن الدمايطة يجسدون النموذج المثالى المضاد لكل ما ابتليت به مصر فى زمن الانفتاح الاقتصادى على البهلى، فهم يصنعون مشروباتهم فى بيوتهم كالخروب والتمرهندى والسوبيا، ونادراً ما يشربون الكازوزة المثلجة، والجيل القديم من الدمايطة لا يقترب من محلات الملابس والأحذية إلا مرتين فى السنة لشراء «كسوة الصيف» للأسرة كلها، أو «كسوة الشتاء»، وأحيانًا كسوة استثنائية قبيل افتتاح المدارس، والمهم توافر المتانة والذوق والسعر المناسب!

والمال والصحة وديعة الله لدى الإنسان، وتلك عقيدة الدمياطى الذى يحسن رعايتها وتجنيبها التهلكة والإفساد، فهو حريص على المال مهما بلغ أكوامًا مكدسة.. فالله الذى يرث الأرض وأنعم علينا بالصحة والعقل، لا بد أن نحسن التصرف فى وديعته. وقد لاحظت بعد اتساع علاقتى بالدمايطة.. ندرة الأثرياء الذين يسرفون فى حياتهم أو ملذاتهم، وندرة الذين يتوقفون عن الكد والعمل والسعى وراء الرزق يدعوى تقدم العمر أو بحجة أن ما لديه من مال حصن منيع من العوز أو التقهقر خطوة أمام تقلبات الزمن.

والدمياطى لا يبدد قواه البدنية والعقلية فى الترهات والصغائر، وبعض الدمايطة يعمرون، وعندما يتقدمون فى العمر لا تجدهم نادمين على اقتراب الأجل. فقد أحسنوا التعامل مع أجسامهم وعقولهم ومالهم وأوقاتهم بحكمة واتزان، فلم يفرطوا فى شىء، ولم يحملوا الآلة البشرية فوق ما تطيق أو أقل مما تطيق، واجتهدوا قدر الطاقة فى أن يثروا الحياة بالعمل والإنتاج والإبداع، وربما من هنا كان رضاء العواجيز وأرباب المعاشات بحالتهم الصحية والاجتماعية التى استعدوا لها أيما استعداد فترة شبابهم وكدهم و.. يُحسب لدمياط أنها تخلصت نهائيا من ظاهرة الأمية عبر الجهود الذاتية لأبنائها المتعلمين، وقد أعلن عن هذا الإنجاز العظيم رسميا فى شهر يوليو عام ٢٠٠٥م!

ولقاءات الأصدقاء فى دمياط تتسم دائمًا بالظرف والمؤانسة ورقة الحديث والنكتة.. ولعلى لا أغالى إذا قلت إن عشق الدمايطة من كبار السن لاستعادة ذكريات الماضى الجميل لا يفوقهم فيه شعب آخر على حد علمى سوى العواجيز من أهل السودان.

الحرب الأهلية فى لبنان

ولسان الدمياطى حلو وذواق، و«اللسان الدمياطى» كان أحد الأسباب الجوهرية فى اتساع رقعة السوق أمام منتجات دمياط، وبائع الموبيليا الدمياطى كالمطوف فى الأراضى المقدسة تظل علاقاته حميمة ومتجددة مع زبائنه، فسوف تأتى الفرصة من جديد للتعامل مع الزبون.. والمسألة ليست فهلوة، ولكنها السلعة الجيدة والأمانة وصدق القول.. ثم اقتناع الزبون بأنه على حق وأنه نال حقه وزيادة شوية!

وتصادف فى أوائل الثمانينيات.. عندما كنت أغطى أحداث الحرب الطائفية فى لبنان أننى التقيت مصادفة فى بيروت بصديقى عم شعبان صاحب كازينو الجامعة المطل على النيل بمنطقة الجربى فى رأس البر، وروى لى أنه كان منذ أيام أسيراً وولداه فى أيدى الميلشيات المارونية.. وصدر قرار بإعدامهم باعتبارهم مع الجانب الآخر، وإذا بعم شعبان يخاطب هؤلاء الذين شرعوا إلى قتله وأولاده بلسان دمياطى حلو، وكيف أنه رجل على باب الله لا يفهم فى السياسة ولكنه يسعى وراء رزقه أينما كان، وأنه جاء إلى لبنان للعمل فى موسم جمع البرتقال، وأنه وأولاده فى النهاية، لن يزيدوا الدنيا أو ينقصوها بقتلهم أو حياتهم، ثم راح يحدثهم عن أن إخوانهم فى دمياط من أصول لبنانية وعاداتهم وتقاليدهم واحدة، ثم دعاهم إلى زيارتها فى ضيافته.. ونجا عم شعبان وولداه من الموت المحتوم بلباقته وحلو حديثه!

نفس الرجل - ذات صيف فى الستينيات - وجد أحد الزبائن يشكو ارتفاع ثمن زجاجة «بيبسى» وإذا عم شعبان يشرح للزبون حكاية جلب البيبسى من المنصورة وتكلفة النولون، وندرة الثلج، وأن المسألة فى النهاية «زوايدها نواقص».

وقد لفت انتباهى فى حديث عم شعبان مع الميلشيات المارونية.. ذلك التماثل فى كثير من الصناعات والحرف والعادات والتقاليد بين دمياط وفلسطين والشام ولبنان.. حتى فى أسماء العائلات مثل اللوزى والبكرى والكردانى والنشار وزاهر والخشاب.. إلخ.

وفى أثينا التقيت وزوجتى بسفيرنا فى اليونان الصديق يحيى عبد القادر،

ودعانا إلى الغداء فى أحد المطاعم، وكان ألوانًا شتى من الأسماك، وقال لى: اعلم أن كل سمكة فى السوق أو فى مطعم يونانى اشترك فى صيدها واحد من عزبة «البرج»، حيث يشكلون نسبة كبيرة من العاملين فى صيد الأسماك، وهم موضع إعجاب وثناء وإقبال من أصحاب سفن الصيد وسفن النقل، أولاً لسلوكهم المنضبط، وعدم تبرمهم بظروف العمل الصعبة والأجور الضئيلة، لكنهم بعد قليل ينجحون بحديثهم الحلو وشطارتهم فى إقناع أصحاب سفن الصيد راضين طائعين بتحسين ظروف العمل ورفع الأجور!

وفوق الباخرة اليونانية التى حملتنى من الإسكندرية إلى ميناء بيزيه، وفوق البواخر الصغيرة التى تنقلت عبرها بين الجزر اليونانية، كنت أجد دائمًا من يقدم إلىَّ نفسه من بحارة البواخر ويقول: «محسوبك من دمياط».

والمشكلة أن هؤلاء الشبان يعودون بالحنين والتجربة إلى دمياط ويصطدمون بالتخلف فى وسائل الصيد فى بلدهم. . ولا يجدون تشجيعًا من الدولة ورأس المال الخاص للاستفادة من خبراتهم المتقدمة فى هذا المجال الحيوى.

وصحيح أن كثيرا من الحرفيين فى دمياط وأرباب المهن المتقدمة جذبهم ارتفاع الأجور فى الخارج، لكن تظل دمياط معملاً لتفريخ غيرهم من الحرفيين الحاذقين، ثم لا يبقى سوى الأمل فى أن تستعيد دمياط أمجادها الغابرة بعد مشروع الميناء البحرى الجديد، لعله يفتح أبواب السوق العالمية أمام منتجاتها المتفوقة، وإتاحة مجالات الاحتكاك بين شعب دمياط وغيره من الشعوب بشكل مباشر كما كان عليه الحال فى زمان ميناء دمياط القديم.

المشير الجمسى يبكى فى الكيلو ١٠١

فى مذكراته التى نشرها لأول مرة عام ١٩٨٩ نسى المشير عبد الغنى الجمسى سهواً، وربما تناسى عامداً المرة الثانية التى طفرت فيها دموعه الغالية إبان حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ ، بينما كنت لا غيرى السبب فيما حدث، وتحديداً وبالتفصيل فى آخر يوم من مفاوضات فض الاشتباك التى جرت بين العسكريين المصريين والإسرائيليين فى «الكيلو ١٠١» على طريق القاهرة السويس.

كنا مجموعة المحررين العسكريين المصريين قد وصلنا فى الصباح الباكر إلى خيمة المشير الجمسى، وعلى بعد خطوات كانت خيمة اليعازر رئيس أركان جيش الدفاع الإسرائيلى تعج بعدد كبير من المراسلين العسكريين الإسرائيليين، ولفت نظرنا أنهم يراقبوننا عن بعد ويلتقطون العديد من الصور عبر عدسات «الزووم»، فلما وصل إلى موقعنا اللواء خيرى حسين قائد الشرطة العسكرية آنذاك، وكان لا يزال يرتدى زيه العسكرى الميدانى، وقد استبدل برتبته النحاسية أخرى من الخيوط المنسوجة، فلم يكد يطلع على المشهد ويطمئن على الأوضاع الأمنية حتى انصرف!

ويبدو أن المراسلين الإسرائيليين رصدوه، إذ تقدم أحدهم نحونا وهو يحمل كاميرا فيديو وسألنا عن اسم ذلك القائد العسكرى المصرى، فلما لم نعره اهتماماً قفل راجعاً إلى زملائه الذين راحوا يقذفوننا بوابل من العبارات الاستفزازية باللغة العربية وبينها أننا جبناء ونخاف من الضباط الذين يقفون حولنا كمبرر لعدم الرد على سؤالهم عن ماهية ذلك اللواء المصرى الذى زار الموقع ثم انصرف.

والحقيقة أننا التزمنا ضبط النفس فى البداية، لكن مع تمادى المراسلين الإسرائيليين فى الشتائم والسخريات، لم أجد مفراً وزميلى المرحوم عبد الستار الطويلة والمرحوم حمدى لطفى المحرر العسكرى بمجلة المصور والزميل صلاح قبضايا المراسل العسكرى للأخبار أطال الله عمره، من أن نرد لهم الصاع صاعين بالعربية والإنجليزية حتى ألزمناهم صمت القبور، خصوصًا عندما أدركنا أن ما يجرى يتم تسجيله بالصورة والصوت والكلمات عبر مراسلى وكالات الأنباء والفضائيات والصحفيين الأجانب الذين جاءوا من القاهرة وتل أبيب لمتابعة وقائع اجتماع الكيلو ١٠١!

على أنه خلال تلك الزوبعة، كان المشير عبد الغنى الجمسى مجتمعًا فى خيمة «سلاسفو» ممثل الأمين العام للأمم المتحدة مع اليعازر، ويبدو أن المفاوضات بينهما حول فض الاشتباك كانت صعبة ومتعثرة، إذ كان موعد المؤتمر الصحفى لإعلان ما تم التوصل إليه من نتائج سرعان ما يلاحقه الإعلان عن تأجيله مجدداً، إلى ذلك كنت أراقب من مكانى خروج الجمسى مرتين من خيمة «سلاسفو»، الأولى وكان بصحبته العقيد فؤاد هويدى الملحق العسكرى المصرى فى لندن، حيث استغرقهما حديث تشاورى فى الخلاء لمدة خمس دقائق، وبعدها عرج الجمسى إلى «تواليت» ميدانى مجاور، ثم تكرر هذا المشهد للمرة الثانية، وعندئذ قدرت أنه ربما كان يعطى لنفسه فرصة للتفكير فيما هو معروض على مائدة المفاوضات، أو ربما يكون مصابًا بمرض السكر و. .

حتى دعينا للاجتماع أمام خيمة سلاسفو لحضور المؤتمر الصحفى المنتظر، وعندئذ اختلط الحابل بالنابل، وفوجئنا بمجندة إسرائيلية تحمل طفلها وتدعى أمام الصحفيين الأجانب وكاميرات التليفزيون أنها تواقة إلى السلام والطمأنينة حتى تربى صغيرها و. . لكن ما حيلتها والشعب فى إسرائيل يعانى العدوان والحروب العربية تباعًا، وفى المقابل قاطعناها بنفس اللغة الإنجليزية التى كانت تتحدث بها وقلنا لها أنت «كيللر» أى قاتلة وسفاحة وحتى تواصل الهجوم الحاد بيننا وغيرها من الإسرائيليين، حتى صدرت لهم التعليمات من مخابراتهم بالانسحاب إلى الخلف!

وأغرب ما فى هذا اللقاء المختلط، حين انتحى بى شاب فى العقد الثالث من العمر وقدم نفسه باللهجة المصرية وقال إنه حفيد الملحن اليهودى المصرى الشهير داود حسنى ويعمل مراسلاً إخبارياً فى التليفزيون الإسرائيلى، ولم يدعنى أنصرف عنه حتى قال لى فى عبارات تلغرافية متقطعة: «الآن ولأول مرة منذ اندلاع الصراع العربى الإسرائيلى جاءت فرصة العرب لفرض السلام العادل على إسرائيل، خصوصاً ولم تعد تخلو أسرة يهودية من فقيد أو مصاب أو مفقود من رجالها أو أبنائها فى حرب أكتوبر!».

لم يتسع الوقت لاستكمال حديثه المثير حين خرج الجمسى وسلاسفو واليعازر من اجتماعهم الطويل ومفاوضاتهم الشاقة، حيث اكتفوا جميعاً بإلقاء كلمات قصيرة تشى بالاتفاق على جدول زمنى لفض الاشتباك وانسحاب القوات الإسرائيلية، وهكذا فاتت الفرصة على المراسلين العسكريين لتوجيه الأسئلة وتلقى الردود واستجلاء الموقف، لكن ما إن اختلى المشير عبد الغنى الجمسى بالمراسلين العسكريين المصريين فى خيمته، حتى بادرنا فى وضوح وجدية وحزن شديد إلى شرح ما تم الاتفاق عليه مع اليعازر بحضور سلاسفو، حتى سألته: هل تعتقد سيادتكم أن ما تم الاتفاق عليه نهائى أم لا يزال يحتاج إلى موافقة القاهرة وتل أبيب؟ وهنا توقف الجمسى برهة ثم عاد يقول: نحن بحثنا التفاصيل العسكرية ورفضت محاولة الوفد الإسرائيلى الحديث فى القضايا السياسية، أما الخطوط الرئيسية لفك الاشتباك أو الانسحاب الإسرائيلى فقد تم الاتفاق عليها عبر القيادة السياسية، دون أن يوضح مع من تم هذا الاتفاق، وفى مثل تلك الإجابات التى تحتمل الكثير ويحيطها الغموض المقصود، يظل دور المراسل العسكرى الاجتهاد والتخمين فحسب.

كان الجمسى فى غاية الإجهاد وملامح وجهه مزيج من الابتئاس والصرامة ووجدتها الفرصة السانحة لسبر أغوار المجهول حينما سألته: هل تعتقد يافندم أن النتائج التى وصلتم لها عبر مفاوضات «الكيلو ١٠١» تمثل المعادل المتكافئ والعادل لأداء قواتنا وما حققته من انتصارات فى حرب أكتوبر؟

ودون أى مبالغة أو تهويل راح الجمسى يفكر لحظات وكأنه بوغت بهذا السؤال.. ثم إذا عيناه وقد اغرورقتا بدموع حبيسة، لكنه تمالك أعصابه ونظر إلى

الأمام بشكل مركز ثم قال: أنا رجل عسكرى ولا دخل لى بالسياسة . . وأترك للتاريخ أن يجيب عن هذا السؤال!

والشاهد أن الجمسى سبق وبكى للمرة الأولى فعلاً فى استراحة الرئاسة بأسوان، وكان هنرى كيسنجر مستشار الأمن القومى الأمريكى قد فاجأه بخبر اتفاقه مع الرئيس أنور السادات على تخفيض الوجود العسكرى المصرى على الضفة الشرقية لقناة السويس إلى مجرد ٧٠٠٠ جندى و٢٠ دبابة فقط وعدد من بطاريات المدفعية، ولم يمهله حتى يستكمل التفاصيل حيث أبدى الجمسى اعتراضه بشدة على وضع القوات المصرية بلا أى ضمانات دفاعية فى مواجهة احتمالات الهجوم الإسرائيلى، لكن كيسنجر لم يأبه لاعتراضه كونه مرءوسًا للقائد الأعلى، وعليه بالتالى الطاعة وتنفيذ قرار السادات، ثم حاول إقناعه بأن هذا الإجراء يفوق فى أهميته الحاجة إلى توفير ضمانات أمن القوات المصرية، بدعوى أنه يتعلق باستراتيجية السلام الشامل والنهائى التى يتوافر شخصيًا على وضعها!

زيارة السادات للقدس

والحقيقة أن الجمسى تعرض منذ تعيينه وزيرًا للحربية لسلسلة من مواقف السادات المفاجئة والمتخاذلة التى رأى أنها لا تتفق سواء مع الثوابت الوطنية أو القومية كما أنها تبخس الانتصارات الاستراتيجية التى حققتها العسكرية المصرية فى حرب أكتوبر، ومن ذلك تعبيره العفوى بالاحتجاج حين عرض السادات على مجلس الوزراء فكرة قيامه بمبادرة سلام مع إسرائيل عبر زيارة القدس المحتلة، ولعله من هنا أدرك السادات ضرورات الفراق مع الجمسى، فهو حين قرر تنحيته من منصب وزير الحربية كان قد غير فى نفس الوقت اختصاصات الوزير الجديد اللواء كمال حسن على بعد أن أصبحت الوزارة لمهام الدفاع وليس لمهام الحرب فى أعقاب تأكيد الرئيس السادات بأن حرب أكتوبر آخر الحروب العربية ـ أو المصرية على الأقل ـ مع إسرائيل.

وإذا كان منصب الجمسى قد منعه من تقديم استقالته وهو فى منصبه العسكرى

أسوة باستقالة ثلاثة من وزراء الخارجية المصرية وهم: إسماعيل فهمى، وإبراهيم كامل، ومحمود رياض، إلا أنه حرص بعد اختيار السادات له فى منصب المستشار العسكرى ألا ينهض بمهامه بعدما أدرك أنها مجرد وظيفة شرفية لا نفع منها ولا جدوى من ورائها، خصوصًا وقد سبق أن أكد السادات على تعيينه وزيرًا للحربية مدى الحياة ثم لم يف بوعده، بل وكلفه بمسئولية وضع خطة لتأمين القوات المصرية فى شرق القناة وسيناء، على الرغم من موافقة السادات على التخفيف المخل لحجم القوات، فى الوقت الذى سبق وأبلغ السادات كيسنجر أن الخطة المصرية الموضوعة للحرب لن تمتد إلى الممرات الحاكمة ولا هدف من ورائها سوى تحريك القضية، مما اعتبره الجمسى تفريطًا وطنيًا وسياسيًا وأمنيًا بالغ الخطورة بينما لا تزال الحرب فى بداياتها وأوجها!

عندئذ أدرك الجمسى أن قطار التسوية يسارع الخطى بقيادة السادات وكيسنجر إلى نهايته المحتومة؛ ومن ثم قرر التقاعد عام ١٩٨١ على الرغم من كل إغراءات السادات، سواء حين أنعم عليه بنجمة الشرف العسكرية وهى أعلى وسام عسكرى مصرى، وإغراقه وكيسنجر بالمديح بدعوى أن القادة الإسرائيليين يقدرون أنهم لم يواجهوا قبله قائدًا عسكريًا عربيًا فى موهبته وقدراته العسكرية الفذة إلى درجة وصفه بـ«الجنرال المخيف»، أو استدعائه بعد تقاعده لمرافقة السادات على ظهر اليخت «الحرية» خلال عبوره من بورسعيد إلى الإسماعيلية إيذانًا بإعادة فتح قناة السويس، وكان بكامل زيه العسكرى ورتبة المشير التى لم يمارس اختصاصها قط، وربما من هنا كان اعتزازه أكثر برتبة فريق خلال احتدام حرب أكتوبر!

تفكيك مصنع الطرابيش

من دواعى الفخر فى سجله العسكرى على مدى أربعين عامًا، دوره البارز والمشهود الذى أسهم فى وضع خطة حرب أكتوبر وتحديد يوم اندلاعها وتوفير كافة ضمانات نجاحها وسريتها، وهو صاحب فكرة عبور قيادات الجيوش والألوية إلى الضفة الشرقية قبل عبور الأنساق الأولى وفقًا لأسلوب القتال العربى فى زمن

الفتوحات الإسلامية «اتبعنى» أو «فولو مى» بالإنجليزية الذى أعاد ابتكاره القائد الألمانى الشهير روميل إبان الحرب العالمية الثانية التى شارك فيها الجمسى وشكلت أولى تجاربه العسكرية الميدانية إثر تخرجه فى الكلية الحربية عام ١٩٣٩ ولم يتجاوز من العمر ١٨ عامًا، حيث ولد فى قرية البتانون بمحافظة المنوفية عام ١٩٢١!

وإذا كانت السعودية قد أنعمت على الجمسى بوسام الملك عبد العزيز آل سعود، وفرنسا بأعلى أوسمتها العسكرية، ويوغوسلافيا حين قلده الرئيس تيتو وسام العلم، إلا أنه ظل يعتز بين كل ذلك التكريم، باختيار الموسوعة العسكرية الأمريكية له ضمن عدد محدود من الشخصيات العسكرية التاريخية التى عرفها القرن العشرون تقديراً لدوره المتميز فى الإعداد والتخطيط لحرب أكتوبر، ولعل هذه الواقعة تذكرنا بالحفاوة ومظاهر التكريم التى قوبل بهما القائد العسكرى المصرى إبراهيم باشا ابن محمد على، حين استضافته الأكاديمية العسكرية فى كل من فرنسا وإنجلترا، وخلعوا عليه أوصاف المجد والعبقرية كونه يطاول قامة الإسكندر الأكبر ونابليون و. . لكن بعد أن كانت فرنسا وبقية الدول العظمى آنذاك قد تحالفت على توجيه ضربة عسكرية ماحقة للأسطول المصرى فى «نفارين»، وبعدها كان إلزام محمد على بتسريح الجيش المصرى وتفكيك المصانع والترسانة البحرية وحتى مصنع الطرابيش!

المعروف أنه سبق وجرى ترجمة العديد من مؤلفات الجمسى العسكرية إلى عدة لغات، وبينها كتابه عن الحرب الأمريكية فى أفغانستان، والحرب العراقية الإيرانية، وحرب الخليج الثانية، وكذا مذكراته العسكرية التى أعيد طبعها عدة مرات.

فى نادى هليوبوليس

وإذا كان الرئيس أنور السادات قد وصف الجمسى بأنه القائد العسكرى المصرى لكل العصور، فإن الرئيس جمال عبد الناصر قد سبق ووصفه بـ«الدرع»، كونه رجل المدرعات الذى لم يستبدل بها عشقًا لسلاح سواه، فيما يطلق عليه زملاؤه وتلاميذه «رجل التشكيلات»، حيث تدرج فى كل المناصب العسكرية دون أن

يقطع علاقته أبدًا بالتشكيلات العسكرية حتى تولى رئاسة هيئة العمليات عام ١٩٧٢، ثم رئيسًا للأركان، ثم قائدًا عامًا إثر رحيل المشير أحمد إسماعيل!

وربما من هنا توقفت كثيرًا فى حزن أمام مغزى قول أحد أحفاده من أنه لم يكن قد دار فى خلده من قبل كم كان جده مشهورًا ومهمًا ومحبوبًا إلا بعد رحيله وتسليط وسائل الإعلام الضوء على مواقفه وتاريخه المشرف، ولعله فى نفس الوقت مصدر حزن الجميع كذلك لما آل إليه حال هذا القائد العظيم والصديق الودود والإنسان الذى كان يقطر تواضعًا، حيث ألقت به المقادير موظفًا للعمل فى شركة لتصنيع وتركيب الرخام، إذ كان معاشه لا يتجاوز ١٥٠٠ جنيه شهريًا لا غير، وقد رأيته وهو جالس مع الأجيال الجديدة فى نادى «هليوبوليس» يروى لهم أسرار حرب أكتوبر وعظمة المقاتل المصرى، ثم يدعوهم إلى الإيمان دومًا بالعلم وبالتخطيط والاعتزاز بالانتماء إلى مصر وإلى الوطن العربى.. و.. هكذا كان يقضى أوقات الشيخوخة فى العمل والقراءة ومتابعة كل ما يكتب فى الغرب وإسرائيل عن حرب أكتوبر والمبادرة إلى تصحيح ما تحفل به من افتراءات وأكاذيب وإلقاء المحاضرات حول دروسها العسكرية المستفادة.

فهل كثير عليه أن نضع له تمثالاً فى أحد ميادين القاهرة، أسوة بتماثيل الأجانب الذين لا نعرفهم ولا كانت تربطهم صلة بمصر ولا قدموا إليها خيرًا يذكر؟!

اختطاف الضابط البريطانى ريجدن

كم من الأوقات السعيدة والأمسيات النادرة شهدتها الشقق العديدة التى استأجرها وسكنها الصديق رسام الكاريكاتير العتيد أحمد طوغان عندما كان أشهر عازب بين أصدقائه الفنانين والمثقفين والصحفيين، حتى انتهى عهدنا بها فى آخرها وكانت بالدور السابع من عمارة تطل على الممر الذى يصل شارع شريف بشارع ٢٦ يوليو، حين قرر فراق العزوبية والزواج بفتاة أحلامه التى طالما حدثنا عن أوصافها وسماتها وبحث عنها طوال عمره، حتى وجد غيرها ووقع فى شباكها.

وقد ظلت هذه الشقة تلعب دور الصالون الأدبى والسياسى لنحو يزيد على ربع قرن حتى اغتصبت من حياتنا بعد أن تحولت إلى عش للزوجية الهانئة فى السبعينيات، إذ كنا كعادتنا نلتقى فى رحابها كل مساء أو كلما سعت إليها أقدامنا تلقائيًا أو ألقت بنا تصاريف الحياة إلى وسط القاهرة، حيث كان بانتظارنا دائمًا وسائل الراحة والطعام ومؤانسة الحاضرين من الأصدقاء، وربما الائتناس بالصديق طوغان منفردًا، فكان يستقبلنا بترحابه المعهود والجودة بالموجود، ومن جانبنا لم نقصر كل بحسب دخله وذوقه فى حمل ما تيسر من مستلزمات الصحبة الحلوة.. كبابًا أو أسماكًا أو منوعات البقالة من صنوف الجبن والبسطرمة والزيتون والبيض والذى منه!

من طول خبراتنا فى التعامل مع طوغان، كان بيننا من يداهم شقته دون

استئذان من باب السلامة والاحتياط من التورط المالى، إذ كان طوغان عندما نحدثه فى التليفون للتأكد من وجوده إيذانًا بزيارته، غالبًا ما يطلب قائمة طويلة أو قصيرة من احتياجاته المعيشية، وقد تكون لحمًا فى حدود كيلو على الأقل وخضار وسلطة يوصى بشرائها من بائعة خضر فاتنة الجمال بسوق التوفيقية كانت تبادله الحب شفاهة من جانب واحد، وقد تمتد المشتريات إلى الأرز والمكرونة والصابون وحتى أمواس الحلاقة ثم فاكهة الموسم حتمًا ومن كل بد!

لم يكن طلب طوغان الشراء لحسابه يعنى استعداده لدفع الثمن فى المقابل، بل يعنى القبول الطوعى بالإسهام الضمنى فى استكمال النقص فى تموين الشقة لحساب الجميع من القادرين والمفلسين الذين لم ينقطع سيل توافدهم ليل نهار، ولم تكن المشكلة فى دفع ثمن المشتريات المطلوبة فحسب، وإنما فى معاناة المرور على المحلات والأسواق ثم حمل المشتريات فى الشوارع أو فى تاكسى، ولذلك كان البعض يكتفى بسماع صوته فى التليفون حتى يتأكد من وجوده ثم يضع السماعة مكانها، وبعدها يطرق الشقة ومعه شىء أو لا شىء!

كانت الشقة صغيرة على عائلة، كبيرة على طوغان الفرد الأعزب، مجرد غرفة نوم وصالة واسعة تضم صالونين، الأول على الطراز الأرابيسك الإسلامى والثانى على الطراز اليابانى، إضافة إلى منصة للرسم كان طوغان يجلس أمامها دائمًا فوق مقعد مرتفع يفكر فى موضوعات الكاريكاتير ويرسم الاسكتشات أو يدير حركة النقاش الذى لم ينقطع يومًا بين أصدقائه، وكانوا من نجوم المبدعين والظرفاء وعتاة الصعاليك واللاجئين السياسيين من مختلف الدول العربية والأفريقية الذين كانت القاهرة تعج بهم إبان العهد الناصرى الذى تبنى حركات التحرر فى العالم الثالث!

فى تلك السهرات كانت مختلف قضايا الساعة السياسية والثقافية والفنية مطروحة للنقاش وسبر الأغوار، وكانت مرآة ديمقراطية عهدئذ لمواقف ورؤى النخبة إزاء الأحداث والخطوب التى عاشتها أمتنا فى حقبة الخمسينيات وحتى أوائل حقبة السبعينيات، وكثيراً ما كانت جلساتنا تضم بعض المشاركين فى صنع تلك الأحداث أو المتابعين لها والعالمين ببواطنها. ولذلك كانت المناقشات غذاء

للعقل والروح ومدعاة للاستنارة والتجدد، وأحيانًا نسمع لشاعر أو مطرب أو عازف، ودائمًا نتبادل الضحكات ونسخر من مساخر الحياة وندبر المقالب المحبوكة لبعضنا أو خصومنا!

قدوم مارجريت

أذكر أن كابوس الهم والكآبة والإحباط خيم لأول مرة على أجواء مجلسنا وصحبتنا الحلوة شهورًا طويلة إثر نكسة الخامس من يونيو عام ١٩٦٧، فلم يعد للضحكات والمسرات مكان فى سهراتنا ونحن نتلمس الأمل فى تجاوزها دون جدوى، حتى خرج علينا الظريف عباس الأسوانى المحامى ذات ليلة باقتراح طريف.. قال: يا جماعة علينا أولاً أن نيأس مؤقتًا من التوصل سريعا إلى مخرج للأزمة التى تعيشها الأمة العربية الآن حتى نستطيع أن نفكر فى هدوء وروية وبلا ضغوط نفسية، فإذا فشلنا فلن نخسر شيئًا من معنوياتنا أكثر مما نحن عليه من الهم والكرب العظيم.. وإذا وجدنا الحل كان بها ونعم، وفكرنا فى الاقتراح.. وبعضنا اتهمه بالخنوع والدعوة إلى الانعزالية والقعود، لكن الظريف زكريا الحجاوى عاد يفسر الأمر على نحو مختلف وقال إن الاقتراح وجيه بالفعل.. ويعنى ألا نبكى على اللبن المراق.. فما حدث حدث ولا راد لقضاء الله.. والمطلوب الآن لا أن ننفصل عن تداعيات النكسة وكوارثها، ولكن ألا نصبح جزءًا منها ونتنفس ونفكر ونحن وسط أجوائها المسمومة، وعلينا أن نبحث عن الأسباب والثغرات التى أدت إلى النكسة.. فإذا توصلنا إليها.. فمعنى ذلك أننا وضعنا أيدينا على الوسائل المتاحة لتجاوزها ورد اعتبارنا، وقال حكيم الشلة وضميرها أحمد غنيم وكان يشغل آنذاك منصب «المحامى العام»: أعتقد أن أسباب النكسة تكمن فى افتقارنا إلى الخطة وغياب إيماننا بجدوى التخطيط العلمى واعتماد الارتجالية فى كل أمور حياتنا سواء على الصعيد الشخصى أو الوطنى أو القومى، خصوصًا فيما يتعلق بقضايانا المصيرية، وإذا كان علينا أن نبدأ خطوتنا الأولى عبر طريق الانتصار على إسرائيل.. فذلك يعنى أولاً أن نحدد أهدافنا بدقة ونرصد أخطاءنا فى تجرد.. وأن نستخدم لغة العلم والأرقام لحساب

مواردنا وإمكاناتنا من دون تهويل، وبعدها نفكر فى الاستثمار الجيد لكافة مواردنا وتسخير كافة متناقضاتنا ومتناقضات العدو فى وضع الخطة الخلاقة والمبتكرة التى نراهن بها فى التفوق على قدراتنا أولاً وعلى إمكانات إسرائيل وتحالفاتها الكونية ثانيًا. و. . . ووافقناه على هذا الرأى، ورحنا نتحاور ونجتهد ونضع الخطة المرتقبة لإزالة آثار العدوان. وذلك كان أضعف الإيمان!

هكذا تحولت سهراتنا من عشوائية النقاش إلى ما يشبه ورشة عمل، وفى كل سهرة نتناول بالنقد والتحليل موضوعًا يمس صميم حياتنا الاجتماعية والثقافية أو السياسية، وكل همنا أن نفتش عن الأخطاء والسلبيات ونبحث وسائل العلاج المتاحة، الأمر الذى أعاد لنا الثقة بأنفسنا وبأمتنا تدريجيًا، وهكذا تشبثنا بحتميات تجاوز الأزمة وقدراتنا على الانتصار على إسرائيل. وربما لولا اقتراح عباس الأسوانى وما جرى عليه من تعديلات فربما كان قد مسنا الجنون، ولا عدنا من جديد نمارس ألوان السخريات والضحكات وحبك المقالب وتذوق الموسيقى والغناء والأدب!

زامر الحى لا يطرب

أذكر يوما توجهنا أوائل الستينيات للسهر كعادتنا فى شقة الفنان طوغان، عندما وجدنا فى انتظارنا زائرا غريب الأطوار، فى البداية قبلناه على مضض وتوقعنا ألا تطول إقامته. واعتقدنا أن اقتحامه أو إقحامه على سهراتنا ليس أكثر من نزوة من نزوات طوغان سرعان ما تتلاشى كالشدة وتزول كالأحزان، لكن مع توالى الأيام فرض هذا الزائر الغريب وجوده حتى استوطن الشقة مثلما تسلل اليهود إلى فلسطين ثم ادعوا حقوقًا تاريخية لاستيطانها واحتلالها.

كان ذلك الزائر المستوطن قطا سياميا يدعى تشارلى ذا رأس كبير وذيل منفوش وشارب طويل ومشية معجبانية، وعرفنا أنه التحق بخدمة طوغان عندما تلقاه هدية من دبلوماسية أجنبية تدعى «مارجريت» بعد أن تقرر نقلها إلى دولة أخرى وطلبت منه استضافته ثم لقنته قائمة طويلة تضم وصاياها المشددة بحسن رعايته وزواجه بمن تستحقه من القطط السيامية المقيمة فى مصر. ثم تركت له ملفًا يضم

تاريخ ميلاد هذا القط ونسبه الكريم إلى أسرة عريقة فى كمبوديا والبلاد التى تنقل إليها فى صحبتها وكذا تجاربه العاطفية والأمراض التى ألمت به ووسائل علاجها والأساليب المتبعة فى التعامل معه وأنواع الطعام المفضلة التى يشتهيها صيفًا أو شتاء . . إلخ . . إلخ .

من هنا كان أغلب ظننا أن طوغان تربطه صداقة حميمة بهذه الدبلوماسية وربما عاطفة جياشة ، وذلك أنه منح هذا القط السيامى اهتمامًا وتدليلاً زائدًا قلما حظى به القط البلدى فى بيوتنا اتساقا مع المثل الشعبى القائل «زامر الحى لا يطرب» ، الأمر الذى أوغر صدورنا بالحسد والعداء لهذا الزائر المقيم الذى استل جانبًا من اهتمام طوغان بنا ، ومشاركته المعتادة فى حواراتنا ومشاكساتنا خصوصًا أنه راح يبادرنا تباعًا بحكايات مثيرة ونوادر لطيفة عن هذا القط ، بل وأشاد بذكائه كما لو أنه عبقرى زمانه . و . . حتى اكتشف الفنان زكريا الحجاوى بفراسته أن تشارلى قطة لا قط وأطلق عليها اسم «مارجريت» حتى ذهب الخيال الساخر بزكريا الحجاوى إلى حد الإشاعة والتشنيع على هذا الاكتشاف عبر الادعاء بأن الدبلوماسية الأجنبية أودعت عاطفتها نحو طوغان فى هذه القطة . . أو أن طوغان «مخاوى» لجنية تجسدت فى هذه القطة إلى حد أنها تتحول أمامه إلى امرأة فى غيبتنا !

والحقيقة أن القطة السيامى ظلت تتمسح فى البداية بضيوف طوغان فى مودة ولطف حتى تعودوا عليها مكرهين وقبلوا بها رفيقة لسهراتهم . . لكن مع توالى الأيام والسهرات كشفت عن نفاقها وخطتها المبيتة ، حيث لم تعد فى حاجة إلى التودد لنا وملاطفتنا ، بعد أن أصبحت إقامتها واستيطانها للشقة بمثابة أمر واقع ، وراحت تعاملنا كما المتطفلين غير المرغوب فى زيارتهم .

عبثًا شكونا من مارجريت . . إذ كانت دائمًا تختار أعلى مكان فى مفروشات الشقة ، ثم تجلس فى صمت وتفكير مستمر كما لو أنها فيلسوف أو تمثال «بوذا» وهى تطل علينا بنظراتها الثاقبة وتتابع مجلسنا حتى لكأنها رقيب أو جاسوس ، وكلما احتدم النقاش بيننا أو كنا فى حالة استماع إلى عازف موسيقى أو الاستمتاع بغناء مطرب أو إلقاء شاعر قصيدته . . عندئذ تبدى تململها أحيانًا من باب الرفض أو الاحتجاج ، ثم تقوس ظهرها إيذانًا بلفت أنظارنا وشد انتباهنا إلى خطوتها

التالية . . وقد تقفز إلى الأرض وتتحرك بيننا وهى رافعة ذيلها إلى أعلى . . وقد تكرر قفزاتها من الأرض إلى مكانها المرتفع وبالعكس حتى تفسد علينا السهرة!

لكن طوغان لم يكن يأبه لشكوانا، بل كان فى قمة سعادته ونشوته بمارجريت، مشدداً على ألا نؤذى مشاعرها، والادعاء بأنه ربما أدركت أن حديثنا أو الموسيقى والغناء والشعر الذى يستهوينا لا يعجبها، ولذلك كرهنا مارجريت . . وتمنينا على الله أن تختفى من شقة طوغان ومن حياتنا!

فجأة تحقق المراد من رب العباد، واكتشف طوغان اختفاء مارجريت، وبحث عنها فى كل مكان، على سلالم العمارة والسطوح وفى المناور ولدى جميع السكان . . لكن محاولاته ذهبت سدى . . وأخيراً هداه تفكيره إلى البحث عن أعداء حانقين من مصلحتهم اختفاؤها أو اختطافها، ولم يجد سوى أصدقائه الذين أفصحوا أمامه مراراً عن كراهيتهم لها، وتمنياتهم باختفائها.

وهكذا اختار أسلوب الشرطة فى القبض على المتهمين فى «حالة تلبس»، وراح يدور على منازل أصدقائه قبيل انطلاق مدفع الإفطار فى أحد أيام شهر رمضان المبارك عام ١٩٦٨ .

دق جرس باب منزلنا وفتحت له والدتى الباب :

* أهلاً يا أستاذ طوغان . . اتفضل!

ـ شكراً . . أمال فين القطة؟

* قطة إيه؟!

ـ القطة اللى جابها يوسف البيت إمبارح!

* يوسف ما جبش إمبارح قطة . . هو نايم . . تحب أصحيه!

ـ لا مفيش لزوم . . وآسف على الإزعاج . .

ومن منزلى استقل طوغان تاكسى وتوجه إلى جاردن سيتى . . وتكرر نفس الديالوج بينه وزوجة عباس الأسوانى المحامى فى جاردن سيتى . . ثم ذهب إلى منزل زكريا الحجاوى فى الجيزة . . و . . أخيراً كانت نهاية مطافه على بيوت

أصدقائه من اللاجئين السياسيين العرب فى الدقى، حيث فتح الشاعر معين بسيسو باب شقته.. واندفع طوغان إلى الداخل ينادى بأعلى صوته.. مارجريت.. مارجريت.. ثم قفل راجعًا إلى بيته مخلفا وراءه دهشة معين الذى لم يفهم من الأمر شيئًا حتى خيل إليه أن طوغان أصابه مس من الجنون!

المركز الثقافى التشيكى

مضى زهاء ثلاثة أسابيع وطوغان يواصل اتهامنا فى كل مكان بسرقة أو اغتيال مارجريت أو مجرد اختطافها وإخفائها على أحسن الظن، وحزن حزنًا شديدًا على فقدها، حتى كاد يتوقف عن رسم الكاريكاتير بجريدة الجمهورية، ومن جانبنا بحثنا عن كل حجة أو دليل وحلفنا بأغلظ الأيمان لإقناعه ببراءتنا من دم أو روح ماجريت دون أن يصدقنا.. حتى توقفت سهراتنا فى شقته لأول مرة.

فجأة تلقى مكالمة هاتفية وكان على الخط مدير المركز الثقافى التشيكوسلوفاكى بالقاهرة يستأذنه فى الزيارة، ورحب طوغان به فى شقته وتبادلا الحديث زهاء الساعة عن فن الكاريكاتير وعن العلاقات السياسية والثقافية التى تربط البلدين.. حتى قال مدير المركز:

ـ أستاذ طوغان.. أرجوك أن تتمالك أعصابك وأن تكبت مشاعرك.. فمنذ خمسة أسابيع وجدنا قطة سيامية تقع فى ساحة المركز أسفل العمارة التى تسكنها.. وعندما عرفنا أنها قطتك حملناها إلى أقرب طبيب بيطرى لعلاجها حتى تماثلت أخيرًا للشفاء!

طوغان فى لهفة: ولماذا أخفيتم عنى الخبر طوال هذه الفترة؟

مدير المركز: لأنك فنان مرهف.. ولذلك قدرنا مدى انزعاجك إذا رأيتها بين الحياة والموت!

طوغان: أين هى الآن؟

مدير المركز: بعد قليل تراها.. ثم أجرى مكالمة تليفونية باللغة السلوفاكية..

ولم تمض سوى دقائق حتى دق جرس باب شقة طوغان ودخل موظف تشيكى يحمل صينية معدنية ترقد مارجريت فوقها . . ولم يتعرّف عليها طوغان فى البداية إذ كانت مغطاة بالقطن والشاش ولا يبين منها سوى رأسها فقط . إضافة إلى أربع جبائر من البلاستيك مثبتة حول أقدامها التى أصيبت بالكسور ، فما إن حملها فى حرص وحنان ووضعها فوق الأريكة . . حتى كان مدير المركز الثقافى التشيكى يقدم إلى طوغان ورقة مستطيلة . اكتشف أنها فاتورة علاج مارجريت . . وأن المبلغ المطلوب سداده ١٦٧ جنيهًا بالتمام والكمال!

هنا أدرك طوغان مأزق إفلاسه ، وأن مارجريت العزيزة مهما كان حبه لها وتعلقه بها لا تساوى كل هذا المبلغ . . ولم يجد أمامه سوى أن يفكر فى مخرج من هذا المأزق . وعندئذ نهض من مقعده وشد على يد مدير المركز التشيكى فى حرارة شاكرًا له هذه المجاملة الرقيقة ، ثم حمل القطة من الأريكة وأعاد وضعها على الصينية وقال : إنها فرصة سانحة وسعيدة بالتأكيد وبادرة حسنة ولا شك لتوثيق أواصر الصداقة والعلاقات الإنسانية بين مصر وتشيكوسلوفاكيا عبر القطة مارجريت . . من جانبى سوف أتعهد بطعامها . . وعليكم استكمال علاجها!

أيام المجد فى وهران

وللحقيقة ومن باب الإنصاف أحسب أن «أحمد ثابت طوغان» وهذا اسمه الكامل لم ينل حتى الآن ما يستحقه من التقدير أو التكريم ، فهو ليس رسامًا رائدا للكاريكاتير أفنى زهاء نصف قرن من عمره فى العمل الصحفى ، لكنه أيضًا مناضل سياسى من طراز خاص فضلاً عن كونه صعلوكًا نبيلاً .

أذكر فى عام ١٩٥٨ أنه صدر له كتاب بعنوان «أيام المجد فى وهران» نال تقدير السياسيين والمثقفين والنقاد فى مصر والوطن العربى . حكى فيه عن تجربته الصحفية الميدانية إبان متابعته لوقائع الثورة الجزائرية ومعاركها الضروس فى مواجهة الاحتلال الفرنسى الطويل الأمد الذى كاد أن يمحو الشخصية الجزائرية ولغتها العربية وتقاليدها وتراثها . .

وكان طوغان على عادته فى خوض التجارب وركوب الصعاب عندما ينفعل بموقف أو واقعة تثير فى أعماقه مشاعر الحماس، قد قرر السفر فجأة إلى المغرب للانضمام إلى ثوار الجزائر لكنه فوجئ أنه كلما التقى بهم تشككوا فى أمره وفى نياته حيث تقرر اعتقاله فى إحدى المرات توطئة لمحاكمته بتهمة التجسس وإعدامه، خاصة فى وقت كانت عوامل الشك سببًا فى سقوط آلاف الضحايا من الجزائريين برصاص الجزائريين وبما فاق قتلاهم عبر جنود الاحتلال الفرنسى.. لكن الله كتب له النجاة فى آخر لحظة على يد مجاهد جزائرى كان قد تعرف إليه فى القاهرة وشهد له بالوطنية ومواقفه القومية التى تؤكدها رسومه الكاريكاتيرية وكتاباته. وأن شقته بالقاهرة ظلت دائمًا مأوى اللاجئين السياسيين العرب والأفارقة وملتقى لأعضاء الحكومة الجزائرية المؤقتة التى كانت تتخذ من القاهرة مقرًا لها وبينهم على كافى رئيس جمهورية الجزائر فيما بعد والدبلوماسى المعروف على مفتاحى، وأمين بشيش وزير الإعلام الأسبق.

بعدها انضم طوغان إلى ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ فى اليمن، ورسم بريشته وكتب عنها العديد من التحقيقات الرائعة البسيطة فى أسلوبها، فكانت أبلغ تعبير عن طموحات الشعب اليمنى لاستعادة سابق حضاراته التاريخية بعد أن عاش عزلة نحو ٣٠٠ عام عن العالم تجرع خلالها ألوان البطش والجور والتخلف والمجاعات والأوبئة تحت حكم أئمة بيت حميد الدين، وقد توج هذا الدور النضالى عبر معرض لرسومه الرائعة عن اليمن نظمته إدارة التوجيه المعنوى بالقوات المسلحة المصرية فى القاهرة وصنعاء وتعز والحديدة. ولا تزال صوره تحتل مكانها المرموق فى المتحف الحربى بالقلعة. فى الوقت الذى قرر المشير عبد الله السلال أول رئيس لجمهورية اليمن منحه رتبة عقيد شرفية فى القوات المسلحة اليمنية. . لكن القرار لم يخرج إلى حيز التنفيذ إثر عزل السلال وتولى القاضى عبد الرحمن الإيريانى رئاسة المجلس الجمهورى وبعدها عام ٢٠٠٥ عاوده الحنين لليمن وأقام معرضا حول معالمه الحضارية فى المركز الثقافى اليمنى بالقاهرة ثم فى منتدى ساقية الصاوى.

شيدى جاجان فى القاهرة

على أن علاقة طوغان النضالية بثوار العالم كانت بالتوازى مع علاقته بثورة ٢٣ يوليو وتوابعها من الثورات العربية. فقد كان المصرى الوحيد الذى نسج خيوط التواصل النضالى مع الزعيم الكينى جومو كينياتا ومع «شيدى جاجان» زعيم حركة التحرر الوطنى فى غينيا البريطانية، وعندما اعتقله الإنجليز وأودعوه السجن خرجت الجماهير من كل حدب وصوب تعلن احتجاجها.. ثم حملته على الأكتاف من السجن، ونصبته رئيسًا للحكومة خلفًا لرئيس الحكومة العميل.

وكان طوغان فى رسائله المتبادلة مع «شيدى جاجان» قد دعاه ـ من باب المجاملة ـ لزيارة القاهرة. ويومًا فوجئ بوصوله القاهرة فأسقط فى يده، وعرض الأمر على صديقه الضابط الكاتب عبد العزيز صادق والكاتب الصحفى رأفت الخياط، حتى استقر الرأى على استضافته فى فندق الكونتيننتال وبعدها يحلها ألف حلال، فلما انتهت الزيارة فوجئ طوغان بفاتورة حساب الفندق وقد تجاوزت ألفى جنيه، ولم يجد مفرًا وهو المفلس الأزلى سوى عرض المأزق على صديقه القائمقام أنور السادات الذى اضطر لصرف المبلغ من خزانة صحيفة الجمهورية.. وكان رئيسًا لمجلس إدارتها آنذاك، ثم كانت مشاركته كذلك فى توديع «شيدى جاجان» فى مطار القاهرة!

وكان طوغان قد تعرف إلى أنور السادات لأول مرة فى ندوة الأديب الظريف زكريا الحجاوى بمقهى محمد عبد الله الذى كان يطل على ميدان الجيزة، فكان السادات يتردد بالتالى على شقة طوغان مصطحبًا معه أحيانًا بعض عناصر تنظيم الضباط الأحرار، وهكذا عندما نجحوا فى القيام بثورة يوليو، رجحنا أن يحتل طوغان مركزًا إعلاميًا رفيعًا، لكن شطحاته الفنية ونزواته الشخصية ربما حالت دون ذلك.. وربما لأنه كان يفضل الحرية والعزوبية على الوظائف وقيودها مهما بلغ شأنها أو مرتباتها الضخمة.

يومًا تعرف طوغان إلى صديقنا طلعت إسكندر وكان طالبًا فى السنة النهائية بكلية الطب. وكان قد رأى السادات فى شقة طوغان وعددًا ممن أصبحوا أعضاء مجلس الثورة، ونقل ما رآه إلى الدكتور شفيق عبد الملك الأستاذ فى كلية

الطب، بل وأوعز إليه أن طوغان يستطيع إقناعهم بتحقيق أمنيته الأثيرة عبر ترشيحه بطريركًا للأقباط فى مصر بدعوى قدرتهم على ضرب الحائط بتقاليد اختيار البطريرك من رجال الدين المسيحى فحسب، وهكذا عندما ذهب طوغان إلى لقاء الدكتور شفيق عبد الملك فى عيادته فى الموعد الذى حدده طلعت إسكندر وكان يرتدى قميصًا وبنطلون جينز منكوش الشعر ولم يحلق لحيته منذ أسبوع.. فوجئ باستقباله الحافل.. وبعد أن شربا القهوة فاتحه الدكتور شفيق فى الوساطة لدى جمال عبد الناصر بشأن اختياره بطريركًا للأقباط، وكما لو أن ثعبانًا لدغ طوغان حيث أسرع إلى الاعتذار عن القيام بهذا الدور بل وحذره من فتح الموضوع مع أى كائن حى حتى لا يتسبب فى فتنة طائفية قد تنتهى بهما إلى الاعتقال والمحاكمة ونفى أن تكون له أدنى صلة بالثورة سوى التعبير عنها فى رسومه الكاريكاتيرية!

وعلى عادة طوغان فى التعرف إلى الأجانب الذين يترددون على مقاهى ريش، أُعجب أيما إعجاب بشاب اسمه كارل ادعى أنه يطوف العالم على قدميه لدعوة البشرية إلى السلام واستضافه فى شقته، بل وتقدم إلى إدارة الجوازات والهجرة بطلب إقامة له، لكنه بعد أيام شك فى أمر هذا الضيف واضطر إلى تفتيش حقيبته فى غيبته حتى عثر على مسدس ضخم من طراز «برابيللو» وجاءنا مذعوراً يحكى ما حدث.. وذهبنا إلى شقته وطردنا الألمانى شر طردة وألقينا بالمسدس فى النيل. «ويا دار ما دخلك شر»، وعلى حد قول المثل الشعبى الدارج «كفينا على الخبر ماجور»!

والحقيقة أن المآزق التى تعرض لها طوغان من أصدقائه كانت أشكالاً وألوانًا وبلا عدد، وأشهرهم الكاتب الصحفى المغامر سعد زغلول فؤاد الذى شارك فى معظم التفجيرات والاغتيالات السياسية إبان عهد الملكية والاستعمار. وكذا حوادث الاختطاف والاغتيال التى تعرض لها أفراد الجيش البريطانى فى قناة السويس قبيل وأوائل ثورة ٢٣ يوليو.

وكان سعد زغلول أوائل الخمسينيات قد اقتحم شقة طوغان وأمامه ضابط بريطانى شاب اسمه «ريجدن» شاهراً مسدسه فى ظهره.. وعرفنا أنه نجح فى

اختطافه من إحدى حانات مدينة الإسماعيلية وهو فى حالة سكر بين وحمله معه فى سيارته إلى القاهرة!

وانقلبت مصر رأسًا على عقب، الإنجليز وجهوا إنذارًا بضرب الإسماعيلية، والأمن المصرى يفتش فى كل مكان عن الضابط المختطف، واتصل زكريا محيى الدين وزير الداخلية بالضابط المغامر مصطفى كامل صدقى وطلب منه البحث عن سعد زغلول وإقناعه بتسليم الضابط البريطانى، ونجح فى ذلك.. حيث تم تهريبه إلى خارج البلاد حتى لا تتهم الحكومة بضلوعها فى الحادث.. أو أنها خضعت للإنذار البريطانى.

وقد لا يعلم أحد أن طوغان كان صاحب الفضل فى رعاية موهبة فنان الكاريكاتير صلاح جاهين، عندما أوصاه زكريا الحجاوى بتوجيهه فنيا، فكانت أول رسومه المنشورة فى مجلة «الأسبوع» التى أصدرها طوغان مع رفيقى عمره الكاتب الصحفى الساخر محمود السعدنى والصحفى المخضرم على جمال الدين وكان محمد عودة من كتابها.. ثم فى مجلة «الشباب».. وكلتا المجلتين صدر منهما زهاء خمسة أو عشرة أعداد، وبعدها لم يجد أصحاب الديون شيئًا يوقعون عليه الحجز سوى بعض الأوراق المكتوبة والفارغة!

يومًا كانت أعداد إحدى المجلتين جاهزة للتوزيع فى انتظار إجازتها من إدارة المطبوعات عهدئذ، وحين عاد طوغان إلى المجلة متأخرًا بعد أن حصل على الموافقة بمشقة، إذا به يكتشف أن السعدنى باع كمية الأعداد المطبوعة لأحد باعة الروبابيكيا بالأقة!

ويروى الناقد الفنى الكبير كمال النجمى فى إحدى مقالاته، أن طوغان كان أول من احتضن موهبة الشيخ سيد مكاوى ولعب دورا مقدرا للتعريف به بين الصحفيين فى بواكير نشاطه الغنائى والموسيقى.

ولعل أطرف مقلب دبره طوغان شخصيًا كان من تليفون شقته، عندما رشح الكاتب الصحفى الأمير المليجى نفسه فى الانتخابات النيابية التى شهدتها مصر عام ١٩٥٠، وكان قد باع كل ما يملك واستدان كذلك لكتابة لافتات التأييد التى علقها فى شوارع القاهرة تشيد بتاريخه السياسى ومواقفه الصحفية الوطنية.

عبر أسلاك التليفون تلقى الأمير المليجى مكالمة طوغان وقال فى لهجة تركية: أنت البرنس المليجى؟

- من الهاتف الداعى؟

* أنا الأمير محمد على ولى العهد.

- سموك غلطان أنا اسمى أمير ولم أدع يومًا أننى برنس.

* أمال ليه ولد خرسيس أدب سيس تدعى أنك أمير من الأسرة الملكية، وتملأ البلد بلافتات انتخابية مسبوقة بهذا اللقب المزيف.. أنت تنزل مع الأوباش اللى زيك حالاً إلى الشوارع وتجمع هذه اللافتات.. وإلا بالله وتالله حاسود عيشتك وحاضربك بنفسى كمان بالكرباج قبل ما أدخلك سجن أرميدان.. مفهوم ياولد؟

* مفهوم جنابك.. مفهوم أفندينا.

ونزل الأمير المليجى المسكين إلى الشارع وجمع أنصاره، ثم وجههم إلى ضرورة رفع لافتاته الانتخابية على وجه السرعة، فكان سقوطه المروع عندما ظن الناس أنه تراجع عن ترشيح نفسه أمام خصمه السياسى من باب الجبن أو شراء ضميره!

إضراب «البغبغان»

شب الطفل ماجد عن الطوق ليكتشف أنه بلا أم ولا أب ولا أقارب ولا حتى أصدقاء سوى زملائه فى ملجأ الأيتام الذين كانوا يعيرونه بجحوظ عينيه أو يسخرون من تلك السحابة البيضاء التى تغطى إحداهما، حتى ركن إلى العزلة والتزام الصمت درءاً للعدوان وتكرار جرح مشاعره، وكنت قد رأيت ماجداً لأول مرة خلال تجربتى كموظف حكومة بوزارة الأوقاف التى استغرقت شهوراً عام ١٩٥٦ وكتبتها بعد ذلك فى حلقات عام ١٩٦٣ بمجلة روز اليوسف تحت عنوان «اعترافات موظف مشاكس».

كنت آنذاك أعمل مراجعًا بقلم الصرف وطالبًا فى نفس الوقت بكلية الحقوق، حين دخل علينا عم إبراهيم شيخ الفراشين بالوزارة وقدم إلينا ماجداً قائلاً: ده الفراش الجديد.. خلوا بالكم منه ينوبكم ثواب.. أصله لسه خام وعلى نياته وطالع يدوبك من الملجأ.

رحبت به وأجلسته أمامى وطلبت له واحد شاى بالحليب، وبدأت فحصه ومحصه، فتى نحيل فى الثامنة عشرة من العمر متلعثمًا فى حديثه، يرتدى زى نزلاء ملاجئ الأيتام التابعة لوزارة الأوقاف، القميص النصف الكم والشورت والطاقية من التيل «الكاكى» بينما ينتعل فى قدميه صندلاً من الجلد تبرز منه أصابع قدميه، الوجه خمرى مائل إلى الصفار.. مبقع بالبهاق الأبيض الذى يشى بفقر الدم وسوء التغذية!

سألت ماجد: أين تقيم؟

قال: لا أعلم. . هذه المرة الأولى التى أواجه فيها الحياة خارج الملجأ.

سألته: معك نقود للطعام؟

قال: الملجأ منحنى جنيهين إلى حين تسلم مرتبى من الوزارة آخر الشهر.

قطع حديثنا صوت الأستاذ على راشد رئيس قلم الصرف يطلب من ماجد إحضار فنجان قهوة على الريحة فانصرف إلى البوفيه بينما انشغلت فى العمل حتى الساعة الثانية ظهراً موعد انصراف الموظفين حيث اصطحبت ماجد إلى مطعم «أبو ظريفة» المجاور للوزارة وتناولنا معًا أطباق الفول والطعمية ثم زودته بما تيسر من المال ونصحته بالمبيت هذه الليلة على أحد المكاتب ـ وكان الوقت صيفًا ـ وأن يضع تحت رأسه وسادة مقعد الأستاذ على راشد إلى حين تدبير الأمر فى الغد!

فى صباح اليوم التالى كان بعض الزملاء الموظفين قد استجابوا لنداء الواجب تلقائيًا فالبعض قدم إلى ماجد حذاء والبعض الآخر قدم بدلة أو قميصًا أو بنطلونًا أو بيجامة أو ملابس داخلية وكلها سبق استعمالها، وعلى الرغم من ذلك كان فى قمة السعادة إلى حد أنه لم ينتظر كثيراً حتى حملها ودخل «التواليت» ثم عاد إلينا إنسانًا آخر مختلفًا فى زيه الجديد القديم، بل إن زملاءه من الفراشين ـ وبعضهم كانوا من نزلاء ملاجئ الأيتام سابقًا ـ تبرعوا له بمرتبة ووسادة من القطن وبطانية قديمة، وعندئذ أدرك ماجد أنه لم يعد منبوذاً. . وأن السماء أوشكت أخيراً على الاستجابة لرد اعتباره إيذانًا بنهاية مأساته!

ومرت الأيام وماجد يؤدى عمله فى همة ونشاط حتى أصبح خبيراً فى معرفة أقسام الوزارة ودروبها وأسماء الموظفين والفراشين عبر حمل الأوراق الرسمية من مكان إلى آخر وجلب الطلبات من البوفيه وشراء السندويتشات من الخارج. . وكان يحلو له بعد نهاية العمل التجوال فى شوارع وسط القاهرة لمشاهدة واجهات المحلات ثم العودة ليلاً للمبيت فى الوزارة، وهكذا انفكت عقدة لسانه واكتسب ثقته بنفسه شيئًا فشيئًا منذ وقف مع جموع الموظفين فى طابور صرف المرتبات من خزينة الوزارة أول الشهر!

سألته: هل أصبح لديك أصدقاء فى الوزارة؟

قال: الجميع يعطفون عليَّ.. لكن القطط أصدقائى الحقيقيون.. ثم روى لى أنه يقضى وقتًا ممتعًا مع سيدة يونانية عجوز بعد انصراف الموظفين فى مداعبة وإطعام عشرات القطط التى تسكن مبنى وزارة الأوقاف، وأنه يشترى من مرتبه غذاء لها من فضلات المطاعم المجاورة، ثم راح على استحياء يقلد القطط وحركتها ويعدد مآثرها فى الذكاء والمهارة وهى تتربص بفريستها من الفئران التى تسرح بين المكاتب وتقتات الأوراق من ملفات «الأضابير» وضحكت وأشدت بموهبته، وعندئذ طلب منى أن أكتم سرًا.. ثم حكى لى عن مقلب دبره للشيخ حسن الباقورى وزير الأوقاف آنذاك حين اختبأ إلى جوار الأسانسير قبل أن يهم بصعوده إلى الدور الثانى وقام بتقليد مشاجرة بين قط وكلب فإذا بالشيخ الباقورى يلملم قفطانه مذعورًا ويسرع إلى دخول الأسانسير ويثور فى وجه سكرتيره الخاص ويطلب منه التحقيق فى أسباب وجود مثل هذه الحيوانات الضالة فى مبنى الوزارة.. غير أننى هربت فى الوقت المناسب قبل افتضاح أمرى!

سألت ماجد: لماذا لجأت إلى ذلك؟

قال: أردت أن ألفت نظره إلى حالتى حتى يهتم بأمرى ولعله يمنحنى سكنًا متواضعًا فى عقارات الوزارة. لكننى هربت فى اللحظة التى سمعت فيها صوت الشيخ الباقورى يعلن عن سخطه على هذه الفوضى إلى حد أصبحت الوزارة مأوى للقطط والكلاب، وعندئذ أدركت أننى لجأت إلى وسيلة غير مناسبة حتى يسمعنى ويستجيب لمشكلتى!

لكن ماجد لم تقتصر هوايته على تقليد القطط والكلاب، فقد عرف طريقه بعد ذلك إلى حديقة الحيوان التى بدأ يداوم على زيارتها يوميًا، وهناك نمت صداقاته مع الكثير من حيواناتها وطيورها وزواحفها، وتفتحت موهبته النادرة فى تقليد حركاتها وأصواتها على نحو بالغ الإتقان والدهشة، وكان قفص الببغاوات «الزنجبارية» الناطقة الذى يتصدر مدخل الحديقة مكانه المفضل.. فكان يقتطع من مرتبه ثمن زجاجة كوكا يسكبها فى كفه تباعًا ويمدها بين قضبان القفص حتى يتمكن «البغبغان» الكبير من ارتشافها.. وبعدها ظل البغبغان ينتظر ماجدًا دومًا فى

الموعد المحدد، يرفرف بجناحيه طربًا لقدومه من بعيد ويتبادلان الحديث، هو ينادى «البغبغان» باسمه «شارو» وهو يناديه ماجد واستمرت هذه العلاقة عدة شهور حتى انقطعت زيارته للحديقة فجأة بعد إصابته بنزلة أنفلونزا حادة استمرت عشرة أيام.

خلالها توقف «البغبغان» الكبير عن الطعام والشراب وكف عن الحركة وتسلية رواد الحديقة. . وتقرر عزله فى عيادة الطبيب البيطرى. . وعبثًا حاول معه كافة الإغراءات والأدوية لفتح شهيته وإعادته إلى حالته الطبيعية. . لكن جهوده ذهبت عبثًا. . حتى أشرف على الموت، وعندئذ استيقظ ضمير حارسه وأدلى بشهادته حول واقعة تردد أحد الزوار على قفصه يوميًا وشرب الكولا على كفه. . وحاول الطبيب البيطرى أن يقدم إليه الكولا بنفس طريقة ماجد لكن البغبغان رفض وأصر على الإضراب عن الشراب والطعام!

فلما عاد ماجد بعد شفائه إلى حديقة الحيوان حاملاً معه كعادته زجاجة الكولا. . واقترب من قفص البغبغان لم يجده. . وسأل الحارس عنه فإذا به ينقض عليه بكلتا يديه ويسحبه إلى عيادة الطبيب البيطرى الذى طيب خاطره ورجاه أن يساعده فى إنقاذ صديقه البغبغان من الموت. . فما إن رأى ماجدًا حتى رفرف بجناحيه مرحًا وطربًا. . ومد كفه إليه بقطرات من الكولا. . وشربها، ثم قدم له الطعام والتقطه بمنقاره فى نهم وشهية. . ثم راحا يتناجيان وسط دهشة الحاضرين. . حتى حمله بيديه إلى مكانه فى قفصه، وظل إلى جواره حتى عاد إلى حيويته وروحه المرحة وتجاوبه مع دعابات زوار حديقة الحيوان!

وتشاء مصادفات الحياة السعيدة أن ألتقى بصديقى يوسف الحطاب كبير المخرجين فى الإذاعة آنذاك. . ولا أذكر الآن المناسبة التى دعتنى إلى رواية حكاية ماجد التى شدت انتباه الحاضرين للقاء، فإذا بالحطاب يطلب منى زيارته فى مبنى الإذاعة بشارع الشريفين الذى يقع على بعد خطوات من وزارة الأوقاف ومعى ماجد. . وهناك كانت أولى خطواته فى العمل بالإذاعة، حيث قدم العديد من برامج الأطفال المسلية التى يحاكى فيها الحيوانات والطيور، ومشاركته فى كثير من التمثيليات والمسلسلات الإذاعية بديلاً عن المؤثرات الصوتية المسجلة، إذ كان تقليده للحيوانات والطيور أكثر إتقانًا وأقرب للواقعية!

شجعنى نجاح ماجد على كتابة مذكرة رقيقة نجحت فى توصيلها إلى الشيخ الباقورى دون أن أوقعها باسمى، رويت فيها حكاية ماجد والمقلب الذى دبره له وهو يهم بركوب الأسانسير . . ورجوته أن يمنح هذا المسكين سكنًا فى العمارات الشعبية التى تبنيها الوزارة دون أن أطلع ماجدًا على الأمر، وانتظرت النتيجة فى قلق حتى دق التليفون فى مكتب قلم الصرف، وكان سكرتير الشيخ الباقورى يطلب ضرورة إرسال ماجد على عجل لمقابلة معالى الوزير . . ووضعت يدى على قلبى خشية أن يحيله إلى التحقيق، وغاب ماجد زهاء الساعة ثم عاد يحكى لى أن الوزير استقبله فى مكتبه هاشًا باشًا . . وأنه طلب إليه أن يقدم بعضًا من اسكتشاته الإذاعية التى تحاكى أصوات الطيور والحيوانات، وأمر بنقله فراشًا فى مكتبه بعد أن نفحه عشرة جنيهات من جيبه الخاص . . وهكذا أصبح مضحكًا خاصًا للشيخ الباقورى وضيوفه!

منذ ذلك اليوم البعيد غاب عنى ماجد سنوات بعد أن قررت الاستقالة من وزارة الأوقاف والاشتغال بالصحافة عام ١٩٥٧ حتى رأيته مصادفة عام ١٩٦٥ وجهًا لوجه فى سينما استراند الصيفى بباب اللوق، ولم أعرفه للوهلة الأولى حتى ذكرنى بنفسه وكان قد أصبح شابًا ناضرًا وسيمًا آخر شياكة ويضع نظارة طبية أنيقة على عينيه، ثم قدم إلىَّ زوجته الأنيقة رائعة الجمال وطفليه و . . سألته بالطبع عن أحواله . . وقال الحمد لله . . فكما ترى زوجتى مصرية من أصل أرمنى وتنتمى إلى أسرة فنية وأولادى فى مدارس لغات ولدى شقة وسيارة وأعمل الآن فى ملاهى شارع الهرم والإذاعة والتليفزيون والحفلات والأفراح . . وكثيرًا ما توجه إلىَّ الدعوات من عائلات فى دول الخليج لإحياء حفلاتهم الخاصة وأعياد ميلاد أطفالهم، وكل ذلك كما تعلم بفضل الله وأصدقائى والطيور والحيوانات!

عايدة الشريف وشيخها محمود شاكر

أحسب أن الأديبة الراحلة عايدة الشريف قد حجزت لنفسها مكانًا ومكانة مرموقة فى سجل القرن العشرين، مما يتعين تسليط الضوء الكاشف على إبداعاتها، عبر استجلاء مسيرة حياتها المثيرة للجدل، إذ كانت واحدة من بنات جيلها اللاتى اشتبكن مع الحياة العامة مدفوعة غريزيًا بالرغبة فى المعرفة، وبصلات شخصية حميمة مع رموزها الثقافية العبقرية فى ندية واقتدار وجسارة!

وذلك على وجه التحديد فحوى الإلحاح الصادق ممن خالطوها عن قرب، سواء على الصعيد الإنسانى أو الثقافى، كى أشرع دون إبطاء إلى جمع شتات الذكريات التى جمعت بيننا، والتعريف بإبداعاتها، وسبر أغوار سيرة حياتها، لا لأن الأقربين أولى بالمعروف، ولكن لأنها تطاول الكثير من الذين كتبت عنهم من نجوم الفن والثقافة والسياسة والظرفاء والصعاليك قيمة وقامة!

على أن مشكلة كتابتى عن عايدة الشريف كونها شقيقتى، مما قد يوحى بشبهة التحيز لها، وغض الطرف عن مثالبها أو سلبياتها، ولعلى من هنا آثرت السلامة وتركت لغيرى النهوض بالمهمة، عبر الكم الغزير من الشهادات التى بادرت طوعًا بعد رحيلها إلى تقييم ونقد إنتاجها الأدبى، بل وإضافة الكثير مما غاب عنى من الوقائع والمواقف، وهكذا رأيت اختزال كتابتى عنها فى الشهادة على بدايتنا الأسرية والمعرفية المشتركة فحسب.

مجنونة الطيور

أذكر أننى أبديت اعتراضى وغضبى الشديد، عندما أعلنت عن رغبتها المفاجئة فى أن تزاوج عايدة بين دراستها فى كلية الحقوق أواخر الخمسينيات وبين الالتحاق بالدراسة فى معهد الفنون المسرحية، إذ كيف يستقيم هذا الخيار بينما والدنا شيخ جليل من علماء الأزهر الشريف، وحين أكدت على نيتها الالتحاق بقسم النقد لا قسم التمثيل، لم أعدم الوسيلة للتدليل على وجاهة حجتى بدعوى أن الدراسة فى معهد الفنون المسرحية مسائية، وعليها بالتالى أن تقطع المسافة ليلاً ذهابًا وإيابًا من منزلنا بالروضة إلى حيث مقر المعهد بمدرسة الفسطاط فى مصر القديمة سيرًا على قدميها مما لا تحمد عقباه، ولأنها سكتت على مضض، من ثم خيل إلىَّ أنها اقتنعت والأسرة كذلك بسلامة منطقى!

لكنى فوجئت بعدئذ أنها وضعتنى أمام الأمر الواقع، أو هكذا كانت قناعة والدنا بمنحها الحرية فى تحقيق ذاتها، حين ذهب بنفسه إلى منزل صديقه الناقد الكبير الدكتور محمد مندور وكان إلى جوار منزلنا بالروضة، وحمل إليه مسوغات التحاق عايدة الشريف بمعهد الفنون المسرحية وكان المشرف آنذاك على قسم النقد.

على أننى لم أشعر بالارتياح لهذا الخيار، إلا بعد أن تعهد الدكتور مندور لوالدى أن يصحب عايدة فى رواحها للمعهد وعودتها مساء فى سيارته الخاصة، ثم لأنها أصبحت بعد ذلك واحدة من أفراد أسرته، وهكذا ظل إدراكها المعرفى يزداد ويتنامى تباعًا، عبر قيامها بمهام القراءة له - وكان قد ضعف بصره - على الرغم من إجراء العديد من العمليات الجراحية فى عينيه، وظل يملى عليها مقالاته ودراساته خلال العشر سنوات الأخيرة التى سبقت رحيله، حتى إن البعض تخيلها ابنة الدكتور مندور أو إحدى قريباته بعد أن ظلت تلازمه وزوجته الشاعرة ملك عبد العزيز إلى المسارح والمنتديات الأدبية.

والشاهد أن عايدة التى كانت تصغرنى بعامين، كان المقدر لها أن تفرغ موهبتها فى الرسم وأن تصبح يومًا فنانة تشكيلية مرموقة، وربما متخصصة فى دراسة حياة الطيور أو أديبة تكتب للأطفال عن الطيور، وذلك أنها منذ نعومة أظافرها وهى

متيمة وشبه مجنونة بالطيور، وكنا حين نفتقدها ونبحث عنها فى كل مكان، لا نجدها فى النهاية إلا على سطح منزل العائلة القديم، وإذا بها جالسة فى عشة الدواجن وسط البط والدجاج والحمام وهى تطعمها وتناجيها، بل وتضع حبات الإسبرين فى أوانى الماء أو تضع القطرة فى عيونها من باب العلاج والوقاية من الأمراض!

ولعلها من هنا كانت مؤهلة بعدئذ لتأليف كتابها الموسوعى «الإنسان والطائر»، الصادر عن الهيئة العامة للكتاب، ومزجت فيه بين علاقتها المبكرة بالطيور وبين كل ما قرأته وجمعته سنوات طويلة عن أحوالها وعوالمها فى الكتب والأساطير والأديان والموسيقى والفنون والآداب.. إلخ.

والمدهش حقّا أنها كانت تتابع هجرة الطيور الموسمية كل شتاء هربًا من صقيع أوربا إلى شمس مصر ودفئها، وقد شد انتباهها أن الطيور المهاجرة مثل السمان والغر والبلبول لم تطأ بأجنحتها أجواء مصر شتاء عام ١٩٧٣، فلما سألت العلماء والمتخصصين فى علم الطيور، راحت تفسر لنا تلك الظاهرة المهمة وغير المسبوقة، وأن الطيور أدركت بفطرتها أن مصر تتحشد لأحداث مدلهمة ومجهولة ومن ثم آثرت السلامة والنجاة، وأسفرت عهدئذ عن اندلاع حرب أكتوبر، تمامًا مثل استشعار الكلاب دون غيرها من الحيوانات بالزلازل قبل وقوعها، ولله فى خلقه شئون، «وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً» كما يقول الله سبحانه وتعالى فى قرآنه الكريم.

وحين أستعيد ذكرياتى عن عايدة الشريف أكتشف أن طفولتها موصولة بشكل قدرى بمرحلة النضج والعطاء حين أصبح اسمها مسبوقًا تلقائيًا بلقب «الأستاذ» لا «الأستاذة»، إذ كانت ولم تزل فى السادسة من عمرها تقتحم ندوة والدى الأسبوعية التى كان يعقدها فى غرفة المسافرين أى «الصالون»، وتثير من حولها الصخب والضحكات وهى تشتبك مع روادها من المشايخ والمطربشين وتقلد حركاتهم وأصواتهم وتسخر مما لا يروقها من حديثهم، فإن غابت عنهم سألوا عنها وطلبوا استدعاءها، وكانت إلى ذلك قارئة وقتئذ لمجلة البعكوكة الفكاهية، وكثيراً ما فازت بمبلغ «الخمسة والعشرين قرشًا»، وهى كانت مكافأة القراء على أحسن نكتة كل أسبوع.

شهادة خيرى شلبى

ومن المؤكد أن صداقات عايدة المبكرة لمن يكبرها عمراً ومقامًا، وكذا اقتحامها لمجالس الرجال دون أن تأبه لاختلاف الجنس قد لازمها بعد ذلك خلال دورات حياتها، كما لازمها كذلك الولع بالمعرفة والسخرية والتأمل فى الناس والحياة وما وراء الطبيعة، وفى مقال طويل كتبه الروائى الكبير خيرى شلبى بعد رحيلها ونشرته صحيفة القدس العربية التى صدرت فى لندن (يوم ٢٨ يناير ١٩٩٨) يقول:

«تميزت المرحومة عايدة الشريف بين بنات جنسها بكثير من أخلاقيات الرجال الخشونة والصلابة وقوة الشخصية فى مواجهة الشدائد، على بطانة فطرية من رقة أنثوية راقية ونفسية صافية، وشمائل تحسدها عليها الكثيرات، لم تكن أنوثتها تحول بينها وبين السهر مع أعتى الرجال ليقينها أنهم يعلمون من هى، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، كانت تنتخب من تصادقهم من رجالات الحياة الثقافية لتكون عنصراً ثابتًا فى سهراتهم تشاركهم فى ندواتهم اليومية وتبادلهم الحوار، وفى معظم الأحيان كان يشاركها أو يرافقها شقيقها الصحافى الكبير يوسف الشريف.

كان لها حضورها القوى فى مجالس ومنتديات العماليق: كامل الشناوى، نجيب محفوظ، محمود محمد شاكر، العقاد، فضلاً عن الندوات العامة المفتوحة وبرامج الرأى فى الإذاعتين المسموعة والمرئية وفى الصحافة الثقافية.

ولقد تخصصت المرحومة عايدة الشريف فى لون من ألوان الكتابة الأدبية قلما أجاده من كتب فيه على الرغم من أنه - وربما لأنه - يغرى بالسهولة ولا يحتاج - فى نظر ضيقى الأفق - جهوداً ثقيلة. أعنى لون الحديث، والحوار، والتحقيق، والريبورتاج الثقافى الأدبى، وهى كلها أشكال أشقاء تنتمى إلى جنس أدبى واحد هو اللقاء الحى بين طرفين.

تخصصت عايدة الشريف - تقريبًا - فى هذه الأشكال الأدبية الحميمة لدى كافة القراء، سواء قراء الصحيفة أو الدورية أو الكتاب. وكانت من الوعى والإدراك بطبيعة هذه الأشكال بحيث استطعنا أن نميز هذه الفروق النوعية فى كتاباتها الكثيرة

التى قدمتها إلى الصحافة الثقافية والأدبية العربية طوال ما يقرب من ثلاثين عامًا أو يزيد. ولأنها تعرف أن ما تقدمه يخرج عن نطاق الأحاديث الصحافية الاستهلاكية، فقد كانت تنتقى نخبًا من حواراتها وتضمنها دفات الكتب. وخيراً ما فعلت، لأن حواراتها تلك على درجة كبيرة من القيمة الأدبية تصل أحيانًا إلى مستوى الإبداع وأنها لكذلك بالفعل، فليس سهلاً أن يتحاور أو يتحادث أو يحقق كاتب شاب مع هذه النخبة من العماليق ويستدرجهم إلى هذه المكاشفات والاعترافات والآراء والرؤى الثمينة. نجيب محفوظ وكامل الشناوى ويحيى حقى وتوفيق الحكيم وعبد الرحمن الشرقاوى والشيخ الغزالى ويوسف إدريس ولويس عوض ومحمد مندور وغيرهم. استطاعت عايدة الشريف بدماثتها وخفة ظلها ودسامة محصولها الثقافى ورصانة أفكارها واتساع أفقها وحرارة أسلوبها وجزالة لغتها أن تبث فيهم الدفء وتخدرهم بجو من الحميمية والألفة حتى فتحوا لها قلوبهم دون حذر أو تحفظ، وانطلقوا فى تدفق وتلقائية يحدثونها عن أخص خصوصياتهم - إذا كان المجال حديثًا - وعن أعمق آرائهم وأفكارهم - إذا كان المجال حوارًا - وعن صادق شهاداتهم الموثقة المدروسة إذا كان المجال تحقيقًا، لا يترددون فى شيء ولا يمسكون عن شيء، لشعورهم أنهم فى يد أمينة لا تهدف إلى الإثارة أو التوريط أو الاسترزاق أو المتاجرة».

الطريق التراثى

الدكتور محمود الطناحى - أحد أقطاب ندوة الجمعة فى منزل العلامة الشيخ محمود شاكر وهو كان - يرحمه الله - من أبرز علماء اللغة العربية وآدابها.. كتب يقول فى تقديمه لكتاب عايدة «قصة قلم»: «دلفت عايدة الشريف إلى هذا المجلس الشاكرى فى عام ١٩٧١ وسرعان ما توثقت صلتها بالأسرة، فأدت معهم وبصحبتهم فريضة الحج فى عام ١٩٧٢ . . .

. . . أصبحت عايدة الشريف عضواً دائمًا فى لقاء الجمعة، وكانت فى ذلك الزمان موفورة النشاط متوثبة الحركة، مثيرة للجدل والحوار، وكانت لديها قدرة عجيبة على استخراج ما عند الأدباء واستثارة دفين ذكرياتهم، كهذا الذى كانت

تستخرجه من عبد الرحمن صدقى ويحيى حقى من حديث عن تاريخ الأوبرا، وحديث الرواية والقصة، وعطر الأحياء الشعبية، الذى كان يفوح من قارورة يحيى حقى. وكان مثل هذا الحديث مما يستجم به الحضور شيئًا ما من حديث اللغة والشعر الذى كان يصول فيه شيخنا ويجول، وكنا نحن التراثيين سعداء جدّاً بما كانت تميزنا به عايدة من أخبار المسرح والسينما وشجون أهل الفن، ثم ذكرياتها الصادقة والدقيقة مع نجيب محفوظ وقد عملت معه زمانًا فى مؤسسة السينما. . وعرفت من خاصة أمره ودقائق حياته، ما لا يعرفه الكثير من المقربين إليه، وكانت حجة فى هذا الجانب، كما كانت حجة فى أخبار الدكتور محمد مندور، وقد تتلمذت على يده فى معهد الفنون المسرحية ولازمته كثيراً و. . قد ضمنت ذلك كله فى كتابها الممتع «شاهدة ربع قرن».

. . . لكن الغريب فى أمر عايدة أنها كانت مأخوذة جدّاً بما تسمعه من قضايا اللغة والشعر وسائر فنون التراث التى كان يموج بها مجلس محمود شاكر، وكانت تستشرف إلى معرفة ذلك العالم العجيب الرحب، عالم التراث، بل إنها ـ وقد شدتها سخونة الحوار فى تلك القضايا ـ صرحت لى بأنها كانت تود أن تسلك ذلك الطريق التراثى من أول أمرها، وأنها لو أتيح لها مثل هذا المجلس فى مبتدأ حياتها لما رضيت به بديلاً. . وقد بدا لعايدة أن تكتب شيئًا عن حياة محمود شاكر ومجلسه، وقد سبق لها شىء من ذلك فيما كتبته فى بعض صحف الخليج ولكنها أرادت أن توسع الخطى، وتجمع أطراف الكلام، ولقد استعظمت الطريق واستطالته فى أول الأمر، وكادت تنصرف عنه. ولكنها عادت فاقتحمت الميدان بجسارة وشجاعة، وأخذت تجمع من هنا وتلملم من هناك، تضم الشبيه إلى الشبيه، وتقرن النظير بالنظير، تنشط أحيانًا وتفتر أحيانًا، وقد عملت وحدها، لم يعنها أحد، حتى صاحب الدار لم يكن يكشف لها عما كانت تريده من سيرة حياته وتقلبه فى العالمين، وكان هذا دأبه وعادته، لم يكن يحب أن يتحدث عن نفسه. كتبت عايدة عن محمود شاكر ما شاء الله لها أن تكتب: حياته وعلمه وخاصة أمره».

على أن هذا الذى كتبته عايدة الشريف عن محمود شاكر كان يجب أن يكتبه قراؤه الذين عرفوه فى فتوته وشبابه، وتلاميذه الذين أفادوا منه فى قوته وعنفوانه،

لكن لا هؤلاء كتبوا، ولا أولئك أشاروا، إلا ما كان من صديق عمره ورفيق حياته يحيى حقى، الذى ما فتئ يذكر فضل محمود شاكر عليه، وأنه هو الذى أذاقه حلاوة العربية وأوقفه على أسرارها ودقائقها»!

نجيب محفوظ وعربيته الفصحى

وقد عرفت الشيخ محمود محمد شاكر شخصيًا عن طريق شقيقتى عندما صحبتني والشاعر أمل دنقل إلى منزله عام ١٩٧١، وكانت عايدة قد عرفت الأستاذ شاكر لأول مرة عندما كان فى زيارة للأديب الكبير نجيب محفوظ فى الستينيات إبان رئاسته مؤسسة السينما، وكانت آنذاك عضواً فى لجنة قراءة النصوص السينمائية مع عدد من كبار الأدباء بينهم عبد الرحمن الشرقاوى وسعد مكاوى، حين فوجئت بشاكر يقول لمحفوظ مداعبًا: «واد يا نجيب.. بقيت لك خطوتان وتكتب العربية الفصحى». ومن يومها ظلت تتردد على صالونه الأدبى الذى كان يعقده كل يوم جمعة بمنزله فى حى مصر الجديدة، وكانت عايدة قد أصبحت من أخلص تلاميذه ومريديه، وكتبت عنه العديد من المقالات والبحوث فى مجلة الدوحة الشهرية قبل أن تتوقف عن الصدور، وفى صحيفة الوطن الكويتية ومجلة الآداب البيروتية، ثم أفردت له فصلاً كبيراً فى كتابها: «شاهدة ربع قرن».

والحقيقة أن لكتاب عايدة عن شيخها محمود شاكر قصة عجيبة تروى، فحين شرعت بعد رحيلها فى إعادة ترتيب مكتبها وأوراقها، وقع نظرى على مؤلف ضخم بخط يدها، كانت قد توافرت على كتابته فى غيبة عنى، حول سيرة محمود محمد شاكر ومؤلفاته وإبداعاته الشعرية والأدبية وتحقيقه لكتب التراث العربى والإسلامى، وأنها استكملت آخر سطور الكتاب بعد أن داهمه المرض، وكانت عايدة آنذاك فى ذروة مرضها وحزنها بعد أن عرفت من الأطباء الذين كانوا يتعهدون الأستاذ شاكر بالعلاج، أنه لن يخرج من المستشفى إلى منزله وإنما إلى مثواه الأخير. وهى كانت قد اختارت عنوانًا: «المناضل الثقافى» لكتابها عنه، وأوصت باسمين لمراجعة الكتاب ووضع المقدمة، ابنه الأستاذ فهر المدرس بكلية الآداب قسم اللغة العربية، أو أخلص تلاميذه: الدكتور محمود الطناحى الأستاذ

بكلية الآداب، ومن عجب أننى حين فاتحتهما فى الأمر ليلة العزاء فى الفقيد بمسجد عمر مكرم، تأكدت أن أيّا منهما لم تفاتحه عايدة بفراغها من وضع كتاب عن الشيخ شاكر. . ورحبا بالمهمة. . كما رحب الصديق مصطفى نبيل - رئيس تحرير مجلة الهلال الشهرية - بنشر الكتاب، واختار له عنوانًا آخر هو: «محمود محمد شاكر - قصة قلم».

والحقيقة أننى كلما استدعيت الآن شريط ذكرياتى عن الفقيد العظيم محمود شاكر، أتذكر صلابته فى الحق، وكم وألوان المعارك الضارية التى خاضها دفاعًا عن العروبة والعربية والإسلام، وأنه لم يحن هامته يومًا لحاكم أو ينافق مسئولاً بيده الحول والطول، أتذكر مجلسه الأسبوعى يوم الجمعة وسط مكتبته التى تملأ جنبات بيته بعشرات الآلاف من أمهات الكتب، وحواراته الممتعة وسط أبنائه وتلاميذه ومريديه وأتذكر وليمة زوجته «أم فهر» العامرة بما لذ وطاب سخاء وكرمًا، أتذكره وهو يؤم الصلاة قيامًا وقعودًا فى نشاط الشباب على الرغم من الوهن والمرض والعمر الذى ناهز التسعين. أتذكر تواضعه الجم عندما تلقى خبر فوزه بجائزة الدولة التقديرية عام ١٩٨٢ ثم فوزه بجائزة الملك فيصل العالمية عام ١٩٨٤، وأتذكره أخيرًا وهو يتابع مناقشة ابنه فهر لنيل الدكتوراه وكم كانت تغمره الفرحة والرضا وقد أينع غرسه الثقافى فى خير خلف لخير سلف - يرحمه الله.

شهادة عبد العال الحمامصى

ولأننى كنت فى حيرة أمام الكم الهائل من الكتابات التى أحاطت كتاب عايدة الشريف «قصة قلم» بالحفاوة والتكريم، سواء المكتوب عنه أو كاتبته، ولأن ما لا يدرك كله لا يترك جله، كان لا مفر إذن من اعتماد الانتقائية والبعد عن تكرار المعلومات والمعانى، يقول الأديب الناقد عبد العال الحمامصى فى عموده الأسبوعى بمجلة أكتوبر (يوم ٢٣ نوفمبر ١٩٩٧م):

على الرغم من أنى قرأت كل ما كتبه وأغلب ما كتب عنه - فإننى لم أشرف بلقائه الشخصى إلا لمامًا وفى لحظات عابرة. . لكنها أتاحت لى - على الرغم من قصرها - أن ألمس التناغم الرائع بين شخصه إنسانًا ورجلاً وبين عبقريته مفكرًا

فذًا . . وما أكثر ما كنت قد صدمت فى كتّاب كان الخلل فادحًا بين ما يكتبونه وما يمارسونه . . ولهذا كان واحدًا من الذين ربونى فكريًا إضافة إلى أنه كان قدوة لما ينبغى أن يكون عليه الكاتب . . ولكننى لا أنسى هذا المشهد أبدًا ، فيوم أن نلت جائزة الدولة التشجيعية فى ذات العام الذى نال هو فيه جائزة الدولة التقديرية أحسست بالفخار ؛ لأن اسمى جاء ضمن أسماء كان هو فى طليعتها . . وليلتها عندما قدم إلينا الراحل فؤاد محيى الدين الشهادات والأوسمة نيابة عن الرئيس مبارك وجدت العلامة العظيم محمود محمد شاكر ينادينى من وراء ظهرى ، وعندما استدرت فوجئت به يصافحنى بأستاذية وأبوة ليقول لى هذه الجائزة تستحقها يا حمامصى . . وليلتها شعرت بالكلمة وسامًا آخر يطوقنى . . فقد كان الرجل يمثل أنقى وأصدق ما فى وجودنا الثقافى .

والحق أن الرجل وإنجازاته الشاهقة قد هضم حقه طويلاً ، ولم ينل الهالة التى حفت بمن هم دونه علمًا واقتدارًا لظروف لا يتسع المجال لذكرها . . ولكن يمكن الرجوع إليها فى كتاب حيوى مهم أصدرته دار الهلال مؤخرًا بعنوان : «محمود محمد شاكر قصة قلم» قدمته إلينا تلميذته الأديبة الراحلة الجادة الأستاذة عايدة الشريف ـ رحمهما الله .

فإن من يقرأ هذا الكتاب . . يشعر بأن هذا التكريم قد جاءه متأخرًا . ولكن العزاء أن عايدة الشريف قد فتحت الباب لإنصاف هذا العملاق ، وأهم من ذلك أنها بهذا الكتاب حاولت أن تصحح الأوضاع ، وأن ترفع عن طريق الفكر العوائق أمام جيل قادم . . عليه أن يستخلص الحقائق بعيدًا عن محاولات التعتيم والتزييف ليمضى بقافلة ثقافتنا فى الاتجاه الصحيح ، وبعد قراءة هذا الكتاب الممتع والكاشف والمضىء . . لا أستطيع أن أكتم غصة الحزن لإحساسى بأننا فقدنا فى عام واحد الأستاذ المفكر والتلميذة المتفوقة ـ رحمهما الله .

هجص.. وخلاص

وفى يومياته بصحيفة الأخبار كتب الصحفى الأديب إسماعيل النقيب تحت عنوان : حزن على حزن ، يقول :

هذا كتاب جميل بحق، وكنت أريد إرسال خطاب إعجاب بالكاتبة المبدعة عايدة الشريف على هذا الجهد المخلص الذى عكفت عليه بحب شديد.. حتى صدر الكتاب فى نحو ٣٥٠ صفحة عن دار الهلال فى سلسلة كتاب الهلال.. وكنت أريد أن أقول فى خطابى إلى الأستاذة عايدة الشريف كلامًا أبدؤه بسؤال وهو: هل ستستمرين طويلاً فى الكتابة بهذا الإبداع الذى يحتاج إلى معاناة تختصر عمر صاحبه؟ !لأن كل صفحة من صفحات هذا الكتاب تحتاج إلى وقت من التأمل.. وإلى سنين حتى نعثر على واحد من الكتب التى ذكرتها وحققها شيخ المحققين الأستاذ الكبير محمود محمد شاكر. واسم الكتاب هو «محمود محمد شاكر ـ قصة قلم، وكان من المفروض أن يصدر هذا الكتاب فى حياة العالم العلامة محمود شاكر، ولكنه مضى إلى الشاطئ الآخر من الحياة!

وهذا الكتاب الحافل المفيد هو سيرة شيخ علماء العربية الذى درس كتبها للناس عبر عصورها المختلفة وكان شيخنا الجليل يرفض أن يلقب بشيخ محققى التراث؛ لأنه يرفض تسمية مؤلفات السابقين من علماء وشعراء العرب عبر عصورهم القديمة التى تزيد على الألف عام بأن هذه المؤلفات تراث.. لأن شيخنا الأستاذ شاكر يرى أن التراث هو القديم الذى لا يحفل به أحد.. ولكن كتب العرب تعيش بيننا.. ونتعامل بها.. ومتداولة فى أيامنا ويدرسها طلاب العلم فى جامعاتنا.. والشيخ عاش بيننا ٩٠ عامًا بالجلال والمهابة.

وهذا العالم الكبير اختار الماضى ليكون هو المستقبل له.. فعكف على دراسة العلماء والشعراء والأقدمين من السلف، وكان منهجه هو التذوق.. وهو يعنى معايشة النص قبل الحكم عليه.. حيث يدرس الأدب العربى كأعمال لغوية تتلألأ فى نفس أصحابه على صفحاته، كما يضىء اللؤلؤ بين آلاف الأصداف الفارغة، ولو أن شيخنا على قيد الحياة لخشيت من مهابة الكتابة عنه؛ لأن شيخى فيه عنف الاستقامة. وذات مرة كتبت عنه صورة قلمية له وهو مع تلاميذه ومريديه من أساتذة الجامعات وبذلت جهدًا، كما لو كنت أكتب قصيدة شعرية، وفرحت بنفسى.. بأننى كتبت أحسن ما كتبت.. وكنت أباهى نفسى أمام نفسى بما كتبت بعدما عانيت.. لأننى أريد كلمات تحاول الاقتراب من مقام أستاذية الأستاذ.. ونشر الكلام فى اليوميات.. بعد ذلك « لا حس.. ولا خبر».. إلا الاستحسان

من المريدين، وكنت مشغوفًا بأن أسمع رأى الأستاذ شاكر نفسه، ولم يفعل. فأدركت أنه على سفر. ولكنى سمعت أنه موجود فى القاهرة، فقلت ربما مريض! وتهيبت أن أسأل.. لكيلا أتهم بالتقصير فى السؤال عنه.. وصدفة صادفته.. وألقيت عليه السلام.. ولم أسأله عما كتبت.. وثبت فى نفسى أن الكلام لم يصادف هوى فى نفس الأستاذ !!وإذا بأحد الأساتذة من المريدين يأتى إلى حيث نقف أنا والأستاذ فى مجمع اللغة العربية.. وأشاد هذا المريد بما كتبت.. وأمطرنى مديحًا سعدت به، وقلت: ولكن يبدو أن الأستاذ لم يقرأ ما كتبت.. وإذا به يقول: لقد قرأته فى حينه.. وأهو «هجص»، وخلاص !!!وضحكت.. وقلت: يا شيخى لو لم تقل هذا التعليق.. لقلت ما الذى أصاب شيخى.. وهل فقد خصائصه الطبيعية فى الهجاء الجميل للصحاب؟ !ومن يومها وأنا أتهيب الكتابة عنه، لذلك شعرت بشجاعة الأستاذة عايدة الشريف التى اقتحمت عرين الأسد.. وصبرت.. وثابرت.. وكتبت هذا الكتاب الجميل.. وحكت فى مقدمة قصتها مع الكتاب ومع الهيبة والخشية والتردد.. وكل ما أصابها من مشاعر.. وكنت أنوى أن أعرف عنوان الأستاذة عايدة الشريف من شقيقها الكاتب المجيد خفيف الظل يوسف الشريف.. لأننى لا أعرف عايدة. ولكننى عرفت أن عايدة ماتت قبل شهرين من موت الأستاذ.. فصارت الكتابة هى حزن على حزن.

اقتحام عقول العمالقة

وفى مقال طويل نشرته مجلة الآداب البيروتية، كتب المفكر العربى ووزير التربية والتعليم الأسبق فى السودان الدكتور محيى الدين صابر، يقول:

ظل الأستاذ محمود شاكر وفيًا وصامدًا على موقفه الفكرى حول ضرورة تجذير الأصول الثقافية العربية كمدخل وآلية للتعامل الندى والمتكافئ مع الثقافة العالمية، ولا شك أن تاريخ التلاقح بين الثقافات العالمية يشهد للفكر والأدب العربى ما لم يكن له مثل فى التاريخ لقرون طويلة، مما ينفى الاتهام الباطل بالتخلف والعجز عن الوفاء بمتطلبات العصر، خصوصًا ما يتعلق بالعلوم الطبيعية والرياضيات،

بينما يشهد التاريخ ـ على سبيل المثال ـ أن أعداء الثقافة العربية نقلوا العلوم الطبيعية التى كانت تدرس فى القرن التاسع عشر فى مصر باللغة العربية حين دخلوها غازين، وأشير هنا إلى أن علوم الطب كانت تدرس فى قصر العينى حتى جاء الإنجليز فغيروها إلى لغتهم.

وحين تكتب عايدة الشريف عن الأستاذ محمود شاكر، فعن أستاذها الأثير، فهى كانت من الرواد المقيمين فى ندوته الأسبوعية فى داره المضايفة ومكتبته العامرة، وهى فرصة لم تكن تتيسر للكثيرين. . ومن هنا، فإن هذا الكتاب تحققت له من أسباب التوفيق الكثير، وهو تحية مستحقة لرجل عظيم من رجالات الثقافة العربية، وعنوانًا وشهادة على كاتبة وأديبة فذة يندر مثالها ـ يرحمهما الله رحمة واسعة!

إلى ذلك أذكر تنويه الأديب الكبير محفوظ عبد الرحمن فى مقال بصحيفة «العربى» الذى شهد لعايدة بجسارتها المعرفية التى أهلتها لاقتحام عقول العمالقة من المثقفين وارتياد ندواتهم. وكذا الفنان النابغة حمدى أحمد الذى رثاها فى ليلة عزائها، مشيدا بفضلها، حين قدمته إلى صديقها المخرج صلاح أبو سيف واختاره للتمثيل أمام سعاد حسنى فى فيلم «القاهرة ٣٠».

* * *

على أن الأقلام التى بادرت إلى عرض محتوى كتاب «قصة قلم» وتراوحت بين الموضوعية والانطباعية، وبين الإثارة كذلك عبر التوقف كثيراً عند ظواهر الجبروت الفكرى والموسوعى الذى كان عليه الأستاذ محمود شاكر ومعاركه العنيفة ضد خصوم اللغة العربية والثقافة العربية فحسب، إلا أن بعضها عنى بتناول القصة الغامضة التى تشى بمحاولته الانتحار وهو المسلم الحق والعابد البتول.

شهادة الدكتور الطناحى

ومما لا شك فيه أن السؤال عن محمود شاكر شيخ عايدة الشريف، يظل فى حاجة إلى من يعرفه قامة إنسانية ويزنه قيمة علمية، ولعل من هنا وقع اختيارى

على تلك الفقرات من المقدمة التى كتبها المرحوم الدكتور محمود محمد الطناحى لكتاب «قصة قلم» باعتبارها شهادة موثقة مرجعية معرفية حول ما كان عليه محمود شاكر العلامة والإنسان، فهو كان أكثر تلاميذه وحوارييه الذين لازموه شخصيًا زهاء ربع قرن ونالوا من علمه الكثير وظل أفضل اختياراته للبوح والحوار المتبادل، وربما من هنا رشحه وغيره من المفكرين والنقاد لخلافته. . ومن المؤسف أن يرحل الدكتور الطناحى فى أعقاب رحيل أستاذه محمود شاكر وأن ينقطع التواصل مع ذلك الزخم المتميز الذى أدرك أسرار اللغة العربية وأثرى الثقافة العربية تأصيلاً وعطاء متميزًا. كتب الدكتور يقول:

أىّ رجل كان محمود محمد شاكر؟ وأىّ مجلس كان مجلسه؟ وأى أُنسٍ كان يشيع فى هذا المجلس، وأى علم كان يتفجر فى رحابه؟

للناس أن يتكلموا عن علم محمود شاكر ما شاء الله لهم أن يتكلموا، ولكن الحديث عن مجلسه مما ينبغى الوقوف عنده وتأمله. لقد قلت فى بعض ما كتبت إنه لم يحظ أحد من أدباء هذا الجيل بمعشار ما حظى به محمود شاكر من حبه والالتفاف حوله والأخذ عنه والتأثر به:

لقد كنت فى قوم عليك أشحةً بنفسك إلا أن ما طاح طائح

يودون لو خاطوا عليك جلودهم ولا تدفع الموت النفوس الشحائح

طوائف من الناس من مختلف البلدان والأعمار والانتماءات ضمهم ذلك البيت المفتوح دائمًا، والذى خلا من الرسميات والدعوات المضروبة من قبل. يقول الأستاذ فتحى رضوان، فى وصف ذلك البيت الشاكرى:

«كان بيته ندوة متصلة لا تنفض، من أعضائها الثابتين: يحيى حقى، إذا حضر من أوربا، وعبد الرحمن بدوى، وحسين ذو الفقار صبرى، وغيرهم وغيرهم، ولم يكن حظى أن أكون عضوًا دائمًا فيها، فقد كنت ألم بهم أحيانًا، فأراهم وأرى العالم العربى كله، ومن العالم الإسلامى على ترامية شخصيات لا حصر لها، تتباين بعضها عن بعض، فى الزى والمظهر والثقافة واللهجة والشواغل والمطامح، ولكنها تلتقى كلها عند محمود شاكر، تسمع له، وتأخذ عنه، وتقرأ عليه، وتتأثر

به، وكلما كان من حظى أن أشهد جانبًا من هذه الندوة، أحسست بسعادة غامرة أن يبقى ركن فى بلدى كهذا الركن، ينقطع أصحابه للفكر والدرس والتحدث فى أمور لا تجد من يسمع بها، أو يعرف عنها شيئًا فى مكان آخر».

وإذا كان الأستاذ فتحى رضوان قد ذكر من عرفهم من أعلام الفكر والأدب الذين كانوا يختلفون إلى بيت محمود شاكر، فإنى ذاكرٌ أيضًا من عرفتهم فى هذا المجلس الحاشد، على امتداد الستينيات والسبعينيات: عبد الرحمن صدقى، وعلى أدهم، ومحمود حسن إسماعيل، وعلى أحمد باكثير. ومن أعلام العرب: أحمد المانع، وناصر الدين الأسد، وأحمد راتب النفاخ، وإبراهيم شبوح، وإسماعيل الأكوع، ومحمد بن شريفة، وعبد السلام الهرّاس، والحبيب اللمسى، وعبد الله الغنيم. ومع هؤلاء الأعلام يتسع المجلس أيضًا لصغار الطلبة والمعيدين.

ولقد يجتمع الناس فى ندوة أديب من الأدباء، ثم تنفض الندوة وينفرط عقدها، ويذهب كل فى طريق. ولكن مجلس محمود شاكر يختلف عن غيره من المجالس، بما يشيع فيه من أنس وود وبهجة، وما تنعقد فيه من صداقات عذبة حميمة، يغذيها وينميها صاحب المجلس، أما المناقشات العلمية والمحاورات الأدبية فلكل امرئ منها حظ مقسوم، لا ينفرد بها صاحب الدار، ولا يستبد بها الكبار، فالكل فى هذا المجلس سواء، والكل يتكلم ويشارك، ولم يكن صاحب المجلس يرتاح للأحاديث الجانبية أو ثنائية الحوار، فما يكاد يرى اثنين يتحدثان منفردين حتى يتدخل قائلاً: «أنتوا بتقولوا إيه؟» يريد أن يقطع عليهما طريق الانفراد، ولا شك أنه كان يصدر فى هذا من وحى الحديث الشريف الذى رواه البخارى ومسلم وغيرهما: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر - حتى تختلطوا بالناس - من أجل أن يحزنه».

بل إن مائدة الجمعة، والموائد الأخرى الحافلة، كيوم عاشوراء الذى كان يوافق مولد صاحب الدار بالتاريخ الهجرى: هذه الموائد كانت تجمع إلى أهل الأدب والفكر بعض أهل الحرف والصناعات الذين لهم بالبيت وصاحبه صلة وتاريخ، مثل المجلد والنجار والحلاق، ومن طريف ما يسجل هنا ما ذكره لى أبو فهر - رحمه الله - قال: فى يوم جمعة من الأيام الأولى لثورة يوليو كان يجلس على

مائدة الغداء: محمود رشاد مهنا وحسين ذو الفقار صبرى والشيخ أحمد حسن الباقورى ومحمد فؤاد جلال ـ وكل هؤلاء من الوزراء وكبار المسئولين فى ذلك الوقت ـ وكان يجلس أيضًا إلى المائدة الأسطى أنور الحلاق. وفى اليوم التالى اتصل بى الشيخ الباقورى وقال لى: إن محمد فؤاد جلال ـ وكان وزيرًا للشئون الاجتماعية ـ غاضب من وجود الأسطى أنور الحلاق معنا على المائدة. وفى الجمعة التالية قلت لمحمد فؤاد جلال: اسمع يا فؤاد أنت وزير فى مجلس الوزراء، ولكنك فى بيتى واحد من الناس، تستوى أنت والأسطى أنور وسواكما من عباد الله ميراثًا نتوارثه وأدبًا نتدارسه!

مزاعم وأكاذيب

ثم يواصل الدكتور الطناحى شهادته:

وقد دخلت عايدة الشريف مجلس محمود شاكر ومعها هذا القدر الهائل من الهيبة والخشية والحذر، من تلك الحدة المزعومة فى شخصية محمود شاكر، وهو شعور عرفناه جميعًا حين دخلنا بيته لأول مرة، وحين توثقت صلتنا بالشيخ اكتشفنا زيف هذا الشعور، وكذب تلك المزاعم التى أشاعها بعض خلق الله ليصدوا الناس عنه، وإذا نحن أمام قلب طاهر نقى، يغضب ويثور حين يرى حدًا من حدود العلم قد انتُهك، ولكنه قريب الرضا ميسور الصفاء، وقد وصفته فى بعض ما كتبت بأنك تراه فى حال غضبه ثائرًا فائرًا، كسماء مرعدة مبرقة، فإذا ألقت سماؤه بأمطارها، عاد كنسمة هادئة فى إثر ماء طهور، وإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم، ومن الظواهر التى كنا نشاهدها كثيرًا أنه يختلف مع أحدهم اختلافًا شديدًا، يرتفع معه صوته وتتقاذف كلماته كالسهام الملتهبة، وحين يودعه على باب المصعد يقول له: «ابقى تعال الجمعة الجاية».

ثم يختتم الدكتور الطناحى شهادته قائلا:

من أعجب العجب ألا تجد لهذا الرجل الضخم ذكرًا إلا فى مقدمات بعض الكتب أو الرسائل الجامعية: شكرًا مصنوعًا متكلفًا، يريد به صاحبه أن يرفع

خسيسة، لا أن يذكر علمًا، لكن محمود شاكر سيظل دائمًا أثرًا ضخمًا باقيًا فى ضمير هذه الأمة: حراسة للعربية، وذودًا عنها، وبصرًا بها، وإضاءة لها.

إن أحق ما يقال عن محمود شاكر هنا وفى كل مكان هو ما قاله عن أستاذه مصطفى صادق الرافعى، بأن الرافعى «قد صار ميراثًا نتوارثه، وأدبًا نتدارسه، وحنانًا نأوى إليه».

وكذلك ينبغى أن يكون محمود شاكر «ميراثًا نتوارثه، وأدبًا نتدارسه، وحنانًا نأوى إليه».

إرث العدالة الإسلامية

عن الشيخ محمود شاكر قال المفكر الجزائرى مالك بن نبى «لو كان الجاحظ حيًا لترك مكانه عن طيب خاطر لشاكر»، وقال المفكر السودانى الدكتور عبد الله الطيب عنه: «إنه ضمير عروبة مصر»، وقال العالم السعودى المعروف عبد الله عسيلان «إنه إرث العدالة الإسلامية المعاصرة».

تلك بعض الشهادات التى استهل بها الكاتب الناقد السيد أبو داود عرضه لكتاب عايدة الشريف «قصة قلم» فى صحيفة الشرق القطرية. . يقول:

محمود شاكر . . . علامة محقق واسع الثقافة ثاقب الرؤية عميق التحليل . . . رحل عن دنيانا فى صمت. . لم يأخذ حقه ولا ما هو أقل من حقه. فهو الذى اختار أن يضرب العزلة حول نفسه منذ أن اصطدم وهو الطالب بكلية الآداب ولم يتجاوز عشرينيات العمر بعد بأستاذه الدكتور طه حسين حول «منهج الأدب العربى والشعر» وضبطه متلبسًا بالنقل حرفيًا عن المستشرق «مرجليوت»، فترك محمود شاكر كلية الآداب والمناخ العلمى الفاسد ـ على حد تعبيره ـ وأغلق على نفسه باب بيته، ثم سافر إلى السعودية عام ١٩٢٦، وعمل بالتدريس وشغل بتحقيق الشعر الجاهلى فى بيئته، ثم عاد بعد عامين وظل فى منفاه الاختيارى طوال عمره!

ابتعد عن الإعلام وكره الحديث إلى الصحفيين والمذيعين، لكنه فتح باب بيته

لطلاب العلم من الذين يعدون رسائل الماجستير والدكتوراه وأصدقائه من أساتذة الأدب العربى والأدباء والشعراء. ومن هؤلاء الأصدقاء الأستاذة عايدة الشريف التى تتلمذت على يد الأستاذ الراحل وعرفت قيمته وقدره.

ويشاء الله أن ترحل الكاتبة الصحفية عايدة الشريف عن عالمنا قبل أيام من رحيل الأستاذ وكأنهما كانا على موعد. وقبل وفاتها كانت قد أعدت كتابًا عن أستاذها بعنوان «قصة قلم»، والكتاب يشتمل على أربعة أبواب: الباب الأول، شاكر كما عرفته، والباب الثانى، شاكر عندما تعرفت إليه، والباب الثالث، منهجه وكتبه ومناسبات فى حياته والجوائز والأوسمة التى حصل عليها، والباب الرابع، تطبيق منهجه على أعماله.

فى الكتاب تركز الأستاذة عايدة الشريف - رحمها الله - على البيئة التى نشأ فيها محمود شاكر؛ لأن هذه البيئة تركت بصماتها على شخصيته الصلبة المستقيمة. فتقول عن والده الشيخ محمد شاكر: . إنه كان أمينًا للفتوى بالسودان عام ١٩٠٠ ثم عمل نائبًا بمحكمة قليوب الشرعية واختاره محمد عبده لإعادة تأسيس القضاء الشرعى بالسودان ثم كلفه محمد عبده بإنشاء المعهد الدينى بالإسكندرية عام ١٩٠٧ حيث وضع نظامًا جديدًا للمعهد أدخل بمقتضاه العلوم والرياضيات إلى برنامجه الدراسى مما كان مثار إعجاب الخديو عباس الذى استدعاه من الإسكندرية وعينه وكيلاً للأزهر.

وتقول عايدة الشريف إن شقيق محمود شاكر هو العلامة المحقق القاضى الشرعى أحمد شاكر الذى حقق العديد من كتب التراث المهمة.

وعن الفترة التى سبقت تعرفها إلى محمود شاكر تقول عايدة الشريف عشت انتظارى للقائه أرسم له فى خيالى آلاف الصور، بل إنى ما قرأت فى هذا الوقت عن كاتب أو شاعر أو فقيه لغوى من أعلام العرب إلا تخيلت محمود شاكر فيه. وتضيف كنت ألجأ إلى الخيالات ليس لإشفاقى على نفسى من لقائه فقط وإنما لأنه كان معتقلاً آنذاك بعد نشر مقالاته التى تشكل الجزء الأول من كتابه القيم «أباطيل وأسمار». . وفى انتظارى لخروجه من السجن، رحت أبحث فى الجزء الذى صدر من أباطيل وأسمار وفى غيره من كتبه ومقدماته للكتب عن شخصية محمود شاكر نفسه وما فعلت به الأقدار.

رسائله إلى الرافعى

وتتوقف عايدة الشريف فى كتابها لتفسير كنه الصداقة التى كانت بين محمود شاكر ومصطفى صادق الرافعى، فالرافعى كان يسكن طنطا بعيداً عن الوسط الأدبى بالقاهرة وما فيه من أحداث بينما كان شاكر فى وسطها. وكان شاكر يمد صديقه بما ينقصه من معلومات معرفية عبر رسائله كواجب على المريد نحو شيخه!

وعن الرافعى قال محمود شاكر «عرفت الرافعى معرفة الرأى أول ما عرفته ثم عرفته معرفة المحبة فيما بعد، وعرضت هذا على ذاك فيما بينى وبين نفسى فلم أجد إلا خير ما أرى. وتبدت لى إنسانية هذا الرجل كأنها نغمة تجاوب أختها فى ذلك الأديب الكاتب الشاعر. وظفرت بحبيب يحبنى وأحبه لأن القلب هو الذى كان يصل بينى وبينه، وكنت أتلقى كلامه فأفهم عنه ما يكاد يخفى على من هو أمثل منى بالأدب وأقوم على فى العلم وأبصر بمواقع الرأى»!

ورسائل محمود شاكر إلى شيخه الرافعى تعكس ما يحمله من غزارة العلم والفقه والنحو ومن الغيرة على الدين. . وهذه الرسائل حرضت الرافعى على كتابة مقالاته الشهيرة «مقالات من عيون الأدب».

الانتحار!!!

بعدها تزيح عايدة الشريف الستار عن أخطر خبايا شيخها، حول حادث جلل يجهله معظم الناس عن محمود شاكر وهى محاولته الانتحار فى أعقاب خلافه الحاد الذى تحدث به الركبان مع أستاذه الدكتور طه حسين.

كان محمد سعيد العريان قد كتب وقتذاك يقول «وقعت حادثة اهتزت لها نفس الرافعى اهتزازاً عنيفًا، فقد جلست إليه فى يوم نتحدث فى أحاديث فقال لى إن صديقنا «م» لم يكتب إلينا من زمن (م هو محمود شاكر) ليت شعرى ما منعه عنا؟ إنى قلق عليه وفى نفسى أن أراه أو أعرف من خبره، وفى صبيحة اليوم التالى طالعتنا الأهرام بخبر غامض أن شابًا من الأدباء هو ابن شيخ كبير من شيوخ الأزهر قد حاول الانتحار بقطع شريان فى يده. . وقرأ الرافعى الخبر وقال إنه صديقنا «م»

لقد غلبه شيطانه على دينه آخر الأمر، غفر الله له. وأخذ الرافعى يحوقل ويستعيذ بالله من غلبة الهوى وفتنة الشيطان ثم مد يده إلى مكتبه فكتب رسالة إلى «م» يسأل عن حاله وخبره ويرجو له العافية فى دينه ودنياه ثم يطلب إليه أن يصف له ما كان وما حمله عليه وما آل إليه من أمر، وأن يكون دقيقًا فى وصف المرحلة التى كان فيها بين الحياة والموت فإنها المرحلة التى لا يحسن أن يصفها إلا من مر بها».

محمد سعيد العريان هو الآخر كان صديقًا وحبيبًا لمحمود شاكر حيث كتب عنه يقول: «وصديقنا شاكر أديب ولع المعرفة، له دين ومروءة وفيه تحرج وخشية، وقد نشأ فى بيت له ماض فى الدعوة إلى الإسلام والدفاع عنه.. وهو شاب عذب.. بعيد الخيال.. رقيق الحس.. مرهف الأعصاب.. على أنه يعيش فى ظل وارف ونعمة سابغة».

ويروى العريان أنه لما بلغ الرافعى شروع شاكر فى الانتحار جزع وتطير وضاقت نفسه وناله من الهم الكثير فأنشأ مقالاته الستة عن الانتحار المنشورة فى «وحى القلم».. بوحى من رسائل محمود شاكر نفسه.

الصراع بين الحب والكراهية

هنا تدلى عايدة الشريف بدلوها فى محاولة لاستكشاف أبعاد الحادث.. تقول: يهيأ لى أن حادث الانتحار وقع لشاكر وهو يضع اللمسات الأخيرة فى منهجه، أى فى أواخر عام ١٩٣٤ أو بداية عام ١٩٣٥؛ لأن عام ١٩٣٦ على حد اعتراف محمود شاكر كان آخر عام قضاه «فى حيرة نائحة وضلالة مضنية» على حد قوله !وتحلل الكاتبة واقعة انتحار شيخها فتقول إن هذا الأمر يعكس فى الأساس آثار الأزمة الثقافية التى ترسبت فى نفسه من انغماسه فى الحياة الأدبية الفاسدة من كل الوجوه، والتى نكأ جراحها أطروحات أستاذه طه حسين حول الشك فى الشعر الجاهلى.. حيث مال الميزان واهتزت مثله العليا متمثلة فى الهيئة الجامعية ومكانة أستاذه الذى احتل فى قلبه موقعًا أثيريًا، وطبيعيًا، وعندما تسقط المثل العليا يبدأ الإنسان فى فقد الثقة بنفسه وبمن حوله. وقد تطلبت منه الأزمة صراعًا قاسيًا يتنقل بين الحب والكراهية وبين الحيرة المدمرة. فكان عليه أن يختار

أى الجانبين فاختار العروبة والإسلام الذى يكن له كل تقدير، مضحيًا بكل أشكال الفساد من حوله وبصورة الجامعة وشخص أستاذه الذى يكن له التقدير. وهذا القلق ولد لدى شاكر شعورًا غامرًا من الإحباط الذى يولد فى أحيان كثيرة شعورًا قويًا بالعدوان. حيث يمكننا القول إن محاولة الانتحار هى فى جوهرها عدوان موجه إلى الآخر عبر الذات، فهو حين يحاول قتل نفسه كان كمن يحاول قتل من يريد أن يوجه إليه عدوانه من فساد المجتمع وصورة الجامعة وشخص أستاذه.

وتضيف التلميذة عن شيخها «ولا تحسبن أن هذه المحاولة وصمة على جبين محمود شاكر، فقد عصفت قبله وبعده بعظماء الرجال».

فساد الحياة الأدبية

على أنه بعد عودة شاكر من الحجاز عام ١٩٢٩ سرعان ما تماست هذه العودة مع موهبته وذكائه وغزارة اطلاعه. يقول محمود شاكر عن هذه الفترة: «يومئذ طويت نفسى على عزيمة حذاء أن أبدأ وحيدًا منفردًا رحلة طويلة جدًا وبعيدة جدًا وشاقة جدًا ومثيرة جدًا.. بدأت بإعادة قراءة الشعر العربى كله.. أو ما وقع تحت يدى منه يومئذ، قراءة متأنية طويلة الأناة عند كل لفظ ومعنى كأنما أقلبها بعقلى وأزنها بقلبى وأحبسها حبسًا ببصرى وبصيرتى وأناملى وأنفى وسمعى ولسانى، وكأنى أطلب منها خبيئًا قد أخفاه الشاعر الماكر بفنه وبراعته، وأتدسس إلى دفين قد سقط من الشاعر عفواً تحت نظم كلماته ومعانيه دون قصد منه أو تعمد أو إرادة.. ثم يقول: واكتسبت يومئذ بعض الخبرة بلغة الشعر وبفن الشعراء وبراعتهم، واتضح لى خلال ذلك باب آخر من النظر فانفتح لى الباب يومئذ على مصراعيه فرأيت عجبًا من العجب وعثرت يومئذ على فيض غزير من مساجلات صامتة خافتة كالهمس، ومساجلات ناطقة جهيرة الصوت، غير أن جميعها إبانة صادقة عن هذه الأنفس والعقول. أمدتنى هذه التجربة بخبرات جمة متباينة متشعبة، أتاحت لى أن أجعل منهجى فى تذوق الكلام منهجًا جامعًا شاملاً متشعب الأنحاء والأطراف، يزداد على تطاول الأيام رحابة وسعة ونفاذًا واستقصاء.

ثم تسأل عايدة الشريف عن ماهية الحياة الأدبية الفاسدة من كل الوجوه التى

كان يعانيها شيخها والتى وضع رأسه فوق كفه مقابل تغييرها: هل كان الاستعمار هو همه؟ أم التواء مقاصد المستشرقين هو الذى أفزعه؟ أم المناهج الدراسية التى وضعها الإنجليزى دانلوب مستشار التعليم المصرى هى أزمته؟ أم ألاعيب السياسة والقصر هى سبب ذلك؟ ثم ما هو النظام الصالح الذى كان ينشده محمود شاكر؟

وتقول عايدة الشريف إن كل هذه الأمور السابقة لم تحل دون ارتفاع الأذان والجهر بالصلوات خمس مرات فى اليوم ولا منع المسلمين من إمعان الفكر فى القرآن الكريم الذى يسمعونه صباح مساء. إن استقراء كتابات محمود شاكر تنبئنا أن رغبته لم تكن فى التغيير الفجائى، لأنه رأى بنفسه أن فكرة التغيير سرعان ما ترتد على صاحبها كما ارتدت آراء د. طه حسين فى تعميم الشك فى الشعر الجاهلى حتى كادت تعصف به.. وإنما كان كل أمله فى أن تتمسك الأمة العربية بشكل أفضل بتقاليدها وقيمها العريقة فى مواجهة التحديات الحضارية. فقد وصف فى كتابه: «أباطيل وأسمار» ما أفزعه وجعله يعيش منذ شبابه صراعًا يكاد يمزقه لأنه رأى الأمة العربية تنشق عن كل تاريخها وتساق إلى مجزرة نصبها لها الاستعمار وهو فرح نشوان!

بين الرافعى والعقاد

عبر معايشة عايدة الشريف لشيخها شاكر وحواراتها المتصلة معه، روى لها بعضا مما كان من عدم التوافق بين الرافعى والعقاد، خاصة وكثيراً ما دارت معارك أدبية بينهما. وهذا الصراع حال دون التواصل لسنوات عديدة بين شاكر تلميذ وحبيب الرافعى وبين العقاد خصم الرافعى. وكان شاكر يدافع عن شيخه الرافعى بصلابة ثم صارت بعد ذلك صحبة وصداقة عميقة بين العقاد ومحمود شاكر. وهنا يقول أحمد حمدى، أحد تلاميذ العقاد: «ولا أنسى هنا مجلسنا مع الأستاذ العقاد عام ١٩٦٠ وقد كان الحديث عن المتنبى فقال عن كتاب محمود شاكر إنه خير ما كتب عن شعر المتنبى.. ثم جرنا الكلام عن المحققين فقال العقاد عن شاكر إنه على رأس المحققين لأنه أديب فنان ولهذا كله رأى الرافعى أن محمود شاكر سيكون خليفته».

وتعقد الكاتبة مقارنة بين محمود شاكر وأستاذه الرافعى، فتقول:

إنهما كانا متوافقين فى كثير من الجوانب كالبناء الفكرى والثقافى وحالة الانعزال الطوعى التى فرضها كل منهما حول نفسه إضافة إلى دقة منهجهما. أما نقاط الخلاف فكانت أن الرافعى عاش وفديًا شديد الحب والحدب على زعيم هذا الحزب سعد زغلول حتى أنه أثبت ما يشى بهذا الحب والحدب فى وصف أقواله فى كتابه: «وحى القلم» بقوله: (كأنه تنزيل من التنزيل). أما شاكر فإنه عاش مولعًا بالحزب الوطنى وزعيمه مصطفى كامل ولهذا رفع محمود شاكر اسم سعد الدين من اسمه فقد كان أبوه قد أسماه (محمود سعد الدين شاكر)... وفعل شاكر ذلك لعدم حبه لسعد زغلول!

وعن اندماجه فى الوسط الثقافى والفكرى تقول عايدة الشريف إن شاكرا بعد أن عاد إلى الوطن قادمًا من الحجاز اندمج فى الوسط الأدبى وخالط أدباء وشعراء ذلك الجيل ابتداء من أمير الشعراء أحمد شوقى الذى كان يلازمه أيامًا وليالى طويلة إلى أبناء جيله يحيى حقى ومحمود حسن إسماعيل والعقاد وزكى نجيب محمود. وتفرغ للكتابة فى الصحف والمجلات الأدبية مثل الرسالة والثقافة والمقتطف والبلاغ والزمان ولم تصرفه المقالات المتتابعة عن مواصلة العمل فى جانب من أهم جوانب حياته وهو نشر روائع التراث بتحقيق علمى وفق منهج مستقل عرف عنه وتلقاه العلماء بتقدير كبير.

بين يحيى حقى وصاحب الفضل

كان يحيى حقى يحب محمود شاكر حبًا شديدًا وفى معظمُ أحاديثه يذكر شاكرا باعتباره صاحب الفضل الذى عرفه طريق اللغة العربية الفصحى. وكان من أصدق أصدقاء محمود شاكر ومن أوائل الجالسين فى مجلسه. يقول يحيى حقى عن شاكر: «دخلت بيت محمود شاكر عام ١٩٤٠.. وجدت بيتًا يشف ويرف إلى درجة فائقة من النظافة ووجدت مكتبة فخمة جدًا مملوءة بالكتب ووجدت شابًا يتحفز بالنشاط والتألق والاهتمام والذكاء فأحسست أنى عثرت على صديق مهم جدًا»، ويستطرد يحيى حقى قائلاً عن صديقه محمود شاكر: «لم يكن لمحمود

شاكر وظيفة يخرج إليها بل هو ملازم بيته ولاحظت أنه معروف عند الأدباء والشعراء. كما دخل عنده على مرأى بصرى عدد كبير من الطلبة يعدون الماجستير أو الدكتوراه فينزل لهم مكتبته ونصائحه، ورأيت العقاد يزوره والشاعر محمود حسن إسماعيل يكاد يلزم بيته.. يأكل ويشرب وينام فيه وتعرفت فى بيته إلى كثير من زعماء الحركة الوطنية الاستقلالية. كما تعرفت إلى علال الفاسى والطريسى وهما مغربيان.. وتعرفت ببعض الأدباء العرب الذين كانوا يأتون لزيارته خصوصًا الشعراء مثل عاتكة الخزرجى العراقية وكان من أكبر سعادتى أن تعرفت بفضل محمود شاكر إلى بعض من أدباء العرب ومن الشخصيات المهمة أيضًا تعرفت إلى الشيخ مصطفى صبرى المفتى الأخير للإسلام فى تركيا قبل الحركة الكمالية».

معركته مع سيد قطب

تقول عايدة الشريف إن سيد قطب كتب يزعم أنه ليس من الصواب بدء الحديث بعبارة «السلام عليكم» وإنما الأصح عربيًا أن يقال «سلام عليكم» ويكون الرد وعليكم السلام بألف ولام التعريف. ونشر محمود شاكر رده فى جريدة الإخوان المسلمين نفسها بأربع مقالات. وفحواها أن هذا القول باطل وأن المسلمين يقولون خمس مرات فى اليوم فى تشهدهم فى الصلاة (السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته) كما استشهد ببيت شعر لجرير يقول فيه:

يا أم ناجيـة السلام عليكم   قبل الرحيل وقبل عزل العزل

وبعد سنة من معركته مع سيد قطب نشبت معركته بينه وبين الإخوان المسلمين قاطبة، ذلك أن الإخوان كانوا يقولون فى دعواهم إن الإسلام لم يحكم به إلا فى عهد أبى بكر وعمر، فكتب بعضهم فى هذه الدعوى التى يهاجمون فيها ضمنيًا الدولة الأموية. وسخط محمود شاكر على هذا المفهوم الضيق لنظرة الإخوان إلى دولة الخلافة. وكان يتحدث بذلك إلى بعض أصدقائه مستنكرًا هذه الدعوى فقال له الأصدقاء ولماذا لا ترد على من كتب ذلك؟ فقال وأين أرد وقد أغلقت الرسالة؟ قالوا فى مجلة الإخوان ذاتها.. فقال ولكن لهذا وضع خاص فإنى كنت أستنكف

أخذ أجر مقالاتى فى الصحف والمجلات إلا أنى أكتب فى هذه المجلة بأجر. فوافقوا على ذلك فكتب شاكر أربعة مقالات اثنان منها بعنوان «لا تسبوا أصحابى»، والآخران بعنوان «السنة والمفترون المسلمون».

إلا أن معركته الفكرية الرئيسية كانت مع لويس عوض حيث نشر مقالات عديدة فى نقده ودخل على أثرها المعتقل. وكان نقداً موجعًا للويس عوض كان يشكو منه مر الشكوى.

فقد نشر لويس عوض فى الأهرام تسعة بحوث بعنوان «على هامش الغفران» فرد عليه شاكر بكتاب «أباطيل وأسمار»، وتقول عايدة إنه لولا تدخل الدكتور محمد مندور والكاتب محمد عودة لدى محمود شاكر لوقف مقالاته النارية ضد الدكتور لويس عوض لكان لديه المزيد الذى يعرى به موقف الدكتور لويس عوض وثقافته.

زواجه بأم فهر

ولا تنسى عايدة الشريف أن تعرض لجانب مهم من جوانب شخصية شيخها وهو الجانب الشخصى والإنسانى فيه. فتحكى عن اللقاء الأسبوعى لشيخها والذى كان يوم الجمعة من كل أسبوع حيث مائدة الغداء العامرة التى تقدمها أم فهر فى عناية فائقة وكرم لا يوصف. وحيث يقبل عليها الضيوف من الأصدقاء والأدباء والشعراء بنهم وبعدها تدور بينهم الحوارات والمداولات.

تقول عايدة الشريف إنه فى أحد أعياد ميلاد شاكر عام ١٩٨٣ اصطحبت معى الفنانة القديرة كريمة مختار التى أخذتها الدهشة من المجلس الحافل بمريديه وما يدور فيه، فتحدثت قائلة: «إننى لم أقض هذه اللحظات فى حياتى ولم أر مثل ذلك الحب المتدفق من المريدين لشيخهم وقد دار فى ذهنى الآن سؤال كيف يختارون زوجاتهم؟» وكان ذلك هو الذى جعل شاكر يقص قصة زواجه من أم فهر لأول مرة، فقال: وأنا فى السعودية كان لى صديق من أسرة كريمة هو الأستاذ حسين نصيف وكان بينى وبين أسرته مودة فحملنى هو وأهله على الزواج وتحقق ذلك فخطبتى التى تمت بمشورتهم عام ١٩٢٩، بعدها ألمت بأهلى ملمة ورجعت

إلى مصر فى العام الذى ولدت فيه أم فهر . ومرت أيام ويشاء الله أن تتعرف أختى عزيزة بإحدى حفيدات الشيخ حسن الكفراوى شاعر الأجرومية وقالت إن هذه الحفيدة قد هاجرت إلى بيتنا وحين رأيتها أعجبت بدماثة خلقها وحيائها، ومن حماسى لها ذهبت أقابل والدتها وأشاورها فى أن أتبنى هذه الفتاة، وعندما لفتت حماستى نظر من حولى نبهونى إلى أنه ليس فى الإسلام تبنى قلت وأنا أكثر حماسة ستكون ربيبتى. وبقيت معها أنتظر أنا وأختى منذ عام ١٩٤٥، وحين بلغت مبلغ الشباب بدأ يتوافد عليها الخطاب وكلما جاء أحدهم بنية انتزاعها من بيتى اشتد إحساسى بأننى سأفقدها وأفقد شيئًا عزيزًا على نفسى حتى خلت أننى لن أحيا بفقدها فاقترح علىّ أحدهم الزواج بها وقد كان».

ورزق منها محمود شاكر بالولد والبنت. . الولد فهر والبنت زلفى.

رحم الله الفقيدين. . الكاتبة عايدة الشريف والمكتوب عنه شيخ المحققين محمود شاكر.

مسجد المانسترلى

من المصادفات أو المفارقات القدرية أن الكاتبة نعم الباز أو «ماما نعم» وهى كانت صديقة حميمة لعايدة الشريف، بادرت مرتين للكتابة عن عايدة الشريف فى يومياتها بصحيفة الأخبار، المرة الأولى حين صدر لها كتاب «شاهدة ربع قرن»، تحت عنوان عايدة ويوسف الشريف. . قالت:

مسجد المانسترلى بالروضة يصبح يوم الجمعة مثل خلية النحل قبل الصلاة تمامًا ويصعد شيخ معمم جذاب الطلعة والكلمة على المنبر. . ويبدأ خطبته التى كانت دائمًا تحيط الناس بخبر الإسلام المستنير وربط دائم بين السلف الصالح والخلف الطالح. . كان هذا هو الشيخ محمد إمام الشريف أحد رجال الأزهر الشريف. وخطيب المسجد وفى بيته كانت مائدة الغداء هى حوار بالغ الروعة بين الأب والأم الرائعة وبناتها الأربع وولديها. ويتحدث الجميع فى كل شىء بداية من مشاكل سكان شارع الملك المظفر الذى يسكنونه إلى آخر ما أخرج صلاح أبو سيف وآخر

ما كتب نجيب محفوظ، وفى هذا المناخ الأسرى المستنير البديع عاش الصحفى يوسف الشريف وتزوجت صغرى الشقيقات عطيات الشريف بطلعت حرب السودان: الاقتصادى الكبير الشيخ حسن بليل ـ والشيخ هنا لأن أسرته من الأشراف ـ وكان يوسف صحفيًا نابهًا مهتمًا بالشئون العربية فى روز اليوسف منحازًا إلى جنوب الوادى لإحساسه بالمياه التى تحيط بمهبط رأسه جزيرة الروضة، راصدًا للعلاقات المصرية السودانية وفى وقت واحد وصلنى الكتابان: كتاب عايدة «شاهدة ربع قرن»، وكتاب يوسف عن السودان الذى يغوص بمتعة فى جنوب الوادى ويخلط المجتمع ويغمسه فى إناء السياسة ويؤرجح القارئ على نغمات عذبة من أقصى الجنوب وحتى وادى حلفا مرورًا بشخصيات تختلف معه ويتفق عليها ولكنها ضرورة لشرح المسيرة. . إن كتاب يوسف ضرورة فى مكتبة المصرى والسودانى هذه الأيام بالذات.

أما عايدة فقد أعادتنا عبر نشر مقالاتها «شاهدة ربع قرن» إلى الزمن الخلى. . إلى زمن نجيب محفوظ العفى بحواراته ومؤلفاته وزمن النقد الراقى وعقود الأحباب حول الدكتور محمد مندور. . وكأنها تريد أن تقول لنا بمقالة قديمة عن زيارة سارتر لمصر وكانت مرافقة له هو وسيمون دو بوفوار إنها البداية حتى تفهم أن الغرب إسرائيلى حتى النخاع.

وأقرأ الفاتحة لمن أوصل عايدة ويوسف إلى جودة التوصيل للناس. . الشيخ محمد الشريف وحرمه السيدة نبوية النشار.

بعدها بنحو عام عادت نعم الباز تقول فى يومياتها تحت عنوان «رحيل عايدة الشريف»:

فجأة وكأنها أرادت أن تقول لنا كلمة واحدة. لقد رحلت فجأة. . ولم تكن المفاجأة برحيلها أكثر قوة من وجودها فقد كانت طاغية الوجود. . ولعلكم أحبائى القراء تذكرون ما كتبته عن كتابها «شاهدة ربع قرن» والذى أخذنى من متعة عرض الكتاب متعة أخرى هى عرض المناخ الذى عاشته عايدة الشريف. . ذلك المناخ الشديد السخونة، الشديد الحركة والذى كانت فيه فى بؤرة الصراع دائمًا. . عايدة الشريف يعرفها جيدًا الصفوة من المثقفين والذين عاشت بينهم وأثرت فيهم

وتأثرت ببعضهم فكانت عايدة تنتقى وتصطفى من تأخذ عنهم وكان من أهمهم فى الخمسينيات والستينيات الدكتور محمد مندور أستاذها فى المعهد العالى للنقد والمخرج الكبير صلاح أبو سيف والكاتب الكبير نجيب محفوظ. كانت عايدة ناقدة من طراز رفيع.. عرضت قضاياها النقدية فى كثير من صحف ومجلات الكويت حيث عاشت ذروة صباها فى السبعينيات وأوائل الثمانينيات.. وحينما مرضت مرضًا عضالاً هو «اللوبس» كانت آلامها شديدة، ولأنها قوية ومقاتلة ولا تقبل رأيًا دون تفنيده فلم تأخذ مرضها بشكل قاطع واعتقدنا أنها ستقاتله كما تقاتل من أجل آرائها. اختارت عايدة عزلة كنت أقتحمها أحيانًا وليتنى اقتحمتها دائمًا، فقد كانت ترسم وتشكل لوحات جميلة من أوراق الشجر المجفف.. كانت الأشياء التافهة تفقد تفاهتها بين أصابع عايدة. وتصبح إبداعًا فنيًا رائعًا. حينما أبكى عايدة أبكى بحرقة.. أبكى زمنًا كاملاً جميلاً.. لأننى أبكى سرعة البديهة وحلو النكتة والسخرية اللاذعة حتى من نفسها. لقد كانت عايدة أصدق شخصية قابلتها فى حياتى.. ربما بيرم كان يحمل فى قلبه نفس الصدق وكذلك جاهين. رحمها الله رحمة واسعة صاحبة الإسلام المستنير الذى لا يقبل المساومة.

* * *

مأساة ناجى العلى ومأساة صلاح عبد الصبور

وبينما اتسمت معظم الكتابات عن إبداعات عايدة الشريف إثر رحيلها بالحفاوة والنقد لآخر كتاب لها عن الشيخ محمود شاكر «قصة قلم» فحسب، إلا أن الناقد الدكتور على الراعى فاجأ الجميع عندما اختار عنوانًا لمقاله الأسبوعى المنشور بالأهرام يوم ٢١ ديسمبر ١٩٩٧، «عايدة الشريف وشاهدة ربع قرن» قال: قضيت أيامًا من الأسبوع الماضى أقرأ كتابًا ثمينًا وممتعًا تركته لنا الكاتبة الذكية الكثيرة البصر بالناس والكتب وأعلام الأدباء والساسة والفنانين: عايدة الشريف.. لقد تركت لنا هذا الكنز من كنوز الرأى والتوثيق والمراجعة والتدقيق، ورحلت عن عالمنا هذا الفانى، الذى لا يرحم أحدًا ولا يذكر أحدًا إن لم يكن من أصحاب الأصوات العالية أو منضمًا إلى فريق أصحاب الأبواق.

رحلت عايدة الشريف وفى رصيدها كتاب آخر عن الشيخ العلامة محمود شاكر، أستاذها، وراعيها، نشرته لها سلسلة كتاب الهلال.

كتاب عايدة الشريف يحمل عنوان: «شاهدة ربع قرن». قضت الكاتبة سنواته الخمس والعشرين إما مراسلة لصحف عربية فى المشرق والخليج، وإما مقيمة فى مصر تضطرب أحوالها بين الناس والمناصب، حتى واتتها الفرصة أخيراً للعمل فى الكويت، فوجدت مثلما وجد كثيرون قبلها ـ فى هذا البلد العربى الذى كان يمور إذ ذاك بكل تطلع مشروع نحو التقدم والبناء وإرساء أسس المجتمع المتحضر ـ وجدت عايدة الشريف فى الكويت الهدوء الذى يتوق إليه كل كاتب أو باحث امتلأت نفسه بالحس والفكر وحب الناس، فأراد أن يفيض بهذا كله على زمانه وأهل زمانه.

فى الكويت تعرفت عايدة الشريف على الفنان الفذ ناجى العلى، الذى عشق فلسطين حتى الموت، والذى دفعته إلى العيش متنقلاً بين بلاد العرب. . لبنان والكويت، عدته الوحيدة الباترة مع ذلك ـ خطوطه الحادة المستقيمة التى رفض أن يتخذ لها ألوانًا أخرى غير الأبيض والأسود. وأبى أن يرسم بالألوان لأن الحق لا يكون إلا أبيض والباطل لا يكون إلا أسود. وكل لجوء إلى ألوان أخرى غير هذين هو تمييع للقضية، وتمهيد للاسترخاء، ودفع إلى الاستخذاء. تروى عايدة عن ناجى العلى أشياء كثيرة دالة. كان هذا الفنان الفذ يتخذ لنفسه رمزاً فنيًا هو الطفل حنظلة: طفل فلسطينى لاجئ بثياب مهلهلة يولى ظهره دائمًا للقراء. كان ناجى يجعل منه توقيعًا ثانيًا إلى جوار اسمه. ويوم رجاه أصدقاؤه أن يجعل الطفل حنظلة يستدير ليواجه العالم فى مناسبة العام الدولى للطفل، رفض ناجى أن يواجه حنظلة العالم إلا يوم يمتطى جواده الأبيض قاصداً بيت المقدس ينزل عن الجواد بقوة المؤمن وعزم البطل فينزع نجمة إسرائيل من على المسجد الأقصى. . ويضع مكانها علم صلاح الدين. ولما لم يتحقق هذا الأمل العزيز، مات حنظلة طفلاً، لم يكمل دورته فى الحياة، وبقيت لنا من اسمه مرارة فى الحلق لا تنقضى ـ ذلك أن اسمه مشتق من الحنظل ـ النبات المر.

ما إن تعرفت عايدة الشريف على ناجى العلى حتى وقعت فى غرام رسومه التى

تميزت بما كانت تحدثه فى مشاهديها من صدمة. وكأنها أسلاك شائكة مكهربة نزعت عنها الأغلفة، فما تلامس الأعين حتى تنقل ما كان يعتمل فى نفس مبدعها من صدمات. وتصف الكاتبة رسمين من رسوم الفنان، ربما لم يسمع بهما أو يراهما معظم أصدقائه ومحبيه على الرغم من أنه كان يعلقهما فى مدخل معارضه، أول هذين العملين مرآة مسطرة بهيئة الإعلانات التى ينشرها البوليس الإسرائيلى فى الأرض المحتلة بحثًا عن المطلوبين من أبطال المقاومة الذين يسميهم القتلة الصهاينة بالمجرمين. ويكتبون فوق صدورهم تعبيرهم «المجرم» الوحيد: «مطلوب حيًا أو ميتًا». إذا نظر المرء فى المرآة التى تحمل الإعلان وجد صورته هو منعكسة على سطحها ويكون المعنى هذا: إن المطلوب حيًا أو ميتًا ليس فردًا أو مجموعة أفراد بل كل الفلسطينيين، ومن ورائهم كل العرب.

الرسم الثانى على مرآة أيضًا رسم عليها ناجى العلى الأسلاك الشائكة التى تفصل اللاجئين عن أرضهم المحتلة. فمن ينظر إلى المرآة يرى صورته هو، تمنعه الأسلاك الشائكة من العودة إلى أرضه، فيشعر بما يشعر به اللاجئ من استلاب أرضه وضياعه ووحدته حتى وهو فى بلده ووسط ناسه، من أجل هذا قال الشاعر الفلسطينى العظيم محمود درويش واصفًا ناجى العلى: «إنه لا يأخذ المخيم إلى العالم بل يأسر العالم فى مخيم، وتضيف الكاتبة إلى هذا: إن هذين الرسمين يشيران إلى التوق الذى كان يحس به ناجى العلى إلى أن تتحرك أعماله فى رسوم كارتونية ليراها العالم كله فى كل دولة، ظالمة كانت أم مظلومة، غير أن هذا لم يتحقق. واضطر ناجى إلى الاكتفاء برسومه الحادة الباترة ذات اللونين الأبيض والأسود، وواصل حياته القلقة متنقلاً من بلد إلى آخر جاعلاً همه أن يصل بفنه إلى مستوى التحريض السياسى المباشر. وهو ما لم يستطع خصومه فى كل مكان أن يتحملوه، فامتدت إليه أيدى الغدر لتنهى خطره، وهى أيد جاءت من كل مكان وكان أصحابها على اختلاف توجهاتهم حريصين على قتل الفنان الموهوب الذى جعل من فنه سلاحًا حقيقيًا، على نحو ما فعل الشاعر المعروف فلاديمير ماياكوفسكى، حين قال: «أريد للقلم أن يساوى المدفع» فاغتالته هو الآخر أيد أثيمة معادية ضاقت بصراحته.

ثم يواصل الدكتور على الراعى قائلا: ومن عجائب القدر أن الفيلم الذى

أنتجه الفنان المرموق نور الشريف عن ناجى العلى، محققًا به جزئيًا رغبة الفنان فى أن تتحرك رسومه وتبلغ أسماع العالم ـ هذا الفيلم قد تعرض لحملة ضارية شككت فى ناجى العلى وفنه وقدراته وأهدافه، ونال بسببها نور الشريف الألم الكبير. أراد الفنان المصرى أن يحرك حياة ناجى العلى على الشاشة، فاغتيل فيلمه كما اغتيل الفنان الفلسطينى العظيم!

وتنعطف الكاتبة بعد هذا التقدير والإعزاز الكبيرين لفنان عظيم، استشهد دفاعًا عن وطنه وأمته وفنه.. تنعطف إلى فنان شهيد هو الآخر، اغتيل ولكن بغير سلاح. اغتالته الظروف المحيطة، وسوء التأويل لأعماله وأقواله ومواقفه، كما اغتال هو نفسه حياته وفنه وشعره حين سمح لليأس بأن يتسرب إلى روحه، وهو يأس وصف الشاعر حاله معه بأنه وصول إلى قلب دائرة اليأس العميق. وأضاف أن الشاعر حين يدخل هذه الدائرة فلن يستطيع من بعد أن يبتسم.

التسابق الحضارى

فى لماحية وانعطاف حقيقى تضع عايدة الشريف إصبعها على مكمن الداء فى نفس صلاح عبد الصبور ـ على حد شهادة الدكتور على الراعى ـ تقول وهى تفسر واحدًا من أسباب موته المبكر فى الخمسين، إنه لم يتلقف طوق النجاة من الاستشهاد مثلما فعل حسين فوزى وتوفيق الحكيم اللذان واصلا الحياة حتى بعد الثمانين. وجد صلاح عبد الصبور نفسه فى موقف شديد الوطأة عليه، بحيث لم يستطع قط أن يتحمله. كتب لصديقه وناشر أعماله سهيل إدريس رسالة تفيض حزنًا، بعث بها من الهند، حيث كان قد عين مستشارًا ثقافيًا بالسفارة المصرية فى نيودلهى، كتب يقول: «السياسة الغربية عصية على التحليل. لا تنسجم معطياتها مع مناهج التاريخ، والسياسة العربية لا نسق لها، وإنما هى وقائع مفردة توشك أن تكون عشوائية. ثم يضيف: «إنك لا تدرى كيف يقف الفرد عاريًا منزوع السلاح أمام مؤسسات الدولة الشمولية».

كان صلاح فى الهند بعد زيارة السادات لإسرائيل. ويبدو أن تخريجى أنا وليس تخريج الكاتبة ـ أن هذه الزيارة قد ثقلت على روح صلاح، الذى كان

يشارك نجيب محفوظ الرأى فى أن النزاع بين العرب وإسرائيل ينبغى أن يحسمه التنافس الحضارى، وليس قوة السلاح. وربما رأى صلاح أن هذه الزيارة المشئومة توضح أن حكاية التسابق الحضارى بين قوتين غير متكافئتين إذا ما مدت خيوطها على استقامتها فإنها مؤدية - لا مفر - إلى الاستسلام، ولم يكن صلاح قادراً على أن يفعل شيئًا فى هذا المجال سواء بالشجب الذى لم يكن ممكنًا أو بالتأييد الذى كان خليقًا بأن يثير عليه عواطف أمة بأكملها أخذتها الزيارة على غرة. ومن ثم لجأ صلاح إلى الصمت وشدد على هذا الصمت فى خطابه سالف الذكر إلى سهيل إدريس، حين قال: قد لا تعلم ولا يعلم أحباؤنا من القراء أننى لم أمسك بالقلم منذ ما يزيد على ثلاث سنوات إلا لخاطر أو نفثة حبيسة. وفى إحدى هذه النفثات يناجى الشاعر حبيبته مصر بهذه الأبيات التى تسيل عذوبة ورقة وشجنًا:

كانت تدعونى بالرجل الرملى
وأناديها بالسيدة الخضراء
وتفرقنا..
لا تسألنى: ماذا يحدث للأشياء
إذ تتصدع
أو للأصداء
إذ تهوى فى الصمت المفزع
لكنى أذكر ذات مساء
كنا قد خادعنا حصاد الموت
غافلنا صيحة ديك الوقت

أو هذا ما ظنه الشاعر، أعنى أنه قد خدع الموت عن مهمته؟ !وهو ظن لم يتعد السطح، فقد كان صلاح يشعر فى أخريات أيامه بدنو الأجل، فطغت عذاباته فوق كتاباته الأخيرة فهو يتحدث عن نفسه وأثر شيخوخة الخمسين عليه مستشهداً بأبيات شاعر قديم:

وهت غرامك عند المشيب
وما كان من حقها أن تهى

وأنكرت نفسك لما كبرت
فلا هى أنت ولا أنت هى
إذا ذكرت شهوات النفوس
فما تشتهى غير أن تشتهى

إمارة الشعر

على أنه أضيفت إلى عذابات أواخر العمر تلك العاصفة التى هبت على الشاعر، حين رشحته السلطة لإمارة الشعر، عام ١٩٨٠ . . ويقول الدكتور على الراعى: وعلى الرغم من أن صلاح قد رفض هذه الإمارة جملة وتفصيلاً، فقد انتهزها خصومه الكثيرون فرصة للتنديد به.

كتب الشاعر الفلسطينى سميح القاسم يقول «إن عرض الإمارة هو تقدير لولائه للسلطة وأطروحاتها الانهزامية. فالشاعر يقف بحزم بحكم منصبه الوظيفى فى وجه الثقافة الجادة والمثقفين الملتزمين». وكتب أحمد مطر فى صحيفة القبس الكويتية غداة وفاة الشاعر يقول: «فى الخالدين روح شاعر جلد بالكلمة وجه السلطان، فعاقبه السلطان بنفيه خارج روحه وبجلده فى ساحات أركانه العامة بسيف التدجين. . ولف على عنقه حبل إمارة الشعر فتدلى من مشنقته مبتسمًا، سعيدًا فما أبشعه من إعدام وما أتعسه من معدوم». وهكذا وقع صلاح بين شقى الرحى وعوقب عن صمته الذى فرضه على نفسه عقابًا جائرًا لم يكن يستحقه هذا الشاعر المغرد الحزين الذى لم يمنعه حزنه المقيم من أن يشيد صرحًا باقيًا من الشعر والمسرح والكتابة النقدية للشعر ولا أن يبدى إنصافًا ـ فى أواخر عمره ـ لمن جار عليهم فى أوائل العمر: المازنى، العقاد، طه حسين، توفيق الحكيم. ولا أن ينقذ من النقد الظالم الشاعر محمود حسن إسماعيل، الذى آمن بأن من واجب كل نظام أن يكون له ملك وأن يكون للملك شاعر، فأوضح عبد الصبور أن هذه العقيدة الساذجة لم تمنع الشاعر من أن يصدق فيه ما قيل عن أبى تمام من أنه تجاوز عمود الشعر التقليدى إلى عمود شعرى جديد.

رحم الله صلاح، وأفاض من رحمته على الكاتبة المبدعة عايدة الشريف لقاء

ما بذلت من جهد فى «إنشاء» هذا الكتاب، فإن الإنشاء هى الكلمة الوحيدة التى تصف عملها الجليل.

إلياذة مصرية

وكانت جمعية الكاتبات المصريات قد نظمت فى (الأول من يوليو عام ١٩٩٧) بمقر الاتحاد العام للكتاب بالزمالك احتفالية مهيبة وغير مسبوقة إحياء لذكرى عايدة الشريف واحتفاء بكتابها «شاهدة ربع قرن» حيث لم يكن قد صدر بعد آخر كتبها عن شيخها محمود شاكر، وقد ضم الاحتفال عدداً من كبار الأدباء والمثقفين والنقاد الذين كتبت عنهم وغيرهم ممن عرفوها عن قرب من بينهم المفكر القومى محمد عودة والصحفى الأديب عبد الله الطوخى والباحثة الاجتماعية شهيدة الباز والكاتبة فتحية العسال والأديبة الصحفية زينب صادق والكاتبة الأديبة سعاد زهير - رئيسة جمعية الكاتبات - وأسرة الراحلة يتقدمهم الكاتب الصحفى يوسف الشريف.

وقد سادت الاحتفالية أجواء الذكريات العزيزة عايدة الشريف وشخصيتها الثرية بالإنسانيات وكم وألوان مواقفها الاجتماعية وإبداعاتها الأدبية (على حد وصف شفيق الطاهر فى صحيفة الشرق القطرية يوم ١٠ يوليو ١٩٩٧)، حيث أجمع المتحدثون على أنها ظلت دائبة التحصيل الثقافى ومتابعتها لكل جديد فى الأدب والفنون وعلى الرغم من كل ما مر عليها من الأزمات والتحديات ومرضها المزمن إلا أنها ظلت دوماً مرحة وباسمة ومتفائلة بالحياة.

محمد عودة الذى كتبت عنه فصلاً كاملاً من كتابها واعتبرته أحد أساتذتها أكد فى كلمته أن عايدة الشريف كانت نموذجًا فريداً بين بنات جنسها حين نجحت فى تحقيق ذاتها من خلال إصرارها على مجابهة التحديات، ولأنها اختارت الصدق مع النفس طريقها إلى الحياة وخيارها للكتابة والإبداع فى كل ما عرضت من قضايا المجتمع ومشكلاته ورموزه الفطرية والطبقية، فكانت تغزل كلماتها بأسلوب لاذع فى بعض الأحيان مفعم بالرقة والشفافية والذكاء أحيانًا أخرى، ومن هنا كان نجاحها فى أن تخلف لنا أثمن ما يمكن أن يخلفه مبدع عبر شهادتها الشاملة على

العصر، وتركت من بين مؤلفاتها المتميزة كتابها الفذ «شاهدة ربع قرن» والذى سيظل بحق مؤلفًا مرجعيًا نابضًا بالحركة والحياة لكل من يريد أن ينفذ إلى قلب المجتمع والواقع المصرى، وأضافت بنهجها وأسلوبها الخاص مرجعية جديدة عبر تسجيل شهادتها عندما اختارت صفوة منتقاة ومتنوعة من الشخصيات ممن ساهموا بقسط وافر فى صنع تاريخه وفى صياغة عقله ووجدانه وإثراء حياته الفكرية والروحية، وصفوة أخرى منتقاة ممن حطموا القيود واقتحموا كل الميادين البعيدة والمحرمة والذين فتحوا كل النوافذ على مصاريعها أمام طاقات النور، وانكبوا على تراثنا ليعيدوا تحقيقه وتنقيته وتجديده حتى يعمقوا انتماءنا إلى جذورنا العريقة.

وأضاف محمد عودة أننا ورثنا تراثًا أصيلاً من الفكر والفلسفة والإبداع والنضال، وقد اقتحم العقل العربى فى عصوره الزاهية كل تراث الإنسانية وتعرفها واستوعبها سواء كان تراثًا فارسيًا أو يونانيًا أو رومانيًا أو صينيًا أو هنديًا، وأضافه العقل العربى إلى تراثه ودعمه بثقافته وحضارته، وقد تجسد هذا التلاقح الثقافى والحضارى فى الراحلة عايدة الشريف التى أودعها الله هذه القدرة التى استطاعت بها أن تنفذ إلى هذا الحشد الهائل من الشخصيات الذين أرخت لهم فى كتابها «شاهدة ربع قرن»، على الرغم من أن كلاً منهم عالم شاسع وعميق يحتاج إلى مؤلف خاص وذلك بما حباها الله من مواهب وثقافة موسوعية، حيث نشأت فى بيت دينى عريق من أب فقيه عالم مستنير ممن استوعبوا أفكار جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده، ومن أم مصرية حميمة تفهم أولادها وبناتها بالفطرة والغريزة وتعترف بحقهم فى الاختلاف!

فى نهاية كلمته أكد محمد عودة على «أن كتاب عايدة الشريف «شاهدة ربع قرن» ليس شهادة على عصر فحسب وإنما إلياذة أو أوديسا مصرية عصرية حول عصر حافل بالأحداث والأبطال، لأنها اقتربت وفهمت وأحبت هؤلاء الأبطال بقوتهم وضعفهم الإنسانى، وسجلت ذلك بأمانة ودقة، وتركت وراءها أثرًا سوف يحتل مكانته المرموقة فى سجلات العصر حول حياة هؤلاء الرواد ـ رحمها الله فنانة أمينة وصادقة!»

إعادة قراءة التاريخ

أما الأديبة فوزية مهران فقدمت دراسة نقدية وافية لكتاب عايدة الشريف أكدت فيها أن «شاهدة ربع قرن» الذى كتبت معظم فصوله فى مجلة الدوحة قبل توقفها عن الصدور يعد مرجعًا إنسانيًا خصبًا يتسم بالموضوعية والواقعية، وإذا كان «جوردن تشايلد» الفيلسوف والعلامة والمؤرخ يقول إن علم التاريخ هو التقدم، فإن عايدة الشريف أعادت سرد الأحداث والوقائع والذكريات والأفكار السائدة، وهى تحفزنا لإعادة النظر فى التاريخ وسبر أغوار الأحداث من جديد والتدبر والفهم العميق لحركته ومغزاه حتى دراسته جيداً، وإلا فالأمر كما يقول هيجل «لن يكون هناك تاريخ».

وأضافت أن الكاتبة كانت شاهدة على فترة حافلة بالأحداث والحركة والتناقضات، وأعادت إلينا رصد آلاف الصور واللحظات والذكريات التى تعبر عن حركة الحياة والفكر وجهد المثقفين، ورسم قلمها بأسلوب صادق وساخر ومرح، حماس المثقفين الزائد وجنوحهم طريق الاستقامة وصدق التعبير أو المبالغة الشديدة، وقصائد المديح والصخب وإطلاق غرائب الكلمات وعجائب العبارات ليكون لهم السبق والحظوة والارتفاع وأبانت فى رصدها الأمين مصداقيتهم أو ضعفهم أو سقوطهم.

وقالت الأديبة فوزية مهران إن هذا الكتاب يجب العكوف عليه ودراسته وتحليل محتوياته ومضامينه فى مراجعة للنفس والمواقف لأنه يكشف لنا تفاصيل بعض الأحداث التى عشناها وعايشناها وعاشتها عايدة من الداخل والعمق وتميزت عن غيرها بسخرياتها العذبة، فكان إضحاكها نافذًا إلى القلب ولب الموضوع والمشكلة حيث لم تكن تكتفى برواية الأحداث المثيرة فقط بل كانت تصل برواياتها إلى ذروة التحليل الواعى. مثل ذلك متابعتها لزيارة الفيلسوف الفرنسى جان بول سارتر وسيمون دى بوفوار لمصر وكشفت عما حفلت به من تناقضات مثيرة، حيث إن سارتر جاء إلى مصر بعقلية السياسى المتفائل بثورة العالم الثالث وفى مقدمته ثورة ٢٣ يوليو، بينما كان عدد من المثقفين يسمون سارتر العدمى المتشائم، فى الوقت الذى كان يريد أن يلتقى المصريين وأفكارهم ومشاكلهم وطموحاتهم دون وسيط؛

لأنه سئم من كلمات التجميل التقليدية، فهو يعرف مناطق الفخار والخزى فى حركة التاريخ، ولذلك كان يضيق من شروح السياسيين والمترجمين والأثريين، وهكذا ظل طوال الزيارة يتأمل حوله دون التأثر بالمروجين والمزوقين.

وكانت عايدة الشريف تكتب راصدة ومحللة كلمات لكبار سقطوا وشباب مبدعين دافعوا عن الحق، وتذكر فوزية مهران كيف سجلت عايدة الشريف موقف عبد الرحمن الشرقاوى المدافع عن يوسف السباعى والمهاجم لمحمد مندور الناقد الأدبى الصادق والأصيل حين وصفه بأنه أعمى يدعى الإبصار وجاهل يدعى الثقافة، فتقول من ذا يجرؤ على ادعاء الجهل للأستاذ المعلم والمفكر الناقد، ولعل قصيدة حجازى أصغر فرسان الكلمة توفر علينا البحث فى الكتب والأزمنة والصفحات وتأتى الأشياء مجتمعة والصورة تنطق بذاتها وتبرز معادن الكتاب والشعراء.

هجرة الطيور من بلاد الصقيع

أما الكاتب الأديب عبد الله الطوخى فقال إن عايدة الشريف على الرغم من أن حياتها كانت مليئة بالأزمات والمشاكل إلا أنه لم يرها فى يوم من الأيام إلا باسمة، وكانت لديها القدرة على الوصول إلى أعماق الشخصيات وباستمرار كانت فى حالة تطور وتداخل مع المجتمع، ترصد المتغيرات وكأنها المسئولة عن كل ذلك، وتسجل كل ذلك بأسلوب راق نادرًا ما يتوافر فى كاتبة أخرى، وللتدليل على ذلك قرأ عبد الله الطوخى جزءًا طويلاً من كتابها «الإنسان والطائر»، ويقول إنه يستحق عن جدارة لقب «سفر الطيور»، وكان بحق صيحة ونذيرًا لسكان هذا العصر الذى توحش ضراوة وانتهاكًا لتوازناته الإنسانية والبيئية عبر الصواريخ وأزيز الرصاص وجنون الميكروفونات التى تقتحم حياتنا فى كل أركان الأرض.

وأضاف أن مؤلف عايدة الشريف الجامع لعالم الطيور فى الكون والفطرة والأساطير والأديان والفنون والآداب والاكتشافات العلمية، إنما يمثل مرجعًا إنسانيًا لهذا الكائن الذى يعيش بيننا ولا ندرك أنه جزء لا يتجزأ ومكون أساسى فى حياتنا، وربما لذلك كان شعور الكاتبة بالتآخى مع هذه الكائنات وفهمها ودراستها منذ الصغر.

وأشار عبد الله الطوخى إلى أن أروع ما فى الكتاب يكمن فى لحظة ميلاده حين تابعت دهشة العلماء المتخصصين من عدم هجرة الطيور الموسمية من بلاد الصقيع إلى مصر شتاء ١٩٧٣ ، وأنهم فسروا اللغز عبر الإجابة العجيبة التى فاجأتهم عندما اندلعت حرب أكتوبر ، وهنا تساءلت عايدة الشريف هل يمكن أن تكون هذه الطيور أدركت بما لديها من قدرات خارقة على الاستشعار والاستشفاف أن مصر الممتلئة بالحشود العسكرية آنذاك أصبحت منطقة خطرة ولذلك امتنعت عن الهجرة، وقال إن فصول الكتاب فصول جادة وممتعة وموحية للفنان والأديب والسياسى ولعالم النفس وللإنسان العادى البسيط وما أعظم المتعة التى نلتها وأنا أعيش مع حمامة نوح التى بشرت بانتهاء الطوفان، ومع ديك سقراط الذى يرمز إلى ضرورة الوفاء بالدين قبل الموت، ومع الصقر حورس المصرى الرمز الأول للإخصاب بلا تلامس، ومع يمامة الغار التى أعمت أعين الأعداء عن الرسول، ومع طائر العنقاء رمز الحياة المتجددة والمنبثقة من قلب الرماد، ومع السيد الوطواط ملهم الرادار!

جائزة نوبل

أما الدكتورة شهيدة الباز الباحثة بالمركز القومى فقالت إن عايدة باغتتنى برحيلها المفاجئ، على الرغم من أنها كانت تحدثنى قبل الرحيل بأسبوع واحد عن أشياء تمسك بتلابيبها وترفض تركها لكنها لم تفهم آنذاك أن هذا الشىء هو الموت. وأضافت أن عايدة كافحت طويلاً لأنها أحبطت وعلى الرغم مما كانت تتميز به من سمات خاصة إلا أنها شعرت أن الكون أضيق من أن يتسع لكل طاقاتها على الإبداع، إذ كان الأدب والفن فى عروقها وعلى الرغم من ذلك كانت لا تهتم بالسياسة اهتمامًا كبيراً إلا عبر رصد توابع الأحداث السياسية من المنظور الأدبى والاجتماعى.

وأكدت أن ما أبدعته عايدة لا يتجاوز واحدا فى المائة مما كان يمكن أن تبدعه حين تم قهرها من جانب المجتمع الذى لم يعطها الفرصة لكى تختلف معه ومع قيمه وتقاليده الجامدة، ولو أنها وجدت فى مجتمع آخر لكانت أكبر وأعظم ممن يمنحونهم جائزة نوبل هذه الأيام.

وقالت الكاتبة فتحية العسال إن عايدة الشريف لم تمت فهى بنت مصر التى اختارت كيف تعيش وتحقق ذاتها وستظل موجودة بيننا للأبد بقدر إنسانيتها وشفافية إبداعاتها.

وبعدها تحدث العديد من أصدقاء وصديقات عايدة الشريف عن أيامهم معها وذكرياتهم عنها وكيف كانت على الرغم من أزمتها ومرضها تداوم الاتصال بهم، وحتى بالعجائز والأطفال من ذويهم. . وتسأل عن أحوالهم وتداعبهم، بينما كانت هى فى حاجة إلى من يسأل عنها ويخفف من متاعبها التى كانت ترفض الحديث عنها حتى تبدو قوية شامخة مبتسمة دومًا.

خصوصيات نجيب محفوظ

فى نهاية الاحتفال تحدثت شخصيا نيابة عن الأسرة حول شقيقتى وذكرياتى عنها وقلت إنها كانت صديقتى حيث ظل الحوار يجمع بيننا منذ طفولتها حتى رحيلها ولذلك كنت متابعًا لكل مراحل حياتها ودقائق خصوصياتها وإبداعاتها.

وقلت إن موهبة عايدة الشريف الحقيقية كانت فى نسج العلاقات والصداقات الحميمة مع الناس مهما كانت أعمارهم وعلو قاماتهم أو بساطتهم، وقد انعكس هذا التنوع الإنسانى على إبداعاتها، وقد يظن البعض أن ما خلفته وراءها لا يتعدى بضعة كتب ومقالات وأبحاث منشورة فى الصحف بينما مشكلتها تمثلت فى غزارة إبداعاتها وفى ضيق مجالات النشر، وعندما بدأت أقلب فى أوراقها وجدت العديد من كتاباتها المتناثرة عن ثورة ٢٣ يوليو والحياة الثقافية ورموزها، الأمر الذى يفرض علىّ البحث عن طريق للنشر حتى ترى إبداعاتها النور وعندئذ سوف تتكامل شخصية وقيمة عايدة الشريف وموقعها من التاريخ الثقافى والأدبى والفكرى.

واستطردت قائلا: إن عايدة كانت تهوى الجلوس إلى الشيوخ من عمالقة المجتمع منذ نعومة أظافرها ولا تتردد فى الحوار معهم ومناقشة أعمالهم، وعندما صحبتنى أوائل الخمسينيات إلى ندوة نجيب محفوظ فى «كازينو أوبرا»

فوجئت بها تتعامل معه كأنها تعرفه من سنوات وتناقشه فى أدق تفاصيل إبداعاته، ومن حسن الصدف أنها عملت بعد ذلك تحت رئاسته فى مؤسسة السينما وكتبت عنه كثيراً إلى حد أنه صرح بأن عايدة الشريف أكثر من فهمنى وعبر عن خلجاتى وهى التى دعتنى إلى كشف أسرارى وأدق خصوصياتى. وانتهت الاحتفالية بكلمة الأديبة الكاتبة سعاد زهير رئيسة جمعية الكاتبات المصريات التى دعت أصدقاء عايدة الشريف إلى رد اعتبارها عبر التعاون فى نشر إبداعاتها التى لم تر النور بعد.

حكايات مثيرة عن الصوفية

كان صديقى الأثير سعد مكاوى قد صحبنى صيف عام ١٩٧٤ إلى جبل المقطم لزيارة ضريح الصوفى المتبتل ابن الفارض، إذ كان عاشقا متيما هائما فى عوالمه الروحية، وكثيرا ما كان يروى على مسامعنا بعضا من تجلياته التى تأخذ بالألباب وتعبق جلساتنا بشذى الإيمان!

والحق أن سعد مكاوى العلمانى الفكر، لم يكن فى حياته ما يتناقض مع قناعاته الصوفية، ومخالطته وحواراته التى لم تنقطع مع جماعات المتصوفين، فكان طريقه سالكا إلى التحلى بالفضائل، وسمو الروح دون تطرف أو مغالاة، وهكذا ظل دوما فى حالة استغناء عن اقتناء المال، اللهم إلا بقدر الوفاء باحتياجات معيشته المتواضعة فحسب، ولا كانت به رغبة فى تقلد المناصب التى كان يستحقها عن جدارة منذ لمع اسمه لأول مرة فى الأربعينيات على صفحات جريدة «المصرى» كروائى مقتدر، وفارس لأنداده من الروائيين والأدباء وقتئذ، وبينهم: عبد الرحمن الخميسى وعبد الرحمن الشرقاوى، وزكريا الحجاوى و.. حتى لحق بركبهم الظافر القاص الشاب الفذ الدكتور يوسف إدريس!

على أن صلاتى المعرفية بالصوفية وطرقها وجماعاتها المتباينة تجددت وتأصلت تباعا منذ ولوجى إلى ساحة المتابعة الصحفية لشئون السودان وشجونه، حيث أدركت سر العلاقة الأبدية الحميمة بين الصوفية وولع الشعب السودانى بالديمقراطية التى فجر من أجلها ثورة أكتوبر ١٩٦٤ ضد الحكم العسكرى الذى

كان يتزعمه الفريق إبراهيم عبود، ثم مضى أقل من ربع قرن حتى اندلعت انتفاضته العارمة التى قوضت نظام نميرى فى أبريل ١٩٨٥ .

والشاهد أن عبد الله بن أبى سرح قفل راجعا بجيشه العرمرم بعد أن وصل إلى تخوم السودان، حين أدرك صعوبة اعتناقه للإسلام بحق الفتح أو حد السيف، ومن ثم توجه شطر الشمال الأفريقى لاستكمال مهمته فى نشر الدعوة بعد أن عقد اتفاق سلام مع قبائل وممالك السودان عهدئذ، تدفع بموجبها الجزية لبيت مال المسلمين!

ومرت سنوات وتعاقبت العقود وإذا بالإسلام وقد انتشر تلقائيا فى معظم ربوع السودان، عبر الدعاة الهداة من أرباب الطرق الصوفية التى كان يعتنقها التجار الوافدون، إذ كانوا يمثلون القدوة الصالحة فى معاملاتهم بيعا وشراء وفى حسن تعاملهم الإنسانى بالمعروف والتسامح والكلمة الطيبة، وبينما تجنبوا التورط فى منازعات القبائل وحروبها، شهد التاريخ لهم بالنجاح دوما فى رأب الصدع وحل الخلافات والثارات المزمنة عبر دورهم فى إقناع كل طرف بتعاليم الإسلام الذى يحض على الصفح الجميل والإخوة والتعاون والبر والتقوى، ومن هنا كانت النشأة الأولى لتقاليد «الأجاويد» السودانية التى ظلت تحافظ على ديمومة العلاقات الودودة بين أهل السودان، ولعلى أضيف أن التخلى أو استبعاد تقاليد «الأجاويد»، كانت أبرز أسباب تفاقم مشكلة الجنوب والنزاع فى دارفور وفتح الأبواب على مصراعيها للتدخلات الأجنبية، بينما كان السودانيون قادرين على مدى تاريخهم الحديث على حل خلافاتهم حين يجلسون معا ويتحاورون على نحو ديمقراطى حر دون وصاية خارجية أو تسلط!

وهكذا بعد نحو خمسين زيارة إلى السودان، كان أول الدروس التى استوعبتها جيدا تجنب الدخول فى صدام للرأى مع الأشقاء السودانيين ترتفع خلاله الأصوات حدة، وهم فى مجالس الونسة عندما يصل الحوار إلى طريق مسدود، عندئذ يبادر أحدهم قائلا «غايته»، بمعنى ضرورات الامتثال لنقل الحوار إلى موضوع آخر، وتلك واحدة من أبرز قسمات الشخصية السودانية فى اعتزازها بكرامتها ورفضها المطلق للضيم والفكر الاستئصالى!

أدركت كذلك مع تتابع زياراتى إلى السودان، أن أقوى العلاقات الشعبية التى تربطه بـ «مصر»، وأكثرها قدما وأصالة تكمن فى الطرق الصوفية الواحدة أو المتماثلة فى البلدين، وبينها الطريقة الشاذلية والأحمدية والقادرية والبرهانية، وبينما يحج أتباع كل طريقة إلى إخوانهم فى البلد الآخر خلال الأعياد والمناسبات الإسلامية، وكذا الاحتفال بموالد العارفين بالله من مشايخها، ودائما على الرحب والسعة، يجتمع أرباب الطرق الصوفية فى البلدين كل عام للاحتفال الكبير بمولد المصطفى - عليه الصلاة والسلام - بميدان عبد المنعم فى الخرطوم، وعلى مدى يزيد على الأسبوع تنتظم حلقات الذكر على إيقاعات الدفوف وإنشاد السيرة النبوية والتواشيح.

وإذا كان أوبريت «الليلة الكبيرة» من آيات الإبداع التى تخلد صلاح جاهين كشاعر والشيخ سيد مكاوى كملحن.. كذلك مظاهر المولد فى ميدان عبد المنعم التى جسدها المهدى مجذوب شعرا ولحنها الموسيقار ومطرب السودان الكبير عبد الكريم الكابلى، لكأن كلا الإبداعين صورة طبق الأصل رغم تنوع المظاهر الشعبية والوجدانية!

وهنا أتذكر باعتزاز لقائى مصادفة فى ردهة فندق السودان أواخر الستينيات بالصوفى الجليل الدكتور حسن عباس وزير الاقتصاد المصرى، وكان قد وصل منذ يوم واحد إلى الخرطوم لمتابعة تنفيذ البروتوكول التجارى مع السودان، وحين عرض علىَّ مصاحبته إلى واحدة من قرى «نور القرآن» فى ضواحى العاصمة المثلثة لبيت الدعوة على الفور شاكرا.

فى قرية «مضواباب» توقف الركب حيث خرج الخليفة الفكيه «أى الفقيه» الشيخ يوسف لاستقبال الوزير، وأمر بذبح خروف كرامة احتفاء بقدومه، حيث كان فى الوقت متسع للحوار الصوفى الممتع بينهما، وبعدها انتظم حسن عباس زكى فى قراءة جماعية لآيات من الذكر الحكيم ثم فى حلقة للذكر، حيث راح ينفعل جسدا وروحا بإيقاعاتها وإنشادها الدينى، ولعل ما أدهشنى حقا عندما سمعت الخليفة يوسف يقول له إنه وأبناء الطريقة لا يكفون عن الدعاء إلى الله لنصرة جمال عبد الناصر، ثم يسلمه لفافة وهو يتابع قوله: هذه نفحة من بركات الصوفية عليك أن تسلمها للرئيس وأن يحفظها دائما فى بيته وفى تنقلاته والله خير حافظًا من كل مكروه!

والشاهد أن قرى نور القرآن كانت ومازالت تؤدى دورها التطوعى فى توثيق الروابط الصوفية على امتداد الدول العربية والأفريقية، ويفد إليها المئات من المسلمين الراغبين فى الانضواء تحت رايات الصوفية، حيث بانتظارهم دوما المأوى والمأكل وحلقات الذكر وتلاوة القرآن، وقد أخذت هذه القرى صفتها التاريخية فى عبارة «مضوا بان»، منذ كانت شعلة من النار ترتفع على مشارفها كمنارة للقادمين والقوافل التى تحج إليها ليلا قبل اختراع الكهرباء.

أذكر كذلك حين تعرفت إلى الدكتور التيجانى الماحى عضو مجلس السيادة السودانى، كانت الفرصة مواتية حتى يقص علىّ طرفا من العلاقة الحميمة التى تربطه بالرئيس جمال عبد الناصر وحواراته الصيفية الممتعة معه إبان كان يشغل منصب مدير هيئة الصحة العالمية بـ«الإسكندرية»، وكيف حمل السلاح وانتظم فى كتائب الفدائيين تحت قيادة الصاغ كمال الدين حسين للدفاع عن مدن القناة إثر اندلاع العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦.

بعدها سألته عن حقيقة ما يروى حول أسلوبه الخاص فى العلاج كطبيب وأستاذ عالمى فى أمراض الاضطرابات العصبية والنفسية، وراح يشرح أسلوبا فى العلاج بداية من الوسائل الطبية التقليدية، وحسن استماعه للمريض حتى يعرف حقيقة ما يعانيه من جهة، وحتى يكسب ثقته من جهة ثانية، توطئة لإقناعه إذا كان مسلما بالإقامة فترة من الوقت فى قرى نور القرآن، وهناك يتعهدونه وأمثاله بالرعاية والحنان والاحترام، وعبر انتظامه فى القراءة الجماعية للقرآن والأوراد وحلقات الذكر على إيقاع الدفوف والغناء الصوفى، ومن المتيقن أن ينتظم تفكيره ويعود إلى حالته الطبيعية بنسبة نجاح تجاوزت ٨٠٪.

وألف رحمة ونور على صديقنا الكاتب الصحفى على الدالى، فقد كان خبيرا معايشا لمختلف ألوان الطرق الصوفية فى مصر خاصة العشوائية منها، وكم روى لنا عن عشرات البائسين الذين روعتهم ملمات الحياة ووجدوا السلوى والحنان إلى جوار مسجد الحسين والسيدة نفيسة والسيد البدوى وسيدى إبراهيم الدسوقى وغيرهم من المجاذيب والدراويش المتحلقين إلى جوار أضرحة أولياء الله الصالحين الذين تعمر بهم وتعبق بركاتهم ربوع مصر المحروسة بإذن الله.

فلما نكبت مصر بنكسة الخامس من يونيو ١٩٦٧، حدثنا على الدالى عن ألوان من الضباط والمدنيين ممن لم يحتملوا هول الصدمة، أو أطاحت بهم عقوبات الإهمال فى أداء أعمالهم، ومن ثم تحولوا إلى مجاذيب ودراويش مجاورين لأولياء الله يطلبون فى رحابهم المغفرة والتوبة، وربما الدعاء بالانتقام ممن فصلهم من وظائفهم، ومن ثم كانت الطرق الصوفية العشوائية فى انتظارهم ورعايتهم!

من هنا كان طريقنا متاحا إلى واحدة من هذه الطرق، فكان اللقاء بضابط سابق برتبة مقدم من رجالات المشير عبد الحكيم عامر، وذهبت إليه وعدد من الزملاء الكتاب الصحفيين بينهم فهمى حسين وجمال سليم ومحمد حجازى يرحمه الله، والكاتب الصحفى يوسف صبرى ـ أمد الله فى عمره ـ يتقدمنا على الدالى.

فى شقة واسعة استقبلنا بقامته السامقة وطيبته وابتسامته العذبة، وكانت تقع فى مبنى على الطراز الإسلامى يقع فى الجانب الشرقى لمسجد سيدنا الحسين، واكتشفنا أن المكان يعج بالجالسين أرضا على الوثائر المريحة المتناثرة على أرض الصالون من شتى الطبقات والمهن وألوان البشر، بينما كانت أكواب الشاى وفناجين القهوة تدور تباعا على الجميع، وفى ليال بعدها كانت ولائم الفتة واللحوم والحلوى بانتظار القادمين!

كان الحديث يدور فى البداية حول شئون وشجون الدنيا الفانية حتى يصفق الضابط السابق إيذانا بالذكر ونحن جلوس فى أماكننا ودون الوقوف والتطوح كالعادة يمينا وشمالا، وحين يدهمنا فجأة شخير بصوت مرتفع. كان علينا أن نردد الله أكبر.. الله حى، وبعدها عرفت صاحب الصوت واسمه «الشيخ شخور» وكان مجذوبا من المغيبين عن الوعى.

والحقيقة أننى غالبا ما كنت أشعر براحة نفسية غامرة ربما تحت التأثير النفسى الفادح لنكسة يونيو كلما أتيحت لى تجربة معايشة هذه الأنماط البشرية وطقوسها الصوفية العشوائية، وكنت مثل غيرى ممن يجودون بقدر الطاقة من المال والمأكل والملابس المستعملة التى كان صاحب المكان يحسن توزيعها على المجاورين لسيدنا الحسين من أبناء طريقته الصوفية العشوائية، وهى كانت كذلك بالفعل حيث لا تاريخ لها ولا كان لها أوراد مكتوبة أو أدعية خاصة مثل غيرها من الطرق الصوفية

المعتمدة. . والأكثر مدعاة للتعجب الادعاء بأن شيخ هذه الطريقة العشوائية أو تلك سقطت عنه التكاليف الدينية، فلم يعد ملزما كغيره من المسلمين لا بالصلاة أو الصوم باعتباره واصلا ـ واصلا إلى الله. .

وحتى كانت ليلة الاحتفال الكبرى والأخيرة بمولد سيدنا الحسين ـ رضى الله عنه ـ عام ١٩٧٥، واكتشفنا أن شيخ الطريقة قد أتى خصيصا من كفر الشيخ لشهود هذه المناسبة، وعندما دخلت مع الزملاء إلى الصالون وجدته يجلس على فوتيه وكرشه يتقدمه، وكان حليق الرأس وعلى إحدى عينيه سحابة بيضاء، وعن يمينه وعن يساره فتاتان وربما امرأتان جالستان تحت أقدامه، وقيل لنا إنهما من بنات الطريقة وكن يواصلن تقبيل يديه وركبتيه على سبيل البركة!

وصافحناه دون أن نقبل يده مثل غيرنا من الحاضرين، وسألنا واحدا تلو الآخر عن أعمالنا وعن أوضاعنا الاجتماعية، وعندما عرف أن زميلنا محمد حجازى سكرتير تحرير «روز اليوسف» آنذاك عازب ولم يتزوج بعد، عاد يسأله: لماذا؟ وقال فى مسكنة مصطنعة: أعمل إيه يا مولانا. . الإيد قصيرة والعين بصيرة!

عندئذ نطق شيخ الطريقة العشوائية لا فض فوه وقال لإحدى الفتاتين: قومى يا فاطمة ريّحى محمد أخوكى فى الطريقة!

أم كلثوم تسودن أغانيها فى أم درمان

قليلون هم هؤلاء الكبار من الفنانين والأدباء المصريين الذين زاروا السودان وخالطوا شعبه الشقيق وخبروا أحواله واقتربوا من شواغله وأدركوا تاريخه وتذوقوا ثقافته، على الرغم من أن السودانيين يعشقون فى المقابل فنون المصريين وثقافتهم وإبداعاتهم، بل ويعرفون عن بعد أو قرب الكثير عن مصر فى ماضيها وحاضرها وأدق أسرارها حتى على مستوى رجل الشارع السودانى البسيط، لكأن التواصل المعرفى الحميم بين الشعبين يتدفق من الجنوب إلى الشمال بما يفوق تدفقه من الشمال إلى الجنوب، وهى إشكالية عميقة الغور، ولا شك أنها تعكس سلبياتها على مسيرة العلاقات منذ استقلال البلدين عام ١٩٥٦!

ومن عجب أن هؤلاء الأعلام والرموز المصرية يعرفون الكثير عن أمريكا وأوربا والمغرب العربى ولبنان ودول الخليج، بينما يتضاءل إدراكهم المعرفى بالسودان والسودانيين، وتلك والله مصيبة سياسية وثقافية بكل المقاييس، لأن السودان الأقرب جغرافيًا وديموغرافيًا لمصر، ولأن مايربط الشعبين يفوق غيرهما من دول وشعوب العالم، وبينها الأواصر الاجتماعية واللغة والموروث الحضارى والروحى والثقافى، إضافة إلى الرابطة النيلية المقدسة، وزخم النضال المشترك فى مواجهة الحكم التركى العثمانى ثم الاستعمار الإنجليزى، لكأن تاريخ شعبى وادى النيل واحد لا يتجزأ، أو لكأن «الميكانيزم» الذى يحكم العلاقات المشتركة أشبه بنظرية «الأوانى المستطرقة»، فما من تحدٍّ جابهته مصر فى مواجهة الاستعمار أو العدوان أو شهدت اندلاع الثورات التى تنشد التحرر والعدل والمساواة ولا نعمت بالخير

والرفاهية والاستقرار إلا وكان لهذه المتغيرات انعكاساتها المباشرة على السودان بالسلب أو الإيجاب والعكس كذلك صحيح!

من هنا كانت سعادتى غامرة عندما قررت السيدة أم كلثوم أن تغنى فى السودان، إذ كانت مبادرة طيبة لتدارك ما فات على صعيد التواصل الثقافى والوجدانى بين الشعبين، عبر قبولها الدعوة التى تلقتها من عبد الماجد أبو حسبو وزير الإعلام السودانى آنذاك فى إطار حملتها الغنائية لإعادة بناء القوات المصرية إثر نكسة يونيو ١٩٦٧ و. . من ثم قدرت أن الحدث الفنى الوشيك بمثابة فتح جديد للغناء الشرقى المصرى الأصيل فى السودان، ومن حسن حظى أن شهدت بعينى وسمعت بأذنى تفاصيل زيارتها التاريخية للقطر الشقيق، إذ كنت حاضرا ذلك الفتح المبين و. . تلك قصة مثيرة تروى!

بن اليمن والبرازيل

كان صديقى ـ وهو كاتب كبير بصحيفة الأهرام ـ أعتذر عن عدم ذكر اسمه ـ قد اتصل بى تليفونيًا وأفضى لى بلقائه منذ أيام بالسيدة أم كلثوم، وأنها أبدت له قلقها إزاء زيارتها الوشيكة للسودان، فهى لا تذكر بين جمهور حفلاتها الشهرية من أبناء السودان سوى قلة من رجالاته، وبينهم محمد أحمد محجوب رئيس وزراء السودان والدكتور التيجانى الماحى رئيس مجلس السيادة السابق ورئيس هيئة الصحة العالمية وقتئذ، وصديقها السياسى المرموق على البرير الذى اختار الإقامة فى القاهرة ومطرب السودان الكبير أحمد المصطفى، وهى لذلك ليست على دراية كافية بالمزاج الغنائى فى السودان، ولأن صديقى الكاتب الكبير لم يكن مؤهلاً للإجابة عن تساؤلاتها على حد قوله، لذلك طلب منى المبادرة بالاتصال بالسيدة أم كلثوم بدعوى إجراء حديث معها حول زيارتها المرتقبة للسودان، وهى فرصة مواتية لقيامى بالمهمة التى عجز عن الوفاء بها بحكم عدم خبرته بالسودان، وقال إنه عندما ذكر اسمى وزكانى لديها قالت إنها لا تعرفنى شخصيًا ولا تذكر أنها قرأت لى شيئًا سوى بضع مقالات عن الشاعر كامل الشناوى باعتباره كان من أصدقائها المقربين، وعندئذ تذكرت بدورى أننى التقيت بالسيدة أم كلثوم عند

حضورها لزيارة كامل الشناوى عام ١٩٦٣ حينما كان مريضًا للمرة الأولى فى مستشفى قصر العينى وللمرة الثانية فى مستشفى الكاتب عام ١٩٦٤، وأننى سمعت صوتها عندما كانت تتصل به فى منزله عبر التليفون وتصادف أننى كنت أول من يتلقى مكالماتها . . و . . لعله من هنا تشجعت على خوض تجربة الحديث الصحفى معها . .

• آلو . . فيللا كوكب الشرق السيدة أم كلثوم؟

- نعم . . مين حضرتك؟

• أنا يوسف الشريف المحرر بروز اليوسف . . ممكن أكلم السيدة أم كلثوم؟

- عاوز إيه يا سى يوسف؟

• نفسى أشرب عندك فنجان قهوة .

- للأسف معنديناش بن!

• إذن امنحينى شرف إجراء حديث صحفى مع حضرتك حول زيارتك المرتقبة للسودان وأنا على استعداد أجيب معايا بن اليمن والبرازيل كمان!

- على كده اتفقنا . . ميعادك بكرة الساعة خمسة!

حوش قدم

فى نفس اليوم كنت فى زيارة للصديقين الشاعر أحمد فؤاد نجم ورفيق دربه الشيخ إمام عيسى بمسكنهما بحى الغورية، وتذكرت وعدى بجلب البن المطلوب لزوم احتساء القهوة مع السيدة أم كلثوم حين وقعت عيناى - على ناصية زقاق حوش قدم - على لافتة أشهر وأقدم محل متخصص فى بيع البن المطحون بالقاهرة، وقلت لصاحبه الحاج محمد البنان: عاوز كيلو بن تقسمه أرباعًا من أفخر ما تبيعه لزبائنك الخصوصيين، ما بين المحوج والسادة، وبين الغامق والفاتح، وأن تغلف المطلوب فى ورق يليق بهدية لشخصية مهمة!

حملت هديتى وأنا أتحسس خطواتى على درج فيللا كوكب الشرق المطلة على النيل فى شارع أبو الفدا بالزمالك وكانت الساعة تمام الخامسة بعد الظهر، وحين دلفت إلى البهو وجدت السيدة أم كلثوم تجلس على فوتيه فى انتظارى وكانت ترتدى روبًا شتويًا أزرق اللون، فما إن صافحتها حتى بادرتنى قائلة فى لهجة ساخرة: أمال فين بن اليمن والبرازيل؟

وضعت أمامها هديتى وقلت: أنا جايب معايا مجرد عينات، لكن قوافل الجمال فى الخارج تحمل أطنانًا من بن اليمن والبرازيل، وهى رهن إشارتك بالصنف اللى يعجبك!

ابتسمت ونادت سعدية مدبرة شئونها الخاصة وأشارت إليها بفض لفافة هديتى، وعندئذ ضحكت من أعماقها وقالت: الله.. أنت عرفت إزاى سكة الحاج محمد البنان، ده أنا متعودة على بنه المحوج من زمان.. وكل ما يجيلى هدايا من البن الأخضر، أبعته له عشان يحمصه ويطحنه ويحوجه بالمستكة والحبهان وجوزة الطيب، أصل أنا بأحب القهوة السودة الطازة المحوجة، بيبقى لها وش وريحتها حلوة ونكهتها حارة، ثم أشارت إلى سعدية لإعداد فنجانين قهوة من البن المحوج الغامق الذى جلبته إليها ثم قالت ساخرة: ابقى خد معاك يا شاطر الأصناف الفاتحة واللى موش محوجة وأنت ماشى..

بدأنا الحديث حول فكرة قيامها بجولات غنائية فى ربوع الوطن العربى لصالح المجهود الحربى، خصوصًا أنها تعتزم أن تواصل هذا الدور فى موسكو وعدد من العواصم الأوربية وقالت: عندما وقعت أحداث النكسة انتابتنى حالة من الهم والغم والاكتئاب وتوقفت عن الغناء فى الحفلات، لكن هذه الحالة سرعان ما زالت تدريجيًا حين شرع الرئيس جمال عبد الناصر فى إعادة بناء القوات المسلحة المصرية وخوض حرب الاستنزاف، وعندئذ وجدت نفسى وقد انفتحت شهيتى مجددًا للغناء، وتوظيفه فى شحن الروح المعنوية واستعادة المشاعر الحماسية الجميلة التى تأثرت إلى حد ما بالانعكاسات السلبية للنكسة، ثم قالت إذا كان للجندى دوره فى إزالة آثار العدوان وتحرير سيناء السليبة بالسلاح، فالفنان والمبدع يملك أيضًا سلاحه فى المعركة، وعلى الجمهور العربى

المتلقى إذن دوره فى الإسهام المادى، ومن هنا كانت فكرة تنظيم حفلاتى الغنائية وتوظيف إيراداتها لصالح المجهود الحربى.

السلم الخماسى

بعدها جاء دورى فى الحديث عن السودان وأبديت حماسى وسعادتى الغامرة لأن الدور جاء على القطر الشقيق، وقاطعتنى السيدة أم كلثوم وقد تحولت إلى صحفية وسألتنى: كم من المرات أتيحت لك زيارة السودان؟

قلت: مرات عديدة، بعضها فى مهام صحفية وأخرى بحكم صلات المصاهرة إذ إن شقيقتى الصغرى متزوجة بالأستاذ الشيخ حسن بليل وزير التجارة السابق ومحافظ بنك السودان.

قالت: وهل يعجبك الغناء السودانى؟

قلت: أعتقد أن تذوق الغناء السودانى يمثل المدخل المباشر لفهم الشخصية السودانية والانسجام مع الوجدان السودانى، ومعظم الغناء السودانى من الشعر العربى الفصيح أو الشعر الشعبى الأصيل، وعلى حد علمى فإن الغناء السودانى يعتمد على السلم الموسيقى الخماسى، بينما الغناء الشرقى يعتمد على السلم الموسيقى السداسى، ومن هنا كان الوجدان السودانى تواقًا إلى الإيقاعات التى يهتز لها أهل السودان طربًا فى مناسبات الفرح، وإذا كانت الثقافة السودانية مزيجا بين العربية والأفريقية، إلا أن الوجدان السودانى أكثر ميلاً إلى الأفريقية!

كانت السيدة أم كلثوم تنصت لى باهتمام.. وأدركت كم هى متشوقة لمعرفة المزيد عن الغناء فى السودان وجمهور الغناء فى السودان.. فلم أتوقف عن الحديث وقلت: السودان شبه قارة ومساحته مليون ميل مربع بما يعادل مساحة كل دول أوربا الغربية، وهو يعج بالقوميات والثقافات واللهجات والرطانات والقبائل، ولذلك تتعدد ألوان الغناء فى السودان، بل إن لكل منطقة فى السودان مطربيها وألوان غنائها.. لكن تظل الأغنية الشمالية الأكثر انتشاراً وتداولاً وتذوقًا فى مختلف ربوع السودان خصوصًا أن النخبة الحاكمة من أبناء الشمال، وأشهر مطربيها حسن عطية

وعبد العزيز داود وعثمان حسين وإبراهيم الكاشف والنعام آدم من الجيل القديم، وعبد الكريم الكابلى ومحمد وردى ومحمد الأمين وعثمان اليمانى وزيدان وحمد الريح وابن البادية من الجيل الجديد. والسودانيون كبيرهم وصغيرهم ومهما كانت مكانتهم رفعة وحتى العجائز يعشقون سماع الغناء بل والغناء أيضًا، ولا يجدون ثمة حرج فى ممارسة الرقص على إيقاع الغناء فى المناسبات، وكثيراً ما استمعت فى هدأة الليل من يغنى على إيقاع النقر بالأصابع فوق علبة الكبريت!

وهنا استبدت بأم كلثوم الدهشة وسألتنى: كيف؟ وشرحت لها عمليا عادة الغناء على إيقاع تلامس أعواد الكبريت.. وعادت تسألنى: وإيه كمان؟

وقلت: من عادة أهل السودان كذلك أن يرددوا وراء المطرب «كوبليهات» الأغنية ويسمونها «الشيل»، بل وظهر مؤخراً تقليد غنائى جديد فى السودان يعرف باسم «الشيالين البنات» ويعنى «الكورس» الذى يصاحب المطرب من الجنس اللطيف و.. بعدها طوفت على الأوضاع الاجتماعية فى السودان وقبائله وعائلاته العريقة وقلت إنها سوف توجه إليها الدعوات حتما لزيارتها.. وحبذا قبولها حتى تكتمل لديها صورة السودان وأهل السودان!

تباريح الصد والهجر والدموع

وكان قد مضى زهاء الساعة فى حضرة سيدة الغناء العربى، وحمدت الله أن فتح علىّ وفك عقدة لسانى وأنا أستعرض خبراتى المتواضعة بالسودان وأهله ووجدانياته، وحين أدركت أنه آن موعد الانصراف تذكرت حقيقة فى غاية الأهمية وجدت من واجبى أن تعرفها قبل سفرها إلى السودان، وقلت: عواطف الشعب السودانى جياشة، وأكثر ميلاً إلى الرومانسية والتفاؤل والعشق والوصال، وربما من هنا نادراً ما يتعلق موضوع الأغنية السودانية بتباريح الصد والهجر والفراق والبكاء على الأطلال، كما أنه ليس صحيحًا أن الجمهور السودانى يمل الأغنيات الطويلة.. إذ إن الملل غالبًا لأسباب تتعلق بغياب موضوع الأغنية الذى يلعب بأوتار الأحاسيس والمشاعر وينتشى له الوجدان، أو افتقار المغنى للصوت الجميل واللحن المثير.. و..

فجأة ألجمنى الصمت حين وجدت السيدة أم كلثوم تدير قرص التليفون وتجرى مكالمة مع عبد الكريم الميرغنى سفير السودان آنذاك وتطلب منه إضافة اسمى إلى قائمة الصحفيين الذين وقع عليهم اختيارها لصحبتها خلال رحلتها الميمونة إلى السودان!

«الجبنة» فى بيت الضيافة

من مفارقات القدر أن يكتمل فى مطار القاهرة عدد المسافرين على الطائرة السودانية التى قدر لها أن تحمل السيدة أم كلثوم وفرقتها ومرافقيها إلى الخرطوم، لكنها تأخرت عن الإقلاع فى موعدها وعندئذ ألحت أم كلثوم على معرفة السبب الذى حرص سفير السودان عبد الكريم الميرغنى على تكتمه، وعندئذ قررت تأجيل السفر إلى اليوم التالى، إذ كان من المتيقن أن الطائرة ستحمل رفاة مواطن سودانى، وهو كان تصرفًا سليمًا من جانبها، إذ كيف يتم استقبالها بالبشر والفرح فى مطار الخرطوم بينما أهل المتوفى يبكون وينتحبون!

والشاهد أن الخرطوم التى سبق وخرجت عن بكرة أبيها لاستقبال جمال عبد الناصر بعد نكسة يونيو ١٩٦٧ لحضور القمة العربية، عادت وبنفس الحشد الجماهيرى لاستقبال أم كلثوم عند وصول طائرتها مطار العاصمة المثلثة فى تمام الساعة الثالثة من بعد ظهر الأربعاء ٢٥ ديسمبر ١٩٦٨، وعلى الرغم من أن المسافة قصيرة جدًا بين المطار وبيت الضيافة مقر إقامة كوكب الشرق، ولا تستغرق سوى ربع الساعة، إلا أن موكبها استغرق أكثر من الساعة والنصف وسط أرتال السيارات الرسمية والخاصة، وألوان الفرح والزغاريد، التى كانت تحفها على جانبى الطريق!

فى بيت الضيافة تحلق حولها نخبة من الجنس اللطيف فى أزهى زينتهن وهن يرتدين الثوب السودانى البديع الألوان، حيث كان احتفالهن بقدومها السعيد إلى العاصمة المثلثة عبر تقاليد احتساء القهوة السودانية المغلية التى يسمونها «الجبنة»، ووسط أجواء معبقة بروائح العطور والبخور والصندل، رحن يبادلنها حديث «الونسة» المفعم بالحب والتقدير وعمق التواصل الاجتماعى والحضارى الذى

يجمع بين أهل السودان وأشقائهم أهل مصر، ومدى تعلقهن بصوتها الآسر وشدوها الجميل، ونجحت أم كلثوم منذ اللقاء الأول فى أن تجمع حولها قلوب وجهود الجنس اللطيف وانحيازهن إلى مهمتها القومية فى إزالة آثار العدوان، فكانت نساء وآنسات السودان عند حسن ظنها فى بذل جهودهن لإنجاح الزيارة، وشعورها الطاغى فى المقابل بالود والترحاب كما لو أنها وسط أهلها وأصدقائها!

فى صباح اليوم التالى كانت أم كلثوم على موعد بصحبة السفير المصرى الدكتور كمال خليل للقاء زعيم السودان التاريخى إسماعيل الأزهرى رئيس مجلس السيادة فى القصر الجمهورى، وإذا به يأمر بفتح قاعة خاصة بالدور الأول تحتوى على أشكال وألوان الهدايا الثمينة المخصصة لرؤساء الدول حتى تختار منها ما يروقها، واختارت بعضًا من صناعات السودان التقليدية وكانت من الأبنوس وسن الفيل وريش النعام.

وعلى الرغم مما حفل به برنامج الزيارة من لقاءات حميمة وحفلات بهيجة وجولات ممتعة تفوق حد الوصف والحصر، إلا أن عددًا من الوقائع على وجه التحديد كان لها أثرها العميق فى نفس السيدة أم كلثوم على مدى التسعة الأيام التى سعدت بها فى السودان وأسعدت خلالها أهل السودان.

المطرب عبد الكريم الكابلى

الواقعة الأولى: حين جمع لها عبد الماجد أبو حسبو وزير الإعلام وزوجته المصرية معظم نجوم الغناء السودانى فى حفل التكريم البهيج الذى أقامه على شرفها فى منزله بحى «امتداد العمارات»، ولم تكتف أم كلثوم بسماع غنائهم تباعًا، لكنها تبادلت معهم حديث الموسيقى والشعر والغناء، وأذكر فى هذه المناسبة أننى همست لها بينما كان المطرب الكبير عبد الكريم الكابلى فى طريقه لمصافحتها وقلت: هذا الفنان واسع الثقافة فضلاً عن كونه مطربًا وملحنًا وشاعرًا وهو الذى حبب لى الغناء السودانى وكان مدخلى لفهم تراث العروبة فى السودان، وعندما اقترب لمصافحتها قمت بتقديمه إليها: الأستاذ الكابلى لديه تجربة فى تلحين وغناء قصيدة «أراك عصى الدمع» لكن الشاعر محمد أحمد

محجوب رأى أنه لا يجوز غناء تلك القصيدة بعد أن غنتها كوكب الشرق، وهنا قالت السيدة أم كلثوم فى رقة: ولم لا وقد سبقنى غيرى إلى غناء هذه القصيدة.. بل إننى غنيتها مرتين لاثنين من الملحنين.. ثم أشارت إلى الكابلى حتى يغنى لها مقاطع من القصيدة وأعجبت بها أيما إعجاب، ثم صافحت الكابلى وقالت له: ضرورى تزورنى يا أستاذ لما تيجى مصر!

عرس فى منزل الخليفة النور

الواقعة الثانية: أن الخليفة النور وهو رب عائلة عريقة كان قد أجل الاحتفال بزواج كريمته حتى يتوافق مع زيارة السيدة أم كلثوم للسودان، وهو قد وجه إليها الدعوة مبكرًا وشجعها عبد الماجد أبو حسبو على قبولها حتى تتاح لها فرصة مشاهدة طقوس الزواج ومباهجه فى السودان، وذهبنا إلى الاحتفال الذى أقيم فى منزل والد العروس فى حى بحرى وكنت بصحبة أم كلثوم ورفعت ابن شقيقتها والمذيعة اللامعة سامية صادق وعدد لا يتجاوز أصابع اليد من مرافقيها..

بدأ الحفل بتخضيب يدى العريس وقدميه بالحناء وهو مستلق على «العنجريب» وهو السرير الشعبى، وبعدها تبادل أصدقاؤه ضربه بالكرباج السودانى على ظهره من باب الدعابة واختبار مدى احتماله أمام عروسه، وفى السودان غالبًا ما تتلقى العروس على مدى أسابيع قبيل ليلة الزفاف دروسًا فى الرقصات الشعبية المتباينة الأسماء والأداء المتعين أن تؤديها فى عرسها على يد سيدات متخصصات فى التدريب على هذا الفن، كانت أشهرهن آنذاك السيدة «حواء الطقطاقة»!

طوال أداء العروس للرقصات الجميلة، كان العريس والمدعوون يتقدمون إلى حلبة الرقص ويفرقعون بأصابعهم فوق رأسها وهم يرددون عبارة «أبشر بالخير» فتميل العروس برأسها يمينًا وشمالاً تيهًا ودلالاً، ونهضت أم كلثوم من مكانها وفرقعت بأصابعها فوق رأس العروس وحيتها بعبارة «أبشر بالخير»، و.. حتى كانت أجمل رقصات العروس وأكثرها حبكة درامية، حيث توارت داخل منزل العائلة ثم عادت وهى ترتدى ما يشبه «جونلة» من السيور الجلدية، وراحت ترقص بسرعة فى حركة دائرية وسط الحلبة، والعريس يشد هذه السيور الواحد تلو

الآخر، وهى تحاول تارة الفرار منه، وتارة تمكنه من نيل مأربه حتى ينجح فى مهمته كما ينبغى. . فلما سألت السيدة أم كلثوم عن اسم هذه الرقصة قالوا لها: اسمها «قطع الرحط» !وهنا سمعت أم كلثوم تبدى إعجابها الشديد بهذه الرقصات لسامية صادق: ده إيه البهجة دى كلها يا سامية. . أفتكر أن تصوير فيلم تسجيلى لطقوس الزواج فى السودان من الخطبة إلى الحناء إلى حفل الزفاف مؤهل بلا شك للانتشار فى العالم كله ولكان أفضل دعاية لعشق أهل السودان للغناء والرقص والحب والمرح!

هذه ليلتى

أما الواقعة الثالثة: فكانت مفاجأة كبرى بكل المقاييس، إذ كانت تجسيداً حيا لأم كلثوم المطربة المثقفة الذكية المتمكنة من فنها، الواثقة بنفسها، بكل حصيلتها الثرية من التجارب والفهم للناس وأذواقهم وإشباع مشاعرهم الوجدانية بالنغمة والكلمة المغناة، وكانت أم كلثوم قد أحيت فى الخرطوم وعلى المسرح القومى بأم درمان حفلتين، كان بين حضورها الرئيس إسماعيل الأزهرى وعلية القوم وحتى بسطاؤهم وكذا الشعراء والمثقفون وأهل المغنى فى السودان، وفى كل حفلة قدمت أغنيتين، ولأن الجمهور السودانى كان تجاوبه عظيمًا وبلا حدود مع أغنية «هذه ليلتى» على وجه التحديد فى الحفلة الأولى، كان عليها بالتالى ألا تحرم حضور الحفل الثانى من غناء هذه ليلتى بناء على العديد من المكالمات التليفونية التى تلقاها وزير الإعلام عبد الماجد أبو حسبو، وكم السودانيين الذين تدفقوا على بيته ومكتبه يطالبون بإعادة غنائها!

كانت تذاكر الحفلتين قد بيعت بالكامل قبل وصول أم كلثوم الخرطوم، وتجاوبًا مع رغبة وإلحاح الذين لم ينالوا حظهم، اضطرت إدارة المسرح القومى لزيادة عدد المقاعد فى الممرات، ومن ثم ارتفع الدخل بأكثر مما كان متوقعًا خصوصًا بعد إلغاء الضريبة المقررة على المصنفات الفنية بنسبة ١٠٠٪، حتى الذين لم ينالوا حظهم فى حضور الحفلتين تجمعوا خارج المسرح حتى يعيشوا أجواء الفرح والطرب والنشوة عن بعد ومشاهدة موكب أم كلثوم فى غدوها ورواحها، بل إن تعداد سكان

الخرطوم تصاعد عبر الآلاف الذين جاءوا خصيصًا من مختلف ربوع السودان لمشاركة العاصمة المثلثة «عيدها الكلثومى» على حد وصف الشاعر السودانى بدر الدين مدثر!

الصحافة السودانية كذلك تصدر صفحاتها الأولى صورة أم كلثوم على مدى إقامتها بالخرطوم، وانهالت مقالات الكتاب حفاوة وإعجابًا وفرحًا بزيارتها والوصف الشائق لحفلاتها وأدائها ومدى تجاوب الجمهور السودانى لغنائها ونشر العديد من قصائد المديح والإعجاب بها والامتنان لها، وإلى حد استعادة قصيدة قديمة للعقاد يقول فيها:

أم كلثوم يا بشيراً من الله بالرجاء

أنت من وحيه، ولله فى الفن أنبياء

ذلك الصوت صوتك العذب من عرشه نداء

فيه سر من جنة الخلد لكنه ضياء

فيه للمرتجى سلام وللمشتكى عزاء

فيه حذر من الهموم وعون على القضاء

أى نفس إذا ترنمت لانهزم الشقاء

الشاهد أن أهل السودان يحبون العقاد ويحفظون شعره، منذ الفترة التى عاشها بينهم خلال الحرب العالمية الثانية خشية تعقبه واغتياله على يد جبهة «المحور» بزعامة ألمانيا خصوصًا وجيشها كان يتقدم آنذاك تحت قيادة روميل فى الصحراء الغربية صوب مصر، إذ كانت كتابات العقاد ومواقفه عهدئذ ضد النازية وإلى جانب الديمقراطية.

ثم كان مسك الختام قصيدة الشاعر السودانى الكبير محمد المهدى المجذوب، فتوجت احتفال شعراء السودان بأم كلثوم:

منابع النيل أعشاش وأجنحة

من صوتك العذب حيانا وأحيانا

أمسى على الشوق ميعادًا نخف له

ونستريح به أهلاً وأوطانا

نصغى إليه كما يصغى ويمسكنا .

وعدًا جديدًا علا حبا وإيمانا

يا أم كلثوم هذا النيل خضرته

فيض بصوتك أعطارًا وألوانا

يا نخلة النيل إثمارًا وعافية

هاتى لنا الثمر المعسول ألحانا

جمهور الترسو يرقص

أما المفاجأة الكبرى فقد كانت موضوع أول مقال كتبته من الخرطوم فى مجلة روز اليوسف حول ما جرى فى هذه المناسبة الغنائية التاريخية وكان بعنوان «أم كلثوم تسودن أغانيها»، وذلك أن كوكب الشرق استطاعت باقتدار خلال إقامتها القصيرة فى الخرطوم وسماعها لألوان الموسيقى والغناء السودانى أن تبدد كم وألوان المخاوف التى ساورتها حول مدى تذوق الشعب السودانى لأغانيها من حيث الأنغام الشرقية التى تعتمد السلم السداسى ومن حيث موضوعاتها ومن حيث المقدمات الموسيقية الطويلة، ومن حيث المدة الطويلة التى استغرقتها.

كنت أرقب الجمهور السودانى وهى تغنى، وكيف كان الكبار فى السن والمقام يهتزون طربًا ويقفون لتحيتها انتشاء ويلحون فى طلب إعادة الكوبليهات مرة واثنتين وأكثر، وكيف كان جمهور الدرجة الثالثة «الترسو» فى أعلى مدرجات المسرح يتمايل رغم لسعة البرد فى حرارة مع صوتها علوًا وهمسًا بل ويرقص طربًا على الإيقاعات الموسيقية التى حرصت بذكائها على تكرارها مع سبق الإصرار والترصد إذا جاز التعبير، وهى ظاهرة غير مسبوقة فى حفلات أم كلثوم.

باختصار.. نجحت أم كلثوم فى أن تجعل من الجمهور ومن صوتها كتلة

وجدانية وهارمونية واحدة، فلم يعد هناك مجال إذن حتى يردد وراءها كوبليهات أغانيها وفقًا لعادة «الشيل» السودانية، لكأن أم كلثوم قد ارتجلت إطارًا سودانيًا لحنيًا ووجدانيًا لأغانيها، فلم أتجاوز إذن القول بأنها سودنت أغانيها، على الرغم من استغراقها أضعاف زمن أغنياتها فى العادة خاصة «هذه ليلتى» و«الأطلال». . وابتكارها توليفة عبقرية فى الأداء تجمع ما بين السلمين الخماسى والسداسى، فلم أكن قد بالغت أو تجاوزت إذن عندما وقع اختيارى على وصف يشى بما حدث من مفاجأتها الإبداعية الكبرى على مسرح أم درمان، فكان عنوان مقالى فى مجلة «روز اليوسف» «أم كلثوم تسودن أغانيها». .

بل إن هذا الارتجال الغنائى الذى خلب ألباب الشعب السودانى لم يكن ليتحقق، إلا لأنها بلغت ذروة الإجادة والتجويد، ولأنها أدركت أسرار الوجدان السودانى ولعبت على أوتاره فى حذق وحب متبادل، وأظنها لذلك أقبلت على قراءة العديد من دواوين الشعر السودانى بعد عودتها إلى القاهرة، فكانت بادرة وفائها وحبها لشعب السودان، عندما اختارت أن تغنى قصيدة «أغدًا ألقاك» للشاعر الهادى آدم.

وهكذا كلما قدر لى زيارة السودان بعد ذلك كنت ألاحظ أن جمهور أم كلثوم يتزايد تباعًا، وأن أغانيها تتصدر قائمة أعلى المبيعات بين المطربين والمطربات العرب و. . .

أظن أن الدور الإيجابى الذى تخلف عن غناء أم كلثوم فى السودان فاق ما بذلته الدبلوماسية والأحزاب والإعلام المصرى على صعيد تمتين اللحمة بين الشعبين، ولعلى من هنا أعتقد أن العامل الثقافى والوجدانى الغائب بات فى مسيس الحاجة إلى تعزيزه والاهتمام به بما يفوق غيره من العوامل الإيجابية الفاعلة فى «ميكانزم» العلاقات المصرية السودانية!

الشيخ عبد المقتدر يتزوج ماركسية

عام ١٩٨١ كان النجاح الذى لم يتوقعه أحد لأغرب وأطرف قصة حب فى أوساط الصحفيين والمثقفين المصريين، فكان العناق بين الإسلام والماركسية، والانسجام بين العربية الأزهرية والفرنسية السربونية، والألفة والتمازج بين تقاليد أهل الصعيد «الجوانى» وبين علية القوم من سكان الزمالك «الهاى لايف» ممن غلب عليهم التأثر بأوربا حياة وسلوكًا ورفاهية. . فلا يكاد حديثهم يخلو من الكلمات والاصطلاحات الفرنسية أو الإنجليزية!

وهكذا عندما وصلتنى الدعوة إلى عقد قران الصديقة الدكتورة باكينام على الزميل الصحفى الشيخ عبد المقتدر، عندئذ أشفقت على نفسى «أولاً» وذلك أننى كنت همزة الوصل الثقافى بينهما دون أن يدور بخلدى أن تتطور العلاقة إلى غرام فهيام فحب فزواج، ثم أشفقت «ثانيًا» على العريس والعروس خشية اختلاف الطبع والطباع والبيئة والطبقة الاجتماعية من إفساد العوازل للطبخة بعد أن نضجت بطيئة وهادئة على نار العواطف المشبوبة والمشاعر المتأججة والمعايشة الفكرية و. . «اسمحوا لى أن أروى الحكاية من طأطأ لسلامو عليكم، مع الوضع فى الاعتبار المقتضيات الاجتماعية التى فرضت اختيار أسماء مستعارة للعريس والعروس، مع الالتزام بمصداقية الوقائع والتفاصيل»!

كانت مدموزيل باكينام قد عادت من بعثتها الدراسية فى باريس التى استغرقت ثلاث سنوات حتى نالت الدكتوراه فى الأدب المقارن من جامعة «السربون» بدرجة

الشرف، فإذا بها تكتشف مدى الصعوبات والمشكلات الجمة التى تواجهها كل يوم منذ أسندت لها كلية الآداب تدريس مادتها فى قسمى اللغة الفرنسية والعربية، إذ كان عليها أن تحاضر طلبتها فى معظم الأحيان باللغة العربية وأن تترجم «ملازم» المحاضرات إلى اللغة العربية أو تجيب عن تساؤلات أو استفسارات طلبتها بالعربية!

محيط أسرتها وأصدقائها وكذا دراستها منذ الطفولة حتى الثانوية فى «الميردديبه» ثم فى قسم اللغة الفرنسية بكلية الآداب لم تكن تسبب لها حرجًا فى الحديث بالفرنسية أو العربية العامية الدارجة أحيانًا، لكنها لم تكن تتصور يومًا ثمة حاجة تفرض عليها الحديث والكتابة بالعربية الفصحى، حتى أدركت نظرات طلبتها المتبجحة الساخرة كلما حاولت التعبير بالعربية فى عسر، حتى استشعرت انغلاق الفهم عليهم كلما جنحت إلى شرح مادتها بالفرنسية فحسب لطلبة قسم اللغة العربية على وجه الخصوص و «من قهرها» طلبت من عميد الكلية إعفاءها من التدريس لمدة عام لعلها تستطيع تدارك ما فاتها من علوم اللغة العربية وفقهها ونحوها وصرفها وبحور شعرها والتمرس على كتابتها ومنطوقها الصحيح الذى يمكنها من الحديث والمحاضرة بعربية سليمة!

كنت قد التقيت مع مدموزيل باكينام فى دعوة على العشاء للاحتفاء بعودتها من باريس وحصولها على الدكتوراه فى منزل صديق مشترك يعمل مهندسًا فى الشركة الفرنسية التى تتولى تنفيذ مشروع مترو الأنفاق بالقاهرة، وكان قد تعرف إلى باكينام فى باريس ونشأت بينهما صداقة وقصة حب تكاد كل الظروف توحى بنهايتها فى عش السعادة والتوفيق والنجاح أو هكذا قدرت وغيرى!

على أننى حين سألتها عن بعض أصدقائى من أساتذة الكلية التى تعمل بها قالت فى استحياء: بردون لم أتعرف إليهم بعد، وأبديت لها دهشتى لأن أسماء الأساتذة الذين ذكرتهم يمثلون أعلام الفكر والبحث الأكاديمى بكلية الآداب؟ وإذا بها تصارحنى بالحقيقة فى صدق ودون مواربة.. وإنها اعتزلت التدريس بالكلية باختيارها حتى تعود إليها بعد إتقانها اللغة العربية، وراحت تحكى ما جرى لها من مآزق مع طلبتها وأيضًا مع المدرسين الذين استعانت بهم للقيام بمهمة تعليمها قواعد اللغة العربية، وكيف كانوا يبتزونها كما لو أنها خواجاية أو تلميذة فى حاجة إلى

دروس خصوصية استعداداً للامتحان، فكان اللقاء بينها وبينهم بالساعة والدقيقة والثانية وبالشيء الفلاني . . ويا ليتها فى النهاية أدركت القدر المطلوب من فهم أسرار اللغة العربية!

عندئذ لم أدر لماذا انسحبت من لسانى وعرضت عليها أن أبعث إليها بالشيخ عبد المقتدر الذى يعمل مصححًا للغة المقالات والتحقيقات والأخبار فى المجلة التى أعمل بها . . وقلت لها ما تحتاجينه بالكامل متوافر فى الشيخ عبد المقتدر، فهو اسم على مسمى، ضليع فى اللغة العربية . . هادئ وصبور، ولديه اهتمامات بالسياسة وبعض الإبداعات الأدبية فضلاً عن أنه متفان فى عمله وليست له شواغل اجتماعية لكونه أعزب، ولا تهمه المادة أكثر من اهتمامه بحسن المعاملة ولغة الحوار الإنسانى الحضارى، ومن هنا سر الثقة والحب والتقدير الذى يكنه له رئيس التحرير والكتاب والمحررون!

سألتنى باكينام : بس تفتكر أن الشيخ عبد المقتدر عصرى فى تفكيره وفى لغته العربية أم أنه لايزال أسير الكتب الصفراء والمحسنات البلاغية التى ثار عليها أستاذنا الدكتور طه حسين؟

قلت : هو شيخ مجازاً . . فقد خلع العمامة منذ تخرج فى الأزهر . . وارتدى البدلة بعد التحاقه بكلية دار العلوم وأصبح «درعميًا» عصريًا، ثم اكتسب باعًا طويلاً فى فهم وإدراك أدق أسرار اللغة الصحفية، وهى لغة خاصة لو تعلمين تقع ما بين الفصحى والعامية!

ومضى من الوقت ساعة وأنا أحدث الدكتورة باكينام عن الشيخ عبد المقتدر حتى خلبتها بمناقبه ومميزاته وحكاياته ونوادره وعندئذ قالت بالفرنسية : سيلفوبليه مسييه . . ثم استدركت تلح بالعربية فى طلب الشيخ عبد المقتدر، حتى تحقق لها المراد من رب العباد . . حيث انتهت وساطتى عند هذا الحد!

لكن ما حدث بعد ذلك من استلطاف متبادل أوقعنى فى مهام ثقيلة للوساطة بين الدكتورة باكينام وأسرتها التى لم يرق لها أن تتباعد هجراً وصداً عن مهندس مترو الأنفاق الذى تقدم إلى خطبتها . . وأن تنجرف هكذا سريعًا إلى الاهتمام العاطفى الضار بالشيخ عبد المقتدر بدعوى عدم التكافؤ الاجتماعى، ثم الوساطة أيضًا بين

الشيخ عبد المقتدر وعائلته الصعيدية البسيطة التى لم يعجبها أوضاع العروس الموعودة كونها «مفعوصة» جسمًا «وفلعوصة» عقلاً وفكرًا وتحررًا!

كان الجميع، جميع الأطراف بمن فيهم أصدقاء الطرفين يلقون على كاهلى مسئولية ما حدث، فإذا كان قدر لى القيام بدور همزة الوصل أو التواصل بين الدكتورة باكينام والشيخ عبد المقتدر، وجب علىَّ إذن أن أكمل جميلى أو أن أستدرك خطئى بإتمام الوفاق حتى نهاياته السعيدة أو فسخ العلاقة من أساسها كل بحسب رؤاه وموقفه وحماسه أو فتوره أو استنكاره أو غيظه!

بل إن البعض اتهمنى ـ سامحهم الله ـ بأنى أمارس هواية السخرية وتدبير المقالب وأن ذنب الدكتورة والشيخ فى رقبتى إلى يوم الدين.

ويبدو والله أعلم أن الشيخ عبد المقتدر وجد نفسه أو اكتشفها عبر مهمته فى تعليم الدكتورة باكينام، حيث تفتحت أمامه عوالم مدهشة لم تخطر بباله من قبل، فقد كان يوميًا وعلى مدى ساعات طويلة يقضى أوقاته فى منزلها الأنيق المريح، ولم يكن الوقت كله يمضى فى شرح قواعد اللغة العربية وآدابها وتراثها، إذ كان يطرح عليها طرفًا من ذكرياته العزيزة فى القرية أو حياته الزاخرة بالمثابرة والمرح فى الأزهر، أو يستعرض أمامها نماذج فحول الأساتذة العلماء فى دار العلوم، وكيف كان يتجرأ عليهم بقراءاته وتفسيراته واجتهاداته لبعض النصوص، فكان بينهم من يستحسنه ويقربه إليه. . وبينهم من كان يوبخه ويتهمه بالجهل والتطاول، وأغلب الظن أنه كان ينتقد هذا وذاك من الكتاب والمحررين اللامعين فى المجلة التى يعمل لها. . وأن بينهم من كان يخطئ فى أبسط قواعد النحو والصرف بحكم مهنته فى مراجعة إنتاجهم الصحفى، وأحيانًا تشجعه الدكتورة باكينام حتى يروى لها أبياتًا من أشعاره أو قصائد من عيون الشعر العربى القديم الذى يحفظه، فكان يحبب لها أن تلقيه وتحفظه مثله. . وهكذا تعودت أسرتها أن تستضيفه على مائدة الطعام كلما حان موعده، كما تعودت تناوله الطعام بيديه لا بالشوكة والسكين وفقًا لأصول «الإتيكيت»، وتعودت كذلك وضوءه وصلواته و. . حتى أحبوه وأحبهم كثيرًا خصوصًا أنه لم يأل جهدًا فى تعليم ابنتهم العربية حتى تعود سريعًا إلى عملها بكلية الآداب؟

من جانبها كانت الدكتورة باكينام تروح عن نفسها من عناء الدروس بالحديث عن حياتها الخاصة . . عن سنوات الدراسة فى باريس ومقاهيها ومنتدياتها ومكتباتها ومفكريها وأدبائها وفنانيها وكيف تأثرت بالفلسفة الوجودية ثم بالماركسية، وأنها نادمة لأنها لم تتعمق فى دراسة وفهم الدين الإسلامى منذ نعومة أظافرها لأن معظم المدرسات فى «الميردديبه» من الراهبات، بينما كان الشيخ عبد المقتدر يتعجب بينه وبين نفسه على ما أوتيت من تحرر وصراحة واستقلالية حتى تعيش وحدها فى عاصمة النور، وأن تترك نفسها هكذا على سجيتها لاعتناق الوجودية أو الماركسية، لكن أشد ما أدهشه من أمره معها أنه لم يشعر قط أن الشيطان كان ثالثهما كلما أغلقت عليهما الأبواب، وإنما فيض من السمو والإعلاء والتحليق فى سماوات من الصفاء والعذوبة.

مر الشهر الأول والثانى والثالث . . وفى نهاية كل شهر كانت الدكتورة باكينام كعادتها تقدم إليه مظروفًا يحتوى المبلغ المتفق عليه مقابل تعليمها العربية لكنه فى الشهر الرابع اعتذر عن قبوله . . وكلما ألحت عليه كان يقول: لقد أصبحنا الآن متعادلين . . لقد تعلمت على يديك بأكثر مما تعلمته على يدى، ثم تشجع أكثر وقال لها إنه التحق بمعهد خاص لتعليم اللغة الفرنسية حتى يكون مؤهلاً لتلقى دروسها على يديها . . وشيئًا فشيئًا اقتربت بعقلها من عقله . . ثم وجدت نفسها تقترب من قلبه . . واستشعر الشيخ عقلها وقلبها عن بعد . . ثم اقترب من عقلها ومن قلبها فى ثقة واطمئنان حتى أصبح بينهما شىء ما يتوهج فى العقل ونور فى القلب كلما تلاقيا . . ويومًا بعد يوم بدأت تعتذر عن لقاء مهندس مترو الأنفاق بدعوى الاستذكار حتى باعد بينهما الفتور فلم يعد لها سوى رجل واحد فى حياتها ولا حبيب سوى الشيخ عبد المقتدر . . لكن من أين يبدأ خطوته الأولى للبوح؟! أى مدخل مناسب للحديث عن قلبه الملتاع؟

بعد سهرة فى منزلها قضياها فى التعليم المتبادل والحوار والجدل والغزل . . كان عليه أن يصافحها مودعًا إلى حين اللقاء فى الغد لكنه تشجع وقبل يدها لأول مرة وهو ينظر لحظات فى حنو إلى عينيها، ثم روى على مسامعها بيتًا من قصيدة يحفظها:

عيناك حدثتاك عن قلب امرئ

فعلت به عيناك ما لم تعلمى

ابتسمت له قائلة فى رقة وهمس مسموع: مرسيه يا شيخ عبد المقتدر أنا مستحقش «الكومبليماه» ده كله.. وعندئذ تشجع وترك فى يديها قصيدة أكثر مباشرة لعلها تخترق شباك قلبها وتصل إلى الهدف من مرمى العاطفة والعقل ومن فكرها الماركسى أيضًا!

عيناك «مطرقة» وأنفك «منجل»

والبعد عنك موقف «تكتيكى»

والخصر منك «منظم ومؤدلج»

لم يرتبط «بمخطط أمريكى»

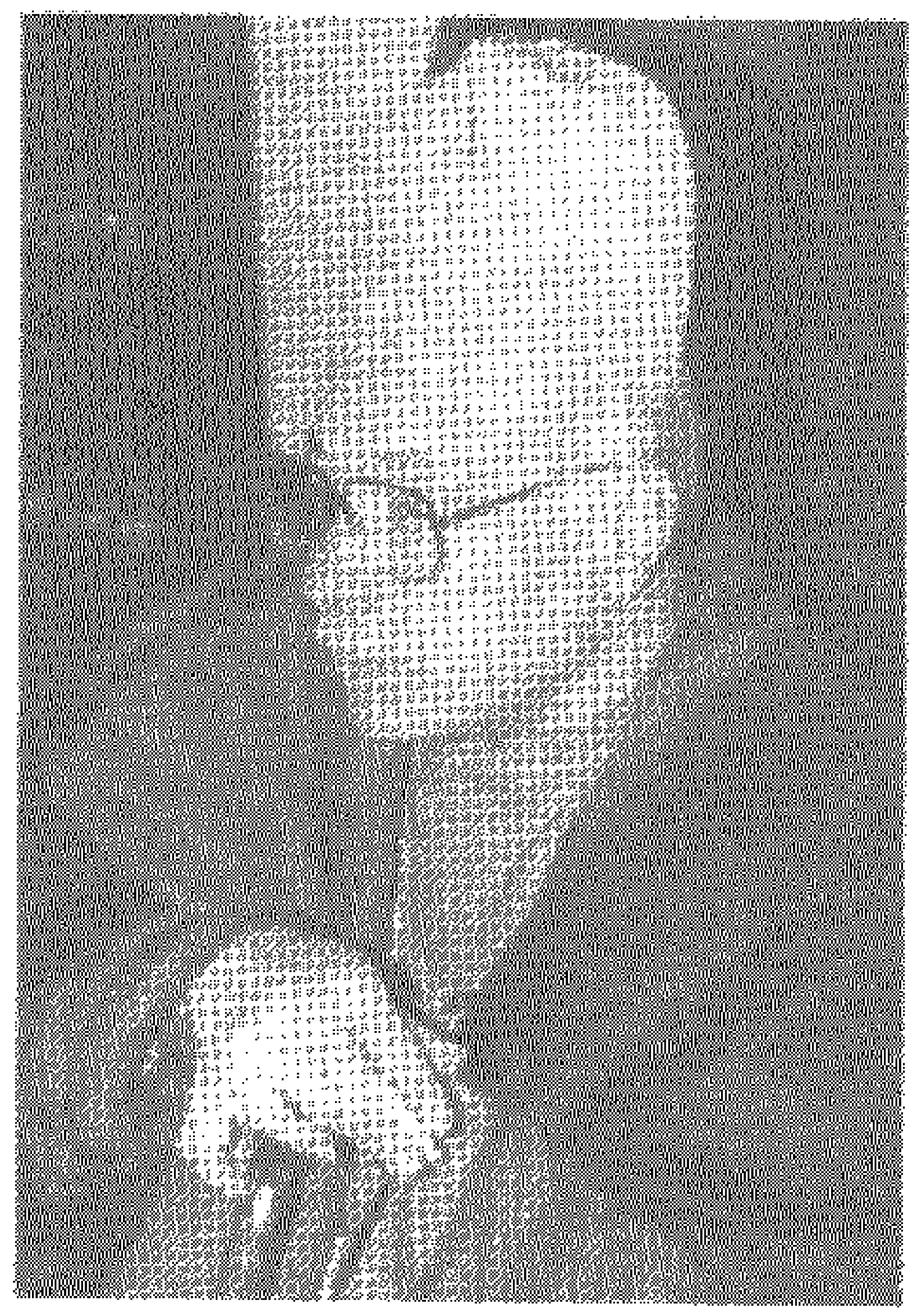
ولقاؤنا لو تم فى ساعة

سيكون ساحة «للديالكتيكى».

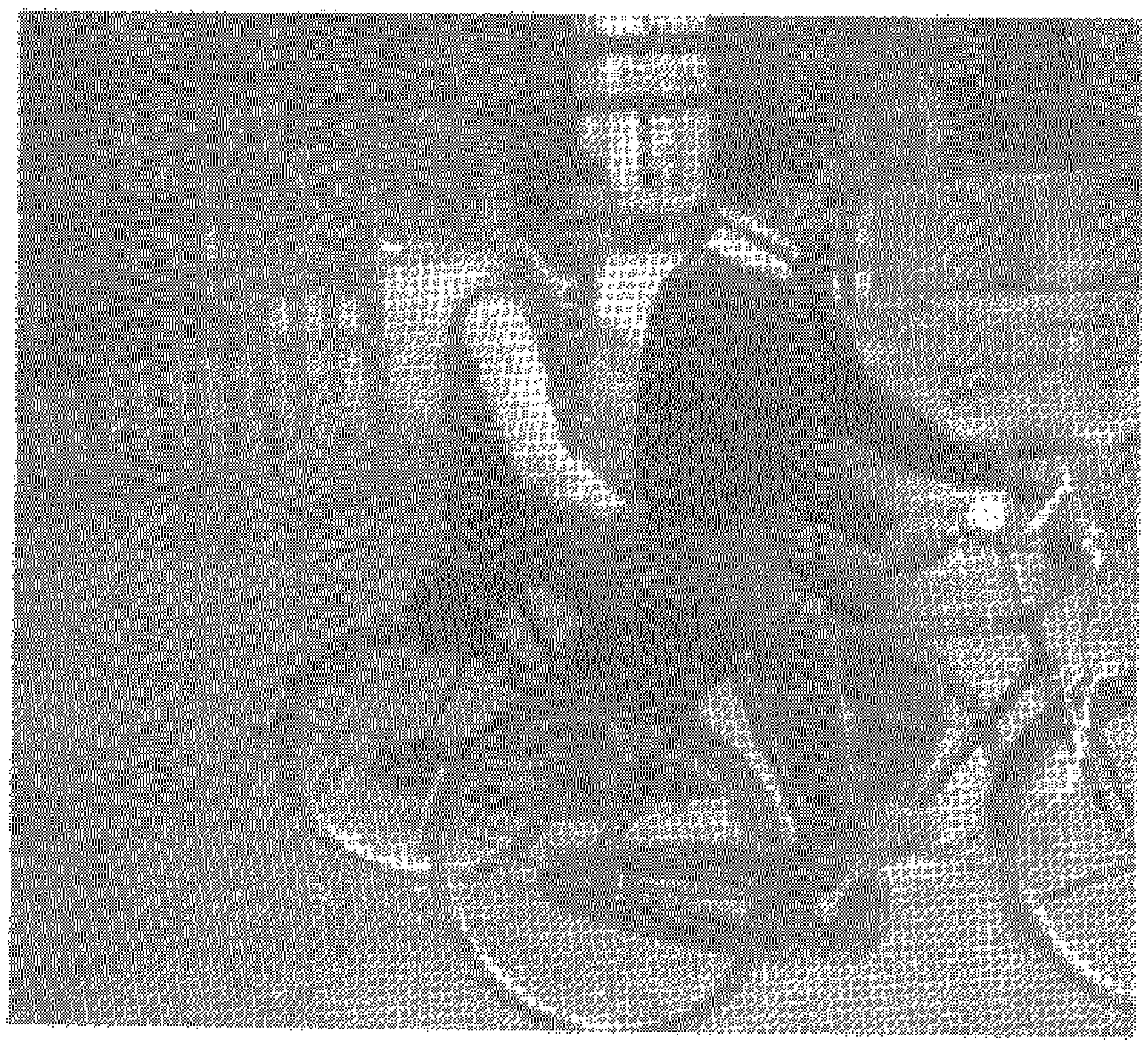
ونجول فى ساح «الصراع» بفكرنا

أما المروءة فإنها لأمك وأبيكى.

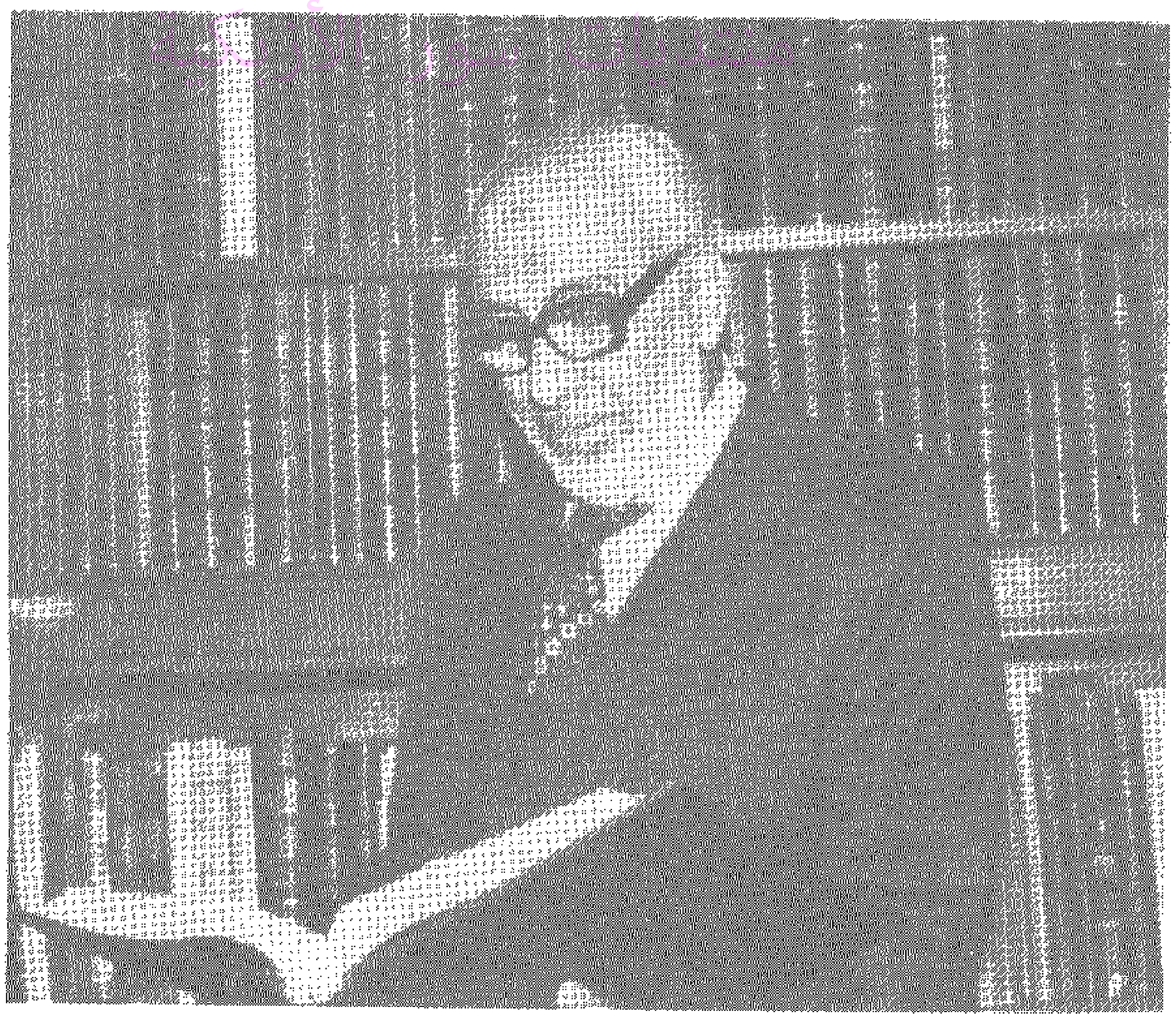
ملحق صور



محمود السعدني



محمود السعدني وعبد الحليم حافظ



الشيخ محمود شاكر

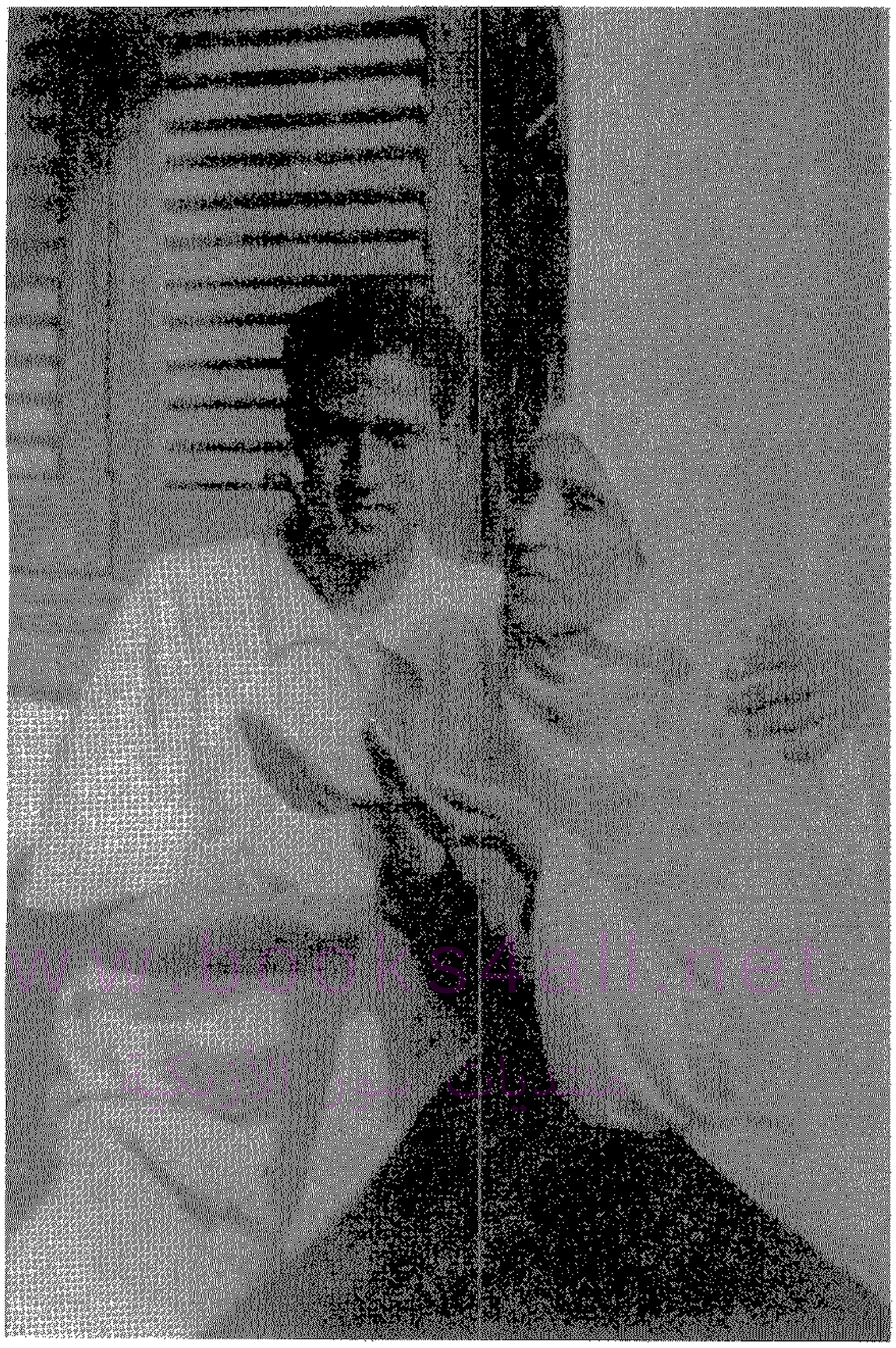


المطربة حياة صبرى
بريشة الفنان مأمون





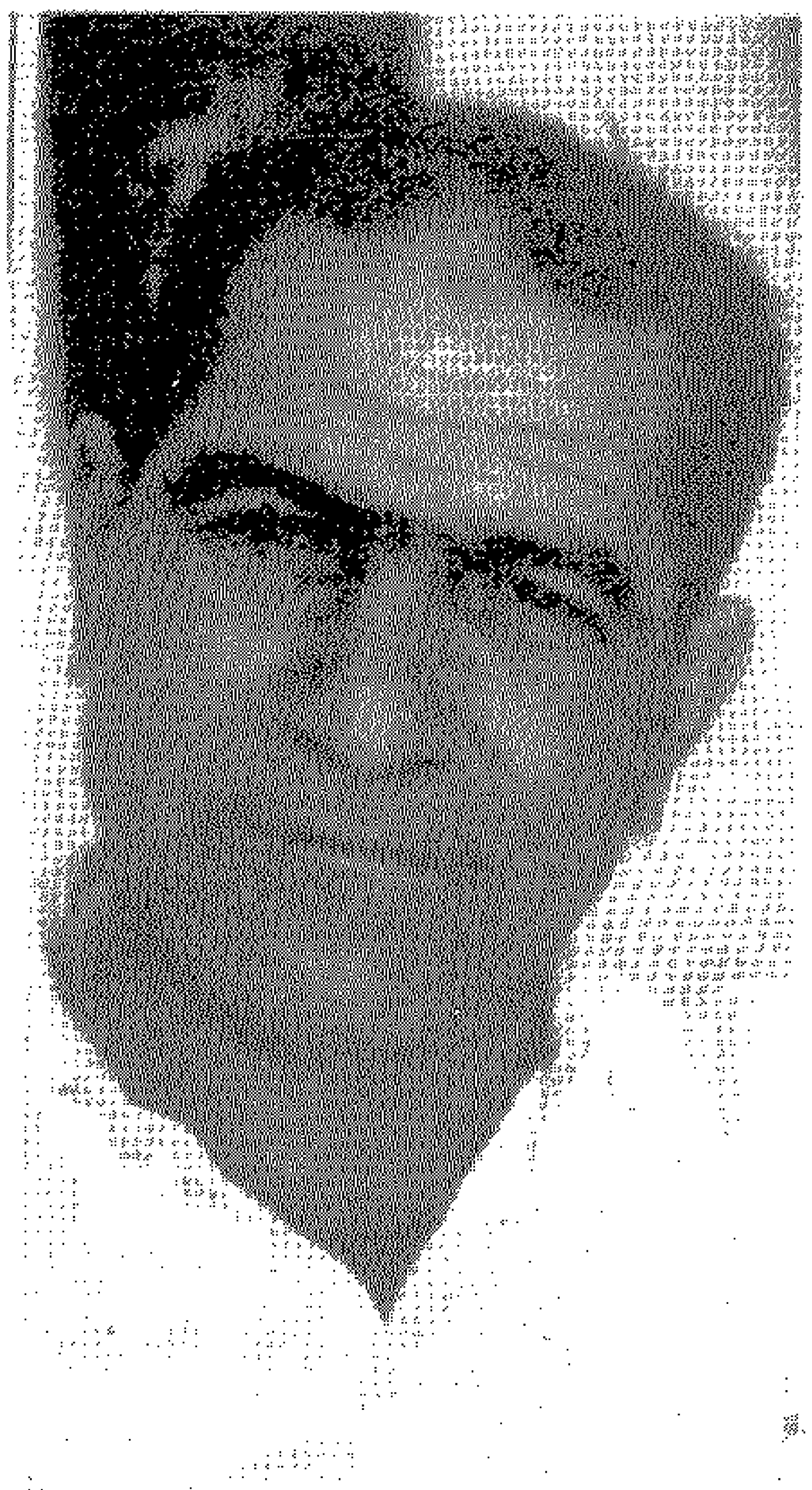
الراقصة زوبة الكلوباتية بريشة الفنان مأمون



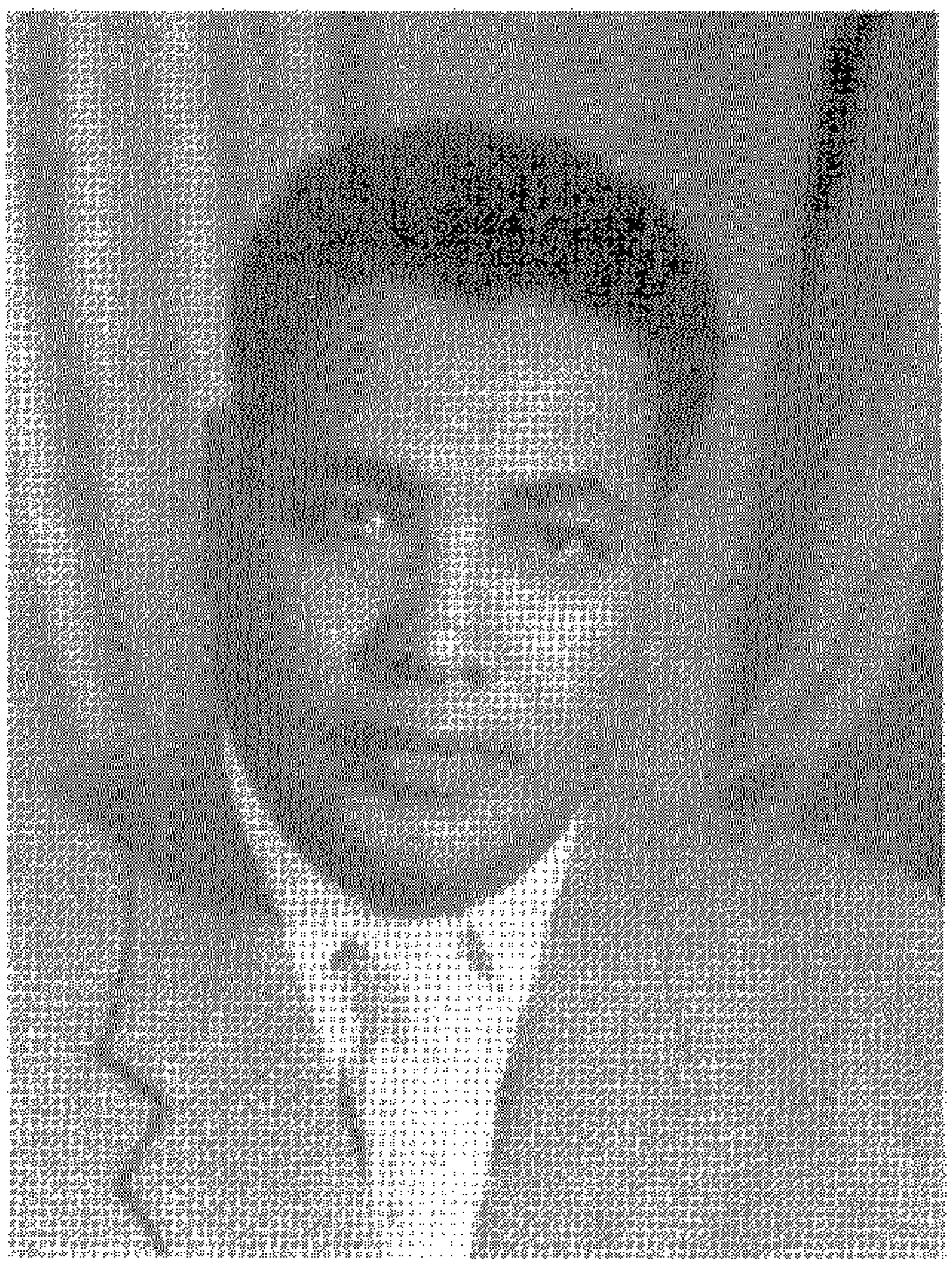
السيدة وهيبة النشار وابنها المستشار حسن النشار



عايدة الشريف



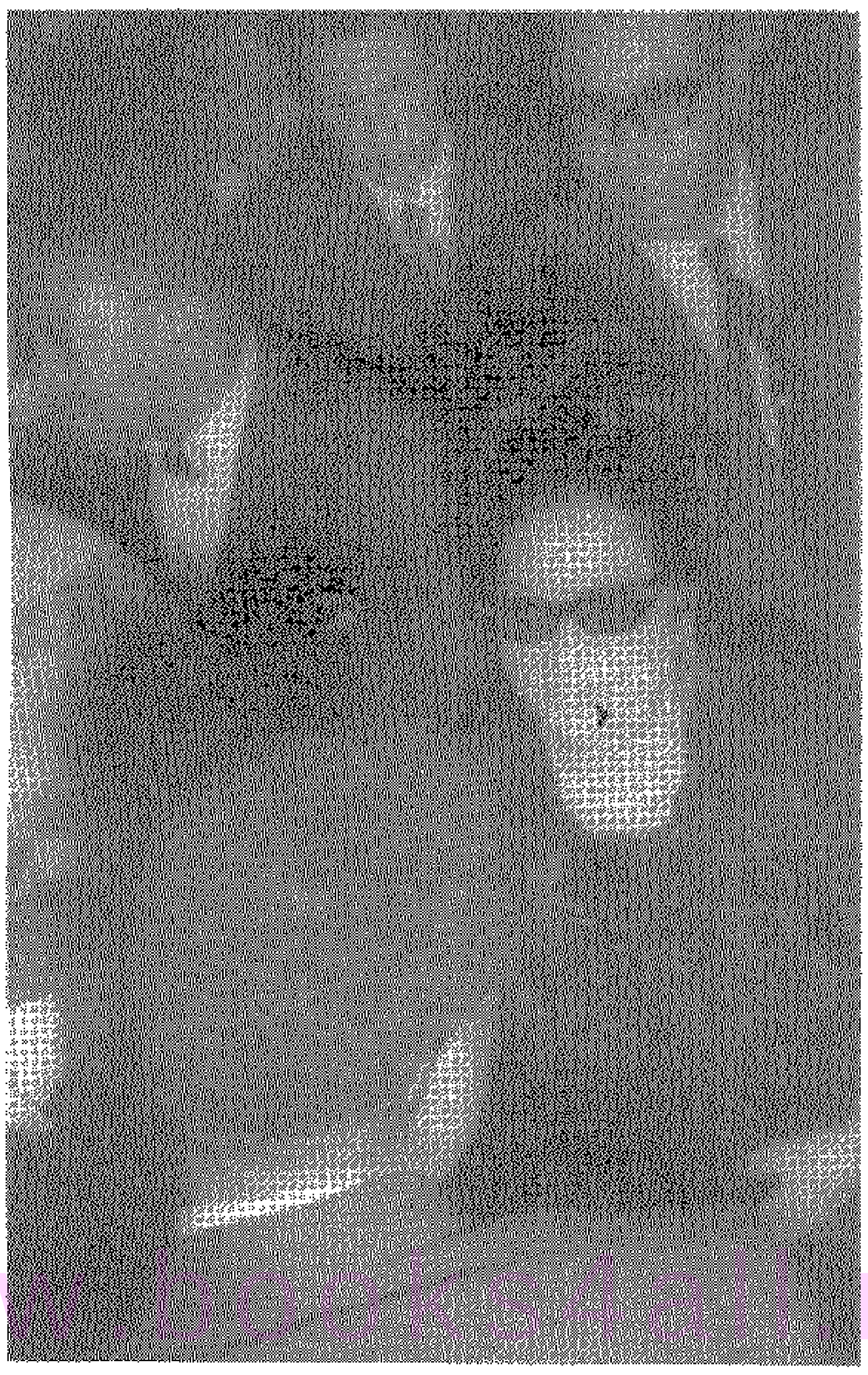
فؤاد الشامى بلطجى شارع عماد الدين



الأديب عباس الأسوانى المحامى



الفريق سليمان عزت قائد القوات البحرية



يوسف الشريف وأم كلثوم فى السودان



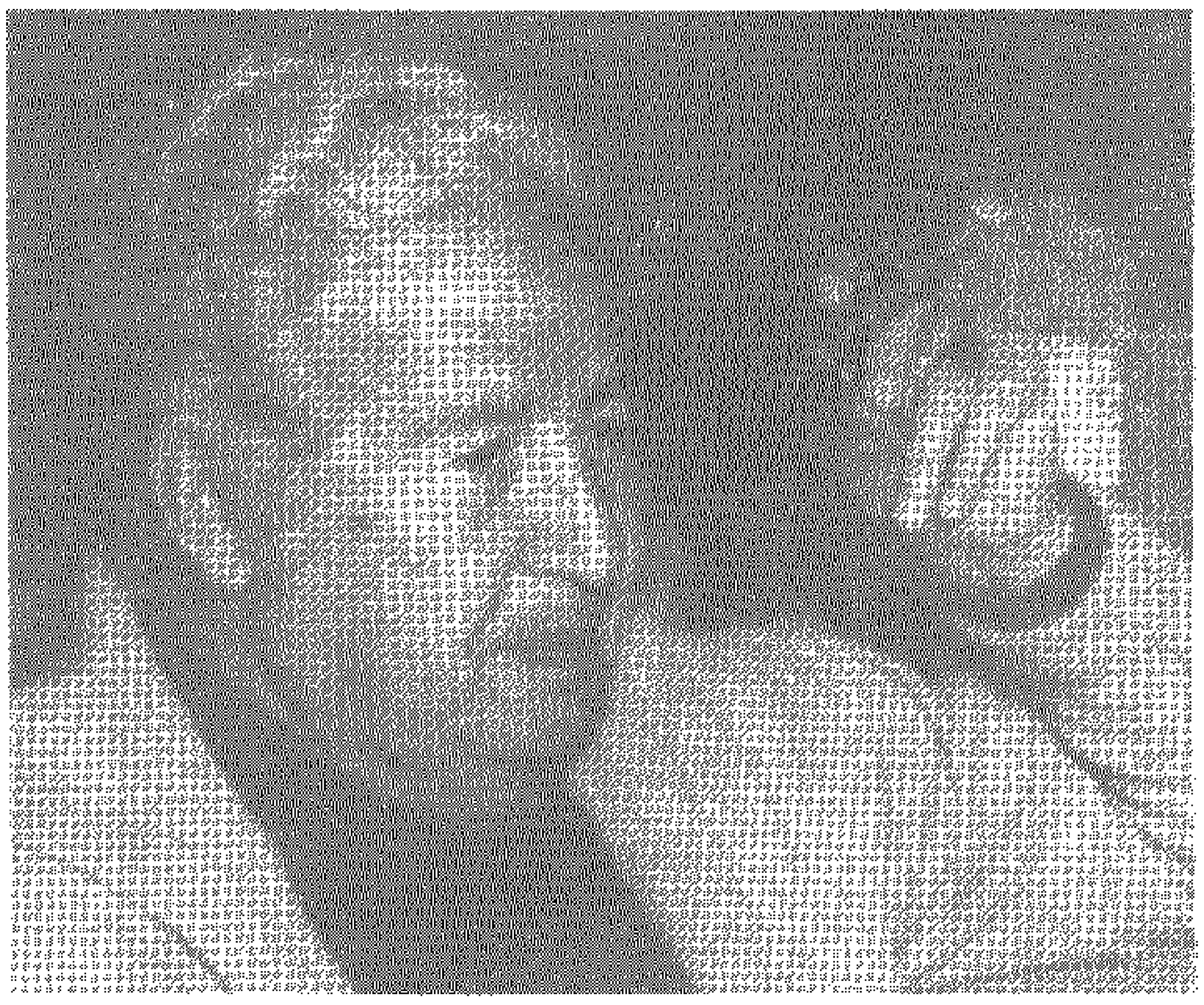
أم كلثوم على المسرح القومى بأم درمان



روز اليوسف (فاطمة اليوسف)



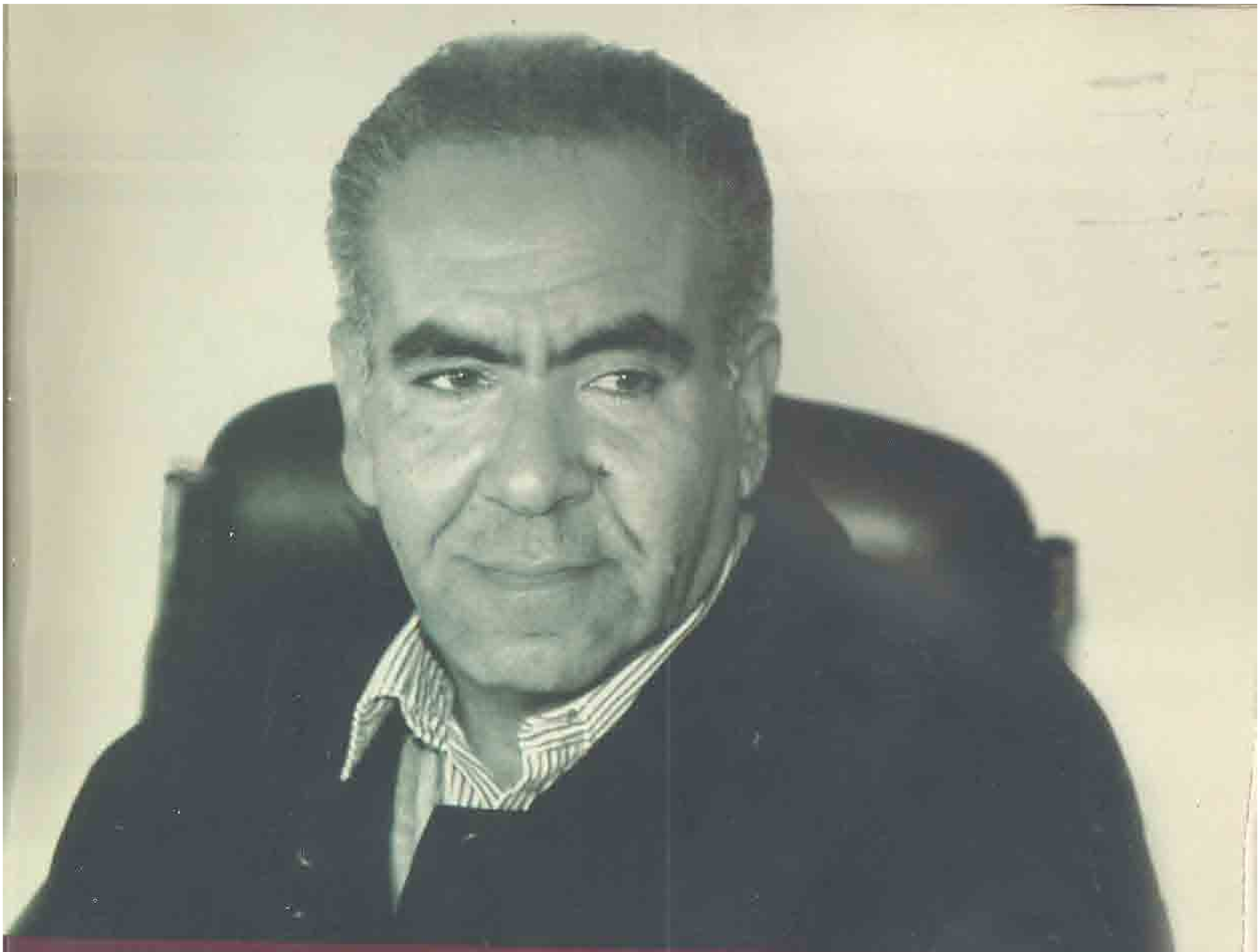
روز اليوسف مع زوجها محمد عبد القدوس



إحسان عبد القدوس



إحسان عبد القدوس مع ابنه وأحفاده



هذا الكتاب الممتع يرسم صورة بانورامية جذابة حافلة بالوقائع المثيرة والتفاصيل المبهرة، تشى بمتغيرات وأسرار وخبايا مصر خلال النصف الأخير من القرن العشرين.

الأستاذ يوسف الشريف مؤلف الكتاب المتخصص فى الشئون العربية والمعروف بأنابيشه فى سجلات التاريخ وفى السير الذاتية للظرفاء والصعاليك النبلاء، لا يتوقف عند الأحداث السياسية فحسب، وإنما يعرض كذلك لشتى المظاهر والظواهر الباهرة التى فرضت نفسها على الحياة الاجتماعية والأدبية والفنية والوجدانية، بالتوازى مع السلبيات والتحديات التى أحاطت بحياة المصريين، عبر أسلوب سلس جميل يتراوح بين الجد والسخرية، وبين الحكى والشهادات الموثقة!

هذا الكتاب أشبه بالسيرة الذاتية لمصر المحروسة خلال فترة مثيرة من تاريخها المعاصر.

6 221102 015677

دار الشروق
www.shorouk.com